شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٨٤ تشرين الثاني "نوفمبر" ١٩٧٨

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١
تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ ٠
برقيا : مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم ٠

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف للفنان
العباني

المحتويات

الصفحة

٤	محمود سويد	: من كامب ديفيد الى اين ؟٠
١٢	فيصل حوراني	: قراءة سياسية لوثائق كامب ديفيد ٠
٣٥	محمود عزمي	: حرب تشرين : تخلف الاستراتيجية وتطور التقنية والتكتيك ٠
٥١	اديب ديمتري	: حركة التنوير والاندماج اليهودي
٦٧	فارس غلوب	: الصهيونية والنازية ، علاقات واتفاقيات ٠
٩٥	الياس شوفاني	: لاجيء في بلدي ٠
١١٢	عبد القادر ياسين	: البطالة في اوساط الطبقة العاملة العربية في فلسطين حتى نكبة ١٩٤٨ ٠
١٢٧	حازم صاغية	: جذور الوعي الديني ـ السياسي في ايران
١٣٧	ربيع الاسير	: القوات المسلحة الاميركية في اواخر السبعينات : البحرية الاميركية ٠

الصفحة

١٤٧٠ مراجعات : [هاني حوراني] **التركيب الاقتصادي لشرق الاردن**، حليم احمد ٠ [اديب اسحق] **الكتابات السياسية والاجتماعية** ، جان داية ٠

١٧٠ رسائل : **رسالة موسكو** : سهيل عامر ٠

١٧٥ شهريات : ١ ـ **المناطق المحتلة** ، عبد الحفيظ محارب ٠
٢ ـ **اسرائيليات** ، I - حنة شاهين ، II - توفيق فياض ٠
٣ ـ **قضايا دولية** ، سمير كرم ٠ ٤ ـ **قضايا عسكرية** ، م٠ع٠

٢١٤ غازي الخليلي : **ابعاد الموقف الاردني** ٠

٢١٩ وثائق : **وثائق اتفاقيات كامب ديفيد** ٠

محمود سويد

من كامب ديفيد إلى أين ؟

« انه يوم انتصار الصهيونية »

(يتسحاق نافون ، رئيس دولة اسرائيل ، غداة توقيع اتفاقيات كامب ديفيد) ٠

تشكل اتفاقيات كامب ديفيد خطوة كبيرة على طريق فرض السلم الاسرائيلي على المنطقة العربية ٠ الامر الذي لم يكن ممكنا الا بالاستسلام لشروط العدو ، وبالتسليم بهزيمة الارادة العربية ، ازاء الاهداف التي حددتها السياسة العربية طوال المرحلة الماضية من الصراع ، وحتى عشية قمة كامب ديفيد ٠

وقع السادات ، في كامب ديفيد ، وثائق الاستسلام لارادة العدو ، ودعا العرب الى الحذو حذوه : استعادة جزء من الارض مقابل السلام الكامل لاسرائيل ٠ من سيلبي الدعوة ؟ من سيرفضها ؟ ما هي حدود الرفض ؟ ما هي شروط القبول ؟ ولكن ، وقبل ذلك ، ما هي ملامح السلم الاسرائيلي الزاحف ؟٠

السلم الاسرائيلي

I ـ كانت **الشروط الثابتة** في السياسة الاسرائيلية لتحقيق السلام مع العرب هي :

١ ـ تصفية قضية الشعب الفلسطيني الوطنية ، ومعالجتها كقضية انسانية ، لها ما يماثلها في الجانب الاسرائيلي (قضية اللاجئين من الفريقين) ٠

٢ ـ تجزئة الموقف العربي ، وعقد معاهدة سلام مع كل دولة عربية على حدة ٠

٣ ـ اجراء مفاوضات مباشرة بين اسرائيل وكل من الدول ذات العلاقة ٠

٤ ـ عقد معاهدة صلح كامل مع كل دولة، بما في ذلك العلاقات الدبلوماسية، والتبادل الاقتصادي والثقافي الخ ٠٠

٥ ـ الاحتفاظ بوحدة « ارض ـ اسرائيل » ، التي تضم القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة ، بحسب مشروع بيغن (ويختلف عنه مشروع المعراخ بالتخلي عن بعض مناطق الضفة المكتظة بالسكان العرب) ٠

٦ ـ استعمال احتلال سيناء والجولان اوراق ضغط ومساومة ، لتحقيق عناصر السلم الاسرائيلي كاملة ٠

وقد اقرت وثائق كامب ديفيد هذه البنود جميعها ، مضيفة اليها مكاسب اخرى ، كالمناطق المنزوعة السلاح ، والقوات الدولية، وغير ذلك ٠

وهكذا يحقق السلم الاسرائيلي **انتصارا تاريخيا** لاطراف عدة :

١ ـ انتصار الفكرة الصهيونية القائلة ، ان اليهود قاتلوا طوال نصف قرن من اجل انتزاع الاعتراف بان هذه الارض ـ فلسطين ـ ملك لهم ، وان من حقهم ان يقيموا فوقها وطنا ٠ وبامكان هؤلاء ، الذين اقاموا خلال سنوات الصراع الماضية ، **مشروع وطن** ، ولم يمكنهم الموقف العربي من استكمال مقوماته الجغرافية والبشرية والاقتصادية ، بامكانهم اعتبار ما تحقق في كامب ديفيد بمثابة **اعلان الاستقلال** الفعلي للوطن اليهودي ٠

ذلك انه على الرغم من مطالبة اسرائيل الدائبة ، باعتبارها **شريكا** للامبريالية الاميركية ، نتيجة ما تقدمه لها من خدمات في منطقتنا ، فانها ظلت ، عمليا ، **تابعا** ، بسبب اعتمادها المطلق على الولايات المتحدة في مجالي **التسلح** والاقتصاد ، وعدم اكتمال مقوماتها كدولة مستقلة ٠

وبامكان اسرائيل ، الآن ، ان تتطلع بثقة الى احتمالات الاستقلال التي يتيحها لها استغلال الطاقات العربية الضخمة ، فتتحول هذه المرة ، بحق ، الى شريك كامل الحقوق والواجبات ٠ كما ان بامكانها الاطمئنان الى ان مشكلاتها الاقتصادية المزمنة ستجد حلا مثاليا ، بزوال كابوس المقاطعة العربية ، واطلاق يدها للعمل بحرية في آسيا وافريقيا ٠

٢ ـ انتصار الحركة الصهيونية ، التي اثمر كفاحها اعترافا عربيا بالكيان الصهيوني ، هو الضمانة الفعلية الوحيدة لاستمرار هذا الكيان ، وتجذره في

المنطقة · وهو الضمانة الفعلية والوحيدة للعودة الى تنظيم برامج الهجرة ، بثقة وامان ، ودونما خوف من الحروب ·

كذلك يفتح السلم الاسرائيلي ، أمام الحركة الصهيونية ، المجال الواسع للاستثمار والاستغلال · فلدى العرب المواد الخام ، واليد العاملة الرخيصة ، والاسواق ،والمال المخصص للبذخ على الاستهلاك ، ولديها (الحركة الصهيونية) رؤوس الاموال ، والخبرات ، والتكنولوجيا ، والتقدم العلمي · وبهذا المعنى ، يفترض ان يعزز السلم الاسرائيلي مركز القوى الصهيونية في الولايات المتحدة نفسها ، ويجعلها اقدر على التحكم بالقرار السياسي الاميركي، ويحسن عموما موقعها في النظام الامبريالي العالمي ·

٣ ـ انتصار الامبريالية الاميركية ، التي تحقق ـ بفضل التخلف العربي ، والعصا الاسرائيلية الغليظة ، وعلى الرغم من هزائمها في مناطق اخرى ، وازماتها الداخلية ـ انتصارا ساحقا ، يحكم سيطرتها على المنطقة ، ويحمي مصالحها فيها زمنا طويلا ·

II ـ لا يتحقق السلم الاسرائيلي ، بهذا المعنى ، الا باستسلام العرب · وهو، بهذا المعنى أيضا ، ليس **تسوية** ، بل **حل مفروض** · فالتسوية تفترض توازنا نسبيا في القوى ، في مرحلة معينة من الصراع ، بينما يعبر الحل المفروض عن غلبة الارادة الواحدة وهيمنتها ·

ثمة من يعتبر اتفاقيات كامب ديفيد اطارا **لتسوية شاملة** (الاميركيون والمصريون) ، وهم يعتمدون فيذلك الحجج التالية :

١ ـ ترسي الاتفاقيات اسس تنفيذ القرار ٢٤٢ ، وخلاصته :

انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، مقابل الاعتراف ، وعقد معاهدة صلح ، واقامة علاقات كاملة مع اسرائيل ·

٢ ـ بحسب الاتفاقيات ، تطبق شروط الانسحاب من سيناء ، على الجولان ·

٣ ـ ينطوي مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بحكم دينامية عملية التسوية ، على احتمال التطور باتجاه الاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير ، وقيام كيان فلسطيني مرتبط بالاردن ، وذلك بعد الفترة الانتقالية المحددة بخمس سنوات ·

٤ ـ ينبغي عدم اعطاء مسألتي الاستيطان والهجرة ، اكثر مما تستحقان من **الاهتمام** · فعدد المستوطنين في الضفة الغربية وغزة ضئيل · والاستيطان لم يحقق نجاحا كبيرا ، حتى في المناطق العربية داخل اسرائيل بالذات ، كمنطقة الجليل · كذلك فان مصادر الهجرة تكاد تكون قد نفدت · وبالتالي ، لن يكون

بامكان اسرائيل اعادة تركيب البنية الديموغرافية في الضفة والقطاع بما يخدم مصالحها ٠

٥ ـ ينبغي عدم المبالغة في تضخيم الدور الامبريالي لاسرائيل ، فهي دولة صغيرة ، امكاناتها محدودة ٠ كذلك ، لم تعد الدول العربية ، في المرحلتين الحالية واللاحقة من تطورها ، بحاجة الى وسيط بينها وبين المركز الامبريالي ٠ يدل على ذلك ، اضمحلال الدور اللبناني في هذا المجال ، قبل ان تدمره الحرب ٠

أما الذين يعتبرون اتفاقيات كامب ديفيد بداية **حل مفروض** ، يضع المنطقة في قبضة الصهيونية والامبريالية ، ويحاول ان يقضي على آمال الشعب الفلسطيني بالارض والوطن ، فينطلقون من التقديرات التالية :

١ ـ ان القرار ٢٤٢ هو هيكل عظمي ٠ وميزان القوى في مرحلة معينة من الصراع ، هو اللحم الذي يكسو الهيكل ويعطيه ملامحه الحية ٠ واذا كان ميزان القوى ، في هذه المرحلة ، مائلا ، بشكل غالب ، لمصلحة اسرائيل ، فان من الطبيعي ان تاتي الاتفاقيات معبرة عن هذه الغلبة ٠ وهذا ما حصل في كامب ديفيد ٠

٢ ـ ان شروط الانسحاب من سيناء ، والى حد بعيد من الجولان ، لا تنطبق على الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ فهما تاريخيا ودينيا ، بحسب المفاهيم اليهودية والصهيونية ، جزء من « ارض ـ اسرائيل »٠ الامر الذي يسري، بتشديد اكبر ، على القدس الشرقية أيضا ٠ أما لماذا لم تضم اسرائيل الضفة الغربية ، قانونيا ، بعد حرب ١٩٦٧ ، فذلك يعود الى تردد المعراخ ، ازاء حجم السكان العرب فيها ٠ فالضم ، في هذه الحال ،يعني قيام دولة مزدوجة القومية ٠ ومن هنا كان قول المعراخ بالحل الاقليمي الوسط ، اي تقاسم الضفة بين اسرائيل والاردن (مع اعتبار نهر الاردن حدا امنيا) ٠ اما على الصعيد العملي ، فقد اعتمدت سياسة امتلاك الارض ، والاستيطان اليهودي من جهة اولى ، وتشجيع الشباب العربي على الهجرة من جهة ثانية ، والسيطرة الاقتصادية والامنية الكاملة على هذه المناطق من جهة ثالثة ٠ وفي اعتقاد مهندسي هذه السياسة ، وابرزهم دايان ، ان هذا الحل البراغماتي ، الواقعي ، يتيح امكان التهويد على المدى الطويل ، دون الوقوع في مخاطر الدولة المزدوجة القومية ٠

بقي موضوع القدس ، وقد حسم امرها بالضم ، ورفض تقسيمها من جديد ، واعتبارها « عاصمة اسرائيل الى الابد » ٠

وفي مطلق الاحوال ، لا تستطيع اسرائيل التساهل في مسالة قيام وطن فلسطيني ، يشكل بديلا تاريخيا لكيانها ٠ ففلسطين تنفي اسرائيل ، والعكس

بالعكس · ولا مكان ، في الموضوع الفلسطيني ـ على المدى التاريخي ـ لحل وسط ·

٣ ـ في ضوء هذا التوجه ، لا يمكن اعتبار الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بداية تحول ، بل نهاية مطاف · خصوصا وقد سبق لاسرائيل ان طرحت فكرة الحكم الذاتي على سكان الضفة قبل كامب ديفيد بكثير ، وكانت نتجة الى تنفيذ هذه الخطوة من طرف واحد · فاسرائيل تطرح مشروع الحكم الذاتي محتفظة بـ :

أـ حق الاستيطان وامتلاك الارض · وهي تعتبر ذلك حقا طبيعيا ، ما دامت هذه المناطق جزءا من « ارض ـ اسرائيل » ·

ب ـ السيطرة العسكرية الكاملة ، عبر وجود جيشها ، بالاضافة الى ترتيبات أمنية اخرى ·

جـ ـ السيطرة الاقتصادية :العمالة ، السوق ، توجيه الانتاج ·

أما السنوات الخمس ، المفترضة مرحلة انتقالية ، فهي ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، مرحلة تثبيت السيادة الاسرائيلية على الضفة والقطاع ، بعد ان تكون قد صفت خلالها ، العوامل التي تحول دون ذلك : استيطان يهودي كثيف تسمح به حالة السلام ، والتضييق على العرب ودفعهم الى الهجرة ·

٤ ـ يتمثل الدور الامبريالي لاسرائيل ، في كونها جزءا من النظام الامبريالي العالمي ، وفي القدرات الهائلة التي تمدها بها الامبريالية العالمية والحركة الصهيونية · واذا كنا قد عجزنا عن التغلب على اسرائيل حربا ، بسبب الدعم الكبير الذي تحصل عليه ، فكيف سنتغلب عليها سلما ، والدعم سيزداد ، بالاضافة الى امكاناتها الذاتية في مجالات التقدم العلمي والتقني ·

٥ ـ من خلال طغيان القوة العسكرية الاسرائيلية ، وتفكيك العالم العربي ، وزجه في الانقسامات والخلافات والحروب الداخلية ، سيحكم المعسكر الامبريالي هيمنته على المنطقة امدا طويلا ، ويتحكم في معدلات نموها ، وفي اتجاهات هذا النمو ، مما يسهل له نهب ثرواتها المادية (النفط وسواه) والبشرية (هجرة الادمغة) ، مفوتا على شعوبها الفرصة التاريخية السانحة للتطور والتحول الى قوة كبرى في العالم المعاصر ·

اسرائيل واقع امبريالي

مهما قيل في تحليل بنود اتفاقيات كامب ديفيد ، ومهما اجتهد في تفسيرها ، فان الصلح بين اسرائيل ومصر ، يشكل انتصارا باهرا للاهداف التي قامت

اسرائيل من اجلها ، وعملت في خدمتها طوال السنوات الثلاثين الماضية من عمرها ، كما يشكل حالة من الاحباط الشديد في عالم عربي مستلب وممزق ، تسخر ثرواته وطاقاته لتجديد شباب الامبريالية في زمن تقهقرها ، وتجميل وجهها البشع ، بينما تعاني شعوبه القهر القومي ، وتفتك بها الامية والجهل والجوع والمرض ، وتتكاتف قوى داخلية وخارجية على تقييد ارادتها ولجم امكاناتها وتحطيم تطلعها الى الوحدة والتحرر والتقدم ٠

ولا يكمن الخطر في اقدام النظام المصري على اخراج امكانات مصر من معادلة الصراع فحسب ، بل ايضا في اندفاعه باتجاه اقامة التحالف الذي طالما تحدثنا عنه كاحتمال صعب التحقيق ، والذي يربط بين مراكز رئيسية في المنطقة تمتد من السعودية الى ايران ، مرورا باسرائيل ومصر * ٠ فانخراط مصر في مثل هذا التحالف ، يعيد الى الوراء ، عشرات السنين ، النضال العربي ، ويبدد مكتسابه ٠

ان الاعتراف بالكيان الصهيوني ، واسباغ الشرعية على وجوده ، واقامة علاقات طبيعية معه ، يتيح له الانتقال من مرحلة تثبيت هذا الوجود ، على حساب الحقوق الفلسطينية ، الى مرحلة ممارسة الدور الامبريالي في القارتين الآسيوية والافريقية ٠ومن البديهي ان تمكن اسرائيل من الاحتفاظ بتفوقها العسكري الحاسم ، كشرط ضروري للاستمرار في الاضطلاع بهذا الدور ٠

ويتيح ذلك ايضا ، عودة الاحلام الامبراطورية التي لازمت القيادات الاسرائيلية منذ حرب ١٩٦٧ حتى عشية حرب ١٩٧٣ ، والتي كان من مظاهرها ، اندفاع كبار المتمولين اليهود ، الى الاستثمار والتوظيف في مشاريع تمكن اسرائيل من تحقيق « التفوق الاقتصادي » الى جانب « التفوق العسكري » ٠ وقد مهد بيغن لهذا الاتجاه ، منذ توليه السلطة ، باتخاذ الاجراءات اللازمة للانتقال بالاقتصاد الاسرائيلي الى النظام الاقتصادي الحر ، وخلق ظروف تشجع رؤوس الاموال والمستثمرين الاجانب ، وكأنه تنبأ بالسلم القادم ، او كان على علم مسبق باحتمالاته الاكيدة ٠

وسيستمر ، مع كل ذلك ، العداء الاسرائيلي للفلسطينيين قويا ٠ فهم ماثلون، كمشروع نقيض ، في الداخل ، وفي الضفة والقطاع ، وفي المنافي ، ولا مصلحة لاسرائيل في مساعدتهم واتاحة فرص التقدم والتطور لهم ٠ وليس ثمة ما يبرر ادخال اي تعديل على السياسة التي تمارسها ازاء الفلسطينيين الذين يخضعون لسلطتها منذ ثلاثين سنة ، في الداخل ، ومنذ ١١ سنة في المناطق المحتلة سنة

---

* محمود سويد ، « مبادرة السادات والصراع على ارض التسوية الاسرائيلية » ٠ **شؤون فلسطينية** ، العدد ٧٦ ٠

١٩٦٧ (رعايا من الدرجة الثالثة ، الاستغلال الاقتصادي ، التقـــدم البطيء بسبب عدم منحهم فرصا متكافئة اسوة بالمواطنين اليهود ، منعهم مـن العمـــل السياسي والتعبير عن الهوية القومية) • أما فلسطينيو المنفى ، فليس من حـل اسرائيلي لقضيتهم سوى المزيد من التشتيت عبر التوطين • وليس ثمة حـــل أفضل ، بالنسبة اليها ، من ان يكتسبوا جنسيات اخرى ، وان ينسوا ، الـــى الابد ، كونهم فلسطينيين •

اذا كانت هذه هي الوجهة العامة التي ترســي اتفاقيات كامب ديفيد اسسها . فماذا يعد لمواجهتها ؟•

المواجهـــة

١ ــ رفضت الدول العربية باسرها اتفاقيات كامب ديفيد • ويمكن تصنيـف هذا الرفض ، بحسب الخريطة السياسية العربية الراهنة الى :

أ ــ رفض (بزعامة السعودية) يهدف الى تطوير اتفاقيات كامب ديفيد ، مـن خلال الضغط على الولايات المتحدة ، وبالولايات المتحدة على اسرائيل ، ليصبح بالامكان انضمام اطراف عربية اخرى •

ب ــ رفض (جبهة الصمود والتصدي) يقـــوم على « اعـــادة التوازن الستراتيجي الى المنطقة ، بعد خروج النظام المصري ، من ساحة الصراع ، ضد العدو الصهيوني » ، بشكل يسمح بتحقيق التسوية المتوازنة ، عبر مؤتمر جنيف، بمشاركة الاتحاد السوفياتي وجميع اطراف النزاع بمن فيهم منظمة التحريـــر الفلسطينية •

هذان هما الاتجاهان اللذان يتحركان الآن على امتداد الساحة العربيـــة • يتعارضان حينا ، ويتقاطعان احيانا ، وينسقان غالبا •

يتعارضان في مدى العلاقة بالسوفيات ، وحجم الدور السوفياتي •

يتقاطعان في ضرورة حشد الطاقات العربية واستغلالها جميعا •

ينسقان ، كما يبدو ، بحيث لا يتحول التعارض الى انقسام نوعي يلغي امكان حشد الطاقات ، ولا ينحصر التقاطع في حدود تؤدي الى خسارة دعم الصديـق السوفيـاتي •

ويجدر بنا ان نلاحظ ، في مجال اعتماد جبهة الصمود والتصدي ، العلاقـة بالسوفيات ، عاملا اساسيا من عوامل التصدي لنتائـــج كامب ديفيـد ، ان استخدام هذا العامل ، يتم ضمن الاطر التي رسمتها سابقا التجربة الناصريـة في مصر ومثيلاتها في العالم العربي •

ويضطلع الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع ، بدور اساسي في دعم التوجه الغربي ، في نقاط تقاطعه • ويرتدي دوره هذا أهمية بالغة ، اذ انه هو وحده ، وعلى الطبيعة ، سيجعل اتفاقيات كامب ديفيد ممكنة ، او مستحيلة التنفيذ دون تعديل • وهو وحده الذي يواجه العدو على الساحة ، حيث ستحدد الكفاءة في ادارة المعركة ملامح المستقبل •

٢ ـ على صعيد آخر ، ينبغي الاعتراف بان اتفاقيات كامب ديفيد هي نتيجة ، وليست سببا • انها الهزيمة من الداخل • فالارادة العربية مقهورة ومسحوقة ومستلبة ، قبل ان يكون هناك كامب ديفيد • ولقد شهد العالم العربي ، منذ كارثة ١٩٤٨ ولا يزال ، امعانا لا نظير له في تزييف القيم والمبادىء والشعارات، فلا الكلمة تعني مدلولاتها ، ولا الفعل ينهض بتبعاته •

ان العقل العربي مقموع ، وحدود الكلام المباح ضيقة ، والمثقف العربي لا يحب حياة السجون ، ولا يحبذ الموت دفاعا عن المواقف والمبادىء ، ويفضل « دولتشي فيتا » النفط ، على شظف العيش • وما لم يفرج عن العقل العربي (السجين في بلده ، والممنوع من التداول خارج حدود هذا البلد) ،وما لم يحترم حق الانسان العربي في ان يتعلم ، وان يفكر ، وان يقول رأيه بحرية ، وان ينتظم في احزاب ونقابات ،وان يمارس حقه في القول والعمل في ظل نظام ديمقراطي ، (ولم لا اقول ان يحترم حقه ، قبل كل هذا ، بالطعام والطبابة) ••• فان كل المحاولات تظل قاصرة عن المستوى التاريخي للصراع الذي تفرضه الهجمة الامبريالية والصهيونية على المنطقة •

من كامب ديفيد الى اين ؟•

ان كامب ديفيد ينهي مرحلة ، لكنه لا ينهي صراع الارادات • وتظل معطيات العمق الجغرافي والكثافة البشرية ، في مسار هذا الصراع ، متكأ للمراهنة على صوغ مستقبل هذه المنطقة •

فيصل حوراني

قراءة سياسية لوثائق كامب ديفيد

تقتضي دراسة الوثائق التي تم الاتفاق عليها ، في قمة كامب ديفيد الثلاثية ، وقفة هادئة ، متحررة من آثار الاستفزاز الذي يثيره اعلام ديماغوغي تجندت له امكانيات الامبريالية الامريكية واسرائيل والحكومة المصرية ، وهي تمارس عملية تمويه وتضليل واسعة النطاق ، وتحاول ان تقلب الحقائق رأسا على عقب ، بالمعنى الحرفي للكلمة .

تلك الوقفة هي التي تحاول أن تقفها هذه الدراسة التي ستتناول وثائق قمة كامب ديفيد والوثائق الاخرى المرتبطة بها ، والتي ستركز بصفة خاصة على ما يخص قضية فلسطين مما اشتملت عليه الوثائق المذكورة .

تبجح تدحضه النتائج

وسنبدأ ، كمدخل لهذه الدراسة بمناقشة ما ذكره الرئيس المصري انور السادات في خطابه التاريخي حقا ، باعتبار ان للردة ايضا تاريخها ، امام مجلس « الشعب المصري » في الثاني من شهر تشرين الاول العام ١٩٧٨ ، حول اهداف واسس المباحثات التي اشترك فيها مع زميله في القمة :جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الاميريكية ، ومناحم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي .

قال الرئيس السادات : « وكان لنا في كامب ديفيد مشروعنا المصري الذي نشر واذيع . وكان هناك مشروع اسرائيلي لم يحز على قبولنا على الاطلاق . ثم كان هناك موقف اميركي بين الطرفين سعى بكل الجهد الخارق المتواصل كي يصل المؤتمر الى خطوات ايجابية لاقرار السلام . وقد ارتكز موقفنا على حقائق ثابتة لم نحد عنها .

ثم عدد الرئيس السادات اربعا من هذه الحقائق على النحو التالي :

« الحقيقة الاولى اننا ذهبنا الى كامب ديفيد ملتزمين بكل المواثيق العربية والدولية : تحرير كامل للارض ، تمسك بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني ، ايمان راسخ بسلام عادل » .

و « الحقيقة الثانية اننا لم نذهب الى كامب ديفيد لكي نسعى الى عقد اتفاق منفرد بين مصر واسرائيل » ٠

و « الحقيقة الثالثة اننا لم نقبل الدعوة الى كامب ديفيد لكي نسعى الى سلام جزئي بمعنى ان ننهي حالة الحرب في هذه المرحلة ثم نرجيء المشكلة برمتها الى مرحلة تالية ٠ ليس هذا هو الحل الجذري الذي يصل بنا الى السلام الدائم » ٠

و « الحقيقة الرابعة اننا لم نذهب الى كامب ديفيد لكي نتفق على فض اشتباك ثالث في سيناء ، او في سيناء والجولان والضفة الغربية ، فان هذا يؤمن فقط اشتعال الفتيل في اي وقت مقبل ٠٠٠ » ٠

لقد تحدث الرئيس السادات عن مشروعين احدهما له والاخر لبيغن ، ومن حسن الحظ ان مشروع الرئيس السادات قد نشر رسميا ، وان مشروع بيغن متوفر ٠ وسنرى عند قراءتنا للمشروعين ما الذي تضمنه كل منهما والى اي حد كان الرئيس السادات صادقا حين قال ان المشروع الاسرائيلي لم يحز على قبوله على الاطلاق ٠ وتحدث عن « موقف اميركي بين الطرفين » ٠ وهو موقف كما سنرى من قراءة الوثائق لم يكن بين طرفين تناقضت طروحاتهما ، كما اراد الرئيس السادات ان يوحي من خلال خطبته ،وانما كان الموقف الذي ساعد على جعل الرئيس السادات يقبل طروحات زميله بيغن ، ذات الطروحات التي اعلن انها لم تحز على رضاه على الاطلاق ٠

وقال الرئيس السادات انه ذهب ملتزما « بكل المواثيق العربية والدولية » ٠

والحديث عن هذا الالتزام ليس الا تبجحا تدحضه النتائج التي تم التوصل اليها ٠ وسنرى ان هناك واحدا من احتمالين : اما ان الرئيس المصري قد ذهب متحللا من اي التزام بالمواثيق العربية والدولية ، واما انه ذهب وفي ذهنه شيء من تلك المواثيق ثم تخلى عنها هناك ، اما انه ذهب وهو « ملتزم » بكل المواثيق العربية والدولية ، كما قال فهو احتمال غير وارد حتى لو فسرنا الامر على اساس انه تخلى عنها بعد ذهابه ، ذلك ان مشروعه ذاته كما سنرى كان قد تخلى مسبقا عن العديد من الامور الجوهرية التي نصت عليها المواثيق المشار اليها ٠

الاتفاق الشامل والمنفرد

اما حديثه عن عدم رغبته في عقد اتفاق منفرد بين مصر واسرائيل ، فينطبق عليه الاحتمالان الواردان حول النقطة السابقة ، وينفي عنه الاحتمال الذي انتفى عنها ، ذلك ان الرئيس السادات قد عقد في واقع الامر ، وطبقا لاي مقياس سياسي او حقوقي اتفاقا منفردا مع اسرائيل ٠ ولم تكن مصادفة ان بيغن اصر على ان تضم ذلك الاتفاق المنفرد وثيقة منفصلة ٠ ولنناقش هذه النقطة بشيء من التفصيل :

ان الرئيس السادات هو من وجهة النظر الحقوقية رئيس لجمهورية مصر العربية ٠ وقد وقع بهذه الصفة اتفاقية مع رئيس وزراء اسرائيل ، حول سيناء وحول اسس الصلح مع اسرائيل ٠٠٠ الخ ٠٠٠

وقد يكون من المفيد ان يناقش الحقوقيون الوطنيون المصريون اهليته من وجهة النظر الحقوقية في ان يفعل ذلك ضاربا عرض الحائط بـ :

١ ـ ان انتخابه لمنصب رئيس الجمهورية قد تم عندما كان يعلن تمسكه بمبـــادىء ومطالب الشعب المصري وبمواثيق ثورة يوليو وبدور مصر في الكفاح ضـــد العـــدو الاسرائيلي ، وانه وقع على اتفاق تخلي فيه عن كل ذلك مما يعرضه للمسالة من وجهـــة نظر الدستور المصري · وان ما ينطبق عليه في هذا الصدد ينطبق على اعضاء مجلس الشعب ممن صفقوا لـــه ·

٢ ـ انه فعل ما فعل واوجب على مصر تنازلات تمس حقها فيالسيادة على جزء مـــن ترابها الوطني وتضعها في تعارض مع اشقائها العرب في وقت نص فيه الدستور المصري على ان مصر جزء من الامة العربية · وهو فعل يعرضه للمساءلة من وجهة نظر الدســـتور المصـــري ·

٣ ـ انه على الرغم من وجود اغلبية تؤيده بين اعضاء مجلس « الشعب المصري » قد ارتكب افعاله مستهينا بسلطات ذلك المجلس المؤيد له ذاته ، ولم يلجأ حتى الى استصدار قرار مسبق منه يغطي افعاله ·

ومع ذلك ، وحتى لو اقررنا بان وضعه الدستوري يؤهله لعقد اتفاقية ، على اساس ان عقابه سيأتي بصيغ اخرى غير الصيغ التي تعرفها قوانينه العجيبة ، فمـــا مـــن احـــد يستطيع ان يجادل في انه لا يملك الحق في ان يعقد اتفاقيات تمس سوريـــا او الاردن او منظمة التحرير الفلسطينية ، وهو امر لا يحتاج الى اجتهادات قانونية لتأكيده ، مـــا دامت السلطات الشرعية لدى الاطراف الثلاثة قد اعلنت ذلك ·

واذن فان ما لها صفة الاتفاقية هي تلك الاتفاقية المنفردة التي وقعها مع زميله بيغـــن ، بينما لا تعدو « الاتفاقية » ،لاخرى ان تكون بنودا تعكس ما اتفق على اعلانه من الهامش المشترك بين السادات وزميله بيغن حول دورهما المشترك في مجابهـــة المطالـــب الوطنيـــة للشعبين العربيينالسوري والفلسطيني ، وتعكس الاتجاه الذي قررا معا السير عليه فـــي سياق تلك المجابهة ، ويمكن ان نتساءل ، محتفظين بالجهد الارادي في ان لا نستفز · اين يمكن ان تنطبق صفة الاتفاق المنفرد ان لم ينطبق بالضبط على ما فعله السادات مع بيغـــن ما دام قد ابرم حلا منفردا بشأن سيناء وتعهد بأن يضم جهده الى جهد بيغن لمجابهة العرب الاخرين ثمنا لذلك الحل · ونشك في ان يكون الرئيس السادات واقعا تحـــت تأثير روح الدعاية حين نفى صفة الانفراد عما فعله مع بيغن لان كارتر كان ثالثهما ·

واما انه لم يكن يسعى الى سلام جزئي ، فقد تكون تلك رغبته بالفعل الا انه قبل مـــا يتعارض معها ذلك ان الاتفاق سواء رضي او لم يرض ، جزئي بمقياسين :

جزئي بالمقياس المصري المحض ، ما دامت مصر طبقا للاتفاق لن تسترد سيادتها الكاملة على سيناء في اي وقت من الاوقات ، وهو امر لا يضمن السادات ولا يضمن بيغن ولا حتى كارتر أن يسكت عنه الشعب المصري الى الابد ·

وجزئي ايضا بالمقياس العربي ، على اعتبار ان السادات لا يملك ان يعزل العرب عـــن مصر ولا يملك ان يعزل مصر عن العرب · وما دام اغلب العرب قد رفض اتفاقه المنفرد، وما داموا كلهم قد رفضوا تصوره المشترك مع بيغن لاتفاقـــات منفـــردة اخـــرى تعقدهـــا الاطراف الاخرى المعنية ، فان مصر لن تظل اسيرة الديماغوغية التي تريد ان تقيم السلام على نقيض الاسس التي يقتضيها بناء السلام الوطيد ، ولن تظل خـــارج دائرة التأثيـــر المتبادل مع دنيا العرب ·

واما حديثه في « الحقيقة الرابعة » عن عدم رغبته في مجرد تأجيل اشتعال القتيل فلنقرأ ما قاله في ايضاح تلك « الحقيقة » :

« من اجل هذا سارت المباحثات في خطين متوازيين : الخط الاول هو اتفاق لاطار السلام يصبح اساسا للمباحثات حول الحل الشامل العادل مع جميع الاطراف العربية ، بالتحديد، الاردن ولبنان وسوريا ومصر والفلسطينيين . اما الخط الثاني فهو اتفاق لاطار السلام يصلح اساسا للمباحثات نحو معاهدة سلام بين مصر واسرائيل » .

فأي ايضاح جاء بعدهذه الـ « من اجل .. » وكيف صاغ السادات اطرا للسلام بين اسرائيل وكل من الاردن ولبنان وسوريا والفلسطينيين وهو غير مخول من اي من شعوبها ، وهو ايضا الذي فشل في اي يصوغ اسسا لسلام مستقر حتى مع مصر .

قبل ان تبدأ القمة

ولنر الان ما الذي تضمنه المشروع « المصري » الذي حمله السادات الى كامب ديفيد .

تنص المادة الاولى من المشروع على ما يلي :

« يعرب الاطراف عن تصميمهم على التوصل الى تسوية شاملة لمشكلة الشرق الاوسط بتوقيع معاهدات سلام على اساس التنفيذ الكامل لقراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ بجميع اجزائهما » .

واذن فان رغبة السادات كانت واضحة (حتى في المشروع الذي حمله بنفسه قبل ان تبدأ اجتماعات القمة والذي قدم فيها من التنازلات اكثر مما تضمنه مشروعه كما سنرى) في الدعوة لعقد معاهدات سلام وليس معاهدة واحدة ، كما نصت المادة الاولى من مشروعه ، وفي هذه الدعوة المعبر عنها في اول فقرة من المشروع مخالفة للمواثيق العربية والدولية التي ادعى انه ذهب وهو متمسك بها .

وهذه المخالفة تتناول اولا القبول بمفاوضات مباشرة خلافا لما نصت عليه القرارات التي صدرت عن القمم العربية المتعاقبة ، وتتناول ثانيا الانحراف الكامل عن اهداف القرار ٣٣٨ الذي صدر عن مجلس الامن الدولي في العام ١٩٧٣ ، الذي مهد لمفاوضات تتم باشراف الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، يكون هدفها الصريح تطبيق بنود القرار ٢٤٢ ، اي يحقق الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي التي اعتدت عليها اسرائيل في العام ١٩٦٧ .

وتمضي المادة الاولى من مشروع السادات فتنص على ما يلي :

« يتم الانسحاب من سيناء والجولان الى الحدود الدولية بين فلسطين تحت الانتداب وكل من مصر وسوريا . »

و « يتم الانسحاب من الضفة الغربية الى خطوط الهدنة الواردة في اتفاقية الهدنة بين اسرائيل والاردن عام ١٩٤٩ . »

ثم تفتح اول باب للتخلي عن مبدأ الانسحاب الكامل فتنص على انه « اذا ما اتفقت الاطراف المعنية على ادخال تعديلات طفيفة على هذه الخطوط فانه يكون مفهوما ان مثل هذه التعديلات يجب ان لا تعكس ثقل الغزو ، وسوف تطبق اجراءات الامن المنصوص

عليها فيما بعد في الضفة الغربية ، بهدف التجاوب مع تطلع الطرفين الى تحقيق امنهما، وكذلك الحفاظ على حقوق واماني الشعب الفلسطيني »

وسوف نرى كيف انتهى هذا التنازل حول التعديلات التي « لا تعكس ثقل الغزو » على حد تعبير المشروع ، الى اقرار من السادات ببقاء القواعد العسكرية الاسرائيلية في الاراضي الفلسطينية المحتلة الى ما شاء الله ، كما نصت عليه اتفاقات كامب ديفيد ·

وتنص المادة الثانية على « ازالة المستوطنات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة » · وعلى ضمان الامن والسيادة والسلامة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة » ·

ومن اجل تحقيق ذلك الان يتعهد المشروع بالترتيبات التالية :

« ١ ــ اقامة مناطق منزوعة السلاح على جانبي الحدود » ·

« ب ــ اقامة مناطق محدودة التسليح على جانبي الحدود » ·

« ج ــ وضع قوات تابعة للامم المتحدة على جانبي الحدود » ·

« د ــ وضع نظام انذار مبكر على اساس المعاملة بالمثل » ·

« هـ ــ تحديد نوعية الاسلحة التي تحصل عليها الدول الاطراف ونظم التسليح فيها » ·

« و ــ انضمام جميع الاطراف الى معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية وتعهد الاطراف بعدم انتاج او حيازة الاسلحة النووية او اي مواد نووية متفجرة اخرى » ·

« ز ــ تطبيق مبدأ المرور البري على الملاحة في مضائق تيران » ·

« ح ــ اقامة علاقات سلام وحسن جوار وتعاون بين الاطراف» ·

وفي هذه البنود التفصيلية الثمانية لخص المشروع حدود التنازلات التي يتعهد الرئيس السادات بقبولها تطبيقا لاسرائيل ، من اجل ضمان ما يوصف بأمنها ، تنفيذا للوعد الذي قطعه على نفسه عندما خطب خطبته الشهيرة أمام اعضاء الكنيست الاسرائيلي · وفيها اي في تلك البنود حاول ، بحياء ان يجعل الضمانات متوازنة · فقد نصت البنود ا وب وج ود على ان تقوم المناطق المنزوعة السلاح والمخففة السلاح والقوات التابعة للامم المتحدة ونظم الانذار المبكر على جانبي الحدود · فهل حصل السادات على هذا المطلب في محادثات كامب ديفيد ؟ سوف نرى كيف تم الامر عندما نقرأ نصوص الاتفاقيات ·

ونص البند هـ على تحديد نوعية الاسلحة ونص البند و على انضمام جميع الاطراف الى المعاهدة الدولية لمنع انتشار الاسلحة النووية ، وعلى ان تتعهد بعدم انتاج هذه الاسلحةاو حيازتها · وهي امور لن ننتظر حتى نقرأ الاتفاقيات لكي نعرف ان اسرائيل قد رفضتها ، بل ان اسرائيل قد حظيت بكل ضمانات الامن التي تعهد بها السادات وظلت تتمتع بالضمانات الاميريكية المعتادة وحظيت بالمزيد منها ·

ونصت المادة الثانية ايضا على « تعهد جميع الاطراف بعدم اللجوء للتهديد بالقوة او استخدامها لتسوية المنازعات بينها ، وحل ما يثور من منازعات بالوسائل السلمية طبقا لاحكام المادة ٣٣ من ميثاق الامم المتحدة ، كما تتعهد الاطراف بقبول الاختصاص الالزامي لمحكمة العدل الدولية بالنسبة لجميع المنازعات الناجمة عن تنفيذ او تفسير الارتباطات

التعاقدية بينها ٠ » ، وقد سقط قبول الاختصاص الالزامي لمحكمة العدل ولم يرد له اي ذكر بعـــد ذلك ٠

مستقبل الضفة وغزة والقدس

وافردت المادة الثانية فقرة خاصة للحديث عن مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ وفي هذا المجال بدت اكثر من غيرها بوادر التنازل عند السادات التي انتهت بابقائها تحت السيطرة الفعلية لاسرائيل ٠

فقد بدأ المشروع هنا بالحديث عن الغاء « الحكومة العسكرية الاسرائيلية في الضفة الغربية وغزة ٠٠٠ » والمقصود الغاء الادارة العسكرية ٠ وعن انتقال السلطة الى الجانب العربي على نحو سلمي ومنظم « وتحدث عن فترة انتقالية لا تتجاوز خمسة اعوام مبن تاريخ توقيع هذا الاطار » ٠

و« يتولى الاردن خلالها الاشراف على الادارة في الضفة الغربية وتتولى مصر الاشراف على الادارة في قطاع غزة » ٠

واذن فان الرئيس السادات قد نسف بنفسه ، وحتى قبل ان يتفاوض مع بيغن وكارتر في كامب ديفيد ، اسس ونصوص اهم القرارات والمواثيق العربية والدولية التي اعلن امام مجلس « الشعب المصري » انه ذهب وهو ملتزم بها تمام الالتزام ٠

ولكي لا يظل اي التباس حول مستقبل الضفة والقطاع بعد الفترة الانتقالية تنص الفقرة على مـا يلي :

« قبل انتهاء الفترة الانتقالية بستة اشهر يمارس الشعب الفلسطيني حقه الاساسي في تقرير مصيره ٠ ويمكن من اقامة كيانه الوطني ، وسوف توصي مصر والاردن بحكم مسؤوليتهما في غزة والضفة الغربية بأن يكون هذا الكيان مرتبطا بالاردن » ٠

ومرة اخرى : ليس هناك اي التباس فالمشروع يضرب عرض الحائط بفظاظة لا حد لها بقرارات قمتي الجزائر والرباط العربيتين ، اللتين نصتا على ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني ٠ والتي اكدت مسؤوليتها عن صياغة مستقبل شعبها على اساس اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ٠

ويضرب عرض الحائط وبالفظاظة ذاتها ، قرار الجمعيةالعامة للامم المتحدة فيدورتها التاسعة والعشرين ، الرقم ٣٢٣٦ ، وهو القرار الذي اكد الحقوق الثابتة لشعب فلسطين وعددها وفق نص القرار على النحو التالي :

« أ ـ حق ممارسة تقرير المصير دون اي تدخل خارجي » ٠

« ب ـ حق الاستقلال الوطني والسيادة » ٠

« جـ ـ حق الفلسطينيين الذين طردوا من ديارهم وممتلكاتهم منذ عام ١٩٤٧ بالعودة اليها وندعو الى عودتهم في اقرب وقت ممكن » ٠

لقد اكد هذا القرار ، على ان منظمة التحرير الفلسطينية هي « الممثلة للشعب الفلسطيني » واكد حق الشعب الفلسطيني « باستعادة حقوقه بجميع الوسائل الممكنة بموجب

اعراف ومبادىء ميثاق الامم المتحدة » وانه « طرف اساسي لاقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » وان « الاحترام الكامل لشعب فلسطين وتحقيق الحقوق الثابتة له أمران لا غنى عنهما لحل مشكلة فلسطين ولاقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » . وناشد « جميع الدول والمنظمات الدولية دعم شعب فلسطين في نضاله لانتزاع حقوقه » فايـــن ما عرضه المشروع السادتي حول ربط الكيان الفلسطيني الموعود بالاردن من القرارات العربية او من القرارات الدولية ، واين ، وهذا هو الاهم ، ما قبله الســادات بعد ان لحس مشروعه ذاته ، من كل ذلـك .

وخصصت المادة الثانية فقرة خاصة عن القدس ودعا الســادات من تلقاء نفســه الــى تشكيل مجلس بلدي مشترك للمدينة ، متنازلا بذلك امام رغبة اسرائيل في ابقائها موحدة . مع دعوة ديماغوغية الى انسحاب القوات العسكرية الاســرائيلية مــن القــدس العربيــة وعودة « السيادة والادارة العربية اليها » . وقد رفض بيغن حتى هذا .

خطوات الصلح مع اسرائيل

وقدم المشروع خطة لاقامة العلاقات الكاملة بين الاطراف المتعاقدة وقد نصت فقــرة خاصة على ما يلي :

« بالتساوي الزمني مع تنفيذ النصوص المتعلقة بالانسحاب سوف تمضي الاطراف الــى اقامة العلاقات التي تقوم عادة بين الدول التي هي في حالة سلام مع بعضها البعض .

« وسعيا وراء الهدف يتعهدون بمراعاة جميع نصوص ميثاق الامم المتحدة وتشكــل الخطوات التي تتخذ في هذا الصدد ما يلي :

أ – الاعتراف الكامل .

ب – انهاء المقاطعة العربية .

ج – ضمان حرية المرور في قناة السويس طبقا لاحكام اتفاقية القسطنطينية المبرمــة عام ١٨٨٨ والاعلان الصادر عن الحكومة المصرية في ٢٤ نيسان ١٩٥٧ .

د – توفير الحماية القانونية لمواطني كل طرف في الدول الاخرى الاطراف .

وطالب المشروع بأن « تتعهد اسرائيل بدفع تعويضات شاملة عن الاضرار الناجمــة عن العمليات التي قامت بها قواتها المسلحة ضد السكان والمنشآت المدنية ، وكذلك عــن استغلالها للموارد الطبيعية في الارض المحتلة » .

وهو تعهد لم يأت له ذكر في الاتفاقيات التي ابرمت ، وقد تخلى السادات عن مطالبته به كما تخلى عن غيره من المطالب التي تضمنها مشروعه لكي يبدو متوازنا .

وقد يبدو من المفيد ان نشير بايجاز الى ان هذا المشروع قد وضعه الرئيس السادات من غير ان يأخذ عليه موافقة اي من المؤسسات الدستورية المصرية ، وان الذين استشارهم بشانه ، مجرد استشارة فيما يبدو ، والذين من بينهم قد قبلوه على مضض وهــم اعضاء في مجلس الدفاع القومي المصري ، قد استقالوا او اقيلوا بعد ان قبل السادات ما قبــل في كامب ديفيد . ومن بين الذين اقيلوا او استقالوا رئيس الوزراء ممدوح سالم ، ووزيرا الخارجية والحربية ورئيس الاركان ، وعدد من معاونيهم .

مشروع بيغن

اما مناحم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي ، فقد وضع مشروعا لحل قضية فلسطين منذ العام ١٩٧٥ وقد ناقشه مؤتمر حزبه في كانون الثاني من ذلك العام واقره ، وخاض معركة انتخابات الكنيست على اساسه ، وقد ناقشه الكنيست الاسرائيلي واقره باغلبية ٦٤ ٠ وامتناع ٤٠ عن التصويت ومعارضة ٨ ٠ ثم حمله معه الى كامب ديفيد ، وتمسك به٠

وقد اشتمل مشروع بيغن على ست وعشرين مادة يمكن ان نستعرضها حسب تسلسلها :

تضمنت المادة الاولى التعهد « بالغاء الحكم العسكري المطبق في الضفة الغربية وقطاع غزة » اي بالغاء شكل الادارة الاسرائيلية للمناطق الفلسطينية التي احتلها الجيش الاسرائيلي خلال حرب حزيران لعام ١٩٦٧ ٠

وتضمنت المادة الثانية البديل الاسرائيلي لذلك الالغاء ونص على « اقامة حكم مدني ذاتي في المنطقتين » وهذا يعني ان مهمة الحكم المدني الذاتي ستقتصرعلى ممارسة الشؤون الادارية التي يتولاها في الوقت الحاضر الحكم العسكري من غير التعرض لحقوق السيادة والامن التي تغتصبها اسرائيل ، وتمارسها بالفعل ٠

ونصت المادة الثالثة على ان « ينتخب سكان الضفة الغربية وقطاع غزة مجلسا اداريا يضم ١١ عضوا ويقوم هذا المجلس بمهماته وفق المبادىء المنصوص عليها في هذه الوثيقة » ٠

وقالت المادة الرابعة : « لكل مواطن يزيد عمره على ١٨ عاما ومن دون تمييز في الانتماء والهوية ـ الامر الذي يشمل المستوطنين اليهود في المناطق الفلسطينية ـ الحق في الاشتراك في انتخابات المجلس الاداري » ٠

وتحدثت المواد التالية من الخامسة الى الثامنة عن هذه الانتخابات وعن الترشيح لعضوية المجلس وشكل الاقتراع ومدة ولاية المجلس ومقره في مدينة « بيت لحم » ٠

وقالت المادة التاسعة : ان المجلس « يتولى صلاحية معالجة كل الشؤون التي تخص السكان العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة » ٠

وتولت المادة العاشرة تفصيل تلك الشؤون وهذا نصها :

« يتولى المجلس ادارات التعليم والدين والتمويل والنقل والبناء والاسكان والتجارة والسياحة والزراعة والصحة والعمل والانعاش الاجتماعي واعادة تأهيل اللاجئين ، كما يتولى الشؤون القضائية والاشراف على قوات الشرطة ويحق له ان يصدر القوانين المتعلقة بحسن سير الادارات المذكورة » ٠

احتاطت المادة الحادية عشرة ضد اي التباس ، فنصت على ما يلي :

« تكون قضايا الدفاع والمحافظة على الامن العام من مسؤولية السلطات الاسرائيلية » ٠

ثم تحدثت المادتان الثانية عشرة والثالثة عشرة عن انتخاب رئيس المجلس الاداري وعن جلسات المجلس، وحددت المادتان التاليتان الجنسية التي يحق لسكان الضفة والقطاع ان يحملوها ٠ فنصت المادة الرابعة عشرة على ما يلي :

« تضمن لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة منهم دون تمييز حرية الاختيار بين الجنسيتين الاسرائيلية والاردنية » · ونصت المادة الخامسة عشرة على ما يلي : « ستمنح الجنسية الاسرائيلية للذين يطلبونها من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة وذلك وفق قانون الجنسية الذي تعتمده الدولة » ·

واعطت المادة السادسة عشرة للسكان الذين « يختارون » الجنسيةالاسرائيلية الحق « في ان ينتخبوا نواب الكنيست وان يكونوا اعضاء فيه وفق قانون الانتخابات » واعطت المادة السابعة عشرة الحق ذاته بالنسبة للسكان الذين « يختارون » الجنسية الاردنية فيما يتعلق بانتخابات البرلمان الاردني ، وفق قانون الانتخابات المطبق في الاردن ·

ودعا مشروع بيغن في مادته الثامنة عشرة الى ان « يتم توضيح المسائل الناجمة عن اشتراك سكان الضفة الغربية وقطاع غزة في انتخابات مجلس النواب الاردني عبر مفاوضات بين اسرائيل والاردن » ·

وفي هذه المادة ذات المغزى الكبير تأكيد على نقطة ستوضحها مادة اخرى ، حول مسألة السيادة على الضفة والقطاع · فاذا كانت المشكلات ستنجم عن اشتراك سكان الضفة والقطاع في انتخابات مجلس النوات الاردني ، وليس عن العكس حين يشترك السكان في انتخابات الكنيست الاسرائيلي ، افلا يعني هذا ان اسرائيل تعتبر المنطقتين جزءا منها ، وتعتبر اشتراك بعض سكانها في انتخابات دولة مجاورة مشكلة تحتاج الى تفاوض لحلها مع تلك الدولة ·

تملك الاراضي والاستيطان

ودعت المادة التاسعة عشرة الى « تشكيل لجنة تضم ممثلين لاسرائيل والاردن والمجلس الاداري تتولى درس القوانين المطبقة في الضفة الغربية وقطاع غزة وتقرر ما يجب ابقاؤه وما يجب الغاؤه ، كما تحدد صلاحية المجلس الاداري في مجال اصدار القوانين وتتخذ قرارات اللجنة بالاجماع » ·

والتأكيد على ان قرارات اللجنة تتخذ باجماع الاطراف الثلاثة المشتركة فيها ، يعني انه لن يكون من حقها ان تتخذ اي قرار لا تريده اسرائيل ·

وقد اعطت المادة العشرون للسكان الذين « يختارون « الجنسية الاسرائيلية » حق تملك الاراضي والاستيطان في اسرائيل » وهو عرض ديماغوغي يقدمه المشروع ، لا قيمة له في التطبيق العملي كما يمكن ان نستنتج بسهولة من ملاحظة امرين : الاول ان الاراضي في اسرائيل مملوكة بمعظمها للمؤسسات الصهيونية التي لا تبيعها الى افراد والثاني ان العرب الذين حملوا الجنسية الاسرائيلية بعد العام ١٩٤٨ عانوا ويعانون فوق ما يتحمل البشر من اجراءات مصادرة اراضيهم والاستيلاء عليها وطردهم منها بما في ذلك اراضي السكن · لقد نص المشروع على هذا « الحق » لسبب وحيد هو تبرير ما يقابله، اي تبرير « حق » المستوطنين اليهود فيتملك الاراضي العربية ، وهو امر تسنده الدولة بكافة مؤسساتها ، سواء التملك من اجل الاستيطان او من اجل الاستثمار ، وهما ما نصت عليها حرفيا المادة ذاتها في مطلعها اذ ورد فيها :

« سيكون في امكان سكان اسرائيل ان يتملكوا الاراضي او ان يستوطنوا في الضفة الغربية وقطاع غزة » ٠

وقد تحدثت المادة الحادية والعشرون بالطريقة ذاتها عن تشكيل لجنة « تضم ممثلين لاسرائيل والاردن والمجلس الاداري لوضع الانظمة الخاصة بالهجرة الى الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما ستحدد شروط عودة اللاجئين العرب الذين يقيمون خارج هاتين المنطقتين على ان يكون ذلك باعداد معقولة ٠ وتتخذ قرارات اللجنة بالاجماع ٠

واذن فان واجب اللجنة ، حسب نصوص هذه المادة ، هو ان تضع الانظمة الخاصة التي تسمح لسكان اسرائيل بالاستيطان في الضفة والقطاع من اية قيود ، وان تحدد شروط عودة سكان المنطقتين ممن يقيمون خارجها على ان يتم ذلك « باعداد معقولة » اي من اجل رفع العتب وذر الرماد في العيون يحجب عنها رؤية عملية الاستيطان اليهودي ٠

وتضمنت المادة الثانية والعشرون النص على ان لسكان اسرائيل ، بالطريقة ذاتها ايضا « حرية الانتقال والنشاط الاقتصادي » ٠

وتوجب المادة الثالثة والعشرون على المجلس الاداري ان يعين « احد اعضائه لتمثيله لدى الحكومة الاسرائيلية للتشاور في الشؤون ذات المصلحة المشتركة ، كما يعين ممثلا له لدى الحكومة الاردنية للغرض ذاته » ٠

اما المادة الرابعة والعشرون فهي اهم مواد المشروع على الاطلاق وسنعود اليها بعد قليل ٠

والمادة الخامسة والعشرون تنص على ما يلي :

« فيما يتعلق بادارة الاماكن المقدسة للديانات الثلاث في القدس سيوضع اقتراح خاص يضمن حرية وصول اتباع كل الديانات الى الاماكن المقدسة الخاصة بهم » ٠

ونصت المادة السادسة والعشرون وهي الاخيرة في المشروع على انه «يمكن اعادة النظر في هذه المبادىء بعد خمس سنوات » ٠

وهذا هو كل ما نصت عليه المادة فلا تحديد على الاطلاق لاجابات على الاسئلة التالية: لماذا اعادة النظر ومن اجل اي شيء ، من اجل مزيد من السلطة لاسرائيل ، ام للاردن ، ام للمجلس الاداري ، من اجل تطوير حكم المجلس الاداري ام الغائه وضم المنطقتين الى اسرائيل ؟٠

حق السيادة قائم

والحقيقة ان اتجاه اعادة النظر هذا يمكن ان يحدده نص المادة الرابعة والعشرين التي ارجانا قراءتها ، فلنقرأ نص تلك المادة بامعان شديد :

« ان اسرائيل تتمسك بحقها ومطالبتها بالسيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، وفي ضوء هذه المطالبة تقترح من اجل المحافظة على الاتفاق والسلام ان تترك القضايا المتعلقة بالسيادة في هاتين المنطقتين مفتوحة » ٠

ثم لا يقول بعد ذلك اي كلمة اخرى ٠ اي انه لا يحدد : مفتوحة على اي شيء وباتجاه

اي احتمال ؟ الامر الذي يعني ان مصير السيادة سيرتبط فقط بالامر الواقع ، والامر الواقع يمثله حسب المشروع تمسك اسرائيل بحقها ومطالبتها بالسيادة على الضفة الغربية ، والوجود العسكري الاسرائيلي ، والاستيطان اليهودي غير المحدد وعملية تملك الاراضي ، والسكان العرب الذين « يختارون » الجنسية الاسرائيلية ... الخ .. كما يمثله غياب اي سلطة عربية فعلية ، فلسطينية كانت او اردنية .. الخ ..

وهذا هو ما اشتمل عليه مشروع بيغن لحل قضية فلسطين ، وهناك شيء اساسي مشترك بينه وبين مشروع السادات يمكن ملاحظته على النحو التالي :

– التجاهل الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية .

– التجاهل الكامل للمسائل التي تتعلق بالمواطنين الفلسطينيين الذين ارغموا على الاقامة خارج وطنهم . وفيه اشياء مختلف عليها يمكن اجمالها على النحو التالي :

– ان اسرائيل تتمسك بالسيادة على المنطقتين وبالوجود العسكري فيهما ، بينما يتحدث المشروع الساداتي عن الانسحاب وعن وضع السلطة بين ايدي ممثلي السكان المنتخبين .

– ان اسرائيل تتمسك بالوضع الراهن لمدينة القدس بغير اي تعديل ، بينما يتحدث المشروع الساداتي عن « عودة السيادة والادارة العربية » لفظيا وعن مجلس بلدي موحد .

– ان اسرائيل لا تلتزم باي شيء بعد انقضاء مدة السنوات الخمس ، بينما يتحدث المشروع الساداتي عن حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم بعد تلك السنوات .

– ان اسرائيل تلحظ دورا هزيلا للاردن يتلخص في المشاركة في اللجان الثلاثية ، وفي حق بعض المواطنين في اختيار الجنسية الاردنية ، بينما يربط المشروع الساداتي حق تقرير المصير للفلسطينيين باختيار الانضمام الى الاردن .

اما مطلب الاستقلال الوطني الفلسطيني فالجانبان متفقان قبل مفاوضات كامب ديفيد على محاربته .

فما الذي اتفق عليه اثناء المفاوضات ؟ وهل نجح الرئيس السادات الذي قدم بنفسه مشروعا اسقط منه كافة المكاسب التي حققها الشعب الفلسطيني بما فيها المكاسب التي اقرتها المواثيق العربية والدولية .. هل نجح في زحزحة مفاهيم بيغن قيد انملة عن المواقف التي تضمنها مشروعه ؟

لنقرأ اتفاقيات كامب ديفيد ذاتها ولنرى كيف تم الامر :

اطار السلام الموعود

وقع السادات وبيغن بشهادة كارتر اتفاقية اولى وضعوا لها العنوان التالي « اطار لاحلال السلام في الشرق الاوسط كما تم الاتفاق عليه في كامب ديفيد » . وفي مقدمته وردت دعوة للاطراف الاخرى في النزاع العربي الاسرائيلي الى الاخذ به .

وقد نصت مقدمة هذا الاطار على ان القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن الدولي في العام ١٩٦٧ يشكل « الاساس المتفق عليه لتسوية سلمية للنزاع بين اسرائيل وجاراتها » .

كما نصت على انه « لكي يتم تحقيق علاقة من السلام تمشيا مع روح المادة ٢ من ميثاق الامم المتحدة فان اجراء مفاوضات في المستقبل بين اسرائيل واي دولة من جيرانها استعدادا للتفاوض على الامن والسلام معها هو امر ضروري لتنفيذ كل احكام ومبادىء القرارين رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ » ٠

وفي هذا النص امران يلفتان النظر ٠

الاول انه يتبنى التفسير الامريكي ـ الاسرائيلي للقرار ٢٤٢ وقرينه القرار ٣٣٨ من حيث اعتباره المفاوضات المباشرة هي الوسيلة للاتفاق على اسس السلام ، ومن حيث دعوته الى عقد اتفاقات منفردة بين اسرائيل « واية دولة من جاراتها » ٠

والثاني انه يتجاهل تجاهلا مطلقا قرارات الامم المتحدة الاخرى التي اتت قبل وبعد القرارين المذكورين ، ولا يشير اليها لا من قريب ولا من بعيد ٠ ومن بينها قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الرقم ٣٢٣٦ الذي توج من وجهة نظر الشرعية الدولية ، المكاسب التي حققتها منظمة التحرير الفلسطينية على ارض الواقع ٠

ويتجاهل التفسير العربي للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ بما في ذلك التفسير المصري الذي ظل قائما حتى يوم اعلان مبادرة الرئيس السادات ، والتفسير السوري الذي ما يزال قائما الى اليوم ، والذي اقترن كوثيقة رسمية بالقبول السوري للقرارين ٠

والاهم من ذلك كله ان المقدمة قد نصت على « انه يمكن للطرفين المعنيين بموجب شروط معاهدات السلام ان يتفقا على اساس تبادلي على ترتيبات امن خاصة مثل ٠٠٠ الخ ٠٠٠ » ٠

وفي هذا النص انفتح الطريق امام الخروج حتى عن التفسير الاميركي ـ الاسرائيلي لقرارات الامم المتحدة ، حين لا يكفي ذلك التفسير ذاته لاستيعاب التنازلات التي مضى اليها الرئيس السادات ، وهو ما قد تم بالفعل ٠

ماذا عن الضفة والقطاع ؟

وبعد المقدمة تأتي فقرات وبنود الاتفاقية ـ الاطار ٠ ويأتي تحت عنوان : الضفة الغربية وقطاع غزة ما يلي :

« اولا ـ على مصر واسرائيل والاردن وممثلي الشعب الفلسطيني ان يشاركوا في التفاوض على قضية تسوية المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها ٠ ولتحقيق هذا الهدف فان المفاوضات المتعلقة بالضفة الغربية وغزة يجب ان تسير في ثلاث مراحل » ٠

واذن ، فان النص قد حصر منذ البداية المشكلة الفلسطينية بالضفة الغربية وقطاع غزة ، وفي هذا تناقض حتى مع النص الهزيل الذي جاء في القرار ٢٤٢ ، وفيه الغاء كامل للنصوص اللاحقة التي اعتبرت قضية فلسطين جوهر الصراع في الشرق الاوسط ، وفيه تجاوز لكل القرارات والمواثيق العربية ، وتنازل حتى عن مطالب الحد الادنى لدى اكثر الاستسلاميين العرب استسلاما ٠

وفي التفاصيل تنص الفقرة «أ» على انه « سيتم سحب الحكم العسكري الاسرائيلي وادارته المدنية حالما يقوم السكان في المنطقتين بانتخاب سلطة مسؤولة انتخابا حرا للحلول

محل الحكم العسكري القائم للتفاوض على تفاصيل هذا الترتيب المرحلي ٠٠ » ٠

وهو نص يطابق مثيله في مشروع بيغن ، ولا يتعارض مع مثيله في مشروع السادات فيما يتعلق بدور سكان المنطقتين ، ويتعارض معه فيما يتعلق بالدعوة الى ان تتولى مصر والاردن ادارة قطاع غزة والضفة ٠

في عداد الوفدين

وتنص الفقرة «ب» على ان مصر واسرائيل والاردن تتفق « على خصوصيات تفاصيل عملية انشاء السلطة المنتخبة للحكم الذاتي في الضفة وغزة ، اي ان الفلسطينيين ليسوا ، حتى من اجل غرض كهذا ، طرفا في هذا الاتفاق ٠ والاسهام الوحيد المتاح لهم هو الاسهام الذي نصت عليه الفقرة ذاتها ، محاطا بالتحفظات ، وقد ورد كما يلي « ويمكن لوفدي مصر والاردن ان يضما فلسطينيين اخرين حسبما يتم الاتفاق عليه من الجانبين »٠

اي انه من اجل الحكم المسمى بالذاتي يمكن ـ يمكن فقط ـ ان تسمح اسرائيل بأن يضم الوفد الاردني او الوفد المصري اعضاء فلسطينيين في عدادهما ، وذلك « كي تتفاوض الاطراف على اتفاقية تحدد الصلاحيات والمسؤوليات التي تمارسها سلطة الحكم الذاتي » ٠

وفي هذا تبن لما ورد في مشروع بيغن اضف اليه حق مصر في ان تشترك الى جانب الاردن في التفاوض ، وحذف منه حق المجلس الاداري المنتخب في ان يشترك بدوره في تلك المفاوضات ٠

ثم تنص الفقرة على اخطر ما نصت عليه الاتفاقية كلها ، فتقول : « وسيتم سحب قوات عسكرية اسرائيلية واعادة توزيع القوات الاسرائيلية المتبقية بحيث ترابط في مواقع امنية معينة ، وستشتمل الاتفاقية ايضا على ترتيبات لضمان الامن الداخلي والخارجي والنظام العام ، ويتم انشاء قوة بوليس محلية قادرة بامكانها ان تضم مواطنين اردنيين ، والى جانب ذلك تشارك قوات اسرائيلية واردنية في تسيير دوريات مشتركة وفي انشاء نقاط مراقبة لضمان امن الحدود »٠

وفي هذا تأكيدات لمسؤولية اسرائيل عن الامن في المنطقتين اكثر بكثير حتى مما طلبه مشروع بيغن ذاته ٠ وتراجع كامل عن مطالبة مشروع السادات بالانسحاب الاسرائيلي من الضفة والقطاع الى الحدود التي حددتها اتفاقيات الهدنة العام ١٩٤٩ ٠

ثم تنص الفقرة ذاتها على انه « عندما يتم انشاء وتنصيب سلطة الحكم الذاتي للمجلس الاداري في الضفة الغربية وغزة ستبدأ فترة الخمس سنوات الانتقالية » ٠

اي ان الفترة الانتقالية التي يجب « الا تزيد عن خمس سنوات » في مشروع السادات ، والتي هي خمس سنوات في مشروع بيغن قد مددت هنا فأصبحت تقريبا غير محددة المدة ٠ فالسنوات الخمس المنصوص عليها في الفقرة سيبدأ احتسابها بعد ان تتم الترتيبات المشار اليها آنفا ، والتي لم تحدد مدة زمنية لاتمامها ٠

اما الوضع النهائي للضفة وغزة فسيبدأ التفاوض بشأنه « بأسرع ما يمكن ولكن في موعد لا يتجاوز السنة الثالثة بعد بدء الفترة الانتقالية » ٠ وسيكون هدف التفاوض « تقرير

الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقته بجيرانه ولابرام معاهدة سلام بين اسـرائيل والاردن مع انهاء الفترة الانتقالية » ٠

ولا بد ان نأخذ بعين الاعتبار ، ان الفترة الانتقالية غير محددة المدة في واقع الامـر ٠ وان السيادة والامن خلالها وكذلك الاشراف على سلطة المجلس الاداري هي من حـق اسرائيل ٠ وان التفاوض سيتم بشأن مستقبليهما بين ممثلي اسـرائيل ومصـر والاردن وسكان المنطقتين المنتخبتين في ظل الوضع المشار اليه ٠ فلنا ان نتصور اي مستقبل يمكن ان ينبثق عن ذلك الوضع ، الذي ستكون خلاله العلاقات بين اسرائيل ومصر قد بلغـت اوج تلاحمها ، ويفترض ان تقوم فيه علاقات اخرى حميمة بين اسرائيل وجيرانها الاخرين ، لو قبل الاخرون ما يعرضه عليهم السادات ! ٠

شرطة عربية لحماية امن اسرائيل

والاتفاقية نفسها قد نصت على انه « من بين الامور الاخرى ستتوصل المفاوضات الـى حل لموقع الحدود وطبيعة ترتيبات الامن » ، فأي شيء اكثر من هذا كان يطمح اليه مشروع بيغن ،واية قيمة تبقى لجملة وردت بعد كل ذلك تقول لا ٠٠٠ ولا بد ايضا للحـل الـذي يتم التوصل اليه ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة ٠٠

ولا تدع الاتفاقية رغم كل التحفظات السابقة اي مجال للالتباس حول دور اسرائيل فـي مستقبل المنطقتين حتى بعد انهاء الفترة الانتقالية ، اذا كان سيقدر لها ان تنتهي ، فقـد نصت على ما يلي :

« ستتخذ كافة الاجراءات الضرورية والاحكام لضمان امن اسرائيل وجيرانها خـلال الفترة الانتقالية وبعدها ، وللمساعدة على توفير مثل هذا الامن ستشكل سلطة الحكـم الذاتي قوة قادرة من البوليس المحلي من بين سكان الضفة الغربية وغزة ، وستقيم هـذه القوة اتصالات مستمرة حول قضايا الامن الداخلي مع ضباط تعينهم كل من اسرائيـل والاردن ومصر » ٠

ان المعنى الحرفي لهذا الكلام الصريح ، ان الحكم الذاتي سيشترك بدوره في قمع اي نشاط لا ترضى عنه اسرائيل ٠ وان اسرائيل مع مصر والاردن ستعين الضباط المسؤولين عن قضايا الامن الداخلي في الضفة والقطاع ٠ وان هذا سيكون طبقا للاتفاقية وضعـا مستمرا ٠ وهو وضع يوازي وجود القواعد العسكرية ، والمستوطنات الاسرائيلية ، اي السيادة الاسرائيلية الفعلية ٠ وهي امور تتجاوز حتى طموحات مشروع بيغن ٠

و « خلال الفترة الانتقالية » « سيشكل ممثلو مصر واسرائيل والاردن ، وسلطة الحكم الذاتي لجنة دائمة ليقرروا بالاتفاق الخصوصيات والتفاصيل المتعلقة بدخول الاشخـاص المشردين من الضفة الغربية وغزة العام ١٩٦٧ علاوة على الاجراءات الضرورية لمنـع الاخلال بالامن والنظام ، ويمكن لهذه اللجنة ان تعالج القضايا الاخرى ذات الاهتمـام المشـترك » ٠

وهو نص يتطابق مع امثاله من النصوص التي تضمنتها فقرات مشروع بيغن وقـد اضيف اليها وجود ممثلي مصر في اللجنة التي اصبحت هنا رباعية بعد ان كانت ثلاثية٠

وعبارة القضايا الاخرى ذات الاهتمام المشترك ، يمكن ان تستوعب ما اغفل هنا مـن

بنود مشروع بيغن حول الجنسية وتنقل السكان ونشاطهم الاقتصادي الحـــر والتملك والاستيطان ، يؤكد ذلك ان المستوطنات المقامة في الضفة والقطاع باقيـــة وان عمليـــة الاستيطان مستمرة ٠

واخر الفقرات الخاصة بالضفة والقطاع في الاتفاقية نصت على ما يلي :

« ستعمل مصر واسرائيل معا بالتعاون مع الاطراف المعنية الاخـــرى للاتفاق علـــى الاسس الاجرائية الكفيلة بايجاد حل لمشكلة اللاجئين بصورة سريعة وعادلة ودائمة » ٠

وهو نص لا يبعث اية دهشة بعد كل ما تقدمه من نصوص ٠ فقد حذف حـــق العودة ، وحذف اي اهتمام سياسي ، مجرد اهتمام ،بمليونين ونصف مليون فلسطيني يعيشون خارج وطنهم ، وحرر السادات اسرائيل من اي التزام تجاههم بما في ذلك الالتزامـــات التـــي فرضتها قرارات الامم المتحدة منذ العام ١٩٤٩ الى اليوم ، وتعهد هو واسرائيل بايجاد حل لمشكلة اللاجئين ، قد يكون ابادتهم وقد يكون توطينهم وقد يكون اي شيء ، الا الشـــيء الوحيد المطلوب وهو ان يكون لهم وطنهم وان يكونوا مواطنين فيه ٠

لمن السيادة ؟

والان فلنبحث عن المسألة الرئيسية وهي مسألة السيادة على الضفة والقطاع ٠ لقـــد غابت غيابا كليا عن نصوص الاتفاقية كلها ولم يرد لها ذكر ٠

وليس في الاتفاقية اي كلام صريح او ملمح يتضمن احتمال ان تكون السيادة عليهـــا لسكانها او لاية جهة عربية ، وفيها على النقيض من ذلك كلام صريح لا لبس فيه حـــول وجود قواعد عسكرية دائمة في المنطقتين لا تحد وجودها اية مدة محددة ٠ وفيها كـــلام صريح وواضح حول مسؤولية اسرائيل عن الامن فيها ، وحول مسؤولية الحكم الذاتـــي عن قمع اي اعمال تمس امن اسرائيل ، وضمانات لهذا القمع يمثلهـــا وجود ضبـــاط اسرائيليين يشرفون على عمل الشرطة المحلية ٠ وفيها كلام صريح وواضح عن مراقبـــة اسرائيلية دائمة على حدود الضفة مع الاردن ، بالاضافة للقواعد العسكرية الدائمة فيها٠

فلنعد قراءة الفقرة ذات الرقم ٢٤ من مشروع بيغن والتي نصت حرفيا على ما يلـــي : « ان اسرائيل تتمسك بحقها ومطالبتها بالسيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، وفـــي ضوء هذه المطالبة تقترح من اجل المحافظة على الاتفاق والسلام ان تترك القضايا المتعلقة بالسيادة في هاتين المنطقتين مفتوحة » ٠

ولنر الحقيقة الساطعة : لقد قبل السادات مشروع بيغن بتمامه ٠ المجلس الاداري ذو الصلاحيات الادارية فقط ، واستبعاد شعب فلسطين عن اية معالجة لقضيته ، وتجاهـــل حقوقه ومطالبه بما فيها الحقوق والمطالب التي اقرتها قرارات الامـــم المتحـــدة ، ودوام السيادة الاسرائيلية على الارض الفلسطينية ، والغاء حق العودة الخ ٠٠٠

ولم يقبل بيغن حتى اقتراح السادات بان تظل القدس موحدة بينما يديرها مجلس بلدي مشترك ، لم يقبل اي مساس بوضع القدس القائم الان من وجهـــة النظر الاسرائيليـــة باعتبارها جزءا من اسرائيل وعاصمة لها تخضع خضوعا كاملا للقوانين الاسرائيليـــة ولا تجوز مناقشة اية مسألة تتعلق بهذا الوضع ٠

والجنسيـــة ٠٠٠؟

وكذلك فان مسالة الجنسية الفلسطينية لا يرد لها ذكر في الاتفاقية المعلنة ٠ وان كانت ستستوقفنا جملة وردت في خطاب السادات امام مجلس « الشعب المصري » وهو يقـــوم بعملية « مكياج » للاتفاقية التي وقع عليها ، قال السادات : « يتم على الفور تشكيل قوة شرطة فلسطينية محلية قوية من الفلسطينيين سكان الضفة والقطاع » ٠ ونص على انهـــا قد تضم ايضا مواطنين اردنيين وذلك على اساس ان عددا من الفلسطينيين في الضفـــة والقطاع قد حصلوا على الجنسية الاردنية ٠

الا تذكرنا الاشارة الى العدد من الفلسطينيين الذين حصلوا على الجنسية الاردنيـــة و « تنازلت » اسرائيل بالسماح لهم في الاشتراك في قوة الشرطة التي يشرف عليهـــا ضباطها ، الا تذكرنا الاشارة هنا بالبنود الواردة في مشروع بيغن حـــول تخيير سكـــان المنطقتين بين الجنسية الاردنية او الاسرائيلية ٠

فهل نجانب الحقيقة بعد كل ما تقدم ، اذا قلنا ان الرئيس السادات قد بـــاع قضية فلسطين ، واستهان بحقوق شعبها ، وتعهد بان تضم مصر جهودها الى جهـــود اسرائيـــل لمحاربة تلك الحقـــوق ٠

فما الثمن الذي قبضه مقابل ذلك ؟ لنقرأ ما جاء في الاتفاقية الاولى تحت عنـــوان مصر واسرائيل ٠ ثم لنقرأ الاتفاقية الثانية الخاصة بالتسوية بين مصر واسرائيل ولنر هل كان بالفعل ثمنا مجزيا يستحق ان يفرط السادات ومن اجله بما تمسكت به مصر مـــن حقوق الشعب الفلسطيني حتى في عهود نظامها الملكي وحكوماتها الاقطاعية العتيقة ؟٠

مبادىء عامـة

تضمنت الفقرة ـ١ـ من القسم الخاص بمصر واسرائيل في الاتفاقية الاولى تعهد كـــل منهما بعدم اللجوء الى التهديد باستخدام القوة ، وتضمنت الفقرة ـ٢ـ موافقة الطرفيـــن على « التفاوض بنية حسنة من اجل ابرام معاهد سلام بينهما في غضون ثلاثة اشهر » و « دعوة الاطراف الاخرى في الوقت ذاته الى بدء التفاوض وابرام معاهدات سلام مماثلة « اي الى المزيد من الاتفاقات المنفردة تضاف الى الاتفاق المنفرد الذي ابرمه السادات » ٠

وتحت بند « مبادىء عامة » عددت الاتفاقية المبادىء التي ستحكم معاهـــدة السلام المقبل بين مصر واسرائيل وكل من جاراتها الاردن وسوريا ولبنان » ٠

والمبادىء الحاكمة للمعاهدات ، كما عددتها الاتفاقية هي : الاعتراف التام ، والغـــاء المقاطعة الاقتصادية ، وضمان الدول المعنية بان يتمتع مواطنو الدول الاخرى بالحمايـــة القانونية التي يوفرها مبدأ التكافؤ والانصاف ، كما اوجبت تلك المبادىء على الاطـــراف المتعاهدة « ان تستقصي احتمالات التنمية الاقتصادية في نطاق معاهدات السلام النهائية وذلك بغرض الاسهام في تعزيز جو السلام والتعاون والصداقة التي هي الهدف المشترك »٠

ونصت على انه « يجوز انشاء لجان تعويض لتسوية كل المطالب المالية من الجانبين »٠

وهذا النص حل اولا محل مطالبة مشروع السادات لاسرائيل بدفع تعويضات عـــن الاضرار التي الحقها الجيش الاسرائيلي بالمدنيين والمنشآت المدنية ٠ وفتح الطريق ثانيـــا

من خلال الحديث عن « المطالب المالية من الجانبين » امام اسرائيل كي تطالب من جانبها بحقوق مالية في الاراضي المحتلة تدعيها لنفسها · كأن تطالب مثلا بتعويض مناسب عن « خسارتها » لآبار النفط في سيناء ·

واوجبت « ان تدعى الولايات المتحدة الى المشاركة في المحادثات المتعلقة بخصوصيات وجزئيات عملية تنفيذ الاتفاقيات ووضع جدول زمني لتنفيذ التزامات الاطراف » ·

واذن فقد حددت الاتفاقية بجلاء كامل هدفا اخر غير تسوية المسائل المعلقة وهو « تعزيز جو السلام والتعاون والصداقة » مع اسرائيل ·

وهو النص الذي اكد معلومات الفرقاء العرب الذين تابعوا محادثات كامب ديفيد وما سبقها ، عن انصراف القمة الى وضع اسس وخطط تحالف ساداتي صهيوني ، وجعل الرئيس العربي السوري حافظ الاسد يعبر في افتتاح قمة الصمود والتصدي في دمشق عن تخوفه من هذا التحالف واهدافه الموجهة ضد سوريا والعرب الاخرين ·

اما الاطار الثاني للسلام الذي جرى التوقيع عليه في كامب ديفيد والخاص بالتسوية المنفردة بين مصر واسرائيل فقد تضمنت اتفاقيته بنودا عامة تطابق بعض البنود العامة الواردة آنفا ، ثم حددت المسائل التي تم اتفاق عليها ·

سيادة اسمية ،

نصت الفقرة ١ على « ممارسة السيادة المصرية الكاملة حتى الحدود الدولية المعترف بها بين مصر وبين فلسطين التي كانت واقعة تحت الانتداب » ·

وفي النسخة التي نشرت في اسرائيل استبدلت كلمة فلسطين بعبارة (الاراضي المقدسة) زيادة في تغييب اسم فلسطين حتى من التاريخ المنقضي ·

ونصت الفقرة ب على « انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من سيناء » ·

وهذان النصان هما المكسب الوحيد الذي كسبه السادات مقابل التنازلات الوطنية والسياسية والاقتصادية والعسكرية الهائلة التي قدمها · نقول « النصان » بالمعنى الحرفي للكلمة ، ذلك ان مضمونهما كما تحدده الاتفاقية لا ينطبق على الفاظهما البراقة·

« ممارسة السيادة الكاملة » ينقضها كل ما في الاتفاقية فيما عدا النص · والانسحاب الاسرائيلي من سيناء يصبح شكليا امام حرمان الجيش المصري من التواجد فيها وامام المواقع التي ستظل من حق اسرائيل استخدامها وامام محطات «الانذار» الاميركية ··الخ·

فهناك بعد النص على الانسحاب مباشرة نص في الفقرة جـ يعطي لاسرائيل حق استخدام المطارات التي ستتخلى عنها « الواقعة بالقرب من العريش ورفح ورأس النقب وشرم الشيخ ·· » وينص على ان ذلك الاستخدام يتم للاغراض المدنية فقط ·

ويعطي البند التالي د لاسرائيل حق استخدام خليج السويس وقناة السويس ومضيق تيران وخليج العقبة وحق تحليق الطائرات فوقها « بلا عائق او مانع » ·

ويوجب البند هـ انشاء طريق رئيسي بين هذه المواقع في سيناء وبين الاردن يمر عبر

النقب من قرب ايلات ، كما يوجب على مصر والاردن ان تضمنا حريـــة استخـــدام اسرائيل لـــه ٠

ويحدد البند و سبل مراقبة القوات العسكرية ولنقرأ الفقرات الخاصة بهذه النقطـــة بكاملهـــا :

« ترابط قوات مسلحة مصرية لا تزيد عن فرقة واحدة ، آلية او مشاة في حدود منطقة تمتد الى ما يقرب من ٥٠ كلم الى الشرق من خليج السويس وقناة السويس » ٠

وهذا يعني ان القوات المصرية المسلحة ممنوعة من التواجد على امتداد اكثر مـــن ثلاثمائة كلم من طول ارض سيناء ٠ .

« ب ـ تقوم قوات الامم المتحدة والشرطة المدنية المزودة بالاسلحة الخفيفة تقوم وحدها بتأدية وظائف الشرطة العادية وترابط في حدود منطقة تمتد الى الغرب من الحدود الدولية وخليج العقبة يتراوح اتساعها بين ٢٠ و ٤٠ كلم » ٠

هذا يعني ان الشرطة ذاتها محرومة من التواجد الا في مناطق محددة من سيناء وان تواجدها مرهون بوقوعها تحت رقابة قوات دولية ٠

على جانبي الحدود

وما دامت القوات المصرية محرومة من التواجد في اكثر من ٣٠٠ كلم متر من سينـــاء ومحرومة من التواجد الفعلي في الخمسين كلم الباقية فقد قبلت اسرائيل البنـد ج وهذا نصـه :

« ج ـ في المنطقة التي تقع في حدود ثلاثة كيلو مترات الى الشرق من الحدود الدولية تتواجد قوات عسكرية اسرائيلية محدودة لا تزيـــد على ٤ كتائب مشاة بالاضافة الـى مراقبين دوليين » ٠

وفي هذا يأتي التطبيق الفذ لما ورد في مشروع السادات عن المناطق المنزوعة السـلاح والمخففة السلاح على الجانبين ٠ ثلاثة كيلو مترات مخففة على الجانب الاسرائيلي اي أقل من مرمى اي رشاش مقابل ٣٢٠ كلم منزوعة السلاح و ٥٠ كلم مخفضة في سيناء ، اي مقابل نزع سلاح سيناء بكاملها ٠

اما محطات الانذار المبكر اي القوات الاميركية وكذلك قوات الامم المتحدة فستتواجد في:

« أ ـ في جزء من تلك المنطقة من سيناء التي تمتد في ٢٠ كلم من البحر الابيـــض المتوسط المجاورة للحدود الدولية » ٠

« ب ـ في منطقة شرم الشيخ لضمان حرية المرور عبر مضائق تيران » ٠

ثم ان الترتيبات الخاصة بنزع سلاح سيناء هي ترتيبات دائمة لا تحدها اي مـــدة ومثلها الترتيبات الخاصة بوجود القوات الاميركية او « محطات الانذار المبكر » على حـد تعبير الاتفاقية على الارض المصرية التي تزيد مساحتها مرتين ونصفا عن مساحة فلسطين٠ وقد نص على انه لا تسحب هذه القوات ما لم يوافق مجلس الامن التابع للامم المتحـدة

على هذا السحب بقرار اجماعي من الدول الخمس الاعضاء الدائمة في المجلس ٠

فأين هي « ممارسة السيادة الكاملة » على سيناء ؟ أليس الامر مجرد اعلان لفظي قبلته اسرائيل ، لان الواقع الذي تفرضه الاتفاقية هو غياب هذه السيادة ، وحلول القـــوات الاميركية محل القوات الاسرائيلية التي تنسحب٠ ولان اول مرحلة منالانسحاب الاسرائيلي ينبغي ان يتبعها على الفور « علاقات طبيعية بما في ذلك اقامة علاقـــات دبلوماسيـــة واقتصادية وثقافية ٠ » وبما في ذلك « انهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز التي تعترض حرية تحرك السلع والاشخاص » ٠ وبما في ذلك « الحماية المتبادلة للمواطنيـــن بموجب القانون » ٠ وهي علاقات لا يقوم مثلها بين مصر واي من شقيقاتها العربيات ٠

مسائـل معلقـة

وتبقى بعد ذلك المسائل التي قيل انها ظلت معلقة وقد تحدثت عنها الرسائل المتبادلة بين الاطراف الثلاث وهي على التوالي :

١ : مسألة المستوطنات ٠

وقد تمت تسويتها وصوت الكنيست الاسرائيلي بالموافقة على « ازالة المستوطنـــات الاسرائيلية من مناطق سيناء الشمالية والجنوبية » ٠ وتم ذلك بالفعل بناء على الحـــاح السادات ، الذي قال في احدى رسائله الى الرئيس كارتر « جميع المستوطنين الاسرائيليين يجب ان يسحبوا من سيناء وفق جدول زمني خلال المهلة المحددة لتنفيذ معاهدة السلام »٠

غير ان السادات لم يقل في رسائله كلمة واحدة عن المستوطنات في غـــزة والضفـــة الغربية ، بينما يفهم من نصوص الاتفاقية انها ستظل باقية بل ستظل ايضـــا حركـــة الاستيطان مستمرة ٠

وهذا ما جلاه بوضوح خطاب كارتر امام الكونغرس الاميركي عشية توقيع الاتفاقيتيـــن الذي قال : سوف تقرر قضية اقامة مستوطنات جديدة في المستقبل » ٠

وللعلم فقط فانه يوجد في الضفة الغربية حتى الآن اربع وسبعون مستوطنة ، وتوجـــد تسع مستوطنات في قطاع غزة ، يضاف اليها التوسع الذي شمل مدينة القدس ٠

٢ ــ مسألة القدس ٠

كتب مناحيم بيغن الى كارتر الرسالة التالية حول الموقف الاسرائيلي من القدس :

« لي الشرف ان ابلغك ، فخامة الرئيس ان البرلمان الاسرائيلي « الكنيست » نشر في ٢٨ حزيران ١٩٦٧ وابرم قانونا يقضي بأن الحكومة مخولة الصلاحية لان تطبق القانـــون والسلطات التشريعية والادارية للدولة على اي جزء من ارض اسرائيل ، كما حدد فـــي ذلك المرسوم ٠

وعلى اساس هذا القانون اصدرت حكومة اسرائيل مرسوما في تموز ١٩٦٧ يقضي بان القدس هي مدينة واحدة غير مجزأة وعاصمة دولة اسرائيل » ٠

اما ما كتبه انور السادات فقد ردده حرفيا امام مجلس الشعب المصري ، وفيه يقـــول حقا : « ان القدس العربية يجب ان تكون تحت سيادة عربية » لكنه يقول فيه حرفيا ايضا:

« ان المهام الجوهرية في المدينة يجب ان تكون غير مجزأة ، وفي استطاعة مجلس بلدي مشترك مؤلف من عدد متساو من الاعضاء العرب والاسرائيليين ان يشرف على تنفيذ هذه المهام · وبهذه الطريقة ستبقى المدينة غير مجزأة » ·

فهل يحتاج هذا القول الى ايضا حول مدى تطابقه مع اصرار اسرائيل على ان تبقى القدس مدينة واحدة غير مجزأة وعاصمة لدولة اسرائيل كما ورد في رسالة بيغن ؟ وهل حديث السادات عن سيادة عربية على القدس بعد هذا التنازل سوى ذر للرماد في العيون اسوأ من السيادة التي اعطيت له على سيناء من غير ان تمارسها مصر ؟

٣ ـ الشعب الفلسطيني ·

رأينا كيف غاب وجود هذا الشعب سياسيا عن كامل الاتفاقيتين · ويبدو ان اسرائيل لم تكتف بذلك بل اصرت على تغييبه لفظيا ايضا ، وهذا امر توضحه الرسالة التالية الموجهة من كارتر الى بيغن ·

تقول رسالة كارتر لبيغن :

« عزيزي رئيس الوزراء ، اثبت هنا انك ابلغتني بما يلي :

أ ـ في كل فقرة من وثيقة اطار العمل المتفق عليه يرد التعبيران : الفلسطينيون او الشعب الفلسطيني ، يفسران ويفهمان من قبلكم على انهما يعنيان فلسطينيين عربا ·

ب ـ في كل فقرة يظهر فيها التعبير : الضفة الغربية يفهم وسيفهم من قبل حكومة اسرائيل على انه يهودا والسامرة » · وقد صمت السادات صمتا مطبقا ازاء هذه الرسالة ·

تنازلات امنية

لقد تنازل السادات خلال مفاوضات كامب ديفيد عما ورد في مشروعه حول :

١ ـ تحديد نوعية الاسلحة التي يتسلح بها الطرفان ·

والحقيقة انه فعل ذلك من جانب واحد ، وابقى الجيش المصري بغير موارد جدية للتسليح بينما حظيت اسرائيل بفيض من الحجوم والانواع المتطورة من الاسلحة الاميركية لم يسبق لها مثيل في تاريخ المنطقة كما يعرف كل من يعنيهم الامر ·

٢ ـ الالتزام بالتوقيع على المعاهدة الدولية لمنع انتشار الاسلحة النووية ، والالتزام بعدم حيازتها او انتاجها ·

اي ان الباب ظل مفتوحا امام الاحتمالات المتوفرة لاسرائيل في هذا المجال ·

٣ ـ وجود محطات الانذار المبكر على جانبي الحدود ·

فقد وافق على وجودها على الارض المصرية فقط ، وفوق مساحات ما كان بيغن ذاته يحلم بها ·

٤ ـ التعهد بقبول الاختصاص الالزامي لمحكمة العدل الدولية بالنسبة للمنازعات

الناجمة عن تنفيذ او تفسير الارتباطات المتعاقد عليها · وقد ظلت الولايات المتحدة هـي الراعي لتنفيذ الاتفاقيات كما كانت هي الراعـي لاعدادها ·

والان نتساءل اية ديماغوغية اعلامية تستطيع ان تستر هذه التنازلات جميعها ·

الا يمكن القول من غير ان نخشى الوقوع في الخطأ ان تحليل ومقارنة النصـوص الواردة في مواثيق كامب ديفيد يكشفان ان الرئيس السادات قد قبل مشروع بيغن بتمامه واضاف اليه تعهداته بان تضمن مصر تطبيقة لصالح اسرائيل ؟

وامام هذه النصوص فان ديماغوغية الاعلام الحكومي المصري وتصريحات المسؤوليـن المصريين تصبح مفضوحة حين تتحدث بادعاء مضحك عن المواقف المبدئية للرئيس السادات وعن تمسكه بالمطالب التي ضمنت حقوق الشعب الفلسطيني ، وعن رفضه ان يقايـض استرداد سيناء بحقوق الشعب الفلسطيني ·

والحقيقة انه اجرى مقايضة اقل شأنا : باع بموجبها الشعب الفلسطيني وارضـه وحقوقه مقابل اعلان السيادة الاسمية على سيناء ليس الا ·

وتصبح مفضوحة ايضا الادعاءات الحكومية المصرية والاميركية والاسرائيلية التـي تزعم ان مفاوضات كامب ديفيد قد انتهت الى ارساء اسس سلام عادل ووطيد في الشرق الاوسط · فالاتفاق الذي تم التوقيع عليه لا يجافي فقط اي مقياس من مقاييس العدالة ، بل إنه ايضا يدع مسألة احلال السلام بعيدة المنال · فالذين ازدهوا بعزلتهم في كامـب ديفيد ، ووضعوا اسس صياغة مستقبل المنطقة على هواهم نسوا كل حقائق الواقـع القائم المرتبطة بالحقوق العربية المصرية والسورية وبالحقوق الفلسطينية ، ونسوا ايضـا قوة الكفاح العربي من اجل هذه الحقوق وظنوا ان نصوصهم ستكون بديلا لقوانيـن الواقـع ·

واذا قصرنا الحديث على ما يتعلق بقضية فلسطين وحدها فاننا سنلاحظ ان مشروع بيغن والاتفاق الجديد المطابق له يتجاهلان قضية فلسطين بما هي قضية شعب يكافح بغير هوادة من اجل حريةوطنه واستقلاله ·

والمشروع والاتفاق الجديد يتجاهلان منظمة التحرير الفلسطينية ، ويضعان الاسس ،التي يفترض وفق الاتفاق ان تتضافر جهود مصر واسرائيل من اجل ارسائها ، لمحاربة المنظمـة وحرمانها من ان تلعب اي دور في تقرير مصير شعبها ·

ويتجاهلان ليس فقط مستقبل ومصير الشعب الفلسطيني المحروم من الاقامة في وطنـه بل يتجاهلان ايضا مجرد وجود هذا الشعب الذي ملأ الدنيـا وشغـل النـاس بصمـوده البطولـي ·

ويتصوران ان البنود التي اتفق عليها الرئيس السادات مع اسرائيل واميركا يمكن لها ان تقيد حركة الشعب الفلسطيني التاريخية وتوقف كفاحه من اجل استقلال وطنه وحريته وترغمه على ان يخضع لمشيئة الذين تآمروا عليه ، وان يرضخ الى حد الموافقة علـى تكوين قوة شرطة من ابنائه تأتمر بأمر ضباط بيغن والسادات لتحارب العمل الثـوري لابناء شعبها ، كما نص الاتفاق الجديد ·

والامر على هذا النحو قد يبعث من احد جوانبه على الاحساس بالمرارة ازاء الحـال

التي انتهى اليها الرئيس السادات ، ولكنه يبعث ايضا على السخرية من اوهامه واوهام الذين ابرموا معه الاتفاق حين تصوروا ان الشعب الفلسطيني سيكف عن الكفاح ٠

ولعلهم لم يسألوا انفسهم ذلك السؤال البسيط : ما الذي سيخسره ابناء الشعب الفلسطيني اذا واصلوا كفاحهم ؟ واذا شددوه ؟ هل سيخافون ان يفقدوا عبوديتهم للواقع الذي فرضه عليهم الرئيس السادات والحكام الاخرون من شاكلته ، ام انهم سيحرمون من المصير الذليل الذي يرسمه لهم الاتفاق الجديد ٠

ثم اليس من المدهش ان الرئيس السادات وهو يدعي انه رجل عصري ومتفهم ويقدم نفسه للعالم على هذا الاساس ، قد قبل اتفاقا من هذا النوع الذي يذكر بالاتفاقات التي كان يفرضها الغزاة المستعمرون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الاميين الجهلة من شيوخ القبائل البدائية والمشيخات المغرقة في العزلة ٠ وان يقبل لارض الشعب الفلسطيني مصيرا اسوأ من المصير الذي قاومه سلاطين بني عثمان ، وان يعطي لنفسه ليس فقط حق الزام مصر بالتخلي عن نصرة الشعب الفلسطيني ، وليس فقط حق تقديم التنازلات باسم ذلك الشعب ، بل ايضا واجب العمل الى جانب اسرائيل لقهر ذلك الشعب واذلاله وحرمانه من حقوقه الوطنية كافة ٠

والامر بعد كل هذا لم يأت مصادفة ، فطريق التنازلات الذي ابتدأه الرئيس السادات كان من شأنه ان يقود فقط الى مثل هذه النتائج المذلة لمصر ٠ وان يدفعه الى كامب ديفيد وهو في وضع لا يفرض على اصدقائه القدامى والجدد حتى مجرد ان يجاملوه ليستروا ماء الوجه ٠

وقد انتهت مفاوضات كامب ديفيد بتنازلات جديدة قدمها الرئيس انور السادات لكل من الولايات المتحدة الاميركية واسرائيل ٠ وهي تنازلات تناولت امورا تخص المطالب الوطنية المصرية المحضة ، فيما يتعلق بالاراضي المصرية وبتطبيق حقوق السيادة الوطنية عليها ، مقابل اعلان ديماغوغي لفظي عن الاعتراف بحقوق السيادة ، وتناولت امورا اخطر منها تخص ارض الشعب الفلسطيني بتمامها ومستقبله بتمامه ٠

واذا شئنا ان نصف النتائج التي توصل اليها المتفاوضون ، بكلمات موجزة ٠ يصح ان نقول : ان الرئيس المصري قد عقد مع زميله رئيس الوزراء الاسرائيلي صفقة ، ألغى بموجبها كل تعهداته السابقة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، واستهان بصورة فظة بكفاح وتضحيات ومطالب وامال الشعب الفلسطيني وبكفاح وتضحيات ومطالب وآمال الشعب المصري وحركته الوطنية ، التي ناضلت طيلة عشرات العقود جنبا الى جنب مع الشعب الفلسطيني من اجل ضمان حقوقه ٠ وحصل في مقابل ذلك على ترضية تسمح له بأن يقيم وجودا رمزيا للجيش المصري على خمسين كيلو مترا من صحراء سيناء شرقي قناة السويس ، وجودا رمزيا للشرطة المصرية على عشرين كيلو مترا اخرى ، تقوم فيها الشرطة المصرية بواجباتها جنبا الى جنب مع الشرطة الدولية ٠

ولسنا نعرف كيف سيجد المدافعون عن سياسة الرئيس السادات ما يقولون بشأن الاتفاق الذي عقده حول مستقبل صحراء سيناء ، ولكننا نعرف انهم لن يجدوا سوى الكلام السخيف للحديث عن الاتفاق الذي عقده حول مستقبل قضية فلسطين ٠

لقد خطا الرئيس المصري في كامب ديفيد الخطوة الاخيرة في المنحدر الذي ابتدأه منذ وضع نصب عينيه هدف استرضاء اميركا واسرائيل ، وعمل كل ما يلزم من تخريب

للاوضاع السياسية والاقتصادية داخل مصر ولعلاقاتها مع الدول الاشتراكية الصديقة ، في سياق تطبيق هذا الهدف · ورضي في هذا السياق بأن يحول مصر الى اداة لتنفيذ السياسة الاميركية ، لحماية وتوسيع المصالح الاميركية في البلاد العربية وافريقيا ، وللدخول في مباراة مع اسرائيل ينافسها فيها على هذا الدور · وهي المباراة التي انتهت بربط مصر واسرائيل كليهما لجر عربة تلك المصالح ·

لقد رضي الرئيس السادات ، ليس فقط باخراج مصر من معركة الصراع مع الصيهونية واسرائيل بل رضي ايضا بأن يدخلها في تحالف معهما ، موجه ضد حركة التحرر الوطني العربية بفصائلها وانظمتها كافة · ورضي بان يبيع حقوق الشعب العربي الفلسطيني بما فيها تلك الحقوق التي دافعت عنها حكومات مصر في العهد الملكي الاقطاعي ·

ورضي بأن تتحكم اسرائيل ، قبل غيرها واكثر من غيرها ، في صياغة مستقبل الشعب الفلسطيني بموافقة السادات ومباركته ، ومساعدته ايضا ·

فكيف يندهش السادات حين يرفض العرب ذلك المصير ؟·

محمود عزمي

حرب تشرين :
تخلف الاستراتيجية وتطور التقنية والتكتيك

« ان الحرب اداة من ادوات السياسة ، وهي تحمل بالضرورة طابع هذه السياسة » ·

كلاوزفيتز

انقضت خمس سنوات فقط على الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة ، ورغم ذلك فأن الزمن ، الفاصل بين ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، وذكراه الخامسة ، يبدو اطول بكثير من مجرد سنوات خمس · وحدث الحرب المذكورة ، يبدو حدثا تاريخيا قديما عاصره جيل سابق · ذلك لان ركام الاحداث المتلاحقة ، بطريقة تبدو متناقضة الاتجاه مع الآمال العربية ، التي ارتفعت مع منجزات الجيشين المصري والسوري في الايام الاولى من الحرب ، بنى جدارا نفسيا سميكا من الاحباط المعنوي في الوجدان العربي ، جعل من انتصارات المرحلة الاولى من الحرب المذكورة ذكرى عزيزة باهتة ، ربما كان من الافضل عدم استعادتها من الذاكرة بقوة ، تمشيا مع المتطلبات النفسية في التعايش مع الواقع المؤلم الراهن ·

بل ربما يشعر البعض ، على ضوء واقع النتائج المترتبة على الحرب الرابعة حتى الآن ، أن الحديث عنها مجددا يتضمن نوعا من خداع النفس ، لاخفاء مرارة الواقع العربي الآن ، بل ربما تمادى البعض في شعوره بالاحباط والمرارة وذهب الى حد القول بأن الحرب كانت مجرد خدعة ، قصد بها تغطية او تبرير وصولنا الى الواقع الراهن ·

ولكن ، مثلما كان من الخطأ المبالغة في الشعور بالفرح والزهو في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، الى حد نسيان كارثة حزيران (يونيـــو) ١٩٦٧ ، واعتبارها مجرد حدث طارىء غسلته صواريخ « سام ـ ٦ » ، و « موليتكا » عام ٧٣ ، فمن الخطأ ، ايضا ، النظر الى حرب تشرين على أنها كانت مجـرد حدث طارىء ، أو حلم ليلة صيف ، او خدعة كبرى ٠

ذلك لان حرب تشرين الاول (اكتوبر) ٧٣ ، مثلها مثل حرب حزيران (يونيو) ٦٧ ، حلقة من حلقات الصراع العسكري العربي ـ الاسرائيلي ، وهي لـــم تكن الحرب الاولى بين العرب واسرائيل ، ولن تكون الاخيرة يقينا ٠

ومن ثم فان دراستها بصورة علمية ، يشكل ضرورة هامـــة على طريـــق الاستيعاب العقلاني لخبرات وقوانين الصراع المسلح العربي ـ الاسرائيلـي ، توصلا الى تخطيط استراتيجي اكثر صحة وكفاءة ، ضمن تحديد اكثر جذرية للاهداف السياسية ، المفترض تحقيقها بواسطة الحرب ، كأداة رئيسية مـــن ادوات السياسة ٠

ـ بل انه ، كلما تقادم الزمن نسبيا بأي حرب من الحروب ، كلما اصبح مـــن الممكن دراستها بصورة افضل ، واكثر موضوعية وهدوء ٠ نظرا لتوفر مزيد من المعلومات عن كلا الطرفين المشتركين فيها وابتعاد العوامـــل الاعلاميـة ، ومبررات الحرب النفسية ، والاجراءات المضادة لها ، وربما ايضا ابتعاد بعض الشخصيات السياسية والعسكرية ، ذات المصلحة في ترويج تصورات او مفاهيم او نتائج معينة ، عن دائرة الضوء والتأثير على التاريخ الصحيح لمجرى الحرب والعوامل التي تحكمت فيهـا ٠

وعلى ضوء ما تقدم ، سنحاول ان نجري تقييما نقديا لحرب ١٩٧٣ ، خاصة على مستوى الاستراتيجية العليا ، والاستراتيجية العسكرية ، على امل التوصل لوعي استراتيجي افضل ، قد يمارس تأثيره على مجرى الحرب الخامسة او السادسة ، في مستقبل الصراع الطويل المرير ، بين الامة العربيـة والعـدو الصهيوني والامبريالي ٠

خبرات الاستراتيجية العليـا

□ **افتقاد المشاركة القومية المسبقة :** اننا حين نطلق على حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ اسم الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة ، فاننا في الواقع نستخدم كلمة عربية بشيء من التجاوز العلمي ، لاسباب تتعلق بمعنويات الامة العربية ، او كنوع من التقدير للمشاركة العربية اللاحقة ٠ ولكن حقيقة الامر ، أن الحرب كانت حربا مصرية ـ سورية ، سواء من حيث تحديد هدفها السياسي،

او اتخاذ القرار الاستراتيجي بشنها ، او التخطيط والاعداد لها ، او البدء فيها ، وتحمل العبء الرئيسي في تنفيذها ، ماديا وبشريا ، وكذلك في تحمل نتائجها المباشرة ، وخسائرها المادية والبشرية الرئيسية ٠

وهذا يعني ان مصر وسوريا خاضتا الحرب ، من موقعهما الجغرافي كدولتي مواجهة ، دفاعا عن مصالحهما الامنية بصورة مباشرة ، وهو دفاع يخدم في حد ذاته المصالح القومية العربية ، من حيث انه يحد من توسع الدولة الصهيونية ويضعف من قوتها ٠

أي أن مصر وسوريا ، خاضتا الحرب في جانبها القومي ، نيابة عن باقي الامة العربية ، الموزعة جغرافيا على عديد من الدول ٠

وهذا يشكل احد التناقضات الاساسية في القطب العربي ، المواجه للقطب الاسرائيلي الموحد القيادة ، والذي حكم الصراع العربي ـ الاسرائيلي منذ بدايته ، وحتى الآن ٠

ومن ثم ، فقد كان من المحتم ان يؤثر هذا الواقع السياسي للقوى العربية ، على تحديد الهدف السياسي للحرب وتخطيط الاستراتيجية العليا لها ، وخاصة من حيث الطبيعة المحدودة لهدف الحرب ، ومن حيث حسابات القوى والموارد المادية والاقتصادية والبشرية ٠

وضمن اوضاع قومية كهذه ، يصبح من المتعذر عملا ، محاسبة القيادات السياسية والاستراتيجية العليا ، بالمقاييس القومية ، بالنسبة للهدف السياسي للحرب ، والتخطيط الاستراتيجي الاعلى لها ٠

ولسنا الآن في معرض شرح ، او مناقشة ، اسباب عدم تطبيق شعار وقومية المعركة ضد العدو الصهيوني بجدية وفاعلية ٠ ولكننا بصدد التأكيد على اهمية هذا الواقع ، بالنسبة لتقييم الهدف السياسي لحرب ١٩٧٣ ، وبالنسبة للاستراتيجية العليا للحرب ، حتى لا يغيب عنا في سياق تحليلنا ، خاصة وان ذلك يشكل في رأينا واحدا من ابرز الخبرات المستفادة في مجال النواقص ، او السلبيات ، التي شابت الحرب ٠

ولا شك أن تغييرا كبيرا كان سيطرأ على الهدف السياسي للحرب ، وكذلك على تخطيطها الاستراتيجي ، فيما لو كانت الظروف التاريخية قد سمحت بتوفر مشاركة قومية عربية فعالة قبيل نشوب الحرب ، نظرا لان الموارد البشرية والعسكرية والاقتصادية العربية كانت ستشكل واقعا ملموسا أمام مخططي الاستراتيجية العليا ، والاستراتيجية العسكرية للحرب المذكورة ، ومن ثم كان مجال خياراتهم سيتسع ويتنوع ٠ كما ان هامش حرية الخيارات القطرية التي حكمت مجرى الحرب ، والمراحل التي اعقبتها ، كان سيضيق

كثيرا ، بحكم كثافة وفاعلية المشاركة القومية في مختلف الاعبـــاء ، وفـــي التخطيط والتنفيذ ٠

وبقي ان نقول ، ان هذا « التقصير » القومي العربي لا يبرره قول بعـــض الدول العربية باختلاف استراتيجيتها تجاه الكيان الصهيوني عن استراتيجيـة دول المواجهة ٠ ذلك لان الانكفاء وراء الحدود القطرية البعيـــدة عـن خطوط المواجهة المباشرة ، احتجاجا ، او انتظارا لتغير سياسة دول المواجهة ، لن يغير من واقع الخطر الصهيوني ٠ بل على العكس ، سيزيد من فرص نجاحه ، بحكم استمرار الضغط على دول المواجهة ٠

كما ان المسارعة عند نشوب الحرب لمساندة الدول المذكورة ، لن تؤدي الى ازالة آثـار عدم المشاركة القومية المسبقة ، ولن تشكل « صك غفران » لهـــذا « التقصير » ٠

وذلك بحكم طبيعة قصر الفترة الزمنية التي تستغرقها عادة الحروب العربية ـ الاسرائيلية ، التي لا تتيح وقتا كافيا لحشد كافة قوى دول العمق العربـــي واستخدامها بطريقة فعالة في المكان والزمان الملائمين ٠

وعلى الرغم من ان حرب ٧٣ كانت اطول الحروب العربية ـ الاســرائيلية ، بعد حرب ١٩٤٨ ، كما انها شهدت اكبر درجـــة من المشاركة العسكريـــة والاقتصادية والسياسية من دول العمق ، التي جرت عقب نشوبها ٠ الا ان ذلك لم يغير من الطبيعة الاساسية للحرب ، من حيث انها كانت قطرية التخطيـــط والتنفيذ والنتائج ، مع كل ما ترتب على ذلك من سلبيات ، اثناء الحـــــرب وبعدهـــا ٠

□ **محدودية الهدف السياسي والاستراتيجي للحرب :** يمكن ان نقول ان الهدف السياسي لحرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، من الجانب العربي ، كـــان في الاساس ، خاصة من جانب مصر بحكم ضخامة ارضها المحتلة في سينـــاء بالقياس لحجم الارض المحتلة في الجولان ، هو الضغط على اسرائيل ، من اجل تنفيذ القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن الدولي عام ٦٧ ، ودفع الولايـــات المتحدة والقوى الدولية عامة للضغط على اسرائيل ديبلوماسيا في الاتجاه نفسه ٠

وخططت الاستراتيجية العليا للحرب ، من أجل تحقيق هذا الهدف ، علـــى اساس توجيه ضربة عسكرية تستهدف اساسا هدم مبدأي « الحدود الآمنة » ، و « قوة الردع » اللذين تستند اليهما نظرية الامن الاسرائيلية بصورة رئيسية، في المرحلة التي تلت حرب ١٩٦٧ ٠

وحول هذه الاستراتيجية العليا للحرب قال الفريق اول « الجمسي » ، وزير الحربية المصري الذي كان يشغل منصب مدير العمليات آنذاك ، في كلمته في

الندوة الدولية لحرب اكتوبر التي عقدت في القاهرة عام ١٩٧٥ ، انه « تم التخطيط لحرب اكتوبر ١٩٧٣ على انها حرب محلية شاملة تستخدم فيها الاسلحة التقليدية فقط ، **ويكون لها اهداف استراتيجية حاسمة تقلب الموازين في المنطقة ، وتهدم نظريات اسرائيل ودعائم استراتيجيتها ، وتمتد زمنيا لفترة تتيح تدخل الطاقات العربية الاخرى ، وتفرض ثقلها على نتائج الحرب · وتحقيقا لذلك ، كان من ضمن اهداف الاستراتيجية العليا للدولة تحدي نظرية الامن الاسرائيلي ، وذلك عن طريق عمل عسكري يكون هدفه الحاق اكبر قدر من الخسائر ، واقناعه ان مواصلة احتلاله لاراضينا يفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعه** ، وبالتالي فان نظريته في الامن القائمة على اساس التخويف النفسي والسياسي والعسكري ليست درعا من الفولاذ يحميه الآن او في المستقبل »(١)·

وحول الهدف الاستراتيجي العسكري المواكب للهدف السياسي والاستراتيجي الاعلى للحرب ، كتب مؤلفو كتاب « حرب رمضان » ان الهدف العسكري حدد « ليكون هزيمة تجميع قوات العدو الاسرائيلي في سيناء والهضبة السورية ، **والاستيلاء على مناطق ذات اهمية استراتيجية تهيء الظروف المناسبة لاستكمال تحرير الاراضي المحتلة بالقوة ، لفرض الحل السياسي العادل للمشكلة** » (٢) · ويستطرد المؤلفون المذكورون قائلين : « وبناء على هذا الهدف الواضح ، **كان على القيادة العامة المصرية ان تخطط للقيام بعملية هجومية استراتيجية مشتركة ، تنفذ بالتعاون مع القوات المسلحة السورية ، وتقوم فيها مصر بالاقتحام المدبر لقناة السويس ، وتدمير خط بارليف ، والاستيلاء على رؤوس كباري بعمق ١٠ ـ ١٥ كيلو مترا على الضفة الشرقية للقناة ، وتكبيد العدو اكبر خسائر ممكنة ، وصد وتدمير هجمات وضربات العدو المضادة ، والاستعداد لتنفيذ اي مهام قتالية اخرى تكلف بها فيما بعد · أما سوريا فتشن الهجوم ، وتخترق دفاعات العدو بالجولان ، وتجزيء تجميعه ، وتدمر قواته ، وتصل الى الخط ـ نهر الاردن ، الشاطيء الشرقي لبحيرة طبرية ·** »

وقد اشار الكولونيل (العقيد) الاميركي « تريفور ·ن· ديبوي » الى الهدف السياسي والاستراتيجي للحرب ، بالنسبة للجانب المصري ، في بحثه المقدم الى الندوة الدولية لحرب اكتوبر المشار اليها مسبقا ، فقال : « من الواضح ان كلا من الرئيس السادات ووزير حربيته المشير احمد اسماعيل علي لم يتوهما قط بأن مصر قد وصلت ، او يمكن أن تصل في القريب العاجل ، الى التساوي مع اسرائيل تكتيكيا او تقنيا ··· وكان الرئيس السادات مقتنعا بأن اسرائيل راضية بالوضع الراهن ··· ولذلك فانها لن تقوم بأي تحرك نحو المفاوضات المعقولة الا بضغط من احدى ، او كلتا ، القوتين العظميين · **وبدا ان السبيل الوحيد للتحرك نحو تسوية مشكلة الشرق الاوسط هو طريق الاسراع بعمل**

يكون من شانه ارغام القوى العظمى والامم المتحدة على الاهتمام بموقف اللاسلم واللاحرب في الشرق الاوسط ٠

ورغم ان المشير اسماعيل كان يدرك خطورة وقوع هزيمة اخرى ، **فقد كان واضحا انه يؤمن بامكان احراز نجاح عسكري محدود اذا ما امكن استغلال العوامل السياسية المؤاتية ، واذا ما امكن ايجاد الوسائل التي تؤدي الى الحد من ، أو التغلب على ، عوامل التفوق العسكري الاسرائيلي المعروفة ٠٠٠** مع العمل ، في الوقت نفسه ، على تدعيم المزايا المصرية الاساسية » (٣) ٠

ويستفاد ، من جملة هذه الاستشهادات ، ان الهدف السياسي للحرب كان الضغط على الولايات المتحدة الاميركية ، والقوى الدولية الاخرى ، كي تمارس ضغطها على اسرائيل من اجل فرض تسوية سلمية عادلة ، ضمن حدود القرار ٢٤٢ ٠ بالاضافة للضغط على اسرائيل ذاتها بطريقة مباشرة ، عن طريق شن حرب استنزاف هجومية متحركة ٠

وقد اعتبرت القوى القومية العربية ، مجرد قوى احتياطية مساعدة ، يمكن ان تلقي بثقلها الاضافي في الحرب ، عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، اذا ما استمرت الحرب فترة زمنية اطول من الفترات المعتادة سابقا في الحروب العربية ـ الاسرائيلية عامي ٥٦ و ٦٧ ٠

وقد اعتبر التخطيط الاستراتيجي للحرب ، ان مجرد خرق واحتلال خط « بارليف » ، بعد عبور القناة المعتبرة مانعا مائيا صعبا ، ثم اقامة شريط من الارض المحررة شرقي القناة بعمق يتراوح بين ١٠و ١٥ كلم ، بالاضافة الى الوصول الى خط « نهر الاردن ـ الشاطىء الشرقي لبحيرة طبرية » ، انما هي عمليات عسكرية كافية لاثبات بطلان مبدأ « الحدود الآمنة » ، الذي يشكل جوهر نظرية الامن الاسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ ٠ فضلا عن اخذ المبادرة الهجومية ، وتحقيق هذه الاهداف ، تحمل في حد ذاتها بطلان مبدأ « قوة الردع » الاسرائيلية ٠

كما أن استمرار القتال لفترة طويلة نسبيا ، يتم خلالها تكبيد الجيش والطيران الاسرائيلي اكبر قدر ممكن من الخسائر المادية والبشرية ، بفضل استثمار مزايا التفوق العربي في المدفعية والمشاة والاسلحة المضادة للطائرات وللمدرعات ، كان يعني ابطالا لمبدأ « الحرب القصيرة » الذي يشكل احد اركان نظرية الامن الاسرائيلية الاساسية ٠ اي أن الاستراتيجية العربية العليا للحرب ، جعلت من نظرية الامن الاسرائيلية هدفها الرئيسي ، من حيث ان هز دعائم هذه النظرية في «مباراة » مسلحة عنيفة ، دون الوصول الى هدفها

تماما ، سيولد « قناعة » لدى اسرائيل بعدم جدوى التمسك بالاراضي العربية المحتلة عام ٦٧ ، ومن ثم تكون مهيأة لتقبل الضغط الاميركي ، والدولي ، المفترض حدوثه نتيجة لوقوع الحرب واستمرارها ، دون ان تلحق بالعرب هزيمة ، من اجل تقبل تسوية سلمية عادلة ٠

وفي تقديرنا ، أن جذر الخلل في هذه الاستراتيجية يكمن في الهدف السياسي الموضوع لها ، القائم على تصور نظري بأن الاطراف الاخرى المشتركة في هذه « المباراة » المسلحة ، بطريقة مباشرة (أي اسرائيل) او غير مباشرة (اي الولايات المتحدة) ستقبل ، او تتفهم قواعد « اللعبة » ، وتخوض «المباراة» على اساسها ٠ ومن ثم يتم وقف اطلاق النار واستئناف المفاوضات ، او الجهود السلمية ، التي تعثرت منذ فشل مبادرة « روجرز » ، في اعقاب توقف حرب الاستنزاف عام ١٩٧٠ ٠ وذلك لان في حالة عدم وجود مثل هذا التصور المسبق لدى مخططي « سيناريو » حرب ٧٣ الموضوع على اساس هذا الهدف السياسي، يكون البديل لديهم هو احد تصورين استراتيجيين :

١ ـ اما أن القيادات السياسية ـ الاستراتيجية العربية كانت تعتقد ان لديها قدرة تفوق عسكري يسمح لها بتحقيق هدف جزئي ، بسرعة كبيرة ، (حيث ان الهزيمة الشاملة للعدو مستبعدة اصلا) ، في ظل الاستفادة من حرية العمل الخارجية التي حصلت عليها ، نتيجة للنشاطات السياسية السابقة للحرب ، ثم التوقف لممارسة نوع من حرب الاستنزاف الثابتة ، ولاعطاء الخصم فرصة الدخول في مفاوضات حول شروط التسوية المطلوبة ، واستئناف العمل من اجل تحقيق هدف جزئي آخر بالطريقة ذاتها . في حالة عدم كفاية المرحلة الاولى من العمل العسكري لاقناع العدو بقبول التسوية . اي تطبيق شكل من اشكال مناورة « الخرشوفة » . اي مناورة « القضم المتتابع » ٠

ولكن مثل هذا التصور مستبعد لدينا ، على ضوء ما بدا واضحا في اقوال وتصرفات القيادات العربية المذكورة ، من احساس بتفوق اسرائيل العسكري، وعدم ثقة مطلقة في قدرة القوات المسلحة المصرية على خوض مناورة من هذا القبيل ، مناورة تفترض توفر « قوة ردع » اصلا لدى القوات التي تنفذها ، وتوفر درجة ما من قناعة الخصم بذلك ٠

٢ ـ واما أن القيادات السياسية ـ الاستراتيجية العربية كانت تريد تطبيق المناورة الاستراتيجية ، التي يطلق عليها الجنرال « بوفر » اسم « المناورة بالاعياء » ، والتي يعرفها بأنها مناورة تستهدف « بلوغ الهدف ـ وغالبا ما يكون هاما ـ لا بانتصار عسكري ، بل بالتغذية المستمرة لنزاع مصمم ومنظم ليكون ثقيل الحمل على الخصم تدريجيا » (٤) ، وهذا يعني تطبيق نوع من

حرب العصابات ، او حرب الاستنزاف طويلة الاجل ، التي تتطلب قدرة على البقاء لفترة طويلة ، مع قدرة على ازعاج وارهاق الخصم في الوقت ذاته · اي قدرة على حشد الموارد البشرية والمادية والمعنوية واستخدامها تدريجيا في حرب طويلة الامد ، لا تراهن على سرعة تدخل القوى الدولية لصالحها ، وتعتمد في الاساس على قوى الشعب الذاتية ، وعلى تدعيم وتطوير التحالف مع القوى الدولية الصديقة والمعادية للامبريالية للافادة منها في اطالة النفس ·

ومن الواضح ، من المجرى العملي الذي سلكته القيادات المذكورة ، اثناء الحرب وبعدها ، ان مثل هذا التصور القائم على تبني « مناورة الاعياء » لم يكن واردا لديها ·

والارجح ، ان التصور الاستراتيجي لدى القيادات المذكورة ، كان يقع في نقطة ما وسطى بين كلا الافتراضين ، اي كلا المناورتين الاستراتيجيتين · وهو البدء بمناورة اشبه بمناورة « الخرشوفة » ، استنادا للتفوق الكمي المؤقت ، الناجم عن تحقيق حشد متفوق ضد القوات النظامية الاسرائيلية القليلة العدد، مع تحييد القدرة الرئيسية للقوة الجوية المكملة لها · وحين تتكامل التعبئة للقوات الاحتياطية الاسرائيلية ، يتم الانتقال الى ممارسة نوع من « المناورة بالاعياء » النظامية ، عن طريق الاستنزاف شبه الثابت ، اي قتال « الصد » لفترة طويلة، الذي تستثمر فيه ميزات الاسلحة الدفاعية الحديثة ونيران المدفعية وذلك مثلما حدث ، على نحو مختلف الى حد ما ، في الحرب الكورية ، حيث اتخذ القتال حول خط العرض ٣٨ شكل المعارك الدفاعية شبه الثابتة ، التي تخللتها هجمات مضادة متبادلة غير حاسمة · ولكن حتى ضمن هذا التصور الثالث ، فان امكانية النجاح تتوقف في الاساس على مدى اصرار القيادة السياسية وثباتها على موقفها لاطول فترة ممكنة ، وعدم تسرعها في عقد اتفاقيات سلمية اساسية مع العدو ، او مع حلفائه ، قبل أن تنضج الظروف العسكرية الملائمة لنجاح المفاوضات · اي قبل ان تؤتي « المناورة بالاعياء » ثمارها · بالاضافة الى تطبيق استراتيجية وتكتيكات عسكرية تسمح بالبقاء اطول فترة ممكنة ، واستنزاف العدو في الوقت ذاته ، وهي استراتيجية تستند، كما سبق وقلنا ، الى كفاءة الحشد المادي والمعنوي والسياسي ، وحسن استخدامه فيمختلف مراحل المد والجزر على جبهات القتال · ولكن ذلك لم يحدث في حرب ١٩٧٣ ، خاصة بعد أن اتضح فشل ، او عدم تحقق التصور السياسي المسبق الخاص بامكان تحييد الولايات المتحدة الاميركية ، من خلال قبولها بالسماح باضعاف القوة العسكرية الاسرائيلية نسبيا ، دون اثارة مخاوفها تجاه امكان تحول الحرب الي « حرب مطلقة » تهدد اساس وجود الدولة العبرية ، من خلال الامتناع عن قصف العمق الاستراتيجي للدولة ، وعدم القاء

قنبلة واحدة من الجو او البحر على الارض المحتلة قبل العام ١٩٦٧ ٠

وقد اكد الجسر الجوي الاميركي حقيقة موقف الولايات المتحدة ، ورفضها « لعبة » الطرف المحايد ، ومن ثم افسدت مقولة الاستنزاف السريع قصير الاجل لقوى اسرائيل العسكرية المادية والمعنوية ٠ فقد جاء الجسر الجوي ، لا ليمنع انهيار اسرائيل العسكري ، وانما ليدعم قدرتها على مواصلة الانتقال من معارك « الصد » الى معارك « الرد » ، او الهجوم المضاد ، الذي يعيد التوازن العسكري الى صالحها مرة اخرى ، وان لم يكن في صورته القصوى التي تمثلت في حرب ١٩٦٧ ٠

وهكذا عادت للحدود الآمنة اهميتها ، من حيث انها لعبت دور الوسادة التي امتصت عنفوان الضربات العربية المفاجئة الاولى ، وسمحت للجيش الاسرائيلي بالوقت الكافي للتحول الى الهجوم المضاد الفعال ، وتلقى الامدادات الجديدة من الاسلحة والمعدات والذخائر ، ولذلك عاد الحديث في اسرائيل يتجدد حول خطورة العودة الى حدود ٦٧ مقابل السلام ، لان الاوضاع العسكرية كانت ستسوء كثيرا لو أن الهجوم العربي عام ٧٣ انطلق من « الجولان » و « رفح » و « قلقيلية » ٠

واثر ثبوت وهم امكان « تحييد » اميركا ، وقبولها دور الوسيط في تسوية سلمية باكثر الشروط العربية اعتدالا ، كان البديل العملي الوحيد المطروح على القيادات السياسية العربية ، اذا ما ارادت تحقيق هدفها الاصلي المعلن للحرب ، هو المضي في طريق التطبيق الجدي لمناورة «الاعياء» ٠

وهكذا نرى ان « القصور » الذي شاب الحرب العربية ـ الاسرائيلية عام ٧٣ من الجانب العربي ، في مرحلتها الثانية ، خاصة بعد بدء الجسر الجوي الاميركي ، يرجع الى الخطأ الرئيسي فيما يتعلق بالهدف السياسي للحرب ، والتصورات المرافقة له قبل واثناء الحرب ٠ وهي ظاهرة تؤكد مقولة « كلاوزفيتز » التي اوضحها حيث قال : « يتحدث الناس غالبا عن التأثير السيء الذي تؤثره السياسة على اداة الحرب ٠ وهم يقولون في الحقيقة غير ما يودون التعبير عنه ٠ وعليهم ان يوجهوا الاتهام الى السياسة نفسها ، لا الى عملية التأثير في حد ذاتها ، فاذا كانت السياسة صحيحة ، اي اذا كانت متلائمة مع غايتها ، كان تأثيرها على الحرب جيدا ، واذا لم يتجاوب هذا التأثير مع الغاية ، كان ذلك ناجما عن خطأ السياسة نفسها » (٥) ٠

نواقص الاستراتيجية العسكرية

حددت الاستراتيجية العليا للحرب في تشرين الاول (اكتوبـــر) ١٩٧٣ للاستراتيجية العسكرية مهامها المباشرة . الا وهي تحقيق المفاجأة لشن هجوم شامل على جبهات القتال . يتم فيه خرق خطوط الدفاع الامامية بسرعة ، نتيجة تحقيق تفوق كبير في القوى البشرية والنارية . ثم تتحول القوات المهاجمة بعد ذلك الى موقف الدفاع النشط لصد الهجمات المعاكسة والمضادة ، التي سيتـم فيها استنزاف قوى العدو المادية والبشرية الى اقصى حد ممكن ، حتى يتـم تدخل القوى الدولية التي ستمارس الضغط على اسرائيل من اجل الالتـزام بتنفيذ القرار ٢٤٢ ٠

وقد وقع عبء التنفيذ الرئيسي لهذه الاستراتيجية على القوات البرية ، التي تركزت اساسا في تشكيلات المشاة المترجلة والمدفعية على الجبهة المصرية ، وفي التشكيلات المدرعة والميكانيكية والمدفعية على الجبهة السورية ، مع استخـدام موسع للقوات المحمولة جوا على مستوى تكتيكي في كلا الجبهتين ، واعتمـاد رئيسي على تشكيلات الدفاع الجوي الارضي (صواريخ ومدفعية م/ط) فـي تأمين هجوم وعمليات القوات البرية ، التي كان عليها التقدم ضمن مظلة الدفاع الجوي ٠ أما القوات الجوية على كلا الجبهتين ، فقد عهد اليها بدور ثانـوي نسبيا . نظرا للفكرة السائدة لدى القيادات العسكرية العربية ، من ان هـذه القوات ستعمل تحت ظروف تفوق جوي معاد ، ولذلك عهد اليهـا صـد الهجمات الجوية المحتملة خلال المرحلة التحضيرية للهجوم في حالة قيام الطيران الاسرائيلي بضربة اجهاضية مسبقة ٠

كما عهد اليها بتوجيه ضربة جوية مركزة في العمق العملياتي ، بما لا يتجاوز عمق ٥٠ كلم في معظم الحالات ، في اليوم الاول من الهجوم ، ثم تحولت القوات الجوية الى مهام الدفاع الجوي فوق عمق الدولتين اساسا ، وفوق جبهـات القتال احيانا ، عندما كانت تضعف شبكة الصواريخ المضادة للطائرات فـي بعض النقاط ، فضلا عن توجيه ضربات جوية متفرقة ومحدودة الحجم والعمـق اثناء العمليات ٠

أما القوات البحرية . فقد عهد اليها بتطبيق جديد للخنق الاستراتيجي عند « باب المندب » ، كجزء من الاستراتيجية الهادفة لاثبات بطلان مبدأ « الحدود الآمنة » ، نظرا لان قطع المواصلات البحرية الاسرائيلية في اقصى جنوب البحر الاحمر ، بعيدا عن القدرة الفعالة للتدخل الجوي الاسرائيلي ، يؤدي الى اهدار عملي للتو جد العسكري الاسرائيلي في « شرم الشيخ » ، المسيطرة على الملاحة

في خليج العقبة عبر مضائق « تيران » ٠

بالاضافة الى بعض عمليات الدعم التكتيكي المحدودة للقوات البرية على الشاطىء الشمالي وشبه جزيرة سيناء ، والشاطىء الشرقي لخليج السويس٠

١ ـ **عدم التعرض للعمق الاستراتيجي** : أما عمليات عرقلة وصول القوات الاحتياطية الاسرائيلية ، بعد تعبئتها التي تجري خلال ٧٢ ساعة . الى جبهات القتال في الشمال والجنوب ، فقد استبعدت تماما على مستوى العمق الاستراتيجي للدولة الصهيونية ، لاسباب تتعلق بطبيعة الهدف السياسي للحرب ، سبق ان اوضحناها ٠ كما استبعدت ايضا اي عمليات قصف جوي او بحري ضد الاهداف العسكرية والاقتصادية الحيوية في العمق الاستراتيجي للارض المحتلة في فلسطين (المرافىء ، والمطارات ، والمصانع ، ومستودعات الوقود ، ومحطات الكهرباء ، وخطوط السكك الحديدية ، والطرق الرئيسية ٠ الخ) للاسباب ذاتها ٠

ولم يكن ذلك الاستبعاد ناتجا عن عدم توفر وسائل القصف الجوي والبحري لدى الجانب العربي ، كما يتصور البعض المضلل بالمقولات الاعلامية التي راجت فيما بين حربي ٦٧ و ٧٣ حول الاسلحة الدفاعية والاسلحة الهجومية ٠ فقد كان لدى السلاحين الجويين ، المصري والليبي ، نحو ١٥٠ مقاتلة للهجوم الارضي من طراز « سوخوي ـ ٧ » ، التي تستطيع الواحدة منها مهاجمة هدف يبعد عن قاعدة انطلاقها نحو ٣٢٠ كلم ، وهي تحمل ٢ طن من القنابل ، وخزان وقود اضافي ، وتحلق على ارتفاع منخفض طوال رحلتي الذهاب والعودة ٠

كما كان لديها عدد محدود من الطراز المطور من هذه الطائرات المسمى « سوخوي ـ ٢٠ » ، التي تستطيع الوصول ، بحمولة مماثلة من القنابل والوقود ، الى هدف يبعد نحو ٥٣٠ كلم على ارتفاع منخفض ٠ اضافة الى هذه الطائرات ، فقد كان لدى السلاحين الجويين نحو ٢٠٠ طائرة مقاتلة « ميغ ـ ٢١ م ف » ، القادرة على حمل نحو ٥ر١ طن من القنابل ، والوصول بها الى هدف يبعد نحو ٣٥٠ كلم من قاعدتها ، وهي تحلق على ارتفاع منخفض ، ومزودة بخزان وقود اضافي ٠ وهذه المسافات التي تتراوح بين ٣٢٠ و ٣٥٠ كلم ، كافية لتغطية عمق فلسطين المحتلة من قواعد جوية في شمال الدلتا في مصر ، او من قواعد جوية قرب « دمشق » او قرب «طرطوس» على الساحل السوري (تبلغ المسافة بين « المنصورة » مثلا ، في شمال الدلتا و « تل ابيب » فوق البحر الابيض المتوسط نحو ٣٥٠ كلم ، وبين « دمشق » و « تل ابيب » نحو ٢٢٠ كلم ، وبين « طرطوس » و « تل ابيب » نحو ٣٤٠ كلم) ٠

وجميع هذه الطائرات تستطيع العمل في جميع الاجواء ، اي في النهار

او الليل ، وهي تستطيع في جملتها حمل اكثر من ٦٠٠ طن من القنابل في الطلعة الواحدة ضمن الشروط التقنية السالفة الذكر · وبطبيعة الحال ، لم تكن هذه القدرة على ضرب العمق مطلقة ، او قليلة التكلفة من حيث الخسائر، نظرا لقوة الطيران الاسرائيلي ، ولكن الاقدام على توجيه بعض الضربات الجوية في العمق الاستراتيجي ، ضد الاهداف العسكرية والاقتصادية المتصلة بالمجهود الحربي الاسرائيلي ، كان سيؤتي بعض النتائج المرجوة ضد تحركات وحدات الاحتياطي ، ونقل التشكيلات من جبهة الى اخرى ، وتحركات زوارق الصواريخ الاسرائيلية التي هاجمت مرافىء سورية ومصرية ، فضلا عن تأثيرها العام على المعنويات داخل اسرائيل ·

وفي الوقت ذاته ، فأن الطيران الاسرائيلي لم يحترم قاعدة عدم ضرب الاهداف العربية المماثلة ، خاصة في سوريا ، ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو للتقيد بهذا الحظر الاختياري من جانب العرب ، خاصة في المراحل الوسطى والاخيرة من الحرب ·

كما ان زوارق الصواريخ المصرية والسورية كانت تستطيع هي الاخرى مهاجمة موانىء « حيفا » و « عكا » و « تل ابيب » و « يافا » و « نهاريا » و « عسقلان » ، في اغارات ليلية ، مثلما فعلت ، أو حاولت ان تفعل الزوارق الاسرائيلية من طراز « ساغر » و « رشيف » ·

وكذلك الحال بالنسبة للغواصات ، التي كانت مصر تمتلك منها ١٢ غواصة، استخدمت منها اثنتين تقريبا في حصار « باب المندب » ، والبعض الآخر في عمليات غير مثمرة على نحو كاف قرب « كريت » في البحر الابيض المتوسط · وفاقم من نتائج عدم التعرض للعمق الاستراتيجي الاسرائيلي، عدم وجود تنسيق مسبق مع المقاومة الفلسطينية ·

وقد اقتصرت عمليات اعتراض الاحتياطي في العمق العملياتي في جبهة سيناء على وحدات « الصاعقة » (المغاوير) المحمولة بطائرات الهليكوبتر ، التي جرى انزالها في عشرات النقاط وراء الخطوط الامامية ، كما انزل بعضها على شاطىء خليج السويس حتى « شرم الشيخ » · ولكن نجاحات هذه الوحدات كانت محدودة ، باستثناء عملية جرت عند ممر « سدر » جنوبي السويس ، وعملية اخرى تمت على المحور الشمالي قرب « رمانة » · وكانت الخسائر مرتفعة في الافراد والطائرات ، خاصة بالنسبة للعمليات التي جرت نهارا ، او في مناطق غير جبلية لا تصلح لعمل كمائن ، او في عمليات مهاجمة وحدات مدرعة في ارض مكشوفة ·

كما انه لم تنفذ عمليات من النوع المذكور في ممري « متلا » و « الجدي »، رغم صلاحية الارض هناك للكمائن · وفي الوقت ذاته ، لم يخطط في كثير من

الحالات لكيفية سحب القوات المغيرة ، التي لم تصل اليها القوات البرية ، او لضمان امدادها بمتطلباتها الادارية ، الامر الذي ترتب عليه زيادة في الخسائر البشرية ، ووقوع اسرى من افراد هذه القوات · والخلاصة ، انه رغم بعض المنجزات التكتيكية والبطولات الفردية لعديد من هذه التشكيلات التي اشارت اليها الكتابات الاسرائيلية ، فقد ثبت ان استخدام هذه القوات في المناطق الصحراوية المكشوفة ، قليلة المياه والموارد الغذائية ، ليست بديلا على اي نحو من عمليات الطيران ضد تحركات احتياطيات العدو وقوافل امداده الادارية ·

٢ ـ **عدم الاستثمار الجيد لنتائج المفاجأة الاستراتيجية** : نجحت الاستراتيجية العسكرية العربية في تحقيق المفاجأة الاستراتيجية ، ومن ثم حقق التفوق الكمي الضخم في قوة النيران وفي التشكيلات المهاجمة ، الذي تمتع به كل من الجيشين المصري والسوري ، خرقا ناجحا في معظم نقاط الهجوم (باستثناء منطقة القنيطرة على جبهة الجولان) ، وتطور الخرق الى ازالة كاملة لخط بارليف على الجبهة المصرية ، والى ثغرة كبيرة في خطوط الدفاع الاسرائيلية بالقطاع الجنوبي من الجولان اوصلت المدرعات السورية الى مشارف بحيرة « طبرية » ·

وكان هذا منطقيا مع نسب علاقات القوى بين الطرفين في اليوم الاول للهجوم ، والذي بلغت نسبته نحو ٦ر٥ الى ١ في كتائب المشاة ، و ٣٠ الى ١ في عدد مدافع الميدان والهاوتزر والهاونات والراجمات ، ونحو ٣ر٣ الى ١ في عدد كتائب الدبابات ، وذلك على الجبهة المصرية · اما على الجبهة السورية فكانت نسب التفوق تبلغ نحو ٦ر٦ الى ١ في عدد كتائب المشاة الميكانيكية (باعتبار ان الهجوم السوري كان يعتمد اساسا على الدبابات والمشاة الميكانيكية) ، ونحو ٨ر٩ الى ١ في عدد بطاريات المدفعية ، ونحو ٤ر٨ الى ١ في اجمالي عدد الدبابات (١٥٠٠ دبابة سورية مقابل نحو ١٧٧ دبابة اسرائيلية) · وكان من المنطقي وفقا لقوانين الحرب المعروفة استثمار النجاح ، حتى ولو كان حجمه غير متوقع من قبل على النحو الذي حدث ، لان ذلك هو مقياس القيادة الاستراتيجية المرنة ، ودفع الاحتياطي الاستراتيجي ، او جزء منه على الاقل، في وقت مبكر نسبيا ، لتأمين مكتسبات الهجوم السوري في القطاع الجنوبي من « الجولان » · وفي تطوير الهجوم المصري حتى « الطاسة » على المحور الاوسط في سيناء ، وممري « الجدي » و « متلا » على المحور الجنوبي · و « بالوظة » او « رمانة » على المحور الشمالي · وذلك من خلال عمليات ليلية في الاساس ، ومع دفع تشكيلات الدفاع الجوي المتحرك للامام ، لتوسيع نطاق مظلة الصواريخ ·

ولكن ضمان نجاح مثل هذه الخطوة ، كان يفترض رفع كفاءة التدريب والتنسيق بين مختلف الاسلحة ، وتطوير وسائل واساليب الخدمات الادارية ،

في مجال تكتيكات وعمليات حرب الحركة ، قبل نشوب الحرب بفترة كافية · ولكن التطبيق العملي اثبت عدم توفر مثل هذه الشروط · فالجيش المصري ، الذي ركز تدريباته ، على ما يبدو ، في مجال عبور الموانع المائية المحصنة ، واساليب مواجهة المشاة المترجلة لهجمات المدرعات ، بدعم المدفعية والدفاع الجوي · اذ كشفت معارك المدرعات التي جرت بعد ذلك في يومي ١٤ و ١٥/١٠، اثناء محاولة تطوير الهجوم شرقا للتخفيف على الجبهة السورية ، وكذلك اثناء محاولات قفل ثغرة « الدفرسوار » ، كشفت عن ضعف مستوى اداء وتدريب وتعاون المدرعات المصرية مع المدفعية والمشاة ، بالقياس لكفاءة مستوى المشاة المترجلة والمدفعية والدفاع الجوي ·

وكانت النتيجة عدم الاستفادة الحقيقية من المفاجأة الاستراتيجية ، والمفاجآت التكتيكية التي حققتها المشاة ، ووحدات الدفاع الجوي ، ووحدات الهندسة التي حققت العبور الناجح والسريع لقناة السويس · وبطبيعة الحال ، كان لمحدودية الهدف الاستراتيجي ، الموضوع لتنفيذ الهدف السياسي للحرب ، اثره المباشر على اتجاهات التدريب المسبقة ، وعلى جمود المبادرة الهجومية بعد نجاح المرحلة الاولى من الحرب ، بالنسبة للجبهة المصرية بالذات ·

٣ ـ **ضعف التنسيق الاستراتيجي بين الجبهتين :** لقد كان احد اسباب نجاح المرحلة الاولى من الحرب عام ٧٣ بالنسبة للجانب العربي ، ان الهجوم تم على جبهتين في وقت واحد ، الامر الذي عرقل استفادة الجيش الاسرائيلي التقليدية من ميزة تركيز ثقل قوته على احدى الجبهات ، ثم نقلها الى جبهة اخرى بفضل الميزة الجغرافية المتوفرة له في الحركة على الخطوط الداخلية · واضطر للمرة الاولى منذ المرحلة الاولى من حرب ١٩٤٨ الى القتال على جبهتين في وقت واحد ، معطيا اولوية للجبهة السورية ، الاكثر قربا من تجمعات السكان والاقتصاد في الارض المحتلة بفلسطين · وكان من الممكن الاستمرار في حرمانه نسبيا ، من ميزة التركيز على احدى الجبهات ، والتقليل من فاعلية ميزة الحركة على الخطوط الداخلية ، لو أن التنسيق في الايقاع الهجومي استمر قويا وفعالا بين القيادتين خلال المراحل التالية من الحرب · ولكن ذلك لم يحدث ، سواء فيمرحلة الهجوم المضاد الاسرائيلي على الجبهة السورية ، او في مرحلة الهجوم المضاد على الجبهة المصرية بعد ذلك ، ولاسباب مختلفة بين الحالتين، تتلخص في عدم رغبة القيادة المصرية في تطوير مدى الهجوم في الحالة الاولى، وعدم قدرة القيادة السورية على شن هجوم مضاد في وقت مبكر ابان معارك ثغرة « الدفرسوار » ، نتيجة لفداحة خسائرها السابقة ، وعدم امكان استخدام القوات العراقية بسرعة في شن الهجوم المذكور · وفي النتيجة ، عادت للجيش الاسرائيلي قدرته السابقة على تغيير مراكز الثقل من جبهة لاخرى ، والاستفادة من ميزة الحركة على الخطوط الداخلية · وان كان ذلك قد تم

بطريقة اقل فاعلية مما حدث في حرب ١٩٦٧ ٠

٤ ـ **اساءة استخدام الاحتياطي الاستراتيجي** : ان مسألة تشكيل احتياطي استراتيجي ، وكيفية استخدامه الفعال من حيث دفعه الى المكان المطلوب ، الذي يمثل اتجاه الجهد الرئيسي ، هجوميا كان ام دفاعيا ٠ وفي التوقيت المناسب لتطور المعركة ، خاصة من حيث بلوغ جهد العدو نقطة الذروة ، تعتبر دائما من اهم مسائل ومشكلات القيادة الاستراتيجية في التاريخ العسكري ٠ اذ يتوقف عليها ، في ظروف معينة ، النصر أو الهزيمة ، النجاح او الفشل في تطوير هجوم او صد هجوم مضاد عام ٠ بل يمكن القول ، مع شيء من التجاوز ، ان فن القيادة الاستراتيجية العسكرية ، انما يكمن في كيفية استخدام الاحتياطي الاستراتيجي ٠ وهناك امثلة عديدة في التاريخ العسكري تثبت امكان تحويل موقف شديد الحرج لطرف من الاطراف الى انتصار ، نتيجة لادخال قوات الاحتياطي الاستراتيجي في المكان والزمان المناسبين ، بحيث ينقلب ميزان القوى في المعركة ، وتضيع فرص نجاح الخصم تماما ، او يهزم هزيمة حاسمة٠

وقد كشفت حرب ٧٣ ان القيادات العربية لم تصل بعد الى المستوى المطلوب في كيفية استخدام الاحتياطي الاستراتيجي ، سواء اثناء الهجوم ، او اثناء الدفاع لصد الهجوم المضاد ٠ وان كان ذلك قد تم بصورة متفاوتة على كلا الجبهتين ، من حيث الفاعلية والنتائج للعملية ٠ ففي الجبهة السورية فشل استخدام الاحتياطي الاستراتيجي هجوميا ، ولكنه نجح دفاعيا ،الى حد لا بأس به ، وساعد على ذلك وصول القوات العراقية والاردنية الى الجبهة خلال مرحلة صد الهجوم المضاد ٠ أما على الجبهة المصرية ، فلم يتم استخدام الاحتياطي الاستراتيجي في المرحلة الهجومية لاسباب تتعلق بالاستراتيجية العليا للحرب ، على حين استخدم في المرحلة الدفاعية ، عقب حدوث ثغرة «الدفرسوار» بطريقة مجزأة ، وغير منسقة الجهود مع بقية الوحدات والاسلحة ، مما ادى الى الحاق خسائر شديدة بتشكيلات وحداته ، دون ان يؤثر ذلك على مجرى المعركة بطريقة حاسمة ، رغم نجاح صد التقدم الاسرائيلي نحو « الاسماعيلية » ٠ ولكن فشل التصدي لعملية قطع خطوط مواصلات الجيش الثالث في الجنوب ، كان هو العلامة البارزة على سوء استخدام الاحتياطي الاستراتيجي ٠

وعموما فقد اثبتت الحرب ، ان الاداء الاستراتيجي العربي كان جيدا بالنسبة لتنفيذ المخططات المدروسة مسبقا ، والتي يكون قد جرى التدريب عليها وتصور مسارها في المراحل السابقة لنشوب القتال ٠ أما بالنسبة للظروف الاستراتيجية المستجدة ، والتي لم تدخل في « السيناريوهات » المتصورة مسبقا، فكان الاداء الاستراتيجي ضعيفا ، وغير متوازن الخطى ، ويفتقر الى المرونة وروح المبادرة الخلاقة ٠

وخلاصة القول ، ان الاستراتيجية العسكرية العربية ، ضمن ظروف عدم تحقق قومية المعركة بصورة مسبقة وفعالة ، كانت ناجحة الى حد لا بأس به خلال المرحلة الاولى من حرب ١٩٧٣ . وان بدا نجاحها كبيرا للغاية وقتئذ ، نظرا للاثار المعنوية والفكرية التي كانت حرب ٦٧ قد خلفتها في النفوس والاذهان عن حقيقة الامكانات العسكرية العربية . وقد نجحت الاستراتيجية العربية في اختيار وتطوير التكتيكات الملائمة لتقليل ميزات القوات الاسرائيلية، والافادة من ميزات القوات العربية ، محققة بذلك قول الجنرال « بوفر » من ان « اختيار التكتيكات هو الاستراتيجية » ، ولكنها فشلت بعد ذلك في استثمار النجاح ، او الحفاظ على الجزء الرئيسي من مكتسبات المرحلة الاولى ، نتيجة للقصور الذي شاب الاستراتيجية السياسية والاستراتيجية العليا للحرب ، واللتين حكمتا بالضرورة تخطيط ومسار الاستراتيجية العسكرية . ومن ثم ضاعت ، تقريبا ، آثار النجاحات التكتيكية الممتازة التي تحققت خلال المرحلة الاولى من الحرب ، باستثناء تلك الآثار التي دخلت مدرسة الخبرة التاريخية العسكرية في حقول التقنية والتكتيك ، والتي كان ، وسيكون ، لها نتائجها ، على تطور العقائد القتالية والتكتيكات في الجيوش العربية ، والجيش الاسرائيلي ، والجيوش العالمية عامة .

ولسنا في حاجة ، بطبيعة الحال ، الى القول بأن هذه المحاكمات النقدية التي قدمناها في دراستنا هذه ، لا تنتقص مطلقا من بطولة وكفاءة الجندي العربي ، الذي قاتل وضحى بدمه في جبهتي القناة والجولان عام ١٩٧٣ ، وانما هي تهدف الى استيعاب عقلاني علمي لخبرة الحرب المذكورة ، حتى تكون حروبنا القادمة اكثر ثورية في تحديد استراتيجياتها السياسية والعليا ، واكثر شمولا وكفاءة في تخطيط وتنفيذ استراتيجيتها العسكرية ، واكثر تطويرا لتكتيكاتها ، وقدرة على الاستفادة من التقنية العسكرية الحديثة ، من أجل هزيمة للعدو الصهيوني ، تشكل نقطة تحول حاسمة ، على طريق انجاز مهام حركة التحرر الوطني العربي ، في الصراع ضد الامبريالية .

الحواشي

(١) **الندوة الدولية لحرب اكتوبر ٧٣**، القاهرة ، ١٩٧٥ ، **القطاع العسكري** ، المجلد الاول ، ادارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢٧ .

(٢) اللواءان حسن البدري ، وطه المجذوب ، والعميد ضياء الدين زهدي ، **حرب رمضان** ، الشركة المتحدة للنشر ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٣٤ .

(٣) **الندوة الدولية** .. **مصدر سبق** ذكره ، ص ٣٧ .

(٤) الجنرال بوفر ، **مدخل الى الاستراتيجية** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٦١ .

(٥) كارل فون كلاوزفيتز ، **في الحرب** ، الترجمة العربية ، الجزء الثالث ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١١٨ .

اديب ديمتري

حركة التنوير والاندماج اليهودي

حركة الاصلاح الديني اليهودي : القومية بين اليهود تعني الاندماج

العصر هو عصر البورجوازيات الثورية والتقدمية الصاعدة ، وهو عصر يقظة الشعوب وتشكيل القوميات ، وبناء الامم وقيام الدول الوطنية · وقد كانت هذه هي الشروط الاولية لنمو البرجوازية وسيطرتها ، من خلال توحيد سوقها الوطني ، والالتقاء بنزوعات شعوبها نحو الوحدة والتحرر والخلاص من الاستبداد الاقطاعي ، والتمزق الفئوي والطائفي والعرقي والديني ·

وكان سلاحها هو العقل والانوار ، في مواجهة ظلام الاقطاع وكابوس الكنيسة والبابوية وجدران الغيتو · وقد انعكس هذا كله في الاصلاح المسيحي، والاصلاح اليهودي على حد سواء : روافد في حركة واحدة شاملة ، تقتلع القديم من الجذر ، وتسقط السلطان القديم : سلطان البابوية والحاخامين الرجعيين ، والامبراطوريات المقدسة ، وامراء الاقطاع ، لتفسح المكان للجديد ، ولتقييم سلطان العقل والعلم ·

كانت حركة الشعوب تترجم نزوعاتها الى الوحدة والتحرير في كافة الميادين: في الاقتصاد والسياسة والفكر والادب والفن والدين ، وتستبدل سلطان الملوك والكهنوت والحاخامين بسلطة الشعوب · وكان هذا التيار التقدمي الشامل هو المناخ السائد منذ عصر النهضة . فالاصلاح ، فالتنوير ، وهو الرحم الذي ولدت فيه كافة الحركات الاصلاحية · وجاءت حركتا الاصلاح المسيحية واليهودية ،

وجهان لعملة واحدة ، وستكشف لنا حركة الاصلاح اليهودي في تلك الفترة ، عن جوهرها وحقيقتها ، كتعبير يهودي لا يختلف في شيء عن قرينه المسيحي ، عن نزوعات الوحدة التي اصبحت تمثل الارادة الاقـــوى ، والاعلى ، على كـــل الخلافات الطائفية او العرقية او الدينية ، وهو ما يؤكد الحقيقة التي حاولـت الصهيونية ان تطمسها منذ ظهرت ، وهي ان اليهودية كانت ، ولا تزال ، دينـــا وثقافة في اطار الامم ، وجزءا لا يتجزأ عن حركتها ، وان الانفصال والعزلـة ليسا سوى ردة الى الماضي ، وبعث لتراثات الاقطاع والقبلية ٠

التنويـــر ، واليهوديـــة

فتح التنوير الطريق لحضارة أوربية مشتركة تقوم على مثل العقل والاخلاق، ولم يعد الدين هو العنصر الحاسم ، بل اصبحت السيادة للاتجاه العلماني ٠ ويصف ناثان وينستوك (١) هذه الفترة في التاريخ اليهودي بقوله ، ان الحواجز التي فرضت على اليهود انكسرت بعد ثورة الاستقلال الامريكية ، والثـــورة الفرنسية ، وانتشار التيار الاندماجي ، والزيجات المشتركة ، والدخول فـــي المسيحية، وبدأ اليهود يندمجون في الطبقة الرأسمالية ، وفي المهن الحرة ٠

وقد انتشرت هذه التيارات الاندماجية انتشارا واسعا في هذه المرحلة مـــن صعود الرأسمالية ، وجاءت حركة الاصلاح الديني اليهودي ، ثمرة مباشـــرة لتيارات التحرير السياسي والمدني منذ القرن السابع عشر ، وحتى قبل ذلك في بعض بلدان الغرب ، والتي أثمرت خلال القرن التاسع عشر ، ببضع مبادىء التحرر والمساواة موضع التطبيق في معظم البلدان الاوربية ٠ وقد وجدت حركة الاصلاح تعبيرها في بداية الامر في ميدان الفكر والعبادات ، وبالاخص فـــي بعض المعابد الالمانية ، ثم انتقلت الى الولايات المتحدة ، ونمت هناك ، وقصـــد بها التخلص من الطقوس والمظاهر الخارجية في الدين اليهودي ، وتقول دائرة المعارف اليهودية ان حركة الاصلاح اليهودي تأثرت الى حد كبير بحركة الاصلاح البروتستنتي (٢) ٠

واليهودية الاصلاحية تدعو للرجوع الى الموسويـــــة البدائية ، وتبسيـــط العبادات ، وحذف الكثير منها ، مما يتعلق بأمور اندثرت ٠ فبعضها يرجع الى بابل ، كما ادخلت الكورال الالماني الى المعبد بـــدلا عن الترانيم والصلـــوات المندثرة ٠ وكانت هذه الحركة تقع ايضا تحت تأثير الفلسفة الالمانيـــة خـــلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وتعتبر جزءا لا يتجزأ من الكفاح القومي الالماني خلال تلك الفترة ، ولذلك كان على رأس برامجها مراجعة النظريـــات اليهودية المتعلقة بالقومية اليهودية المسيانية (٣) ٠

ولا يمكن فصل الحركة الاصلاحية اليهودية ، عن تأثير فرقة يهودية اخرى انتعشت في الفترة نفسها ، في منتصف القرن الثامن عشر ، وهي فرقة المتصوفة ، او «الحاسيديم» ، وكان انتشارها على يد حاخامين من المتبحرين في الطرق الصوفية الباطنية او « القبالة » ، وبالرغم مما شاب هذه الفرقة من ضروب البدع والخرافات ، وادعاء فعل الخوارق والمعجزات وعلم الغيب ، الا انها مع ذلك ، وفي هذه الفترة من التاريخ الاوروبي واليهودي ، كانت تمثل شكلا من أشكال التمرد ، وارهاصا بحركات الخروج على الغيتو ، وتغليب العاطفة على الطقس وعلى جمود التقليد الديني • لم تدع الى تجديد فكري او ادبي ، بل الى التجديد العاطفي • وبذلك تحول الاهتمام من الطقوس والتقاليد التوراتية المتوارثة الى الشخصية الانسانية ، وحياتها الباطنية والروحية • اصبح الفرد بعاطفته وجوانحه مع الله مباشرة ، دون ممارسات طقسية متحجرة (٤) •

وقد انتشرت في اوروبا الوسطى ، في الفترة نفسها ، تيارات اخرى سبتية ومسيانية ، مما اشاع جوا من الفوضى الدينية وموجات الالحاد ، وتلاطمت المذاهب والتيارات ، مما فتح الطريق ايضا لروح البعث والتجديد (٥) •

موسى مندلسون

يعتبر موسى مندلسون (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) هو الممثل البارز والرائد لحركة الاصلاح الديني اليهودي ، تأثر بأيديولوجية العصر ، ايديولوجية الاستنارة والتفتح والعقلانية ، وكان صديقا لاثنين من كبار رجال العصر هما جوتهولند ليسنج ، وعمانوئيل كانت •

وكان موسى مندلسون شديد التمسك بعقيدته اليهودية ، والحرص على التراث الديني اليهودي ، ولكن ترجمته لاسفار موسى الخمسة الى الالمانية (٦)، وهو العمل الخطير الذي اضطلع به في هذه الفترة ، اعطى دفعة قوية وبعيدة لانصار التنوير ، كما ساعد على استعمال الالمانية بأسلوبها الرشيق ، وخروج اليهود على التعبير اليهودي الالماني ولغة الغيتو (٧) • فقد كان لهذه الترجمة نفس الاثر في التنوير اليهودي الذي كان لترجمة لوثر للانجيل في التنوير المسيحي • كسرت سوار الغيتو العقلي ، وقدمت البديل عن الدراسة اليهودية التقليدية والتراثية التي تستند على التلمود ، والتي ظلت منذ القدم عماد التربية اليهودية (٨) ، محدثة نفس الشرخ في تراث الحاخامية وسلطانها ، الذي احدثه لوثر في الكنيسة وتراثها الطقسي بترجمته • وقد جاء الانقلاب شاملا في التربية اليهودية بتأثر « اميل » روسو ، وقامت مؤسسات تعليمية تخدم الاهداف الجديدة ، مثل المدرسة الحرة في برلين ، التي اسسها دافيد

فريندلاندر سنة ١٧٧٨ ، والمدرسة الخيرية في فرانكفورت ماينه سنة ١٨٠٤ . وفي هذه المدارس حل تعليم اللغات الحديثة والرياضيات ودروس المواطنة والاخلاق والسلوك ، مكان التعليم اليهودي التقليدي من خلال النصوص العبرية، كما قدم الكتاب المقدس ، ومبادىء الدين اليهودي بمفهوم ليبرالي (٩) .

اما جهود مندلسون فقد انصبت على محاولة الملاءمة بين عقيدة الاجداد وعصر التنوير ، وتطهير الدين اليهودي من المحتوى العرقي الذي احتفظ به منذ اصوله البعيدة ، مع الحرص على نقاوة العقيدة الموسوية ، وجوهرها الاخلاقي الانساني . وتأسست اول معابد الاصلاح في همبورغ سنة ١٨١٨ . وكسب تيار الاستنارة والتجديد ، هذا ، اليهودية الانجلوسكسونية في سرعة . ويؤكد ناثان وينستوك (١٠) ، ان التيار التنويري الاندماجي كان من الضخامة والاتساع بحيث غمر اليهودية في غرب اوروبا بكاملها . ولم يكتب لليهودية الاستمرار في الغرب الا بفضل هجرة اليهود التي تدفقت من البلدان السلافية .

وبين ١٧٨٤ ـ ١٨١١ ، قام اتباع مندلسون باصدار مجلة حديثة بالعبرية هي «هامياسيف» «Ha - Meassef» تدعو للاخاء البشري ، وتحارب التعصب الديني . غير انه ظهر ان استخدام الالمانية يفتح آفاقا اوسع من العبرية ، فظهرت مجلة « سلاميث » «Salamith» بين سنة ١٨٠٦ ـ ١٨٤٨ ، وهي مجلة ثقافية ذات نزعة انسانية ، وقد اعطت لمفهوم الامة اليهودية مضمونا ليبراليا انسانيا ، وفي سنة ١٨١٠ استبدلت المجلة عنوان « الامة اليهودية » بعنوان آخر هو « الاسرائيليون » ، وكانت المجلة تدعو للاصلاح التربوي والمهني الى جانب الاصلاح الديني (١١) .

الديـن والعقـل

يعرف مندلسون اليهودية في احد كتبه (١٧٨٣ ـ ٨٧) بأنها نظام طقسي يقوم على الوحي الالهي ، وعلى القانون الاخلاقي المستمد من العقل ، وهو شبيه بالتعريف الذي اورده سبينوزا في كتابه Tactatus theologica politica سنة ١٦٧٠ (١٢) ، وبذلك لم تعد اليهودية هي العنصر الحاسم ، بل أصبح العقل والتنوير هما الاساس ، وقد فتح الطريق لحضارة اوربية مشتركة تقوم على مثل العقل والتنوير والاخلاق والتسامح والسلام (١٣) .

فموسى مندلسون ، مع فلاسفة التنوير ، لا يعترف بحقائق ازلية خارجة على العقل ، او لا تتفق مع العقل البشري ، ولا تخضع للتفسير العقلي ولوسائل التحقيق العقلي وطرائقه . فاليهودية عنده ناموس الهي ، وطريقة في الحياة من وضع المشرع الالهي ، ولكنها ليست نظاما من المعتقدات المنافية للعقل .

وبذلك تحولت اليهودية على يد مندلسون من ميدان النظـــر الميتافيزيقي الـى السلوك والاخلاق العملية · ويبدو ذلك بشكل اكثر وضوحا في مفهومه عـــن اليهودية كتشريع الهي ، فهو لا يميز ويباعد بين الميتافيزيقيا واليهودية فحسب، او بينها وبين ميدان النظر ، بل يباعد بين الدين واليهودية · فهو يعتبر اليهودية نظاما تشريعيا جاء بوحي من الله وامر منه ، ولكنها ليست دينا بالمعنى المفهوم للكلمة، اي ليست مجموعة منالمعتقدات والمبادىء الماورائية الميتافيزيقية (١٤)·

والواقع ان المذهب العقلي في عصر التنوير ، عصر مندلسون ، كان لـــه موقفان من قضية الدين : فقد كان هناك اتجاه يتمسك بالقوة الغالبة لملكة العقل والمعرفة ، ويؤمن بقدرة العقل البشري على تفسيرمبادىء الدين بوسائلـــه واقيسته المنطقية ، بينما يذهب التيار العقلاني الاخر الى اعتبار الدين عقيـــدة نظرية وجزءا لا يتجزأ من الميتافيزيقا ، ومن ثم يخرج عن نطـــاق العقل ، ولا يخضعللصياغة العقلية · ومندلسون يتخذ هذا الموقف الاخير غير الوفاقـي ، فيعتبر الدين ميدانا لا ينفصل عن الميتافيزيقا ، بل وتشكـــل حقائقه النظريـة الموضوع الصحيح لميتافيزيقا ، أما اليهودية فهي في نظره حقيقة تاريخية يمكن تحديدها بدقة ، ولا يمكن تصنيفها في عداد الميتافيزيقا ، والصورة التاريخيـة المميزة لليهودية ، انها ليست دينا بهذا المعنى ، لانها في الاساس ، تشريـــع ونظام من القوانين والاوامر والوصايـــا والنواحي البعيـــدة عن التأمـــل الميتافيزيقي (١٥) ، فجوهرها اخلاقي/، /يتشكل من الناموس او الشريعة Law التي اوحى بها الله الى اسرائيل ، والتي لم تطبق على شعب اخر ، والله فـي علاقته باليهود يتصرف كمشرع ·

ويرى الكاتب نفسه (١٦) ، وهو مدير الجامعة العبرية في القدس ، ان مفهوم مندلسون هذا عن اليهودية يتأثر بالفكر السائد في عصره ، وبالاخص بحركـة التاليه Deism ، وهي الحركة الدينية والفلسفية المؤثرة في القرن الثامـــن عشر ، والتي تؤمن بوجود الله دون اعتقاد بديانات منزلة ، وتدعو الى الايمان بدين طبيعي يقوم على العقل لا الوحي ، وتؤكد الجانب الاخلاقي من الدين ، كما تنكر تدخل الخالق فيناموس الكون ، وتستبعد الميتافيزيقا وتعزلهـا عـن الدين · والواقع ان مندلسون يعتبر ان ممارسة العقل كافية في ذاتها لكـــي تعطينا الحقائق الدينية ، وهو يقصر الوحي على الشريعة وحدها ·

الدين والاخـــلاق

وعندما يرفضمندلسون اية حقائق ازلية خارجة على العقل ، او مبادىء لا يتقبلها العقل البشري ، ولا تخضع لمقاييسه وبرهنته ، لا يرى في ذلـــك اي خروج على دين الاجداد · فالدين اليهودي لا يعترف بعقيدة من وحي السمـاء

بالمفهوم المسيحي ، وهو في كتابه « اورشليم » يصور الدين اليهودي كشريعة فحسب ، كما اسلفنا ، والقصص التاريخية التي وردت في التوراة ، ليست من العقيدة اليهودية ، اما الشريعة الخاصة باليهود فهي الوحدة الجديرة بالايمان ، فلليهود شريعة الهية ، ترمي الى تحقيق السعادة في الدنيا والاخرة، اوحيت اليهم على يد موسى بطريقة عجائبية ما ورائية، ولكنها ليست عقائد ترمي الى الخلاص · اما الحقائق والمبادىء العامة ، فلم يوح بها الى اليهود وحدهم، بل للبشر كافة (١٧) ، وقد آمن مندلسون بالبعث ، ولكن على أساس عقلي شبيه بايمان كانت (١٨) ·

ويقول ناثان روتنشترايخ (١٩) ، عميد الجامعة العبرية ، في تفسير العناية المركزة التي يعطيها مندلسون للجانب الاخلاقي ، ان القيم الاخلاقية والسلوك ظلت على الدوام جزءا لا ينفصل عن العالم الديني لليهود · أما الجديد لدى مندلسون فهو الاصرار على اولوية الاخلاق في ميدان العقيدة ، والتأكيد على السلوك البشري باعتباره جوهر الدين ، وتجريد الدين التقليدي ، من عقيدته المتعالية · وقد كان ذلك بتأثير ضغوط العصر الليبرالية ، وتهديم جدران الغيتو، ويهودية العصور الوسطى الانغلاقية · فلم تعد الطقوس ، ولا سلطة الحاخامية هي الفيصل والمعيار ، بل الفرد وسلوكه وقيمه المستمدة من العقل · ولا تنفرد اليهودية بهذا الاتجاه الاخلاقي خلال هذه الفترة ، وقد اصبحت قضية الاخلاق والقيم هي الوجه البارز لفلسفة التنوير عموما ، المسيحية واليهودية ، بعد ان افلت الفرد من سلطان البابوية والحاخامية ، واصبح العقل ، والفردية الانسانية هي اساس السلوك ومعيار القيم ·

ولكن قضية الاخلاق كان لها بعد آخر في المسيحية واليهودية على السواء ، في عصر التنوير · فقد شكلت سيادة العقل ، والنزعة العقلانية الطاغية ، تهديدا مباشرا للعديد من النصوص ، والمعتقدات الدينية ، التي لم تتماش مع منطق العقل ، كما قد تصطدم بحقائق العلم ومكتشفاته الباهرة خلال تلك العصور · وقد واجه الفكر الديني المسيحي واليهودي مشكلة كبرى عندما تعرضت نصوص العهد القديم وقصصه للنقد والمراجعة العلمية ، منذ حل شامبليون رموز حجر الرشيد [الرموز الهيروغليفية] ، ونشطت حركة التنقيب عن الاثار القديمة في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق · وقد حدث كنتيجة لذلك ، انقلاب شامل في النظرة العلمية لعلوم الشرق القديم وديانات وميثولوجياه · فقد أسفرت البحوث العلمية التاريخية في هذا الميدان عن حقائق جديدة ، بعضها يثبت ما جاء في الكتاب المقدس ، ولكن اكثرها ينقض قصصه ومعتقداته · وكان مما لا يتفق مع النزعة العقلية العلمية التسليم بوحي يناقض العقل · وقد لجأ رجال الدين المسيحيون واليهود الى التأويل دفاعا عن العقيدة · وقامت في برلين سنة ١٨١٩ ، جماعة من المثقفين اليهود

تدعو الى دراسة اليهودية ، دراسة موضوعية نقدية علمية · والف لودفيـــغ شتاتهام (١٧٩٠ ــ ١٨٦٦) كتابه (الوحي حسب تعاليم الكنيس اليـهودي) سنة ١٨٣٥ « فأثبت فيه ان الوحي اختلط بالتلفيق ، ودعى الى ايمان يستنـــد الى قناعات العقل، وما تمليه هذه القناعات على الفرد من سلوك واخلاق (٢٠)· واعتبر صموئيل غولدهايم (١٨٠٦ ــ ١٨٦٠) ان اي شريعة سماوية او وحي الهي ، انما قد انزل لوقته ومكانه ، وقال « يتكلم التلمود باييديولوجية العصـــر الذي جمع فيه ، فصلاحيته تقتصر على ذلك العصر · اما انا فاتكلم من وجهة نظر الايديولوجيا العليا لعصرنا » (٢١) ·

الديـــن والدولـة

المحور الاساسي الذي تدور حوله فلسفة مندلسون ، وحركة الاصـــلاح الديني اليهودي ، وهو نفس المحور الذي دارتحوله حركة لوثر ، وكالفـــن ، والاصلاح المسيحي ، هو قضية القومية والموقف من دولتها الفتية الجديدة ·· فالاصلاح اليهودي مثله مثل الاصلاح المسيحي ، تعبير ديني يعكس في الجوهر تطلعات الطبقة الوسطى الجديدة ، لاقامة دولتها الوطنية المتحررة والموحدة ، في مواجهة سلطان الكنيسة والبابوية ، ودمج عناصر الامة وتوحيدها ، بالارتفاع فوق الانقسامات الاقطاعية الطائفية والفئوية والعرقية · وقد وقف لوثر وكالفن ضد كنيسة روما وسلطتها البابوية ، ومع الكنائس القومية والحركات القومية· وجاء مندلسون ليؤدي الدور نفسه ، ضد السلطة الحاخاميـــة ، وطقوسهـا التلمودية · وضد العزلة داخل جدران الغيتو الاقطاعيـــة ، ومع الاندمـاج والذوبان في الاوطان الجديدة ·

يقول مندلسون في كتابه « اورشليم » انه اذا اريـد للمواطـن ، موظف او سياسي او تاجر او زارع او عامل او جندي ، ان يحسن القيـــام بالواجب القومي المنوط به ، فعليه الا ينظر في امر الدين ، بل ينحيه عن المجالات العلمية· واذا اريد للمواطن ان يتمتع بحرية الفكر ، وجب عليه ان يبعده عن المجـالات النظرية (٢٢) · وهو يخاطب مواطنيه من اليهود قائلا : ايها اليهودي ، وافق على دستور الدولة ، واعمل بجميع عادات البلد الذي تحل فيه ، وبقوانينه ، ولكن ، وفي الوقت نفسه ، كن اميناً على دين اباءك واجدادك ·

وكان مندلسون يعبر بدقة عن مفهوم التنوير ، عندما يعتبر الدين مسألـــة عقيدة لا دخل للدولة فيها ، ومن ثم ضرورة الفصل بين الدين والدولة ، واعطاء اليهود حقوقهم كاملة باعتبارهم مواطنين في اوطانهم · ومن هنا يفهم اهميـة محاولة مندلسون حصر اليهودية كدين في اطار الاخلاق والممارسات الاخلاقية، واتباع الشريعة · فهو بذلك يتبنى موقف التنوير العلماني من حرية العقيـــدة

والدين ، باعتباره علاقة بين الفرد وخالقه ، واعتقادا شخصيا لا يجوز للدولة التدخل في فيه ، او في ممارسته ٠

عقيدة ام شعب ؟

ولا شك ان فلسفة مندلسون العقلانية الاخلاقية ، التي حولت الدين الى عقيدة وممارسة شخصية ، ومسألة ترتبط بعقله وقلبه ، لا دخل للدولة فيها ، قد هدمت من الاساس المفهوم العبري التراثي ، الذي يوحد بين العقيدة اليهودية والشعب اليهودي ، ويجعل من اسرائيل الشعب المختار الذي يحركه الامل المسيائي في العودة الى صهيون ٠ وقد واجه الكتاب والدعاة الصهاينة ، فيما بعد ، مهمة شاقة ، في تفنيد رأي مندلسون باعتبار اليهودية مجرد عقيدة دينية وليست شعبا ، وهاجموا اراءه بعنف ٠ فاسرائيل في نظر الداعية الصهيوني سمولتسكن (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) ، الذي حاول التصدي لاراء مندلسون ، هي طريقة في الحياة ، وجسر ممتد بين الشريعة والتوراة ،والشعب المقدس الذي تلقى العهد (٢٣) ٠

الشعب المختار

كان على مندلسون ، وهو المتمسك بدينه وعقيدته ، ان يواجه العقيدة التوراتية التراثية ، عقيدة الشعب المختار ، التي لا يمكن ان تنسجم مع موقعه العقلاني والتنويري ، المستمد من روح العصر ، الذي يرفض الاستعلاء والتمايز ٠ ويطلب الحرية والمساواة والتسامح بين الشعوب والافراد ٠ وقد لجأ مندلسون الى التأويل والتبرير في هذه النقطة الحرجة ، حتى لا يفرط في عقيدته ، أو يصطدم بمبادئه ويخون روح عصره ٠

فمندلسون يسلم بالطبع ان البحث عن السعادة والنعيم ليس مسألة يهودية تماما ، ولا مسألة قاصرة على شعب اسرائيل ، بل هي امر مشترك بين جميع الناس ، واختيار اسرائيل كشعب لا يؤثر في رأيه في محتوى العقيدة ، بل هو طريق مقرر لاسرائيل للوصول الى النعيم ، طريق خطه الله بنفسه ، ويتمشى مع الشرائع والنواميس التي اوصي بها الله الى شعبه ٠

وحيث ان جميع الناس يتطلعون الى السعادة ويسعون اليها ، معتمدين على جهودهم الخاصة وعقولهم المستقلة ، فان وجود طريق خاص لشعب مختار لا يخضع لتفسير عقلي ، فهو طريق مقرر لاسرائيل ، يخرج عن اطار التفسير والتجربة العقلانية ، لانه ينطوي على عنصر متميز وخاص متعال عن الطبيعة، يرتفع ويتخطى حدود العقل البشري (٢٤) ٠ وهذا الطريق المقرر لشعب الله

المختار لا يخضع للزمان ولا لمحاولات الاصلاح · فاذا كانت الامم الاخرى تستطيع ان تغير قوانينها مع تغير الظروف والازمان ، فكيف لي أن احاول تغيير ما وضعه الخالق بنفسه ؟ فالطبيعة الاساسية لليهودية انها غير تجريدية او ميتافيزيقة ، بل تقوم على اساس وحي موجه الى اسرائيل وحدها ·

ويعلق عميد الجامعة العبرية على هذا المنطق بقوله (٢٥) : ان مندلسون العقلاني ابن التنوير ، يبحث عن تبرير عقلي لعقيدة لا تتمشى مع العقل ، فهو يدعو الى خصوصية ، هي خصوصية الشعب المختار ، في عصر يرفض هذا التمايز او الاستعلاء ، ويدعو للمساواة بين كل البشر · فكأننا بمندلسون يبحث عن خصوصية ، ورسالة متميزة لشعب اسرائيل في اطار النظام العقلي للعصر· ولذلك فان مندلسون في الحقيقة لا يعني باثبات تفرق اليهودية ، بل حقها المتفرد الذي يرجعه الى عنصر التفرد والخصوصية فيها ، وهو لا يعني المفهوم الصهيوني الذي جاء بعده ، مفهوم التفرد الاستعلائي والانغلاقي ، او الخصوصية التي تدعي الامتياز وترفض العموم ، واليهودية التي ترفض الانسانية ، بل هو يعني بخصوصية الشرع في اليهودية ، حق اليهودي في التفرد في اطار الحقوق المشروعة للافراد والجماعات ، تمشيا مع مبادىء الليبرالية ، والحقوق المدنية للطوائف المدنية التي تعيش في وسط شعوبها ، وتتطلع الى نفس آمالها ·

الهسكلاه ، ١٧٥٠ ـ ١٨٨٠

اخذت حركة التنوير اليهودي اسم الهسكلاه في شرق اوروبا ، وقد نشأت في الاصل مستقلة عن اتجاهات مندلسون · ويقف ممثلوها الاولون على ارضية التراث اليهودي ، ولكنهم يدعون الى الاخذ بالاساليب الحديثة في البحث ، وبالاتجاه العلمي · واللفظة تعني « الحكمة » او « الفهم » (٢٦) ، وهي تستخدم في العبرية الجديدة بمعنى « التنوير » او « تثقيف العقل » او « الليبرالية » ، وهي تمثل استجابة اليهود الاوروبيين لتحديات العصر ، ومحاولة التوافق مع روحه وتياراته الليبرالية القومية · لذلك كانت المهمة الرئيسية للتنوير عبور العزلة التقليدية لليهود ، والتخلي عن المفهوم القومي اليهودي التقليدي والمحافظ ، والاتجاه الى الاندماج والذوبان في الامم والاوطان التي يعيشون فيها ، مع الاخذ بمبادىء الاصلاح الديني ·

وكان انتشار الهسكلاه في شرق اوروبا بفضل تأثير الثقافات الغربية الانجليزية والفرنسية والالمانية ، بما تحمله من ايمان بالحرية والتقدم (٢٧) ، وترجع دائرة المعارف البريطانية (٢٧) ، بداية حركة الهسكلاه الى تأثر الشباب البولندي بوجه الخصوص ، وغيرهم من ابناء الاثرياء ، بالتنوير الاوروبي في ظل

فردريك الاكبر في برلين ، وتأثروا بموسى مندلسون ، ونتيجة لهذه الصلات ، والصلات الادبية بالثقافة الغربية عموما ، نشأت الهسكلاه ٠

وكان للسياسة الليبرالية التي انتهجها القيصر اسكندر الثاني ، في الفترة الاولى من حكمه ، اثر في تشجيع حركات التنوير بين اليهود في روسيا وشرق اوروبا ، كما اشتد ساعد حركات الاصلاح (٢٨) ، ومحاولات التوفيق بين النزعة العبرانية والتراثية والثقافة الغربية ٠ وقامت جمعيات يهودية لخدمة هذا الهدف ، ومنها جمعية تأسست سنة ١٨٦٣ (٢٩) ٠ ورغم قوة التراث التلمودي بين يهود روسيا ، لاقت حركة الهسكلاه نجاحا واسعا ورضى من الجماهير العريضة لليهود ٠ وكان دعاتها يطلبون العقلانية ، ويتبنون النزعة الانسانية ٠ ينتقدون التخلف ، ويأخذون « بالثقافة الغربية » التي تأثر بها الادب اليهودي الحديث ، ويتجهون الى طابع الحياة الاوروبية ٠ وقد دعسي اسحق بويرليفنسون ، وهو الملقب « بمدنلسون الروسي » ، الى علمانية التعليم والى الاصلاح (٣٠) ٠

وتذكر دائرة المعارف اليهودية (٣١) ان حركة الهسكلاه بدأت فيشرق اوروبا حوالي نهاية القرن الثامن عشر ، في اتجاه التخلي عن العزلة والانغلاق ، واكتساب معارف الامم التي يعيشون فيها ، وعاداتهم ، وتطلعاتهم ، وهي تستبدل التلمود بدراسة المواد الحديثة ، وتعارض التعصب والغيبيات والحاسيدية ، وتدعو الى اشتغال اليهود بالزراعة والحرف اليدوية ، والتمشي مع الزمن ٠ وكان للنجاح الكبير الذي لاقاه مندلسون في المانيا ، كفيلسوف الماني شعبي ، ورجل آداب ، اثر في حضن المثقفين اليهود على الاندماج في الاوساط التي يعيشون فيها ، وفي الامم التي ينتمون اليها ٠

وقد تصدت القوى المحافظة والرجعية المتخلفة ، في المجتمعات اليهودية المنغلقة ، لهذا التيار التنويري الليبرالي ، وعبر عن التيار الرجعي سمولتسكن الذي رأى في حركة الهسكلاه انحلالا لليهودية ٠ وقد تصدى لمندلسون وفلسفته بالمعارضة الشديدة ، واسس مجلتي « الفجر » سنة ١٨٦٨ ، و « الشعب الخالد » ٠ وقد دعا فيهما الى بعث الامة اليهودية في فلسطين ٠ ومع ذلك ، فقد كان تيار الهسكلاه والتنوير في أوربا هو الكاسح ، وهو الذي استقطب الغالبية العظمى من اليهود الاوروبيين خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ٠ وسادت حركة الاندماج والذوبان بسرعة مذهلة ، وظلت تيارات العزلة المحافظة والسلفية محاصرة ومحدودة ، لا تمثل سوى القلة المتخلفة من يهود اوروبا ٠

ففي المانيا كانت الحركة الاندماجية شديدة الاتساع ، وتكونت جمعية الاصلاح في همبورغ ، وقد تبنت اللغة الالمانية والنزعة اللوثرية ٠ ووصلت النزعة الجديدة الىلايبزغ ، وتحول احد دعاتها وهو ليبرزمان الى

الكاثوليكية · وكذلك وجد تيار تقدمي بين الحاخامين ، وكانت دعوة الجميع الى ان تصلح اليهودية من نفسها ، وتتخلى عن مفهومها المسيائي ، وانتظارها للمسيح ، والا تعترف بشيء غير الامة الالمانية · وتشكلت مجالس للحاخامين سنة ١٨٤٢ ، وقد اعترف مجلس برسلا بالسلطة السياسية في كل بلد ، وقرر مجلس فرانكفورت ان استخدام العبرية ليس الزاميا ، ولم يوافق على بقاء المفهوم المسيائي في الصلوات ، الا شريطة ان تستبعد منه فكرة العودة الى فلسطين ، كما دعا الى الاخوة الانسانية · وفي برلين تشكلت في سنة ١٨٤٥ جمعية اصلاحية لاقت نجاحا كبيرا ، وكانت الصلوات تتلى فيها بالالمانية ، ورؤوس المصلين عارية (٣٢) ·

وفي روسيا شجع الاغنياء الذين كانوا يحتلون مراكز في المدن ، خاصة في جنوب روسيا ، حركة الهسكلاه ، وكانوا من ذوي الاتجاهات الليبرالية في السياسة ، وكان انصار الحاسيدية يتهمونهم بالهرطقة ، واقيمت مدارس يتلقى فيها الاطفال تعليما عصريا بدلا من التعليم التلمودي · ولكن تلاميذ هذه المدارس كانوا لا يلبثون يهجرون الدراسات العبرية ، بمجرد تعلم اللغة الروسية بطريقة جيدة ، وغيرها من اللغات الحية · ولاقت حركة الهسكلاه انتشارا واسعا ، خاصة بين الشباب (٣٣) ·

وكذلك تمسك يهود بولندا وبوهيميا بعقيدة الهسكلاه ، واستقرت المعركة بين « النور والظلام » حسب التعبير الدائع ·

وفي فرنسا ، حيث كان اليهود يشاركون في جميع المهن والنشاطات الاقتصادية على قدم المساواة ، كانت حركة البعث اكثر قوة · وفي سنة ١٨٤٤ سيطر العنصر العلماني ، وتفوق على العنصر الديني الكنيسي في سبعة مجامع دينية ·

وتجدر الاشارة ، الى ان الحركة الاصلاحية الاندماجية لم تؤد الى زوال اليهودية بثقافاتها وتراثها ، واندثار اليهود ، كما كان يصرخ اعداء الاصلاح ودعاة الصهيونية الاول من أمثال سمولتسكن ، والفئات المحافظة والرجعية ، بل على العكس ، صاحب حركة التنوير اليهودي انبعاث للثقافات اليهودية والتاريخ اليهودي ، وظهرت كتب في الادب الحاخامي والدين والفلسفة ، وفي العلاقات بين اليهودية والمسيحية · وفي انجلترا طرأ تغير ملحوظ على مواقع الشخصية اليهودية في الادب الانجليزي ، فبرزت الشخصية اليهودية الطيبة لتحل محل الشخصية اليهودية التقليدية (٣٤) ·

دستور الاصلاح

اليهودية الاصلاحية ، كجزء من حركة العصر وتياراته الفكرية والفلسفية ،

تأثرت بالفلسفة الهيغلية الالمانية ، وبمفهومها عن التطور التاريخي والتقدم · وبذلك تخلصت من جمود التلمود ومفاهيمه المطلقة ، كما تخلصت من الفهم الجامد للتراث بعد أن اصبح التاريخ بالمفهوم الهيغلي عملية تفتح ذاتية ، وتطور وتقدم من بطن التاريخ ، وتكشف للذات بوحي التراث · اصبح الوحي في ضوء هذا المفهوم عملية مستمرة ، ليست جامدة ثابتة عند لحظة زمنية بعينها ، واصبحت اليهودية نفسها تخضع لقانون الحركة والتطور · ومؤدي ذلك كله ان التلمود هو ثمرة عصر بعينه ، هو عصر التلمود ، وليس كل العصور · كما انكر الاصلاحيون المصدر الالهي للتلمود ·

ونجمل عقيدة الاصلاح كما قدمتها الحركة الاصلاحية في الاتي :

١ ــ العالم والانسانية كلها تقع في رعاية الله ، وبوحي ارشاده ، وهو يظهر للانسان في التاريخ باعتباره قوة الحق العظمى ، وهو المعلم والمربي ، الراعي لاطفاله من الاسرة البشرية ·

٢ ــ وبحكمة من الله ورحمته ، فقد عين اسرائيل للشهود على الارض ، واضعا على كاهل هذا الشعب ، الكاهن ، واجب قيادة العالم والبشرية على طريق الحق والعدل والحب ، وهي المبادىء التي تمكن السلام من الارض ·

٣ ــ واختيار اسرائيل من قبل الله ، لا يعطي لليهودي اي ميزة ، بل يلقي على كاهله واجبات اعظم ، والبشر اجمعين هم اولاد الله ، وهم مدعوون ، بصرف النظر عن دياناتهم او معتقداتهم ، الى ان يحيوا حياة فاضلة ·

٤ ــ نشأة اليهود وهدم المعبد ، كان بحكمة من الله لتقريب اسرائيل من اطفال الله الاخرين ، وهدف التاريخ اليهودي ليس البعث القومي ، او استعادة قومية اسرائيل التاريخية ، والعودة الى فلسطين ، والعزلة عن بقية العالم ، بل قيام انسانية اكثر كمالا ، يصبح فيها حب اليهودي له والناس حبا شاملا يضم بجناحيه البشرية باكملها · وليس الامل في عودة المسيح بن داوود ، بل قيام عصر مسيائي للبشرية كلها ، يسوده الحق والعدل والسلام · ذلك امل اسرائيل · والشعب الكاهن · لقد هجرت اليهودية الاصلاحية العقيدة المسيائية التقليدية بانتظار مجيء المسيح الشخصي ، وقيام مملكة السماء والعودة الى فلسطين ، واستبدلتها بمذهب المصير المسيائي لليهودية ، بمعنى تحقيق رسالة اسرائيل العالمية ، لا دولتها اليهودية القومية ، ووصول الانسانية كلها الى عصر مسيائي ، عصر سيادة العدل والسلام · وهو المذهب المستمد مباشرة من مسيائية عصر التنوير التقدمية ، والتي كانت تعكس امال ثواره ومفكريه ومصلحيه في مستقبل افضل للانسانية ، وانتصار لمثل الحق والعدل والاخاء والسلام ·

٥ ـ واستبعدت تبعا لعقيدة الاصلاح ، عقيدة البعث والنشور التي تنطوي على الامل المسيائي اليهودي القديم ،والذي يقول ببعث جميع الموتى في فلسطين بمجيء المسيح ٠

٦ ـ اما الشريعة ، فهي نتاج عصرها وزمانها ، وكثيرا ما تكون من مصادر غير يهودية ، وهي تخضع للتغيير ولمقتضيات الزمن ٠ اما عنصر الاستمرار والثبات فيها فهو جوهرها الروحي الاخلاقي ، هي ، من حيث هي كذلك ، ترفض العبادات والطقوس الجامدة ، التي عفى عليها الزمن ٠ وعلى هذا الاساس ، حذفت كل اشارة الى فلسطين باعتبارها الوطن الوحيد لليهود ، واسقطت الطقوس المعبدية والشرائع التي تخطاها الزمن ٠

وفي رأي اليهودية الاصلاحية ، ان كثيرا من القوانين التي وردت في التوراة حول تنظيم الشئون المدنية ، ، لم تعد صالحة ، وقد يكون في قوانين الامم الحديثة ما هو افضل منها (٣٥) ٠

صحوة الامم ٠٠٠ والاندماج

بدأت الصفحة الجديدة في تاريخ اليهود بعد الثورة الفرنسية ، بقرار الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧٩١/٩/١٧ ،استنادا الى وثيقة حقوق الانسان التي اعلنتها الثورة ، باعتبار اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن ، وعليهم جميع واجباته (٣٦) ٠ وقد سمي الاجتماع اليهودي الذي عقد عام ١٨٠٧ بناء على طلب نابليون بونابرت « بالسنهديين الاعظم » «Sanhedein» ، وقد تكون هذا الاجتماع من ٧١ عضوا من اليهود ذوي النفوذ ليضعوا الصياغات المناسبة للحالة الاجتماعية لليهود ، ثم تتابعت اجراءات تحرير اليهود مع الفتوحات الفرنسية ، ولكنها انتكست لفترة قصيرة على يد دول الحلف المقدس بعد هزيمة فرنسا في روسيا ، وانحلال امبراطورية نابليون ٠ وما لبثت حتى ابرمت قوانين جديدة واستعاد اليهود حقوقهم خاصة مع ثورات وهبات سنة ١٨٣٠ في بلدان الغرب ، وتصاعد موجة الليبرالية مع ثورات سنة ١٨٤٨ ٠ وفي سنة ١٨٧٠ لم يبق في اوروبا كلها يهودي غير محرر (٣٧) ٠

ويؤكد هرتزبرغ (٣٨) ، ان الفكر اليهودي السائد حتى منتصف القرن التاسع عشر يحكمه تيار الاندماج والاصلاح الديني ٠ وفي سنة ١٨٥٠ و ١٨٦٠ ، عندما ظهر المفكرون الصهيونيون الاول ، كانت آخر القيود في وجه مساواة اليهود قد تم ازالتها من قوانين انجلترا والمانيا وايطاليا والنمسا والمجر ٠ ويرى هرتزبرغ ايضا ، ان درجة الاندماج كانت ترتبط بالوضع الطبقي لليهود ،

فقد كانت الطبقات العليا في السلم الاجتماعي والاقتصادي هي الاسرع الى الاندماج ، لانها الاكثر استفادة ، بينما كانت البورجوازية الصغيرة هي اخر المستفيدين ، ولذلك بقي ولاؤها للقيم القديمة · كذلك انتشرت التيارات المسيانية الراديكالية بين الانتليجنسيا اليهودية التي اخذت بثقافة الغرب على وجه الخصوص (٣٩) · وكلها حقائق تقطع بأن البورجوازية اليهودية الصاعدة في تلك المرحلة ،كانت بورجوازية اندماجية تغلبت في الاساس على منازعاتها مع البورجوازية المسيحية في الفترة المبكرة ، واصبحت تجد مصلحتها كاملة في اطار حركة الامم الناهضة ، كما يثبت خطأ الرأي القائل بان الصهيونية كانت تعبيرا عن حركة الطبقة الوسطى اليهودية التي تبحث عن سوقها القومي المستقل في فلسطين ·

ويمضي هرتربزغ في وصف الموجة الاندماجية الغالبة بين اليهود مع صعود القومية الاوروبية ، فيقول بأن اليهودي الحديث في اوروبا ، في تلك الفترة ، لم يعد في حاجة الى ما يثبت انه اصبح رجلا من رجالات الغرب · وانما اصبح همه اثبات كمال وطنيته ومواطنته بالمشاركة في الجوهر الصوفي للقومية الالمانية والفرنسية الخ · ولذلك نجد قادة الاصلاح اليهودي الالمان يؤكدون في حماسة ، عام ١٨٤٠ ، ان برلين قد غدت هي « اورشليم الجديدة » و « الوطن الذي تصبو اليه كل علائق الحب » ·

□

كان الاصلاح والتنوير اليهودي ، وليس الصهيونية ، هو التعبير اليهودي عن حركة القومية الاوروبية الصاعدة ، كما كان الاندماج والذوبان في الامم ، وتلاشي الهوية اليهودية لا العزلة والانفصال ، هو النبض الحي للحركة القومية بين اليهود · نبض الانبعاث واليقظة ، ونمو مشاعر الوطنية واحاسيس الانتماء للاوطان · كانت ريح القومية والوطنية المشتدة تحمل معها تعميق احاسيس الوطنية والانتماء ، كما لاشت ، بالضرورة ، مشاعر الهوية اليهودية والعزلة ، مع زوال الاحاسيس السلالية والعرقية الموروثة عن عهود الاقطاع ، وما قبل الاقطاع بالنسبة للجميع · ذلك ان حركة القومية الصاعدة هي حركة وطنية ديموقراطية ، وحركة شعوب ، توحد وتبني ، بدوافع المصلحة والفكر ، وتشيد الصرح الجديد على انقاض كل صنوف التمزق والتشتت الاقطاعية والمتخلفة ·

حركة « القومية اليهودية » ، اذا صح التعبير ، مثلها مثل كافة الحركات القومية بين جميع الطوائف والاديان والفئات ، في مرحلة الصعود والثورة ، هي حركة انتماء ووحدة واندماج ، تلك حقيقة لا يجوز ان تترك للصهيونية لطمسها · أما كيف هزم العقل ، وتراجعت الثورة لتمسك بزمامها موجة القومية

الرجعية الامبريالية والعرقية ، فتلك صفحة اخرى من التاريخ الاوروبي ٠

الحواشي

(1) Nathan Weinstock, *Le Sionisme Contre Israel*, Paris, Francois Maspero, 1969,p. 21.

(2) *The Jewish Encyclopedia*, Vol X, « Reform Judaism »

(٣) والمقصود بالقومية المسيانية ، او الامل المسيائي عند اليهود ، هو امل المسيـــح المنتظر ، وعودة اليهود الى صهيون ، وقيام مملكة اسرائيل ٠

(٤) حسن ظاظا ، **الفكر الديني الاسرائيلي ، اطواره ومذاهبه** ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧١ ، ص ٣١٣ ٠

(5) Felix Pantail, *L'eveil Des Nationalites*, p. 628 .

(٦) ظهر المجلد الاول من الترجمة سنة ١٧٨٠ ٠

(٧) الايديش كما سميت فيما بعد ٠

(8) *Encyclopedia Britanica*, Vol 13, «Judaism» .

(٩) **المصدر نفسه** ، مادة « «اليهودية» ٠

(10) Weinstock, *op. cit*, p. 21 .

(١١) انظر مصدر الحاشية (٩) ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ٠

(١٣) **المصدر نفسه** ٠

(14) Nathan Rotenstreich, *From Mendelsohn to rosenzweig — Jewish Philosophy in Modern Times*, New York, Haltrinehart, 1968 p. 11 .

(١٥) **المصدر نفسه** ، ص ١٢ ٠

(١٦) **المصدر نفسه** ٠ ص ٢٩ ٠

(١٧) اسماعيل راجي الفاروقي ، **الملل المعاصرة في الدين اليهودي** ، القاهرة ، معهـد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٨ ، ص ٣٨ ٠

(١٨) **المصدر نفسه** ، ص ٣٩ ٠

(19) Rotenstreich, *op. cit*. p. 6 .

(٢٠) الفاروقي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥١ ــ ٥٢ ٠

(٢١) **المصدر نفسه** ، ص ٥٢ ٠

(٢٢) **المصدر نفسه** ، ص ٣٨ ٠

(23) Rotenstreich, *op. cit*, p. 22 .

(٢٤) الفاروقي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٤ ٠

(٢٥) **المصدر نفسه** ، ص ١٥ ٠

(26) *The Jewish Encyclopedia*, Vol III, «Haskalah» .

(27) *Encyclopedia Britinica*, Vol II .

(28) *Ibid*, Vol 13, «Judaism» .

(29) *Ibid*, Vol 13, «Judaism» .

(٣٠) **المصدر نفسه** ، وراجع كذلك : Pantail, *op, cit*. p. 627

(٣١) انظر مصدر الحاشية (٢٦) ٠

(32) Pantail, *op, cit*, p. 627 .

(٣٣) انظر مصدر الحاشية (٢٦) ٠

(٣٤) غسان كنفاني ، **في الادب الصهيوني** ، بيروت ،مركز الابحاث ، م٠ت٠ف٠ ١٩٦٧، ص ٤٢ ٠

(٣٥) انظر مصدر الحاشية (٢٦) ٠

(36) Arthur, Hertzberg, *The Zionist Idea*, New York, Meridian Books, 1960, p. 22 .

(٣٧) الفاروقي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤١ ٠

(38) Hertzberg, *op. cit.*

(39) *Ibid*, p. 31 .

فـــارس غـــلوب

الصهيونية والنازية ، علاقات واتفاقيات

مقدمـــة

على الرغم من صدور عدد كبير من الكتب حول معاملة المانيا النازية البربرية لليهود الاوروبيين ، فان هناك جهلا عاما واسع الانتشار ، حول وجه مهم من اوجه هذه المسألة : العلاقة بين الحركة الصهيونية والمانيا النازية ٠

والمعلومات حول هذا الموضوع متوافرة ، ولكنها حتى الآن لم تجمع معا في دراســـة شاملة واحدة ٠ وهدف هذه الدراسة تصحيح هذا النقص ، جزئيا على الاقل ٠

وبالنظر الى الطبيعة الدقيقة لهذا الموضوع ، والى الميل الصهيوني الى وصم اية وجهـة نظر لا صهيونية او مناهضة للصهيونية « باللاسامية » ، فقد اخذت جميع المواد حـــول العلاقات الصهيونية ـ النازية في هذه الدراسة من مصادر يهودية صرفة ٠ ويمثل الكتاب الذين استشهدت بهم نطاقا واسعا من الاراء ، من الصهيونية المتطرفة الى المناهضـــة للصهيونية ، مع ظلال مختلفة بينهما ٠ وهكذا يكون في مقدور القارىء ان يكون رايـــا صحيحا ، وموضوعيا ، على اساس الادلة التي يقدمها المؤرخون اليهود ٠

الموقف الصهيوني المبكر من اللاسامية

ان المعتقدات الاساسية للصهيونية هي ان اليهود يؤلفون « امة » منفصلة عن جميع الامم الاخرى ، وانه يجب « جمعهم » من مختلف اجزاء العالم في فلسطين ، ليؤلفـوا امتهـم ـ دولتهم الخاصة هناك ٠ وتدعي الظاهرة الاوروبية المسماة « اللاسامية » ان اليهود عنصر غريب لا يمكن استيعابه في المجتمع الاوروبي ، ويجب ازالته من اوروبا ٠

كان مؤسس الحركة الصهيونية السياسية ، تيودور هرتسل ، يعي الارضية الفلسفيـة المشتركة بين الصهيونية واللاسامية عندما قال : « ستكون حكومات جميع البلدان المبتلية

باللاسامية مهتمة اهتماما شديدا بمساعدتنا على تحقيق السيادة التي نريد » (١) · وكثيرا ما اكد هرتسل ، « بكل براءة ، ان اللاساميين سيكونون افضل اصدقاء اليهود والحكومات اللاسامية افضل حليفاتهم · الا ان هذا الايمان باللاسامية عبر بكثير من الفصاحة وحتى بصورة مؤتمرة عن مدى قرب حالته الذهنية من الحالة الذهنية لبيئته المعادية وعن انتمائه الحميم للعالم (الغريب) ···

كانت اللاسامية قوة غامرة وعلى اليهود اما ان يستخدموها او هي تبتلعهم · كانت اللاسامية ، بكلماته هو ، (قوة دافعة) مسؤولة عن جميع الام اليهود منذ تدمير الهيكل وستستمر في جعل اليهود يتألمون الى ان يتعلموا كيف يستخدمونها لفائدتهم · وفي ايد خبيرة ستثبت هذه (القوة الدافعة) انها العامل الاكثر فائدة في الحياة اليهودية · وستستخدم بالطريقة نفسها التي يستخدم بها الماء المغلي لانتاج الطاقة البخارية » (٢) ·

كان هرتسل رجلا يمارس ما يبشر به · وقد انسجمت الوسائل التي استخدمها في جهوده الدبلوماسية من اجل القضية الصهيونية مع المبادىء التي اعلنها · ويتضح هذا بشكل جلي من الاتصالات التي قام بها مع روسيا القيصرية ، التي كانت في بداية القرن الدولة التي طبقت السياسات المعادية لليهود الاكثر تعصبا ووحشية ، من مجازر وطرد وتمييز ·

ومع ان هرتسل لم يحقق ابدا حلمه بمقابلة القيصر ، فقد اجرى بالفعل محادثات مع وزير الداخلية القيصري فنزل فون بليفيه الذي كان مسؤولا عن تنفيذ اجراءات معادية لليهود ونظم مجازر مثل مذبحة كيشينيف ، التي قتل فيها ٤٥ يهوديا · كان بليفيه « من الوحشية بحيث اعترف بانه لم تكن لديه اعتراضات على التخلص من اكبر عدد ممكن من اليهود · وفي الواقع سيصبح مؤيدا (متعاطفا) مع الصهيونية · ثم اقترح هرتسل ان يكتب بليفيه له رسالة يقدمها امام المؤتمر الصهيوني ، تفيد ان بامكان الحركة الصهيونية أن تعتمد على (المساعدة المعنوية والمادية) للحكومة الروسية · وصارت رسالة بليفيه اثمن ما يملكه هرتسل · وكان يحملها معه في كل مكان · واراها للبابا · لقد صافحه قاتل شعبه وتحدث اليه بأدب · اليس هذا رائعا ؟ وبالنسبة الى بليفيه ، والى القيصر ، والى الجمهرة الكاملة من الحراس السود والرجعيين الذين يحكمون اوروبا ، كان لدى هرتسل وعد مفضل : ان الصهيونية ستحل جميع العناصر الثورية والاشتراكية بين اليهود » (٣) ·

وفي ١٩٠٣ قابل مؤسس الحركة الصهيونية في سانت بيترزبرغ زعيما لاساميا آخر ، هو وزير المالية القيصري الكونت فيته ، الذي كان هو الآخر يفضل الخطة الصهيونية لاخراج اليهود من اوروبا · قال فيته لهرتسل : « لو كان من الممكن اغراق ستة او سبعة ملايين يهودي في البحر الاسود ، لاسعدني تماما ان افعل ذلك ، ولكن ذلك غير ممكن ، ولذا يتوجب علينا ان ندعهم يعيشون · ولكننا نشجع اليهود على الهجرة · اننا نطردهم » (٤) ·

ان اهم الاسس التي وضعها هرتسل من أجل نجاح الصهيونية في المستقبل كانت الحلقات اللاسامية في بريطانيا · كان عدد لا يستهان به من اليهود الروس الفارين من المذابح القيصرية قد اختاروا بريطانيا بدلا من فلسطين كملجأ لهم ، مخيبين بذلك الآمال الصهيونية · غير ان الصهاينة وجدوا ان عددا من السياسيين اليمنيين المتطرفين في

بريطانيا كانوا مستعدين كل الاستعداد لاثارة حملة شنعاء تهدف الى حرمان هـــؤلاء اللاجئين السيئي الطالع من حق اللجوء ٠

ومنح هرتسل هؤلاء اليمينيين بركته وتشجيعه ، وفي شهادته « للجنة الملكية حـــول هجرة الاجانب » ، التي حققت في المسالة في ١٩٠٢ و ١٩٠٣ ، دعا هرتسل الى تحويـــل نهر الهجرة عن بريطانيا ٠ وهكذا اتفق في الرأي مع العنصري إرنولد وايت ، احد ابرز منظري الحملة من اجل منع اليهود من دخول بريطانيا (٥) ٠

كان احد الزعماء البارزين لهذه الحملة الذين اقام هرتسل معهم صلات ودية هو وزير المستعمرات جوزف شامبرلين ٠ ففي خطاب في لايمهاوس بلنـــــدن ، في كانـون الاول (ديسمبر) ١٩٠٤ ، هاجم شامبرلين سياسة السماح للهجرة اليهودية الـــى بريطانيا ، مؤيدا في الوقت ذاته الفكرة الصهيونية لدولة يهودية وممتدحا هرتسل بحرارة (٦) ٠

كان اهم لاسامي بريطاني في ذلك العصر ، من حيث الخدمات التي اسداها بالنتيجـة الى الصهيونية ، هو السياسي المتعصب في هجماته المتكررة على اليهود اللورد آرثور بلفور ٠ وفي نقاش برلماني حول قضية الهجرة ، القى بلفور خطابا طرح فيه قضية مألوفة جدا للاسامية ٠ فقد اعلن قائلا : « لن يكون لمصلحة مدنية البلد ان تكون هناك مجموعـة ضخمة من الاشخاص الذين ، بافعالهم الخاصة ، يبقون شعبا منفصلا ، ولا يعتنقون دينا مختلفا عن الاكثرية الساحقة من مواطنيهم فحسب ، ولكنهم ايضا لا يتزاوجون الا فيمـــا بينهـــم » (٧) ٠

كان باستطاعة هرتسل ان يعلن بارتياح ان « اللاسامية قد نمت وتستمر في النمو ، وانا ايضا انمو » (٨) ٠ الا ان ثمار دبلوماسيته لم تنضج خـلال حياته ٠ وبعد عشـــرة اعوام من موته ، اثبتت الحرب العالمية الاولى انها نقطة تحول في حظوظ الصهيونية ، اذ اعتزم الحلفاء الغربيون ان يقسموا الامبراطورية العثمانية ، التي كانت تقاتل الى جانب المانيا ٠ وكانت فلسطين آنذاك تحت السيطرة العثمانية ٠

انتهج الصهاينة سياسة المراهنة على كلا الجانبين في العامين الاولين مـن الحرب ٠ وكان المقر الرئيسي للمنظمة الصهيونية العالمية لا يزال في برلين ، وواصل زعماؤهـــا هناك الجهود لتشكيل تحالف مع المانيا ٠ وفي الوقت ذاته قام حاييم وايزمـان ، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني آنذاك ، بجهود مماثلة من اجل تحالف مع بريطانيا ٠ قـــام وايزمان بحملة ذكية ونشطة ، مركزا على كسب تأييد سياسيين رجعيين امثال بلفور ، والورد روبرت سيسيل ، ورئيس الوزراء لويد جورج ، والى جانب الحجة القائلة بـــان الصهيونية هي طريقة ملائمة لتخليص اوروبا من يهودها ، استخدم وايزمان كذلك الحجة الامبريالية القائلة بان « فلسطين يهودية ستكون دولة واقية لانكلترا خصوصا فيما يتعلق بقناة السويس » (٩) ٠

وكان « اعلان بلفور » الصادر في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ نتيجـة لهذه الجهود الدبلوماسية ٠ وهكذا كان الدافع لهذه الشرعة الاولى من اجل « وطـــن قومي » صهيوني هو مزيج من المطامح الامبريالية والتحيزات اللاساميـــة من جانب السياسيين اليمينيين الذين اصدروها ٠ وجدير بالملاحظة ان المعارضة القوية لها ضمـــن الحكومة البريطانية جاءت من عضوها اليهودي الوحيد ،السير ادوين مونتاغو ، الـذي ادرك بوضوح الدوافع اللاسامية وراء سياسة بلفور ولويد جورج ٠ وكتب مونتاغو يقول :

« انا اؤكد انه ليست هناك امة يهودية ... عندما يقال لليهود ان فلسطين هي وطنهم القومي ، فان كل بلد سيرغب فورا في التخلص من مواطنيه اليهود ، وستجدون سكانا في فلسطين يطردون سكانها الحاليين ، آخذين كل ما هو الافضل في البلاد » (١٠) .

كانت تكهنات مونتاغو صائبة ودقيقة جدا . وشهدت الاعوام اللاحقة لوعد بلفور ازدياد اللاسامية الخبيثة في اوروبا ، وبلغت اوجها في مذابح هتلر . وتبع ذلك تشريد شعب فلسطين . وكما سيصير واضحا فيما بعد ، كان الحدثان مترابطين بصورة وثيقة .

II الخلفية المشتركة بين الصهيونية والنازية

عنى تولي هتلر للسلطة في المانيا ، في الثلاثين من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ ، ان اللاسامية صارت السياسة الرسمية للحكومة الالمانية . ورافق هذا الحدث ازدياد حدة السياسات المضايقة لليهود التي تميزت بها النازية .

« في كانون الثاني ١٩٣٣ ، صار الزعماء النازيون ، الذين طالما اعتبرهم الاشخاص المفكرون عصبة من الديماغوجيين الجهلة والمنحرفين ، فجأة ، رؤساء محترمين لحكومة عظيمة . الا ان وضعهم فقط هو الذي تغير . فصفاتهم ووسائلهم بقيت كما هي ، وكان على يهود المانيا انيتكبدوا نتائج حملة الكراهية الديماغوجية التيطالما شنت ضدهم»(١١).

وكان في مقدور النازيين ، المتسلحين بالجهاز الكامل للحكومة ، ان يشنوا حملة ارهابية فعالة . وقد وصفها شاهد يهودي على النحو التالي :

« كان علي ان اصغي الى صرخات «Jude Verreche» الصادرة عن العصابات المنظمة للمتظاهرين السائرين عبر منزلي . ويوميا كانت هناك هجمات على الناس وحوادث خطف ، اسوأ انواع المعاملةلاشخاص من معارفي الذين اعرف انهم يحملون اراء ديموقراطية او اشتراكية ، او لمجرد انهم كانوا يهود ... عندما غادرت برلين قبل ذلك ببضعة ايام كان لدي الشعور بانني اعيش في وضع مذبحة مستمرة ومتواصلة اسوأ من تلك التي حدثت ذات مرة في روسيا لان المذبحة هناك ابتدأت وانتهت في وقت محدد . في هذا الوقت تكون قد سمعت على الارجح بالمذبحة الرهيبة في كونيغزبرغ ... ان اقرباء اليهود الذين هوجموا وجرحوا لم يجرؤوا حتى على اخذ الضحايا المساكين الى المستشفيات في كونيغزبرغ ، بل كان عليهم ان ينقلوهم الى برلين واستسلم الكثيرون منهم لجراحهم خلال نقلهم الى برلين » (١٢) .

ورافقت تنظيم السفاحين اجراءات ادارية لفصل اليهود عن بقية المجتمع الالماني :

« في الثامن من نيسان (ابريل) وافق مجلس الوزراء على (قانون الخدمة المدنية) الجديد ، واعلنه الدكتور فريك ، وزير داخلية الرايخ . ومنع القانون جميع اللاآريين (باستثناء الذين قاتلوا في الجبهة او خسروا ابا او ابنا في الحرب العالمية) من اي مركز في الخدمة المدنية الاتحادية او التابعة للولاية او البلدية ... (١٢ نيسان) اليهود المقبولون في الكليات او الجامعات لا يمكن ان يكونوا اعضاء في الجسم الطلابي . وفي اليوم ذاته منعت الحكومة المحررين السياسيين اليهود من حضور مؤتمراتها الصحافية .. في العشرين من اذار (مارس) ، اعلن مكتب المحاكم الرسمي تطهير مكاتب المدعين العامين في جميع انحاء المانيا ، وابعاد القضاة اليهود من المحاكم الجنائية الى المحاكم المدنية .

ولكن بحلول الثلاثين من اذار ، حدث تغير في الموقف ، وابعد جميع المحامين والقضاة اليهود ٠

وفي بروسيا ، في الحادي والثلاثين من اذار ، طلب الدايت (البرلمان) من وزير التربية صرف جميع المعلمين اليهود وتحديد عدد الطلبة اليهود ـ لا في الجامعات فحسب ، بل ايضا في المدارس ذات المستوى الادنى بواحد في المئة ٠ (في ميونيخ) ذهب مراقب المدارس الى ابعد من ذلك فأعلن انه « في الفصل التالي ، لن يسمح لاي اولاد يهود بدخول المدارس المسيحية ، كما لن يسمح لاطباء المدارس اليهود بمعالجة اولاد المسيحيين » (١٣) ٠

يتضح التأثير المدمر لمثل هذا التمييز في هذه الرسالة من الوكالة التلغرافية اليهودية:

« ان صفوف الخبز اليهودية تتضاعف بين ليلة وضحاها ، ويقفز عدد العاجزين من ثلاثين الفا الى ثمانين الفا في أقل من اسبوع ٠٠٠ ومعظم هؤلاء هم اناس مفلسون من الطبقة الوسطى ، اصحاب حوانيت وعمال ياقة بيضاء واصحاب مهن اجبروا على التخلي عن سبل عيشهم بسبب الاجراءات اللاسامية » (١٤) ٠

وهكذا ، ثبت حقد النازية الاثيم ، بصورة لا تقبل اي شك ، منذ اللحظة التي وصلت فيها الى الحكم ٠ ماذا كان القصد من مثل هذه الاجراءات ؟ حسبما قال احد الخبراء القانونيين اليهود البارزين : « كانت النتيجة الحتمية لحملة الصرف والابعاد بالقانون والعنف والاساءة والحرمان من حماية القانون ضد اليهود والليبراليين ، هي خروج عدد كبير من اليهود واللاآريين والليبراليين من المانيا » (١٥) ٠

كيف كانت ردة الفعل الصهيونية للاجراءات النازية الوحشية ؟ كانت الحركة الصهيونية تعتقد ، بالنتيجة ، ان اليهود يجب الا يكونوا جزءا من مجتمع غير اليهود ٠ وهذه الحقيقة تفسر لماذا ادى صعود النازية الى قوة متزايدة الى حد كبير للصهيونية بين اليهود والالمان٠ كما انها تفسر لماذا استطاع نازي متعصب مثل ادولف ايخمان ان يكون على علاقات ودية مع الصهاينة ، وحتى ان يصف نفسه كموال للصهيونية ، فيما يبقىمكرسا للايديولوجيا النازية ٠

« لم يكن ايخمان بحال من الاحوال وحيدا في اتخاذه هذه المولاة للصهيونية على محمل الجد ٠ فاليهود الالمان اعتقدوا انه سيكون كافيا لابطال (الاستيعاب) عن طريق عملية جديدة (لعدم الاستيعاب) وتدفقوا الى صفوف الحركة الصهيونية ٠ (ليست ثمة احصاءات موثوقة حول هذا التطور ، ولكن يقدر ان توزيع الصحيفة الاسبوعية الصهيونية « دي يوديشه روندشاو » ازداد ، في الاشهر الاولى من نظام هتلر ، من ٥ ـ ٧ الاف على وجه التقريب الى نحو ٤٠ الفا ، ومعروف ان منظمات جباية الاموال الصهيونية تلقت في ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ ، من سكان نقص عددهم وافتقروا الى حد كبير ، ثلاثة اضعاف ما تلقته في ١٩٣١ ـ ١٩٣٢) ٠ ولم يعن هذا بالضرورة ان اليهود رغبوا في الهجرة الى فلسطين ٠ بل كانت بالاحرى مسالة كبرياء : (علقوا النجمة الصفراء باعتزاز) ، وهو الشعار الاكثر شعبية لتلك الاعوام ، وقد صاغه روبرت فيلتش رئيس تحرير دي يوديشه روندشاو ، وعبر عن الجو العاطفي العام ٠ وكانت النقطة الجدلية للشعار ، الذي صيغ كرد على (يوم المقاطعة) ، الاول من نيسان (ابريل) ١٩٣٣ ستة اعوام قبل ان يجبر النازيون اليهود على تعليق شارة ، هي نجمة صفراء مسدسة المزايا على

ارضية بيضاء – موجهة ضد (دعاة الاستيعاب) ، وجميع الذين رفضوا القبول (بالتطور الثوري) الجديد ، والذين (كانوا دوما متخلفين عن الازمنة) » (١٦) ٠

ومما لا ريب فيه ان الصهيونية افادت من حقيقة ان صعود هتلر ادى الى سحق المنافسين الرئيسيين للقيادة الايديولوجية لليهود الالمان ، « في تلك الاعوام كانت حقيقة من حقائق الحياة اليومية ان الصهاينة وحدهم كانت لهم فرصة للتفاوض مع السلطات الالمانية ، وذلك لسبب بسيط هو ان الخصم اليهودي الرئيسي ، (الرابطة المركزية للمواطنين الالمان ذوي الديانة اليهودية) ، التي ينتمي اليها ٩٥ بالمئة من اليهود المنظمين في المانيا آنذاك ، حددت في قوانينها الداخلية ان مهمتها الرئيسية هي (القتال ضد اللاسامية) ٠ وصارت فجأة منظمة (معادية للدولة) ٠٠٠ خلال الاعوام الاولى ، بدا صعود هتلر الى السلطة ، لليهود ، على انه ، بصورة رئيسية ، (الهزيمة الحاسمة للاستيعاب) ٠ ومن هنا استطاع الصهاينة ، لفترة من الوقت على الاقل ، القيام بمقدار ما من التعاون غير الاجرامي مع السلطات النازية ٠ واعتقد الصهاينة كذلك ان (عدم الاستيعاب) ، مع هجرة الشبيبة اليهودية ، والرأسماليين اليهود كما رجوا ، الى فلسطين يمكن ان يكون (حلا عادلا بصورة متبادلة) ٠ وفي ذلك الوقت كان الكثيرون من الرسميين الالمان يحملون هذا الرأي » (١٧) ٠

هذا التعاون « غير الاجرامي » بين النازية والصهيونية في الاعوام الاولى اثبت في الواقع انه الطرف الرفيع للاسفين ، وفي وقت لاحق فتح الباب امام تعاون اوسع واكثر خطورة بكثير تضاءلت « لا اجراميته » اكثر فاكثر فيما تطورت السياسة النازية ٠ وحتى قبل ان يصير هتلر مستشارا كانت المصالح المشتركة بين الصهيونية والنازية قد امتدت الى ما وراء مبدأ عدم استيعاب اليهود ووصلت الى حد التأييد النازي لنقطة مركزية في البرنامج الصهيوني : هجرة اليهود الى فلسطين ٠ وهكذا منذ العشرين من حزيران (يونيو) ١٩٣٢ « سار ٣٠٠ نازي عبر شوارع بريزلاو وارهبوا المارة اليهود ، صارخين (ليذهب اليهود الى فلسطين » (١٨) ٠

وحصلت سياسة تشجيع اليهود على الهجرة الى فلسطين على بركة هتلر نفسه ٠ ومع انه في وقت سابق ، عندما كتب « كفاحي » ، لم يكن يعتقد بان الصهاينة يعتزمون فعلا تأسيس دولة ، فانه ما ان جاء الى السلطة حتى راجع رأيه فيهم واخذهم اكثر على محمل الجد ٠

« كان الصهاينة بالتحديد هم الذين اظهروا انفسهم مستعدين لـ (تحرير المانيا من يهودها) ٠ وبما ان هذا الهدف كانت له الاسبقية على جميع الاهداف الاخرى ، فان هتلر قبل ، بما عرف عنه من براغماتية ، بحل وسط لتعاليمه هو المذهبية ٠

وكان الاستنتاج الذي تم التوصل اليه في فلهلمشتراسة هو ان الاهداف التي وضعتها لنفسها هذه الفئة (من اليهود الذين يعارضون الاستيعاب ويؤيدون اعادة تجميع ابناء ملتهم في وطن قومي) ، وفي طليعة صفوفهم الصهاينة ، هي تلك التي تنحرف بأقل قدر عن الاهداف التي تنتهجها السياسة الالمانية في الواقع فيما يتعلق باليهود ٠

وكان اليهود الوحيدون الذين اقامت معهم مختلف اجهزة الرايخ الثالث ، ولا سيما وزارتا الشؤون الخارجية والاقتصاد ، علاقات عملية حقيقية ، في التحليل الاخير وبالنتيجة هم الصهاينة ويهود فلسطين » (١٩) ٠

III اتفاقيات هعفراه

ما لبثت العلاقة بين الصهيونية والنازية ان اتخذت شكلا رسميا في اتفاقية ، هي الاولى في سلسلة اتفاقيات ٠

« اعطى اليهود المهاجرون الى فلسطين فرصة خاصة لنقل رؤوس اموالهم عن طريق ما سمي اتفاقية هعفراه [بالعبرية : نقل ، تحويل] وتم التوصل الى هذه الاتفاقية بين الرايخ الالماني والوكالة اليهودية لفلسطين ٠ كانت من حيث الشكل ترتيب مقاصة معدلا ٠ وبموجب شروطها يسمح (للرأسمالي) اليهودي الذي يريد الهجرة الى فلسطين ان يجري اتصالا مع مصدر الماني لنقل السلع من المانيا الى فلسطين ٠ ويدفع للمصدر اليهودي بأموال مسحوبة من حساب مجمد لليهود المهاجرين ٠ ويتلقى المهاجر عملته الفلسطينية من الوكالة اليهودية لدى وصوله الى فلسطين ٠

وكانت الوكالة اليهودية والمصدرون راضين عن هذا الترتيب تماما كالمهاجرين انفسهم٠ وتدفقت السلع الالمانية على فلسطين ، وبعد فترة من الوقت الحقت باتفاقية مقاصة هعفراه اتفاقية مقايضة تتعلق بمبادلة البرتقال الفلسطيني بالخشب وورق اللف والسيارات والمضخات والات الزراعة الالمانية وغيرها ٠ وبدا كان العلاقات الاقتصادية بين المانيا النازية والجالية اليهودية في فلسطين كانت ممتازة » (٢٠) ٠

ربما كانت الابحاث الاكثر اجتهادا التي تمت حتى الآن حول اتفاقيات هعفراه هي تلك التي قام بها الياهو بن ـ اليسار ٠ انه دكتور في العلوم السياسية ، وموظف كبير سابق في رئاسة الدولة الاسرائيلية ، فضلا عن كونه احد كبار اعضاء ليكود ، وهو مؤهل جدا ليكتب حول الموضوع ٠ لقد اكتشف ان اول اتصال تم مع المانيا في نيسان (ابريل) ١٩٣٣ وقام به سام كوهين ، مدير شركة هنوطياع ، ووقع كوهين صفقة تساوي مليون مارك ، زيدت فيما بعد الى ٣ ملايين ٠

« ان الاشخاص المسؤولين عن المانيا في المنظمة الصهيونية العالمية ، والذين لا يعارضون بأي حال مبدأ مثل هذه الاتفاقية ، لم يشعروا بأية حماسة لرؤيتها تتم هكذا مع شركة كانت في الواقع خاصة وذات نطاق محدود ٠ وشكوا في ما اذا كان لدى هنوطياع ما يكفي من الوسائل المالية لتؤمن في هذه الحالة الخاصة العمل الجيد لعملية ترجح اهميتها السياسية على مصلحتها التجارية الصرفة ٠

ولذا شرع فيرنر سيناتور ، من الاتحاد الصهيوني لالمانيا ، وجورج لاندور ، من الوكالة اليهودية ، في المفاوضات مع وزيري الشؤون الخارجية والاقتصاد ٠٠٠

وبادر الالمان ، الذين تشير جميع الادلة الى انهم كانوا متشوقين للتوصل الى نتيجة سريعة ، الى الدعوة الى مؤتمر يشترك فيه جميع اليهود المعنيين ٠ وافتتح المؤتمر في السابع من آب (اغسطس) ، في مكاتب وزارة الاقتصاد ٠ وكان من الجانب اليهودي : كوهين وماكنس اللذان مثلا هنوطياع ، وموفدون من الاتحاد الصهيوني لالمانيا وشخصيتان جاءتا من فلسطين خصيصا لهذه الغاية وهما هوفين مدير المصرف البريطاني ـ الفلسطيني الذي ترتبط مصالحه ارتباطا وثيقا بمصالح المنظمة الصهيونية [وأرثور] روبين وهو سوسيولوجي واخصائي كبير في مسائل الاستيطان اليهودي في فلسطين ٠

كانتشروط الاتفاقية التي توصل اليها المؤتمر كما يلي : وافق سام كوهين على اعتبار

جميع الاتفاقيات السابقة للسابع من آب ملغاة · وسيصار الى تأسيس مصرف تجاري يديره هوفين ويكون تحت اشراف المصرف البريطاني ـ الفلسطيني · وتكون مهمته ادارة المصالح اليهودية والتفاوض مع المصدرين والصناعيين الالمان · ويبقى مجموع العمليات التجارية محددا بثلاثة ملايين مارك الماني ، مع احتمال التجديد ···

وعرفت الاتفاقية والعمليات كلها باسم هعفراه وهي كلمة عبرية تعني النقل ـ وستكون السبب الاجتماعي للمصرف التجاري (مكتب امانات ونقل ـ هعفراه) ومقره الرئيسي في فلسطين · اما الشركة التي ستؤسس خصيصا لتمثيله في برلين ، فستسمى بالترو ·

وفي الحادي والعشرين من آب ١٩٣٣ افتتح في براغ المؤتمر الصهيوني الثامن عشر ، وهو اول مؤتمر يجتمع منذ ان جاء هتلر الى الحكم · وكان من الطبيعي ان يكون وضع اليهود في المانيا الموضوع الرئيسي الذي ينظر فيه المؤتمر ويبحثه · وجاء هوفين وروبن رأسا من برلين الى براغ · وانب عدد كبير من الموفدين هوفين وروبين لكونهما تعاملا مع الشيطان وقوضا ، عن طريق اتفاقية هعفراه ، نضال اليهود ضد السياسة العنصرية للرايخ · وتم تبادل كلام محموم · الا ان المؤتمر لم يتبنى اقتراحا لاشتراك المنظمة الفعلي في الجهود لمقاطعة المانيا » (٢١) ·

جاءت جهود الحلقات اليهودية المناهضة للنازية لتنظيم مقاطعة لالمانيا النازية كاجراء مضاد للمقاطعة التي نظمتها السلطات النازية في الاول من نيسان (ابريل) ١٩٣٣ · كانت هذه « مقاطعة عامة ··· لجميع الاماكن والاعمال التجارية اليهودية ولجميع الاطباء والمحامين وغيرهم من اصحاب المهن اليهود الاخرين · ومنذ ذلك اليوم ، وللاعوام الستة والنصف التالية ، كانت هناك سلسلة متعاقبة من الاعمال الوحشية المتزايدة الى ان حملت الحرب مرحلة من البربرية التي لا مثيل لها · كانت المقاطعة مجرد تمهيد لنظام اضطهاد سلب اليهود جميع مصادر الرزق » (٢٢) ·

كان اليهود في الكثير من اجزاء العالم يأملون بانهم اذ يردون بمقاطعة السلع الالمانية يستطيعون ان يظهروا تضامنهم مع ابناء ملتهم المضطهدين وربما يضغطون على النظام النازي لتخفيف الاضطهاد · الا ان توقيع الصهاينة لاتفاقية هعفراه نسف هذا الامل بصورة فعالة و « كانت النتيجة انه في الثلاثينات ، عندما قام اليهود الاميركيون بجهود كبيرة لتنظيم مقاطعة البضائع الالمانية ، اغرقت فلسطين ، بين كل الاماكن ، بجميع انواع السلع (المصنوعة في المانيا) · » (٢٣) ·

كانت الحركة الصهيونية ، قبل المؤتمر الصهيوني الثامن عشر بوقت طويل ، قد اوضحت نيتها نسف المقاطعة المناهضة للنازية · وذهب الاتحاد الصهيوني لالمانيا الى حد تطمين احد كبار الرسميين النازيين بان « الدعوات التي تدعو الى مقاطعة المانيا ، بالطريقة التي كثيرا ما تجري بها اليوم ، هي في عين طبيعتها لا صهيونية تماما » (٢٤)·

وهكذا خلقت السابقة المؤسفة للتضحية بمصالح الجماهير اليهودية في اوروبا من اجل المطامح السياسية الصهيونية · وقد ادرك النازيون فائدة هذه السابقة ·

في التوقيع على ··· اتفاقية هعفراه ، كانت السلطات الالمانية تسعى الى هدفين في آن معا : خرق المقاطعة التي نظمها اليهود ضد المانيا في البلدان الاجنبية المختلفة وتسهيل رحيل اليهود من الرايخ الى فلسطين ·

ولكن شيئا فشيئا صار الهدف الثاني يعتبر هو الاهم في برلين · فمن جهة ، تم اضعاف تاثير المقاطعة اليهودية الى حد كبير ، ومن جهة اخرى اضحى ترحيل اليهود احد الاهداف الرئيسية للسياسة الداخلية التي ينتهجها النظام الاشتراكي الوطني · وكان الصهاينة هم الوحيدون ، بين اليهود وغير اليهود ، الذين اقترحوا حلا عمليا للمشكلة اليهودية في المانيا ، وفوق كل شيء وضعوه موضع التنفيذ · وزودتهم اتفاقية هعفراه بالوسيلة لفعل ذلك · ولم يكن باستطاعة الحكومة الالمانية ان تبقى لا مبالية تجاه ذلك · وهكذا رأى المرء وزارتي الداخلية والاقتصاد تتنافسان في آن معا احداهما مع الاخرى لتثبيت اتفاقية هعفراه وتنمية نشاطات المنظمة الصهيونية في المانيا ·

وهكذا اكتسبت اجهزة هعفراه تدريجيا مركزا مسيطرا وحتى ممتازا في التجارة الالمانية ـ الفلسطينية ··· وتحت الحاح الزعماء الصهاينة في المانيا ، قرر المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ، الذي اجتمع في لوسيرن من العشرين من آب (اغسطس) الى الثالث من ايلول (سبتمبر) ١٩٣٥ ، ان يضع نظام هعفراه كله تحت الاشراف المباشر للجنة التنفيذية الصهيونية التي نقلت اليها بالتالي الاسهم التي كان يملكها المصرف البريطاني ـ الفلسطيني · في ١٩٣٣ بلغت عمليات النقل التي حققتها هعفراه ٩٥٦ر٢٥٤ر١ مارك · وفي ١٩٣٧ بلغت قيمة ٥٠١ر٤٠٧ر٣١ مارك » (٢٥) ·

بعيد المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ، في الخامس عشر من ايلول ١٩٣٥ ، صادق النظام النازي على قوانين نورنبيرغ ، التي وصفها جيرالد ريتلنغر بحق بانها الاداة التشريعية الاكثر فتكا التي عرفها التاريخ الاوروبي · « كانت صفة قوانين نورنبيرغ ذات شقين · كان هناك اولا قانون مواطنية الرايخ الذي ثبت درجتين ، الرايخسبرغر Reichs Bürger الذي يجب ان يكون ذا دم الماني نقي ، ، والستاتسانهوريغر Staatsanhoriger الذي هو من رعايا الدولة ولكنه ليس مواطنا · وكان (القانون من اجل حماية الدم والشرف الالمانيين) متمما ، اذ انه اضاف المبدأ القائل بان الاثنين يجب الا يتعايشا معا في الزواج او خارج الزواج » (٢٦) ·

لقد لاحظنا ان إتفاقيات هعفراه بلغت مستوى قياسيا في ١٩٣٧ ، بعد سنتين من المصادقة على قوانين نورنبيرغ ، لذا من الواضح ان الصهاينة لم يسمحوا لها بان تصير عقبة للتعاون المربح ·والامر الداعي الى السخرية هو ان الامتيازات التي كانت الحركة الصهيونية تكسبها منذ ان جاء هتلر الى الحكم ازدادت بالفعل مع قوانين نورنبيرغ ، في حين استمر وضع اليهود الالمان في التقهقر ·

« سمح للمنظمة الصهيونية ان تفتح مراكز تدريب مهني وزراعي للمرشحين الى الهجرة الذين يرغبون في اعداد انفسهم لحياة جديدة في الشرق الاوسط · وتم تنظيم صفوف في اللغة العبرية في عدة بلدات ، وتحت ادارة رجل ذي قيمة عظيمة ، هو روبرت فيلتش ، حملت صحيفة صهيونية ، هي «دي يوديشه روندشاو» ، الامل بحياة افضل للالوف من البيوت اليهودية · وسمحت وزارة الداخلية لوفد من الصهاينة الالمان بالاشتراك في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ·

وعلى الرغم من القرار الذي اتخذ في التاسع عشر من كانون اول (ديسمبر) ١٩٣٤ لمنع اعضاء حركات الشبيبة اليهودية من ارتداء بزاتهم التقليدية ، فان الشرطة السياسية لبافاريا ، التي كانت في ذلك الحين حكرا حقيقيا على هيملر وهايدريتش ، سمحت في

الثالث عشر من نيسان (ابريل) ١٩٣٥ ، كحالة استثنائية ، لاعضاء احدى هـــذه الحركات بارتداء البزات لانه (ثبت ان « صهاينة الدولة » هم بالضبط هؤلاء الذين تحاول منظمتهم بكل الوسائل ، حتى بالطرق اللا قانونية ، ان ترسل اعضاءها الى فلسطين) ٠

والفريد روزنبرغ نفسه ، في مقابلة منحها في الثالث من ايار (مايو) ١٩٣٥ لريمون كارتييه من « ليكو دي باري » ، **اعترف بحسنات** الصهيونية لانها تعارض استيعـــاب اليهـود ٠

واحد قانوني نورنبيرغ ، وهو المتعلق (بحماية الدم والشرف الالمانيين) ، والذي منع اليهود من رفع العلم الوطني مع الصليب ، سمح لهم مع هذا باظهار (الالوان اليهودية) التي لم تكن غير الازرق والابيض للعلم الصهيوني المطبوع بنجمة داود » (٢٧) ٠

يجب ان ينظر الى التعاون الصهيوني مع المانيا النازية كذلك في ضوء تلويث النازية للبلدان الاخرى في اوروبا ، **وبخاصة بولندا ورومانيا** ، بفيروس العنصرية خـــلال الثلاثينات ٠ وامتدت الام اليهود الالمان لتشمل الآخرين بسرعة ، كما هو واضح من هذه الرواية المعاصرة :

« ان الحملة القاسية للاسامية المنظمة ، وامتناع الحكومات عن الاهتمام بالمشكلـــة اليهودية بطريقة ايجابية وبناءة ، كانت قد انتجت تأثيرات بعيدة المـــدى على اليهود ٠ واكثر ما تكون هذه التأثيرات وضوحا في حالة الذعر واليأس التي صارت تسيطر على اليهود ، وبخاصة يهود بولندا ورومانيا ، وفي فصل وعزل الناس القليلي الحظ في عدد من البلدان ، وفي افقار جماهير كبيرة من اليهود ، وفي الانخفاض النسبي ، وان لم يكن المطلق ، للسكان اليهود ٠

الرعب يسيطر على يهود اوروبا الشرقية الوسطى ٠ كانوا ضحايا حملة سامة مـــن الكراهية والظلم ، خصوصا منذ مجيء النازيين الى الحكم في المانيا ، بحيث انهم فـــي حالة قلق مزمن ، ودائمو الخوف مما قد يحمله الغد ٠٠٠

يصار الى فصل اليهود اجتماعيا ٠ وتميل استضافة الفرص الاقتصادية الى عـــزل اليهودي ٠ ولكن الامر الاكثر جدارة بالملاحظة ، من الناحيتين المعنوية والنفسية ، هـــي تأثيرات الفصل في النطاق الاجتماعي ٠ وعلى سؤال حول ما اذا كان لا يزال لديهـــم اصدقاء غير يهود ، اجاب يهود دانزيغ بحزن : (ان الذين كانت تربطهم بنا صداقة العمر من غير اليهود لا يجرؤون ان يتعاطوا معنا) ، واخبروا بألم ظاهر كيف ان اترابهم في المدرسة ، وزملاءهم ، واصدقاءهم يتجاهلونهم في الشوارع ٠ وتذكروا ، بامتنان مؤثر، اعتذارا قدمه مسيحي كريم خلسة ومن حين لآخر » (٢٨) ٠

لكن الزعماء الصهاينة ، بدل ان يحاولوا مقاومة هذه الحالة ، اعتبروا الام هـــؤلاء اليهود شيئا يمكن ان يجنوا منه ثمارا سياسية مفيدة ٠ « اجتمع المؤتمر الصهيونـــي العشرون في الواقع في زوريخ من الثالث الى السابع عشر من آب (اغسطس) ١٩٣٧ لبحث خطة تقسيم فلسطين ، وتقرر ان يذهب حاييم وايزمان ، رئيس المنظمة ، الى بولندا ورومانيا لضمان تأييد هذين البلدين لخلق دولة يهودية ٠ كانت سياسة وارسو وبوخارست واضحة جدا في الواقع ٠ وكانت جالية من نحو ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ يهودي تعيش في بولنـــدا ونحو ٨٠٠٫٠٠٠ يهودي يعيشون في رومانيا ٠ وتماما مثل برليـــن ، كانت وارســـو وبوخارست مهتمتين في رؤية اليهود يغادرون اراضيهما الوطنية ٠ ولذا كانت هاتـــان

العاصمتان تقفان موقفا مؤيدا جدا للحجج التي يطرحها الصهاينة » (٢٩) ٠

استمر نظام معفراه ساري المفعول حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ٠ وخلال الفترة التي طبق فيها ، بلغت الصفقات التي اجريت بموجبه مجموع ١٤٠ مليون مارك ٠ وقرب انتهاء هذه الفترة حاولت بعض الاوساط في المانيا ان تراجعه او تلغيه ، ولكنها لـــم تنجح ٠ وبعد ان بلغ اوجه في ١٩٣٧ ، اخذ حجم العمليات التجارية ينخفض ، وكـــان سبب ذلك الى حد كبير هو افقار اليهود الذين كانوا لا يزالون في المانيا ٠ وهكذا ، من الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٨ الى ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ ، انخفضت العمليات التجارية الى نحو ٢٧ مليون مارك ، اي اقل مما كانت في العام ١٩٣٧ باكثـــر من ٤ ملايين مارك (٣٠) ٠

وفي هذه الاثناء فان الاجراءات الجديدة التي تبنتها المانيا النازية لارغام اليهود على الهجرة من البلاد ، مقرونة مع ضم النمسا الى المانيا ، تطلبت اتفاقيات جديدة واكثـــر شمولا لتحل محل معفراه ٠

IV اتفاقات الهجرة لعـام ١٩٣٨

اثبتت سنة ١٩٣٨ انها سنة مظفرة بالنسبة الى هتلر ٠ وبين اهم احداثها ضم النمسا واتفاقية ميونيخ ، الاستسلام الدبلوماسي للحكومتين البريطانية والفرنسية الذي مكـــن النازيين من تقطيع اوصال تشيكوسلوفاكيا ٠ وهذه النجاحات شجعت النازيين على زيادة حملتهم لاجبار اليهود على الخروج من اوروبا ، كما ان اكتساب اراض جديدة وضـــع المزيد من اليهود ، باعداد كبيرة ، ضمن نطاق هذه الحملة ٠ وشهدت نهاية العام المذبحة الشهيرة والمسماة « كريستالناخت » ٠

يجدر بنا اذ نذكر انفسنا هنا بالهدف الدقيق الذي وضعه هتلر نصب عينيه دائما طوال هذه الفترة ٠ وقد لخصه ببلاغة خبيران قانونيان يهوديان ، قبيل اطلاق الحملة المشددة، بهذه الكلمات : « ان الهدف الذي اقسمت على تحقيقه الحكومة الاشتراكية الوطنية هـــو اجبار السكان غير الاريين لالمانيا على الهجرة على نطاق واسع ٠ ويجري تحقيق هذا الهدف بواسطة برنامج منظم في التمييز والاهانات ، يقصد به حمل مئات الالوف مـــن الافراد على الفرار من بيوتهم » (٣١) ٠

الا ان الاتفاقيات التي تم التوصل اليها مع الصهاينة حتى ذلك الحين لم تكن كافيـة للغايات النازية ، واعتبر سير الهجرة بطيئا جدا ، كما تشير الرواية التالية :

« تأسست المنظمة اليهودية المركزية المسماة Zentralauschus Der Deutschen » « Juden Fur Hilfe und Aufbau ١٩٣٣ في الرايخ ٠ وكانت لهذه الهيئة ثلاثة اقسام رئيسية تهتم بالهجرة والمعونة الاقتصادية والاغاثة ، وكانت الوظيفة الخاصة لمكتب المعونة الاقتصادية المساعدة في تغيير المهنة وتدريب الشبيبة ٠٠ ولدى تأليف هذا الكتاب (تشرين اول ، اكتوبر ، ١٩٣٥) كانت هناك عشرة معسكرات للتدريب ، تضم مجموع ٢٧٠٠ شاب وشابة ٠ ويجري تعليم العدد الاكبر منهم الزراعة ٠ والحكومة الالمانية تخلق الصعوبات على الدوام وتهدد بالحل الكامل للمعسكرات ، بحجة ان اليهود قد لا تجري مساعدتهم

للتحضير للمهن اليدوية في المانيا · ولذا يؤمل توسيع هجرة الشبيبة الى فلسطين ، بحيث يذهب الالوف كل سنة » (٣٢) ·

سبق ان لاحظنا آنفا ان النازيين قد سمحوا للصهاينة باقامة مدارس تدريب خاصة لاعداد المهاجرين للحياة في الشرق الاوسط · وكان الامر الذي تطلبته الان المصالح المشتركة للفريقين هو تسريع الهجرة ، واجراءات لوضع برنامج التدريب تحت سيطرة صهيونية ـ نازية اشد · وارسل الصهاينة موفدين خاصين للقيام بالترتيبات الضرورية، في حين عقد النازيون اجتماعات متواصلة لتخطيط استراتيجيتهم من اجل طرد اليهود ·

« في مجرى الجلسة الاولى للجنة التوجيه التابعة (للمكتب المركزي) ، في الحادي عشر من شباط (فبراير) ١٩٣٩ ، شرح هايدريتش انه لا سبب هناك لتخلي المانيا عن ارسال مجموعات غير قانونية من المهاجرين الى فلسطين ···

واستطرد هايدريتش قائلا ان المجموعات غير القانونية ، في اية حال ، ستنطلق الى فلسطين من عدة بلدان اوروبية · لذا تستطيع المانيا ان تلجأ الى نفس الاجراءات · كان هنريخس وايزنلوهر ، من فلهلمشتراسة ، ابعد ما يكونان عن اثارة اي اعتراضات ،وعلى العكس اصرا على ان (المانيا يجب ان تربح من اية مناسبة تعرض نفسها لها لطرد يهودي خارج البلاد) · ولم يتخلف فوهلتان عنهما · وقال انه سمع في لندن ان (فلسطين يمكن ان تستوعب نحو ٨٠٠ر٠٠٠ الى مليون يهودي اضافي ، واذا لم يذهب يهود المانيا الى هناك ، فان بامكان بلدان اخرى ان تلبي هذا الطلب) ·

منذ نهاية كانون اول (ديسمبر) ١٩٣٨ كان موفدان من فلسطين ، هما بنحاس غينزبرغ وماكس زيملز ، يعملان بلا انقطاع على اراضي الرايخ لاعداد قوافل غير قانونية الى فلسطين · ولم يضع الغستابو اية عقبات في طريق نشاطهما » (٣٣) ·

ويروي كاتبان صهيونيان ، يشيران الى غينزبرغ بلقبه ، « بينو » ، كيف ان الوكالة اليهودية ارسلته ليجتمع بمراقب المسألة اليهودية في مقر قيادة الغستابو · « كان في مهمة خاصة · كان عمله هو ما اراده النازيون · وكان هدفه هو تنظيم هجرة اليهود الالمان الى فلسطين · ولم يكن بالامكان تنفيذ هذا المشروع على نطاق كبير الا بمعونة الزعماء النازيين · وصار (مراقب) الغستابو مهتما بالموضوع الآن · واستدعى اليه ثلاثة من مسؤولي الغستابو الاخرين · وتحولت المقابلة الى مؤتمر · كان الغستابو يبحث كيفية مساعدة وزيادة الهجرة اليهودية (غير القانونية) الى فلسطين ضد ارادة الانتداب البريطاني » ·

ولذلك طلب غينزبرغ مساعدة الغستابو لمشروعه · ولدى اختتام المقابلة غادر مقر قيادة الغستابو ليذهب الى مكتب برلين التابع للمنظمة الصهيونية · « وبحلول الوقت الذي وصل فيه المبعوث الى المكاتب الصهيونية ، اخبره الموظفون المثارون ان جواب الغستابو ينتظره · بامكانه ان يبقى · ويمكنه ان يبدأ العمل على الفور · حتى ان بامكانه ان يختار روادا من اليهود الشبان الذين ارسلوا الى معسكرات الاعتقال · ولن يكون مطلوبا منه ان يمر عبر الروتين الحكومي الذي لا نهاية له · بامكانه ان يقيم معسكرات تدريب للمهاجرين المختارين الذين سيجري تهريبهم الى فلسطين عبر الحصار البريطاني·· كان قد جلب معه ملعقته الطويلة · ولم يكن قلقا من انه الآن سيتعشى مع الشيطان · وفي الواقع شعر بكثير من الرضى وهو يقرأ جواب الغستابو » (٣٤) ·

كذلك خلال العام ١٩٣٨ ، بعد ضم النمسا مباشرة ، ارسل الصهاينة موفدا آخر ، هو موشي بار ـ جلعاد ، الى فيينا في مهمة مماثلة · « وسرعان ما اكتشف بار ـ جلعاد ، كما اكتشف زميله في برلين ، ان الطريق الوحيدة الى الهجرة الواسعة النطاق من النمسا تمر عبر قيادة الغستابو ومكتب الاس اس للشؤون اليهودية الذي تمت مصادرة دارة البارون روتشيلد الفخمة له · وهناك جلس الكابتن كارل ادولف ايخمان المشرف على (المكتب المركزي للهجرة اليهودية) · كان اسمه سيصير شهيرا وسيء السمعة · استقبل بار ـ جلعاد بادب · كذلك تأثر بما بدر عن هذا الزائر غير الاعتيادي من ثقة بالنفس ، وكلام صريح ·

شرح بار ـ جلعاد انه يريد ان يسمح له باقامة معسكرات تدريب الرواد لتدريب الشبان والشابات من اجل العمل في فلسطين وبترتيب هجرتهم باقصى ما تسمح به الاوضاع من سرعة ·· وكانت جماعة صهيونية منشقة ، « المرتدون » ، وهم مناضلون يمينيون ، منهمكة في نقل المهاجرين غير القانوني الى فلسطين · وشرح بار ـ جلعاد ان المرتدين كانوا يأخذون بالدرجة الاولى هؤلاء اليهود الذين يستطيعون دفع الثمن الباهظ للنقل غير القانوني ، في حين ان منظمته مهتمة بالشبان والشابات المستعدين للتحول الى رواد · ومعظمهم لا مال لديهم · وستتحمل منظمته الكلفة بأكملها · ولا يريد اية مساعدة مالية من الغستابو · وكل ما طلبه هو الا توضع عراقيل امام عمله » ·

وبعد ذلك باسبوعين تلقى بار ـ جلعاد جواب ايخمان ، على طلبات الحركة الصهيونية « قال له ايخمان انه سيساعد في تأمين المزارع والمنشآت لاقامة مراكز تدريب للراغبين في الهجرة ، لكن النقل الفعلي يجب ان يترك للمرتدين ، الصهاينة المنشقين ، و (للمشاريع الخاصة) ··· ولم يستطع بار ـ جلعاد ان يوافق على استثناء حركته من عمليات النقل، ولكن ايخمان حافظ على وعده فيما يتعلق بمنشآت التدريب · وقدم المزارع والادوات الزراعية · وفي احدى المناسبات طرد جماعة من الراهبات من احد الاديرة لتأمين مزرعة تدريب لليهود الشبان · وبحلول نهاية ١٩٣٨ كان نحو الف يهودي يخضعون للتدريب في هذه المعسكرات التي قدمها النازيون » (٣٥) ·

كان هذان الموفدان ممثلين رسميين لـ « اتحاد المستوطنات الكوميونية » الذي نفذ ، ضمن الحركة الصهيونية ، العمل لتأسيس وتقوية الكيبوتسات · وهذه المستوطنات ، كما صار معروفا على نطاق واسع الآن ، هي شبه عسكرية من طبيعتها : والاتفاقيات التي توصل اليها هذان المبعوثان عن طريق الاتصال بالغستابو ، والاس اس ، والتي بموجبها قدمت المانيا النازية مساهمة حيوية نحو تعزيز الطاقة البشرية الصهيونية والتدريب وبالتالي زيادة الفعالية العسكرية ، لم تكن ترتيبا غير رسمي · بل كانت اتفاقيات دخلتها الحكومة النازية رسميا وان يكن بصورة سرية : تحالف مصلحة امر به هتلر نفسه في توجيه سياسي ·

« تم ايصال قرار هتلر عن طريق مكتب الشؤون الخارجية للحزب النازي الى جميع الوزارات المعنية ، قيل لها ان الفوهرر قد قرر من جديد ان « يستمر تشجيع الهجرة اليهودية من المانيا بجميع الوسائل الممكنة · واي سؤال يكون قد وجد حتى ذلك الحين حول ما اذا كانت مثل هذه الهجرة ، فيرأي الفوهرر ، ستوجه الى فلسطين اجيب عنه بالايجاب » (٣٦) ·

ان وجود هذه السياسة النازية الرسمية اكدته ايضا المؤرخة اليهودية حنه اريندت ، في وصفها عمل ايخمان في فيينا العام ١٩٣٨ : « كانت مهمة ايخمان قد حددت بانها (هجرة اجبارية) ، وعنت العبارة تماما ما قالته : ان جميع اليهود ، بصرف النظر عن رغباتهم وعن مواطنيتهم ، سيصار الى ارغامهم على الهجرة ، وهو عمل يسمى باللغة العادية طردا · وكلما عاد ايخمان بفكره الى الاعوام الاثني عشرة التي كان فيها رئيسا لمركز هجرة يهود النمسا ، كان يعين هذه السنة بوصفها اسعد وانجح فتراتها » (٣٧) ·

كان اضطهاد اليهود كذلك شكلا مربحا من اشكال التجارة الكبيرة ، فضلا عن جميع وجوهه الكريهة الاخرى · فمن المعروف ان الكثيرين من النازيين جمعوا ثروات كبيرة ، عادة من ممتلكات ضحاياهم او عمل الرق الذي كانوا يقومون به · والامر الذي لا يعرفه كثيرون ان المنظمين الصهاينة للهجرة ، عن طريق تعاونهم مع النازيين ، كذلك اخذوا حصتهم من الفوائد المادية على حساب اليهود الافراد ·

« لذلك ارسل ايخمان موظفين يهود الى الخارج لجمع الاموال من المنظمات اليهودية الكبيرة ، ومن ثم كانت الجالية اليهودية تبيع هذه الاموال الى الاشخاص الراغبين بالهجرة بربح كبير ، مثال ذلك ان الدولار الواحد كان يباع بعشرة الى عشرين ماركا في حين كانت قيمته في السوق تساوي ٤ر٢٠ ماركات » (٣٨) ·

هذا العمل « الخيري » ، الذي ادارته الحركة الصهيونية ، صار مربحا جدا · الا ان هدف جميع عمليات « الانقاذ » والاتفاقيات الصهيونية مع النازيين كان غير انساني ، كما يتضح من الرواية التي تصف بعثات بار ـ جلعاد وغينزبرغ · « هذان المبعوثان اليهوديان لم يأتيا الى المانيا النازية لانقاذ اليهود الالمان · لم تكن هذه مهمتهما · فقد كان بصرهما مركزا كليا على فلسطين والانتداب البريطاني · كانا يبحثان عن شبان وشابات صغار يريدون الذهاب الى فلسطين لانهم يريدون وطنا قوميا خاصا بهم وكانوا مستعدين للريادة والصراع ،واذا دعت الحاجة للقتال من اجله · وكان اهتمامهم بهؤلاء اليهود الالمان الذين تحولوا الى فلسطين كملجأ لهم ، بوصفها ثاني بلد مفضل لديهم بعد الولايات المتحدة او المملكة المتحدة ، ثانويا بالنسبة الى غايتهم الاساسية ·

فالغاية كانت بالنسبة اليهما اهم بكثير من الوسيلة التي اضطرا الان الى استخدامها · ومع انه لم يكن باستطاعتهما ان يريا المستقبل ، ولا تصور ما سيحمله ، فانهما لم يشعرا بوخز ضمير حول الثمن الذي كان عليهما ان يدفعاه طالما اقلحا في ارسال يهودهما الى فلسطين » (٣٩) ·

وجاء التنفيذ في اعقاب التوقيع على اتفاقيات « المصالح المشتركة » بين النازيين والصهاينة ، بفضل جهود غينزبرغ وبار ـ جلعاد · وكان النازيون مستعدين تماما لتوفير وسائل الاقناع للتغلب على تمنع اعداد كبيرة من اليهود الالمان عن اقتلاع جذورهم بناء لاوامر الصهاينة ·

« كانت البداية بطيئة لكن الليلة الكالحة للتاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ ، التي نفذ النازيون خلالها اضطرابات منظمة احرقت فيها ممتلكات اليهود الالمان واعتدي عليهم ، اقنعت الزعماء اليهود الالمان بان الهجرة ، باية وسيلة متوفرة لهم ، تبقى املهم الوحيد ·

وفيما اتضح هذا الادراك للجماهير اليهودية ، اخذ اليهود من جميع انحاء المانيا يتدفقون على مينيكيشتراسي * ، وتدفقت طلبات الهجرة على مكاتب هيجالوتس ، حركة الريادة الصهيونية ، التي كانت مقر بينو » (٤٠) ٠

وفيما بدىء في تنفيذ الاتفاقيات بصورة جدية ، نمت بين الصهاينة والنازيين روح غريبة من التعاون وحتى الصداقة الحميمة ٠ وكان هناك فرق كبير بين هذه العلاقة والموقف النازي من هؤلاء اليهود ـ الاكثرية العظمى في الواقع ـ الذين كانوا غير راغبين ، او عاجزين عن الامتثال للطلب الصهيوني والنازي بان يتركوا بيوتهم في اوروبا ٠

« في اذار (مارس) ١٩٣٩ ، غادرت برلين اول شحنةمن ٢٨٠ المانيا يهوديا نظمها بينو ،وكانوا ظاهريا يقصدون مزارع التدريب الصهيونية في يوغوسلافيا ٠ وقدمت السلطات النازية قطارا خاصا ورافق موظفون نازيون القطار حتى فيينا ، حيث انضمت الجماعة الى جماعة اكبر من اليهود النمسويين كان يرافقها نازيون نمسويون ٠

الجزء النمسوي من عملية النقل نظمها بار ـ جلعاد الذي كان يعمل في فيينا ٠٠٠

ولا بد ان يكون منظر القطار قد بدا غريبا مع المئات من الرواد المنشدين ، ومع الحراس النازيين الضجرين الذين اطلوا من النوافذ فيما راح يعبر الارياف الكسولة لجنوبي النمسا ٠ وسارت الرحلة حسب الخطة ٠ فقد نزل عدة مئات منالشبان والشابات اليهود سرا على شواطىء فلسطين » (٤١) ٠

بمهارة تلاعبت الحركة الصهيونية بمشاعر الخوف لدى اليهود الالمان فاقنعتهم بالتبرع بمبالغ كبيرة من المال من اجل التوسيع السريع لمعسكرات التدريب ووسائل النقل بحيث تتحول قطرات المهاجرين الى فيضان ٠ واستمرت اتفاقيات الهجرة الصهيونية ـ النازية على هذا النحو لسنتين في اعقاب اندلاع الحرب العالمية الثانية ٠ الا ان عمليتها السائرة على نحو جيد اعيقت في ١٩٤١ بعدما هاجمت المانيا الاتحاد السوفياتي ٠ وجادل النازيون ان الاتفاقيات لم تعد قادرة على العمل نظرا الى حاجتهم لاعطاء الاولوية للوضع العسكري على الجبهة الشرقية لدىتوزيع وسائل النقل ، والى التمزق العام نتيجة الحرب للمواصلات في اوروبا الوسطى والشرقية ٠

ولما وجد هتلر انه لم يعد من الممكن تخليص اوروبا من اليهود بواسطةالهجرة ، اختار طريقة اخرى ٠ « في كانون ثاني (يناير) ١٩٣٨ كان قد اعطى الاوامر بوجوب توجيه الهجرة مباشرة الى فلسطين ، وعندما اغلق ذلك الباب ايضا ، تبنى الطريقة البسيطة للخروج التي طرحت نفسها عليه الآن ، (الحل النهائي) لمعسكر الابادة » (٤٢) ٠

هذه الحالة الجديدة وضعت الصهيونية امام اختيار خطير بين سبيلي عمل ٠ كان الاول هو اعلان الحرب على النازية ، والتخلي عن اتفاقيات ١٩٣٨ كليا ورفع راية الثورة اليهودية ضد النازية في جميع انحاء اوروبا ٠ وبالطبع كان هذا سيعني التخلي بصورة نهائية عن اي احتمال في تأمين حتى هجرة « قانونية » محدودة للطاقة البشرية الصهيونية من اوروبا عن طريق التعاون مع النازيين في المستقبل ، اذا ما تغيرت الحالة اللوجستية فيما بعد لتسمح بذلك ٠ واختيار المقاومة سيعني ايضا ان الصهاينة سيلقون

---

* البيت رقم ١٠ مينيكيشتراسي كان مقر قيادة المنظمة الصهيونية في برلين ٠

بانفسهم في الصراع ضد الظلم واللاسامية في اوروبا ، جنبا الى جنب مع غير اليهود ودعاة الاستيعاب او اليهود التقدميين · وهذا لن يعني بالنسبة الى الصهيونية ، ضمنا ، التشكيك الخطير في اعمق معتقداتهم فحسب ، ولكنه سيكون ايضا وربما حتى بصورة اخطر ، اعترافا بهزيمة فلسفتهم كلها ·

كان سبيل العمل الثاني المفتوح امام الصهاينة هو القبول بان الوضع قد تغير ، مؤقتا على الاقل ، في اتجاه غير مؤات لهم ، ومحاولة انقاذ ما يمكنهم انقاذه عن طريق التوصل الى ترتيبات جديدة ، ولكنها محدودة اكثر · وسيعني هذا بالطبع القبول بموت اعداد كبيرة من ابناء ملتهم · الا انه سيكون له امتياز ابقاء باب الاتصال مع المانيا النازية مفتوحا ، ويمكن استخدامه اذا عادت الحالة فتغيرت لتصير مؤاتية اكثر في المستقبل · والى ذلك لن ينطوي هذا على اي تخفيف جوهري او هزيمة للايديولوجيا الصهيونية ·

ان توقيع الاتفاقيات الباكرة مع المانيا النازية قادت الحركة الصهيونية بصورة حتمية الى هذا الاختيار الاليم · لقد جادل بعض المدافعين عن الحركة الصهيونية بان الصهاينة لم يكونوا يتصرفون استنادا الى دوافع شريرة في الواقع · وبصرف النظر عن الخطر الاخلاقي للادعاء بصورة عمياء ان الغاية تبرر الوسيلة ، فانه من المشكوك فيه جدا ان الصهاينة ، بمهارتهم البارزة في التخطيط البعيد المدى ، كانوا لا يعون الطبيعة الحقيقية او السبيل المحتمل للسياسة النازية ، وهما امران كانا واضحين لمعظم الاوروبيين العاديين منذ اواسط الثلاثينات على الاقل · وفي هذا السياق ادلى المدعي العام في محاكمة ايخمان ، جدعون هاوزنر ، ببعض التعليقات الصحيحة تماما · فقد قال في معرض اشارته الى هتلر : « عندما اطلق العنان لكراهية اليهود ، كان قد سار ايضا في الدرب السحيق الذي غاص الى (يوم المقاطعة) ، في الاول من نيسان (ابريل) ١٩٣٣ ، والى الكريستالناخت في ٩ ـ ١٠ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ ، والى قرار (الابادة المادية) في ٣١ تموز (يوليو) ١٩٤١ · كان هذا هو منطق الاحداث ، التي تطور كل منها من الحدث الذي سبقه ، وادى بصورة لا ترحم الى الحدث الذي يليه · وادت طريق اللاسامية الى اوشفيتز » (٤٣) ·

ان منطق الدرب السحيق لم ينطبق على النازيين فقط ، فالصهاينة بقبولهم المبدأ الحاسم للمصالح المشتركة والتعاون الملاحق مع النازية ، مهما كان محدودا في نطاقه خلال الثلاثينات ، وضعوا انفسهم على دربهم السحيق الموازي · كما ان ظاهرتي اللاسامية وتحالف المصلحة الذي ربط الصهاينة بهما ، على امل استخدامهما بوصفهما « القوة الدافعة » التي يحتاجونها ، لا يمكن فصلهما فصلا تاما · فقد اثرت كل منهما في الاخرى ، كما يحدث بصورة محتمة مع أية قوتين سياسيتين تكون العلاقة بينهما علاقة اتصال وثيق ، سواء في المجابهة او في التعاون ·

وفي اية حال ، مهما كانت الاعذار التي يمكن تقديمها لاتفاقيات الصهيونية مع النازية في الثلاثينات ، فانها لا يمكن ان تكون مسوغة لاي تعاون مستمر بعدما شرع النازيون في تنفيذ الابادة الجماعية على نطاق واسع في اواسط العام ١٩٤١ · وخلال فترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ ، انفصل عدد من الصهاينة الافراد في اوروبا الشرقية التي يحتلها النازيون ، امثال موردخاي آنيليفتش ، عن السياسة الصهيونية التقليدية وشاركوا في الثورة على النازية · لكن هذه الثورات كانت جميعها منظمة محليا ، من قبل يهود في وارسو وفيلنو وبياليستوك ومناطق اخرى ، احيانا كثيرة بالتعاون مع بعضهم البعض

ضمن المناطق المحتلة ، ولكن دون تعاون الحركة الصهيونية على الصعيد الدولي ٠

٧ ثـورات الغيتوات

لا يسجل التاريخ اي اعلان للثورة من قبل الحركة الصهيونية ضد النازيـــة فـــي اوروبا ٠ ويجدر بنا ان نسال لماذا ٠ وكما سأل كاتب يهودي : « لماذا لم يكن هناك دفاع ذاتي يهودي منظم وعلى اهبة الاستعداد ؟٠٠ كذلك كان هناك عشرات الالوف من الجنود اليهود في جيش الجمهورية البولندية ، لماذا لم تكن هناك يد موجهة لتعليمهم على الاقـل ان يحملوا اسلحتهم معهم الى بيوتهم ، وان يخفوها في مخبأ ما ٠٠ بحيث يكون لهم فيما بعد ، لدى قيام منظمات القتال اليهوديـــة ، بعض الادوات على الاقل لمواجهـــة النازيين ؟ » (٤٤) ٠ وتجدر الملاحظة ان يهود بولندا كانوا يؤلفون نحو نصف الستـــة ملايين يهودي الذين يقدر ان النازية قتلتهم ٠

على الرغم من عدم وجود اي استعداد من هذا النوع ، فان يهـود اوروبا اكتسبوا شرف القيام بالكثير من اعمال المقاومة الشجاعة ، التي تم تسجيلها من قبل مؤرخين يهود امثال روبن اينشتاين ، الذي الف كتابا شاملا ودقيقا حول الموضوع ٠ فان اعدادا كبيرة مـن اليهود انضموا الى حركات الانصار ، وخصوصا في المناطق التي احتلها النازيون مـن الاتحاد السوفياتي ، وكذلك قاموا بانتفاضات رائعة في الغيتوات وحتى في معسـكرات الاعتقال ٠ الا ان اينشتاين ، في دراسته التي تقع في ٨٤٩ صفحة ، لا يستشهد بأية حالة من حالات المعونة العسكرية لهذه الثورات من قبل الجهاز العالمي العالي التنظيم للحركة الصهيونية خارج اوروبا التي احتلها النازيون ٠ وفي الواقع ، اشـار تكـرارا الى ان الحلفاء الوحيدين لمقاتلي الغيتو خارج جدران الغيتو كانوا الجماعات المحلية مـــن اليساريين او غيرهم من مناهضي النازية ، امثال حراس الشعب (الذين اطلق عليهم فيما بعد اسم جيش الشعب) التابعين لحزب العمال البولندي الشيوعي (٤٥) ٠

ويبدو هذا الامر اكثر غرابة عندما نعلم ان اينشتاين هو نفسه موال للصهيونية وكتابه مليء بالتعليقات المناهضة للسوفيات وبتمجيد الافراد والجماعات الصغيرة الصهيونية التي قهرتها المذبحة اليهودية بعد ١٩٤١ ، واحيانا كثيرة لم يكن لديها اي اختيار ســوى المقاومة ٠ وبعد انهيار اتفاقيات الهجرة الصهيونية في ذلك الوقـت ، وجـدت اعداد مـن الجماعات الصهيونية ، وبخاصة في بولندا ، نفسها عاجزة عن الاتصـال بالقيـادة الصهيونية خارج الاراضي التي يحتلها النازيون ٠ وكما كتب زعيم احدى هذه الجماعات ، في رسالة تحث الجيش الوطني البولندي على تزويد غيتو وارسو بالاسلحة : « كم نحـن ناسف لعدم وجود اية امكانيات للاتصال المباشر بحكومات الدول الحليفة ، وبالحكومـة البولندية ، وبالمنظمات اليهودية في الخارج » (٤٦) ٠

تؤلف ثورات الغيتوات شكلا رائعا ، وحتى فريدا ، من اشكال المقاومة التي قام بهـا اليهود في مناطق اوروبا الشرقية ٠ وحدثت هذه المقاومة عندما ادرك سكان الغيتوات ان الهدف النازي هو ابادتهم ، وادرك بعض الغيتوات هذا الامر قبل البعض الاخر ٠ « لم يتضح لجماهير يهود وارسو ان هدف الالمان كان الابادة الكاملة لليهود الذين يستطيعون الامساك بهم الا في صيف ١٩٤٢ ، عندما ارسل في ثلاثة اشهر ٣٠٠ الف يهودي الى حجرات الغاز في تريبلينكا واماكن الذبح الاخرى ٠ وحتى في بياليستوك ، على الرغم من المجازر التي اعقبت استيلاء الفيهرماخت على المدينة ، كان من الممكن لاحد اليهـود

ان يوهم نفسه بأن الالمان قد يسمحون لبقية من يهود الغيتو بأن تبقى على قيد الحياة · ولكن في فيلنو صارت الحقيقة حول طبيعة كره النازيين لليهود واضحة للذين كانت لديهم الشجاعة المعنوية والجسدية لمواجهتها حتى قبل نهاية ١٩٤١ » (٤٧) ·

كما ان جوزف تيننباوم يؤكد ان خطط الابادة النازية صارت معروفة على نطاق واسع لدى اليهود في اوروبا بعد ان ابتدأ تنفيذها · ويشير تيننباوم الى ان النازيين لم يستطيعوا ان يخفوا خبر معسكرات الموت لمدة طويلة · « جاء خبر معسكر القتل في تريبلينكا مثل قصف الرعد · كان البعض قد سمعه قبل ذلك ، وتهامسوا حوله · وكان هنات خبر من تشيلمنو حول الابادة الجماعية لليهود في شاحنات مغلقة مليئة بالغاز · وكانت هناك اخبار رهيبة حملها لاجئون من فيلنو عن مجازر اليهود في سلوفيم ، وبارانوفيتش ، واماكن اخرى · ولكن من يصدق ان مثل هذه الفظائع ممكنة ؟ وسرعان ما جاء البرهان الذي لا يقبل الجدل · ففي تموز (يوليو) ١٩٤٢ اوفد « زيغمونت » (فريدريش) للتأكد من صحة قصة تريبلينكا · ووصل الى مالكينيا · وهناك التقى ازرييل فالاخ ، وهو سجين هارب من تريبلينكا ، فأكد صحة اسوأ الشائعات · وحمل فريدريش الخبر الحزين الى وارسو ، حيث انتشر في جميع انحاء بولندا المحتلة · ورصت المنظمة اليهودية السرية صوفها · ونشرت خبر تريبلينكا ولفتت الجميع الى هذه المعلومات · » (٤٨) ·

« منذ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤١ تم ارسال ايديك بوراكس ويسرائيل كمبنر وبينتشوفسكي الى وارسو حاملين اخبار بوناري · وحمل فريق اخر ، مؤلف من تشيكا غروسمان وتمارا شنايدرمان ، المعلومات الصحيحة حول التطورات في فيلنو · وقامت بيلا حزان باسم برونيا ليمانوفسكي المنتحل ، وجواز سفر مزور ، باتصال شخصي مع غرودنو · لم تكن هناك جدران غيتوات بالنسبة لهؤلاء السعاة المجنحين · وليا (ليونيا) كازيبرودسكا هي احدى رسل فيلنو وكانت دائمة التحرك · وقد اعتقلت واعدمت في نيسان (ابريل) ١٩٤٢ · كذلك فان فروفكا بلوتنيكا ، التي حملت المال الذي استولى عليه مدير (التوزيع المشترك) في وارسو من اجل منظمات الشبيبة في فيلنو ، حملت اخبار تريبلينكا · وسافرت فيما بعد الى كوفيل ، حيث نظمت حركة سرية واقامت الاتصالات مع بياليستوك · وكانت ايرينا اداموفيتش وجادزيا دودتشيك بين الرسل غير اليهود الذين خدموا القضية بامتياز » (٤٩) ·

يوافق المؤرخون بوجه عام على ان فيلنو (المعروفة ايضا باسم ويلنو وفيلنا) كانت المدينة التي علم فيها اليهود لاول مرة بخطط الابادة الالمانية ، بعدما اعدم عدد كبير في موقع بوناري المجاور ، كما كانت المكان الذي ابتدات فيه اول محاولة لتنظيم حركة مقاومة يهودية · في ندائها الاول اعلنت الحركة : « لنمتنع عن الذهاب كالخراف الى المذبحة ! صحيح اننا ضعفاء وليس لدينا احد يساعدنا · ولكن جوابنا الجليل الوحيد على العدو يجب ان يكون المقاومة » (٥٠) · وقام يهود فيلنو بأعمال تخريب ضد النازيين ، الا ان آمالهم في انتفاضة جماهيرية لم تتحقق ·

كان احد العوامل الرئيسية في هذا الاخفاق هو دور جاكوب جنز ، المتعاون الصهيوني البارز مع النازيين الذين جعلوه في نهاية المطاف رئيسا لقوة شرطة يهودية في فيلنو · « انه فريد من نوعه لان ما من زعيم اخر من زعماء الغيتوات ذهب الى هذا الحد في خدمة النازيين مثل جنز · وما من زعيم اخر من زعماء الغيتوات استخدم قوة شرطته لتنفيذ القتل الفعلي لليهود · كما انه ما من زعيم اخر من زعماء الغيتوات لعب مثل

هذا الدور الفعال في تخريب المشاركة اليهودية في حركة الانصار · فقد جمع في نفسه القومية الليتوانية مع النوع الفاشي من الصهيونية الذي يمثله اتباع جابوتنسكي بكونه عضو بريت هيجيال (المنظمة العسكرية) الشابتة للصهيونيين الاصلاحيين » ·

وحالما تم حشر يهود فيلنو الباقين على قيد الحياة في غيتوين اثنين ، في السادس والسابع من ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ ، صار جنز نائب قائد شرطة الغيتو الذي كان قائده ، موزكات ، محاميا من وارسو ومرتدا كذلك · ولم يكن برنامجه وفلسفته يختلفان عن برامج وفلسفة باراز وروميكوفسكي وميرين او غيرهم من زعماء الغيتوات المتعاونين مع النازيين : فهو ايضا كان يجادل بأن بقية من اليهود قد تبقى على قيد الحياة اذا جعلت نفسها مفيدة اقتصاديا لآلة الحرب النازية · لكن الامر الذي حبب الغيستابو به لم يكن نجاحه في بناء المشاغل في الغيتو ، بل قسوته في تسليم الضحايا اليهود وفائدته في منع فرار الشبان اليهود الى الغابات لينضموا الى الانصار ···

« بعد ان تبنى ، كيهودي وكليتواني ، ايديولوجيا تمجد فضائل القيادة ، وجد انه من الممكن له ان يصدق ان لديه رسالة يجب ان يحققها وان يعرف ما هو صالح لرعاياه اليهود · وبما ان العمل وحده لم يكن كافيا لتأمين بقاء يهوده ، فقد كان مستعدا لتولي المسؤولية لاختيار الضحايا الذين كان عليهم ان يطعموا مولوخ النازيين · وقد فعل ذلك بكفاءة تامة ، بحيث ان رجال الغستابو جعلوه في خريف ١٩٤٢ دكتاتورا ، لا على غيتو فيلنو فحسب ، بل ايضا على جميع الغيتوات الريفية الباقية في منطقة فيلنو » · في تشرين اول (اكتوبر) ١٩٤٢ قال النازيون لجنز انهم يريدون ان يقتل ١٥٠٠ يهودي في غيتو اوشمياني · وفي ما بعد « وافقوا على خفض عدد الضحايا الى ٤٠٠ بشرط ان يختارهم ويقتلهم رجال شرطة جنز » · فوافق جنز ، وارسل رئيس شرطته ساليك دزلر (وهو ايضا من المرتدين) مع ٣٠ شرطيا · فاختاروا ٤١٠ مرضى ومتقدمين في السن وقتلوهم هم انفسهم · ودافع جنز عن عمله بادعائه « انه من واجبنا ان ننقذ الاقوياء والصغار ، ولا ندع العواطف تتغلب علينا » (٥١) ·

« في الخامس من نيسان (ابريل) ١٩٤٣ ظهر اعلان على جدران الغيتو ، يحث اليهود الذين لديهم اقرباء في كوفنو على الانضمام الى عربات النقل من القرى المجاورة ، وبالدرجة الاولى سنيبيزوك ، وقد زعم انها متوجهة الى كوفنو · وصيغ الاعلان بلغة مغرية ، مصورا اوضاع معيشة افضل ، وتسهيلات سكنية اوفر مما هو متوافر في غيتو فيلنو المزدحم · وعمل جنز باجتهاد من اجل خطة كوفنو ، وتطوع الكثيرون من الضحايا غير المشتبهين للانضمام الى قافلة كوفنو · وتسلق القطارات ما يبلغ مجموعه نحو ٥٠٠٠ يهودي ··· وسرعان ما اتضح ان القطارات ، بدل ان تتوجه الى كوفنو ، افرغت حمولاتها في بوناري ، وتم قتل الضحايا بنيران المدافع الرشاشة »(٥٢) · الا ان بعض الضحايا استطاع الفرار ، وروى حكايتهم ·

لعب جنز دورا غادرا ، وبنوع خاص خيانته زعيم مقاومة غيتو فيلنو ، اتزيك فتنبرغ ، الذي كان شيوعيا وبالتالي هدفا خاصا لكراهية المرتدين اليمينيين · « ذات ليلة اعتقل فتنبرغ بخدعة من الشرطة اليهودية ، لكن رفاقه المتيقظين انقذوه وعاد الى مقر القيادة دون ان يصيبه اذى ··· ولسوء الحظ ، فان جنز السريع الاستثارة ، ومفوض شرطته عديم الشفقة ، سالا دزلر ، فاقا الجميع بالاحابيل · فقد ارسلا كلاب شطرتهما ، تساعدهما حثالة الغيتو ، لجمع الجمهور من اجل اجتماع ملح · وتجمهر الناس مذعنين · وامام

الاجتماع الحاشد اظهر جنز حاسته المتفوقة في مخاطبة غريزة الخوف لدى الجمهور المرتعد · فقد خطب في الجمهور منذرا اياه بألا يدع السلامة الشخصية لاحد الرجال تهدد بالخطر سلامة الجميع ، ونقل اليهم خطط الغستابو المزعومة لمحو الغيتو بضربة واحدة بالقنابل والدبابات والمدافع وجميع نيران جهنم ، الا اذا لبوا الانذار بتسليم فتنبرغ · « تحت هذا الابتزاز استسلم فتنبرغ في الساعة المعينة لدزلر الدموي ، الذي سلمه الى الغستابو ··· وكسر العمود الفقري للحركة · وانتشر حجاب من الرعب فوق الجميع · ولم تكن هناك فائدة لانكار ان الغستابو قد احرز انتصارا حاسما دون معركة » (٥٣) ·

بعد موت فتنبرغ افلح الصهاينة في ان يجعلوا واحدا منهم ، هو آبا كوفنر ، يخلفه · « نجح كوفنر ، ممثل (هاشومير هاتسعير) ، في ان يعين نفسه قائدا لقوات القتال السرية في فيلنو* ، التي ادخرت الذخيرة وجندت افرادا اقوياء مدربين ومستعدين للقتال · الا انها لم تستخدم مواردها ابدا ضد الالمان في الغيتو ، وبالتالي توصل كوفنر الى اتفاق مع رئيس الغيتو (جنز) وقائد الشرطة اليهودية (دزلر) ، الزما نفسيهما بموجبه ، مقابل امتناع الحركة السرية عن القيام بأي عمل ، بألا يؤذيا ايا من اعضائها ، وايضا بوعدهما اياهم بالخروج من الغيتو ، عندما يصير على شفير الدمار النهائي · كان لهؤلاء الثلاثة ــ جنز ودزلر وكوفنر ــ رأي مشترك ، كان ايضا طريقة تفكير الدكتور وايزمان وناشان شغالب ، ممثل الوكالة اليهودية في سويسرا : « التضحية بالمسنين والعامة ، وانقاذ (النخبة) من الشبيبة (اصدقائنا) ·

وعندما وصل ممثلو الانصار الى فيلنا ، حاملين خبر الحل النهائي والنصيحة ليهود فيلنا بأن ينقذوا انفسهم في الغابات وينضموا الى معسكرات الانصار ، ماذا فعل كوفنر ؟·

ابقى كوفنر ممثلي الانصار معزولين ، بحيث لا يقوم اتصال بينهم وبين الجماهير في الغيتو وبحيث لا ينظمون جماعات من اليهود العاملين للفرار الى الغابات ·

الا ان الفرار الى الغابات لم يبق سرا على السكان · وكلما غادرت جماعة الغيتو ، كان كثيرون يركضون وراءها ويريدون الانضمام اليها · ولكن بناء على اوامر كوفنر ، كان يجري تفتيش مستفيض في وقت المغادرة ويصار الى طرد اليهود من البوابة · وفي حالات نادرة فقط كان ينجح احدهم في الاختلاط بالمقاتلين ويخرج معهم · وجدير بالملاحظة ، ان هؤلاء (اللاشرعيين) انفسهم صاروا ، فيما بعد ، افضل المقاتلين في الغابات ·

وبدأ اليهود يتبادلون القيل والقال حول رئيس المنظمة ، كوفنر : كيف هو افضل من قائد الشرطة ؟ فأحدهما يقرر من سيموت ، والاخر يختار من سيسمح له بالعيش · لقد سمحا لمئات من اليهود بأن يذبحوا ، وكان هؤلاء سينجحون حتما في تقديم مساهمة مهمة في القتال ضد العدو ، واليهود هم الذين اغلقوا بوابات الخلاص امامهم ·

كان مصير غيتو فيلنا قد تقرر نهائيا · وفي اليوم السابق للابادة النهائية ، خان كوفنر دستور منظمته السرية · فالفقرة الثانية والعشرون من الدستور تنص : (لن نذهب الى الغابة الا كنتيجة للقتال ، بعد ان نحقق هدفنا · سنأخذ معنا اكبر عدد ممكن من اليهود وسنشق دربا الى الغابة ، التي سنواصل منها القتال ضد الغزاة القتلة) ·

---

* فيلنو ، وويلنو ، وفيلنا هي طرق مختلفة لتهجئة اسم المكان نفسه ·

في الواقع وعد كوفنر بأن يخرج من الغيتو ٥٠ من أصدقائه من المنظمة فقط · وعلى الرغم من جميع الاحتياطات ، صار معروفا في الغيتو ، ان المقاتلين يتجمعون ليغادروا الغيتو · وتجمع عشرات من الشبان الاصحاء الاقوياء في الفناء وناشدوا كوفنر بأن يسمح لهم بالانضمام الى الذين سيغادرون ، لكن كوفنر قسى قلبه ، وهددهم بمسدسه وطردهم · وقام رجال كوفنر بحراسة فتحة المجرور لكي لا يتسلل منه اي اشخاص (لاشرعيين) ·

وفي الغابات ايضا استمر كوفنر ، بوصفه قائد الانصار ، في منع الانقاذ وشحن الى الموت كل يهودي لا يعتبره بين اصدقائه ـ اعضاء (هاشومير هاتسعير) (٥٤) ·

يعتقد ان اول انتفاضة جماهيرية حدثت في غيتو لاتشوا في روسيا البيضاء ، في الرابع من اب (اغسطس) ١٩٤٢ · وأحد ابرز وجوه هذا التمرد انه نفذ دون اسلحة نارية · « دخل رجال الاس اس الغيتو وامروا الجميع بأن يصطفوا · وبدلا من ذلك ركض اليهود الى منازلهم واضرموا فيها النار ···

وهاجم يتسخوك روخشتين رئيس الاس اس بفأس · وسقط ضابط الاس اس ارضا ، وقد غطاه الدم · ولما لم يكن امام روخشتين اي طريق خلاص ، قفز في النهر المجاور ، فأردته رصاصة · وفي الوقت ذاته أسقط حاييم تشايفتز وشقيقاه آشر وموشي ـ ليب رجلا اخر من رجال الاس اس · وسقط الماني ثالث على يدي موشي كلونيتسكي ·

والان كان الجمهور قد استثير واقتحم بوابة الغيتو · والذين كان باستطاعتهم ان يهربوا فعلوا ذلك ، تاركين وراءهم غيتو يحترق · وطوردوا واطلق الرصاص عليهم · وسقط الكثيرون · وتناثرت الجثث في البلدة · وركض الناس بما تبقى لديهم من قوة الى الغابة قرب نهر بريبيت ، على امل ان يجدوا ملجأ هناك · ومن اصل ٢٠٠٠ يهودي ، افلح نحو ٦٠٠ في الوصول الى الغابة · لكن الشرطة والروس البيض في تلك المنطقة ، الذين طاردوهم ، قتلوا معظمهم بوحشية ···

ولم ينجح الالمان الا في قيادة بضعة منهم الى القبر ، لان الصغار والمسنين على السواء حاولوا الفرار · كانوا يفضلون الموت برصاصة وهم يركضون على ان يساقوا الى موتهم ·

بعد ذلك ببضعة ايام تجمع ١٢٠ يهوديا من لاتشوا في غابة شوبوت ، على مسافة نحو ٢٠ كيلومترا عن البلدة ، وانضموا الى الانصار ، وقاتلوا جنبا الى جنب معهم ، وفيما بعد مع الجيش الاحمر · وهكذا ثاروا لاحيائهم » (٥٥) ·

احد الادوار الرئيسية في برنامج الابادة لعبته المجالس اليهودية (اليودنرات) ، التي عينها النازيون لادارة كل غيتو · « خدمت المجالس اليهودية كأداة لابقاء الامور هادئة ·

وهدأت كلا من الصغار والبالغين وجعلتهم يشعرون بحاسة امن زائفة ، بحيث لا يفكرون بنشاطات الانقاذ · ولسوء الحظ كان معظم اعضاء المجالس اليهودية صهاينة · واعتقدوا انهم بالتعاون مع الالمان انما يفعلون الشيء الصحيح · وبتحضيرهم قوائم اليهود الذين ارسلوا الى الموت ، اعتقدوا انهم ينقذون اليهود الاخرين · وكان رؤساء المجالس اليهودية يشكون عقدة نقص ، معتقدين انهم يفعلون شيئا تاريخيا بغية انقاذ الامة ـ وكان جميع السكان اليهود يخافونهم » ·

وهكذا « فان اول شيء فعله النازيون في سيليزيا الشرقية العليا ايضا هو انهم اقاموا (مجلس شيوخ) ، وكما حدث في كل مكان اخر ، عينوا اعضاء صهاينة لترؤس المجلس ·

ووجد النازيون في هؤلاء الشيوخ ما كانوا يأملون فيه : خدما مخلصين ومطيعين قادوا جماهير اليهود الى دمارهم بسبب شهوتهم الى المال والقوة ٠

مونيك (موزز) ميرين ، احد الصهاينة في جالية سوسنوفيتش ، نصبه النازيون (امبراطورا) لجميع (مجالس الشيوخ) ، وهو يعين زعماء هذه المجالس في كل جالية ٠ وهو بالطبع لم يعين في هذه المناصب المشينة الا اصدقاءه في الايديولوجيا من المعسكر الصهيوني ٠ وضمنت خطة النازيين الشيطانية ان يترك المصير الشخصي لكل يهودي ـ سواء للحياة او للموت ـ بصورة استثنائية لقرارات (مجالس الشيوخ) ٠ وكان النازيون من حين لاخر يتخذون قرارا حول الكوتا العامة للعمل في المعسكرات وللابادة ، ولكن الاختيار الفردي كان يترك (لمجالس الشيوخ) ، مع ابقاء تنفيذ اعمال الخطف والاعتقال ايضا في ايدي الشرطة اليهودية ٠ وبهذه الطريقة الذكية نجح النازيون نجاحا كبيرا في انجاز القتل الجماعي وتسميم جو الغيتو عن طريق الانحطاط الاخلاقي والفساد »٠ وقام يهودي متدين بارز في بويزن ، هو ريب بونيم ، « بتنبيه يهود المدينة ، كاشفا لهم انهم سيحرقون في الافران وان عليهم ان ينقذوا انفسهم بعدم الظهور للابعاد عندما يستدعيهم المجلس ٠ وكان ريب بونيم يعلم ان ميرين سيثأر لنفسه بصورة وحشية ، لا سيما وانه رفض الاشتراك في مكائد السنتين السابقتين لمجلس الشيوخ ٠ وجاء ثأر ميرين قبل ان يمضي وقت طويل ٠ فقد افشى للغستابو ان ابناء ريب بونيم ينتمون الى الحركة السرية ، وسرعان ما اعتقلوا وارسلوا الى اوشفيتز ٠ وبعد وقت قصير اعتقل ريب بونيم وزوجته كذلك وارسلا الى اوشفيتز » (٥٦) ٠

ولم تلق المحاولات لتنظيم المقاومة في غيتو بياليستوك نجاحا كبيرا ٠ وكان يعود هذا جزئيا الى سوء تقدير تكتيكي من قبل قيادة المقاومة ، التي حاولت ان تقاتل في الغيتو وان تعزز كذلك الانصار الريفيين في الوقت ذاته ، ولكن لم يكن لديها موارد كافية لتحقيق كلتا المهمتين على نحو صحيح ٠ وقوض مهمتهم ايضا تعاون المجلس اليهودي الذي يقوده الصهاينة مع النازيين ٠ « كانت سياسة المجلس اليهودي في بياليستوك مقنعة اكثر لان نصيرها ومنفذها الرئيسي كان افرايم باراز ، وهو مهندس ، وصهيوني ليبرالي في معتقداته السياسية » ٠ وكان لباراز في السابق صيت بأنه « رجل نزيه » ، الامر الذي مكنه بمزيد من الفعالية ان يهدىء سكان الغيتو بحيث يشعرون بحاسة امان زائفة ٠

في شباط (فبراير) ١٩٤٣ طالب النازيون بتسليم ٦٣٠٠ يهودي في بياليستوك للابادة ٠ « وامتثل المجلس اليهودي للامر فاعد قوائم بأشخاص كانت خطيئتهم انهم فقراء او قد فروا الى بياليستوك من الغيتوات الاقليمية المدمرة ٠ وتم ترتيب الصفقة في سرية مطلقة ، دون اي انذار او تلميح من باراز او الاعضاء الاخرين في المجلس اليهودي الى سكان الغيتو بماذا ينتظرهم ٠ الا ان مقاومة (الكتلة الموحدة المناهضة للفاشية) منعت معظم الناس على القوائم من الذهاب لمنقلهم الى حتفهم ، وقاوم سكان الغيتو عندما جاء النازيون ليأخذوهم ٠ وفي الخامس عشر من اب (اغسطس) اعلم النازيون باراز بأنهم ينوون تصفية الغيتو ٠ و « عاد باراز الى الغيتو ولم ينذر احدا بأنه لم يبق سوى بضع ساعات للاربعين الف يهودي » الباقين هناك ، كما انه لم يشجعهم على التمرد ٠ ومع هذا أفلحت (الكتلة الموحدة المناهضة للفاشية) في تجهيز ٣٠٠ مقاتل بالاسلحة النارية والقنابل اليدوية ، وفي تسليح ٢٠٠ اخرين بكوكتيل مولوتوف وقنابل من صنع البيوت والسكاكين والفؤوس ٠ وكان الكثير من هذه الاسلحة قد هرب الى الغيتو بطرق جريئة جدا ، ولم تكن كافية قط من اجل ثورة واسعة النطاق ، الا ان المقاومة

دامت حتى السادس والعشرين من اب واضطر النازيون الى استخدام المدفعية والطائرات لاخمادها · وقتل نحو ١٠٠ نازي (٥٧) ·

واحد الصهاينة البارزين الاخرين الذين قدموا معونة كبيرة للنازيين في حملة ابادتهم كان حاييم رومكوفسكي ، وهو زعيم للغيتو مصاب بجنون العظمة ، الى احد انه اصدر طوابع بريدية تحمل صورته ليستعملها سكان الغيتو · « عمد رومكوفسكي ، الذي خدم لعقود كرئيس للصهاينة في لودز ، الى تتويج نفسه ، تحت رعاية النازيين ، (ملكا على الغيتو) · وعامل (رعاياه) بقسوة طاغية مجنون ، معززا مراسيم النازيين بمراسيم خاصة به ، ومنظما بدقة نظامية وبلا شفقة جميع رحلات الموت ، ومنصبا نفسه مشرفا على مراسم زواج ابناء الجيل الجديد · كما ان الفريد نوسينغ ، الزعيم الصهيوني المتقدم في السن والصديق الشخصي لهرتسل ، لطخ شيخوخته بالوشايات والتجسس في غيتو وارسو ، وقد خاكمته الحركة السرية وحكمت عليه بالموت ·

اننا نذكر هذه الاسماء لانها امثلة صارخة ، لكن القائمة المشينة نفسها طويلة وتشمل الكثير من المدن والقرى في جميع انحاء بولندا وليتوانيا والمجر ورومانيا » (٥٨) ·

على الرغم من المساعدة التي قدمتها القيادة الصهيونية للجهود النازية لسحق المقاومة اليهودية ، فقد استخدم اليهود المناهضون للعنصرية مهارة فائقة لتزويد انفسهم بالوسائل للدفاع عن انفسهم · وفي احدى المراحل تم تهريب البنادق الى الغيتوات المقاومة في توابيت ذات مخابىء · « ثم لفترة من الوقت كانت الفتيات يأتين بالمسدسات المتدلية بين سيقانهن فيما هن يعدن من المصانع في الخارج » · وفيما بعد ، وبخاصة في وارسو ، «صارت المجارير اهم طريق لادخال الاسلحة الى الغيتو ولخروج الناس »· وفي غيتو دنيبروبتروفسك ، تم تهريب ١٥٠ كيلوغراما من الديناميت الصناعي الى الداخل « مخبأة في جيفة حصان مهترىء » ، وفي فيلنو « حملت راهبات القديسة كاترين القنابل اليدوية والمسدسات الى الغيتو وخبأن مهربي الاسلحة في الدير » · ولكن بالموارد الضئيلة لدى مقاتلي الغيتوات ، فان الاسلحة التي حصلوا عليها « لم تكن كافية ابدا ولا من النوع المطلوب · فلا مدافع رشاشة ثقيلة ولا مدافع هاون ولا الغام ولا اسلحة مضادة للدبابات ولا اصابع غليغنيت ولا متفجرات بلاستيكية » · حتى ان المهارة اليهودية أفلحت في الاستيلاء على الاسلحة او صنعها او تهريبها هي واجزائها الى معسكري الموت في تريبلينكا وسوبيبور ، حيث قامت حركات تمرد يائسة (٥٩) ·

بلغت مقاومة الغيتوات ذروتها في وارسو العام ١٩٤٣ · فهناك « تلقت حركة المقاومة اليهودية الدعم ، لا من الشيوعيين الضعفاء عسكريا فحسب ، بل ايضا من ثلاث منظمات مقاومة بولندية صغيرة ولكنها نافذة ومن عدد من الافراد النبلاء الذين لعبوا دورا حاسما في جعل (قيادة الجيش الوطني) يزود (منظمة القتال اليهودية » ببعض الاسلحة » · وارسلت منظمة (حراس الشعب) بعض المسدسات ، علما بانه « يمكن الحكم على مدى ضآلة مواردهم من تقرير لقيادة (حراس الشعب لمنطقة وارسو) صادر في السابع والعشرين من كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٢ ، وقد عين التقرير كمية الاسلحة التي في حوزتهم بانها ١٣ مسدسا و ١٧ قنبلة يدوية · وقد اشار تقرير في الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ الى ان الارقام هي ٢٤ مسدسا و ١٨ قنبلة يدوية » (٦٠) ·

عندما ابتدأت العملية المعروفة بالتصفية الكبرى (التي تمت فيها ابادة نحو ٣٠٠ الف يهودي) في وارسو في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) ، لم يكن لدى جماعات

المقاومة اليهودية سوى القليل من الاسلحة ، ولذا لم يكن بوسعها القتال · الا ان التصفية الكبرى جعلت الغيتو يسلح نفسه بقدر الامكان ، ويبني ايضا جهاز مخابرات ممتازا · « وكان في مقدور مصادر المخابرات البولندية واليهودية خارج الغيتو ان تكتشف ماذا يحضره الالمان ، لانه كان قد تم تنبيه ، لا قوة الابادة الخاصة فحسب ، بل الحامية الالمانية كلها في وارسو ايضا ، بالاستعداد لانتفاضة عامة ممكنة » (٦١) ·

« يوم الاحد في الثامن عشر من نيسان (ابريل) ١٩٤٣ ، عقد رؤساء الشرطة وقادة الاس اس مؤتمرا تم فيه رسم الخطة بالتفصيل لمهاجمة الغيتو · وفي الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم تلقى الاس اس والشرطة الالمانية اوامر تعبئتهم · وتلقت الشرطة البولندية اوامر مماثلة وضربت نطاقا ثقيلا حول الغيتو كله عند حوالي الساعة السادسة بعد الظهر · وبعد ذلك بساعة واحدة ابلغ رؤساء اركان (منظمة القتال اليهودية) و (الرابطة العسكرية اليهودية) باستعدادات العدو » (٦٢) ·

وقام مقاتلو الغيتو بثورتهم في اليوم التالي · ويقول اينشتاين ان تاليف مقاتلي الغيتو كان كما يلي : كان (للاتحاد العسكري اليهودي) التابع للمتمردين نحو ٤٠٠ مقاتل ، و (للمنظمة المقاتلة اليهودية) ـ وهي ائتلاف من الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين البولنديين والصهاينة ، الذين لعبت هاشومير هاتسعير ابرز الادوار بينهم ـ ما بين ٦٠٠ و ٢٨٠٠ ، في حين ان الاكثرية ، نحو ٢٠٠٠ ، لم تكن مرتبطة بأية منظمة سياسية وكانت تسمى « الجماعات البرية » · وفي الواقع استمر الاخيرون في القتال لمدة اطول من الجماعات المنظمة سياسيا (٦٣) ·

قاتل مقاومو غيتو وارسو من شارع الى شارع ، ومن منزل الى منزل ، ومن الغرف المحصنة تحت الارض ، ومن الاطلال وحتى المجارير ، وسمروا النازيين في مكانهم لأشهر ، في ما وصف بأنه اكبر واطول عملية مقاومة في اوروبا المحتلة ، باستثناء يوغوسلافيا · وسبب ذلك المئات من الاصابات النازية ، علما بأن الجيش الالماني قصف الغيتو بالمدافع ، وجيء بسلاح الطيران ليقصفه من الجو · وحاول النازيون ان يدمروا حتى الاطلال التي كانت تزود المقاتلين بالغطاء في تموز (يوليو) ، وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ارسلوا قوات كبيرة « لتنظيف » بقايا الغيتو · ومع هذا فان اخر عمل مقاومة مسجل قامت به احدى جماعات غيتو وارسو ، قتل ثلاثة دركيين المان ، تم في حزيران (يونيو) ١٩٤٤ (٦٤) ·

وبالاضافة الى النازيين كان على مقاومي الغيتو ان يقاتلوا خائنا خطرا جدا ، هو ابراهام غانكفايش ، الذي كان احد قادة هاشومير هاتسعير (وهي جماعة صهيونية يسارية تسمى الان حزب مابام) في زيستوتشوا · ففي وارسو في ربيع ١٩٤٠ « القى خطابا قال فيه ان النظام النازي الجديد قد جاء ليبقى ، وان على اليهود ان يكيفوا انفسهم له ··· وبمساعدة الغستابو جمع عددا من المتعاونين من بين اعضاء عائلته واصدقائه ومعارفه »· وسمح له النازيون بأن يقيم « قوة شرطة » من ٣٠٠ رجل خاصة به « كانت تقوم بأعمال سفاحي الغانغسترز الاميركيين ، وبمساعدتهم اجبر غانكفايش جميع رجال الاعمال المهمين في الغيتو ، بصرف النظر عما اذا كانوا نزيهين او غير نزيهين ، ان يدفعوا له اموال الخوة ، التي تقاسمها مع اربابه في الغستابو · كان العامل الاهم هو فائدة غانكفايش ومافياه كوكالة للتجسس والتخريب ـ وباختصار كطابور خامس كلاسيكي ··· وقام حاخامان ينتميان الى حزب اغوداث يسرائيل ، هما بلومنفيلد وغليسنشتاين ، بالدعاوة له بين العناصر الحاسيدية وتأكدا من ان افكار المقاومة لن

تضرب جذورها في المدارس والكليات الدينية » · واقـام غانكفايش « خدمة سـيارات اسعاف » ساعدت في جمع الضحايا النازيين ، كما انه كل يوم ثلاثاء كان يسلم تقريـر مخابرات « تباهى بأن الغستابو كان ينتظره بفارغ الصبر ، لانه اعتبره التقرير الوحيد الموثوق به لما يجري في الغيتو » · وساعد حزب اغودات يسرائيل ، وهو الان احـد الاحزاب السياسية المعتبرة في اسرائيل ، النازيين في قمع المقاومة « بأن قال لاتباعه الكثر ان الغيتو ليس عقاب الله على هجر اليهود للارثوذكسية والالحاد فحسب ، بل انه بركـة مموهة تهدف الى اعادة اليهود الى حالة التقوى » (٦٥) · وانه لانجاز باهـر ان يكـون مقاتلو الغيتو استطاعوا ان ينظموا المقاومة على الرغم من هؤلاء المتعاونين ·

قبيل موت زعيم (منظمة القتال اليهودية) موردیخاي انيليفتش في المعركة في الغيتو، كتب الى خليفته يقول : « مدركين ان يومنا الاخير قد دنا ، اننا نطلب منك ان تتذكر كيف خانونا · وسياتي يوم دفع الثمن لدمنا البريء المسفوك · ارسل المساعدة الى هؤلاء الذين قد ينجون من ايدي الاعداء في المعركة الاخيرة ، لكي يتمكنوا من مواصلة القتال » (٦٦) · ومع انه لا يسمي بالتحديد من هو الذي خان يهود غيتو وارسو ، فمن المتع الملاحظة ان انيليفتش كان الاستثناء النادر الذي يثبت القاعدة ، من حيث انه كان صهيونيا ، مـن نفس منظمة هاشومير هاتسعير التي كان غانكفايش ينتمي اليها ·

(للبحث صلة)

نقل النص الى العربية رجا جورج

الحواشي

(1) Theodor Herzl, *The Jewish State* (New York, 1946) p. 92.

(2) Hannah Arendt, *The Jewish State. 50 Years After — Where Have Herzl's Politics Led ?* (article in Commentary, Vol. I, No. 7, May 1946).

(3) Moshe Menuhin, *The Decadence of Judaism in Our Time* (Institute for Palestine Studies reprint, Beirut, 1969) pp. 46-47.

(4) Quoted by Reuben Ainsztein, *Jewish Resistance in Nazi-Occupied Eastern Europe* (London, 1974) p. 151.

(5) Report of Royal Commission on Alien Immigration, 1902-1903 (Cmnd. 1741 & 1742).

(6) Jewish Chronicle, 23 December 1904.

(7) Hansard, 10 July 1905, Vol. 149, Col. 154-155.

(8) Theodor Herzl , *Diaries* (Marvin Lowenthal's translation , New-York, 1956) p. 7.

(9) Chaim Weizmann, *Trial and Error* (New York, 1949) p. 243.

(10) Memorandum on the Anti-Semitism of the Present Government, 23 August 1917.

(11) Oscar Janowsky, *People at Bay* (London, 1938) pp. 126-127.

(12) J.W. Wise , *Swastika , the Nazi Terror* (New York , 1933) pp. 59-60

(13) *Ibid.*, pp. 104-107.

(14) Report dated 25 April 1933, from Innsbruck.

(15) Norman Bentwich, *The Refugees from Germany* (London, 1936) p. 30.

(16) Hannah Arendt, *Eichmann in Jerusalem* (New York, 1963) pp. 53-54.

(17) *Ibid.*, pp. 54-55.

(18) Wise, op. cit., p. 45.

(19) Eliahu Ben Elissar, *La Diplomatie du IIIe Reich et les Juifs* (Julliard, place of publication not stated, 1969) pp. 86-87.

(20) Raul Hilberg, *The Destruction of the European Jews* (London, 1961) p. 95.

(21) Ben Elissar, op. cit., pp. 90-94.

(22) Israel Cohen, *Contemporary Jewry* (London, 1950) p. 186.

(23) Arendt, op. cit., p. 55.

(24) Letter from Blumenfeld, for Zionist Ferderation, to Nazi official Bulow-Schwante, 11 June 1934.

(25) Ben Elissar, op. cit., pp. 185-186.

(26) Gerald Reitlinger, *The Final Solution* (New York, 1961) p. 7.

(27) Ben Elissar, op. cit., pp. 186-187.

(28) Janowsky, op. cit., pp. 90-91.

(29) Ben Elissar, op. cit., p. 204.

(30) Ibid., p. 219.

(31) Oscar Janowsky and Melvin Fagen, *International Aspects of German Racial Policies* (New York, 1937)pp. 49-50.

(32) Bentwich, op. cit., pp. 142-143.

(33) Ben Elissar, op. cit., pp. 423-424.

(34) Jon & David Kimche , *The Secret Roads* (London , 1954) pp. 15-16.

(35) *Ibid.*, pp. 17-19.

(36) *Ibid.*, p. 30.

(37) Arendt, op. cit., p. 39.

(38) *Ibid.*, p. 41.

(39) Kimche, op. cit., pp. 27 , 30-31.

(40) *Ibid.*, p. 217.

(41) *Ibid.*, pp. 33-35.

(42) *Ibid.*, p. 217.

(43) *6,000,000 Accusers* , opening address in Adolf Eichman trial , Sessions 6-8.

(44) Shlomo Katz, *6,000,000 and 5,000,000* (article in *Midstream*, No. 1, 1964).

(45) Ainsztein, op. cit., pp. 408, 442, 468, 634-638.

(46) Letter from Mordechai Anielewicz to Polish Home Army Command and Government Delegate's office, 13 March 1943.

(47) Ainsztein, op. cit., p. 486.

(48) Joseph Tenenbaum, *Underground, the Story of a People* (New York,1952) pp. 81-82.

(49) *Ibid.*, pp. 347-348.

(50) Appeal by Itzik Witenberg and Abba Kovner to Vilno ghetto inhabitants, 1 January 1942.

(51) Ainsztein, op. cit., pp. 505-507.

(52) Tenenbaum, op. cit., pp. 344-345.

(53) *Ibid.*, pp. 353-354.

(54) Reb Moche Shonfeld , *The Holocaust Victims Accuse* , Part 1, (Neturei Karta of USA, New York, 1977) pp. 30-33.

(55) Yuri Suhl, *They Fought Back* (London, 1968) p. 191.

(56) Shonfeld, op. cit., pp. 88, 119-121.

(57) Ainsztein, op. cit., pp. 521-547.

(58) Shonfeld, op. cit., pp. 22-23.

(59) Michael Eliņs, *Forged in Fury* (New York, 1971) pp. 62, 64-65.

(60) Ainsztein, op. cit., pp. 565-599.

(61) *Ibid.*, p. 620.

(62) Shul, op. cit., p. 622.

(63) Ainsztein, op. cit., p. 622.

(64) *Ibid.*, pp. 591-671; see also Chaim A,Kaplan, *Scrol of Agony (A Warsaw Diary)*, translated & edited by Abraham I. Katsch (London, 1966) and Martin Gray, *Au Nom de les Miens* (Paris, 1971) for accounts by ghetto inhabitants.

(65) Ainsztein, op. cit., pp. 556-561.

الياس شوفاني

لاجئ في بلدي

١ ـ الهاغاناه نسفت بيتنا

لم يكن بيتنا يختلف كثيرا عن سائر بيوت القرية · لكنه كان بيتنا الوحيد الذي نملك · ورثه والدي عن ابيه · بنى جدي لابي هذا البيت ، بعد ان تزوج وخرج من منزل والده الذي كان في القلعة · والقلعة قديمة ، تعود الى ايام الصليبيين ، ثم عمرها اجدادي في الفترة الاخيرة ، واسموها «حارة الشوافنة»

تبدأ « شؤون فلسطينية » بنشر فصول من تجربة الاحتلال ، التي عاشها سكان الجليل في شمال فلسطين ، كما يرويها الدكتور الياس شوفاني ، من خبرته الشخصية ، ومعاينته لسقوط فلسطين تحت الاحتلال ·

وكان الدكتور شوفاني ، قد نشر الفصل الاول من تجربته هذه ، في « مجلة الدراسات الفلسطينية » · التي تصدر باللغة الانكليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية · وقد ترجم هذا الفصل الى العربية ، ونشر في مجلة « مواقف » ، عدد ٢٣ ايلول ـ تشرين الاول ١٩٧٢ ·

الفصل الاول هو بعنوان « سقوط قرية » . ويروي باسلوب الذكريات الشخصية التي تستوعب العام في الخاص ، قصة احتلال قرية معليا عام ١٩٤٨ · وعلاقة سكان القرية ، الذين كان يبلغ عددهم اقل من الف نسمة عام ١٩٤٧ ، بالفرقتين الاردنية والميمنية التابعتين لجيش الانقاذ · ثم علاقات القرية بالقرى المجاورة ، وخاصة ترشيحا ، وبقبائل البدو · ثم ينتهي الى وصف كيفية عودة سكان معليا الى قريتهم بعد سقوطها ·

نسبة اليهم · انتقل جدي من حارة الشوافنة الى « حارة الجامع » ، خارج السور الداخلي للقلعة ، ولكن ليس بعيدا عنها ·

يتألف بيتنا من بناء حجري كبير ، مربع الشكل · تقسمه من الداخل قناطر قائمة على اعمدة · هكذا بنى الناس بيوتهم في جبال فلسطين الشمالية · جدران عالية عبية ، اسقف مسطحة سميكة ، من الطين الممزوج قشا ، او من الحزرة ، تحملها دعائم خشبية تجسر بين القناطر · وفي البيت باب واحد واسع ، وبضع نوافذ ، تتحكم مواقعها بحركة الريح في المنطقة · أما الداخل . فقد قسم ، بحواجز او من دونها ، الى مهجع ومطبخ ومتبن ومعلف · والى جانب النافذة الغربية يقوم المجلس في العادة · اما الحياة ، فتدور في صحن البيت ·

كان جدي لامي معماريا ، تعلم الصنعة بالممارسة في عائلته التي كانت عريقة في هذا الفن · جاء جدي الى معليا من ترشيحا المجاورة ، واستقر فيها بعد ان تزوج جدتي ، التي تنتمي الى احدى العائلات المنتسبة الى حمولتنا · وانا لا اعرف احدا غيرها من اجدادي · فقد قضوا جميعا ، بمن فيهم اعمامي ، عدا عمة واحدة ، اثناء الحرب العالمية الاولى او بعدها بقليل · كانت جدتي جميلة· طويلة القامة ، قوية البنية · وقد ترملت في سن مبكرة ، بعد ان انجبت ولدين : امي وخالي · وعانت الكثير من اجل تربيتهما · وقد لعبت صلة القرابة دورا اساسيا في زواج والدي من ابنتها ـ امي ـ وكان ابي يحترمها ويقدر لها غيرتها علينا · ولم ينس قط ، العون الذي قدمته له ايام شبابه ، بعد ان فقد اهله ، وتناوشوا املاكه · وقفت الى جانبه ، في اواخر الحرب العالمية الاولى ، وهو يسترد ارضه بقوة ذراعه ،ممن استولى عليها ، اثناء غيابه في افريقيا ، هربا من التجنيد الاجباري في الجيش التركي · وقد روت لنا جدتي ، ان زوجها هو الذي تعهد ببناء بيتنا في حينه ·

اختار للبيت الجديد موقعا خارج السور ، الى الجهة الجنوبية من القلعة . واخذ حجارته من خرائبها · وحفر له بئرا عميقة ، تجمع ماء الشتاء من سطح البيت ، وتخزنه في جوفها الى اشهر الصيف الطويلة الجافة · ومن موقعه المشرف ، اطل البيت على جبال الجليل العالية الى الشرق ، الجرمق وعداثر والطويل · والى الجنوب اشرف على ترشيحا ومرجها ، وعلى سلسلة الجبال الفاصلة بين الجليلين ، الاعلى والاسفل · وكذا نرى منه القرى الدرزية . يانوح وكفر سميع وكسرى · ومن الجهة الغربية ، اطل على السهل الساحلي الى البحر · اما الشمال . فقد حجبته عنه القلعة الكبيرة ، القائمة على رأس التلة · وبيننا وبين ترشيحا ، على مسافة ميل او اقل ، مرج خصيب فسيح ، كان فلاحو ترشيحا ، المعروفين بنشاطهم ، يزرعونه بالتبغ وخضار

الصيف · وفي وسطه يمر الطريق العام المعبد · وعلى تلة مرتفعة فيه قليلا ، اقامت حكومة الانتداب مركزا للشرطة · وكنا ، من بيتنا ، نراقب حركة دورياتها ، ونأخذ الحيطة ، في الدقائق المعدودة ، قبل وصولها الى القرية ، حين تقصدها لامر ما · ومن سطح ذلك البيت ، شاهدت اول معركة في حياتي ، معركة ترشيحا ، مع الجيش البريطاني ، في اواخر ثورة ١٩٣٦ · ففي بيتنا اجتمع المسلحون من اهالي القرية ، عشية المعركة ، ووضعوا خطة كمينهم المشارك فيها · وفي سفح التلة ، التي يقوم عليها ، دارت المعركة · وخسرها الثوار ، وانتشروا في الجبال ، الى ان تم القاء القبض عليهم ، واودعوا السجن ، بمن فيهم أبي ·

كان البيت بجوار الجامع · والجامع هذا ، اسم بلا مسمى · لم يكن فوق سطح الارض منه شيء ،وانما بقايا مداميك ، ظلت قائمة فيمنحدر التل · كنا نسميه الجامع ، ونقضي اكثر ساعات فراغنا نلعب في فنائه ، دون ان يتبادر الى ذهننا السؤال عن اصل التسمية · ولم يكن في القرية مسلم واحد · وكبرت وتعلمت ان الجامع يعود الى العصر المملوكي · فالمماليك احتلوا القلعة الصليبية الكبيرة ، في بداية السبعينات من القرن الثالث عشر ، اي بعد حوالي خمسين عاما على بنائها · وذلك قبل عشرين عاما من سقوط عكا ، آخر معاقل الصليبيين في فلسطين · وتعلمت ايضا ، ان القلعة شيدت كحلقة في سلسلة حصون ، تحيط بعكا ، عاصمة الصليبيين بعد سقوط القدس · وكان لها سوران : داخلي يحيط بحصنها ، وهو الاضخم والاكثر منعة ، وخارجي، يحيط بالربض ويلف التل ، حيث تقوم القلعة · ولم يهدمها المماليك كما فعلوا بامثالها على طول الساحل · وانما جعلوها مركزا لاحد اعمالهم ، والعمل هو « القضاء » في لغتهم ، في ولاية صفد · وهذه بدورها قلعة صليبية ، جعلوها عاصمتهم بدلا من عكا ، ولها سبعة عشر عملا ، كما تروي المصادر · وكان المماليك يؤثرون القلاع الداخلية ، ويبتعدون عن الشاطىء ،لانهم لم يتقنوا فن القتال البحري ، ولم يبنوا اسطولا يفي بهذا الغرض ·

وتاريخ معليا لم يبتدىء بالقلعة الصليبية ، لم ينته بخراب الجامع المملوكي فيها · فعلماء الآثار يرجعون تاريخها الى بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد · ويذهبون الى انها هي مدينة علوت ، او معلوت ، المذكورة في التوراة · والآثار الباقية في المكان تشهد بعمرانه في ذلك الزمان · ويقال ان سليمان الملك وهبها الى حيرام ، ملك صور ، مقابل اخشاب الارز ، التي قدمها هذا لبناء الهيكل · وظل المكان معمورا خلال الفترات التاريخية اللاحقة · وتبرز فيها الاثار البيزنطية ، وحوالي منتصف القرن التاسع عشر ، عمر المكان لاجئون من لبنان ، نزحوا اليه من منطقة الشوف · كان هؤلاء من النصارى الذين لجأوا الى الجليل الغربي ، هربا من القتال الطائفي في موطنهم · فخلال تاريخه

الطويل ، اجتذب الجليل العديد من هذه الفئات ، نظرا لتضاريسه الجبلية المبتورة ، حيث وجدت تلك الجماعات المطاردة ملجأ امينا · ولذلك عرفت المنطقة قديما باسم « جليل الشعوب » · أما اخر من قدم الى معليا ، فقد تكنوا باسم « شوفاني » · نسبة الى موطنهم الاصلي ،الشوف ·

ومنذ ان استقروا بها ، والى يوم سقوطها في يد الهاغاناه ، تعاقب في معليا خمسة اجيال من الشوافنة · كان جدي الثالث هو الذي قدم اليها على رأس حمولته ، وبنى له بيتا في القلعة ، وحوله جماعته · فصارت القلعة حارة ، واسموها « حارة الشوافنة » · ولتلك الحارة / القلعة مدخل واحد ، يمكن قطعه بسهولة ، فتنقلب الى حصن منيع · هكذا ارادوها عندما بنوها على الانقاض ، مستطيلة ، طبقا لتضاريس سور القلعة الداخلي ، الذي شيدت البيوت على ظهره · وكان عدد تلك البيوت كعدد فروع الحمولة ، ملتصقة بعضها ببعض التصاق الناس بنسبهم · وعندما وصلت الى معليا عائلات مسيحية اخرى ، بنت لها بيوتا في الربض ، داخل السور الخارجي للقلعة · وعندما ضاقت الحارة بسكانها ، رحل عنها من ملك المال اللازم لبناء بيت جديد · هكذا فعل جدي الاول ، واختار جوار الجامع ، القائم على طرف السور الخارجي ، من الجنوب ·

وكان المعليون كغيرهم من ابناء الريف الفلسطيني ، عشائريين ، يتزاوجون فيما بينهم ، ويفضلون الزواج من الاقارب · فنشأت خلال قرن من استقرارهم في معليا ، لحمة من صلة الرحم بينهم ، زادت من عصبيتهم القبلية ، القائمة على الانتماء الى الدين والعشيرة · وصار الجميع عصبة ، يتحملون وزر فدية الدم ، ويقتسمون دية المغدور منهم · هكذا حدث عندما وقع الثأر مع قبيلة السويطات البدوية المجاورة · وكان المعليون يواجهون اي عدوان خارجي كوحدة قبلية طائفية متماسكة · الا ان ذلك لم يمنع الصراعات الداخلية ، على الزعامة والجاه والمال والشرف والعرض ··· الخ · ولكن هذه الصراعات ظلت دون سقف سفك الدماء · كانوا يقتتلون فيما بينهم ، فيشتبك البعض ، ويتوسط الآخرون لفك الاشتباك وتسوية الخلافات · والصلح سيد الاحكام · وكان موسم العيد الكبير ، عيد الفصح ، فرصة سنوية للمصالحة العامة على ما تراكم خلال العام المنصرم من منازعات ، لتعود وتبرز من جديد بعد العيد ، وهكذا دواليك · وبين كر هذه العائلة وفر تلك ، عاشت القرية في دوامة من « الطوشات » و « الصلحات » استنزفت قسطا وافرا من جهد الناس واوقات عملهم · ومع ذلك ، فلولا هذه الدوامة ، لظلت الحياة في القرية بلا لون ، ولا رائحة ، ولا طعم ·

وعلى اي حال ، فقد ظل بيتنا ، على الاقل منذ ان بدأت اعي ما يدور فيه ، في مركز تلك الدوامة من العلاقات الاجتماعية في القرية · فعندما ينشب خلاف

بين عائلتنا وسواها ، يصبح البيت كخلية النحل ، يؤمه الشباب ويغادرونه في حركة مستمرة · وعندما كان والدي يلعب دور الوسيط ، يتحول البيت الى مضافة ، والندوة معقودة فيه على الدوام · فكان الوسطاء يعقدون فيه الجلسات الطويلة ، يتداولون اسباب المشاكل ، ويشبعونها درسا وتحليلا · وربما استدعوا الشهود ، او استقدموا بعض اعيان القرى المجاورة ، ممن اذا حضر ، زاد الوساطة وزنا ، والوجاهة جاها · اما نحن ، الابناء ، فكانت مهمتنا القيام بواجبات الضيافة · وكنت اصغي الى مناقشاتهم ، واعجب باسلوب كلامهم ، وتعلمت الكثير من قصصهم وامثالهم · وكان اكثر تلك الندوات اهمية ، واوفرها عزا ووقارا ، مجلس الدموم ، المختص بفض قضايا القتل ، وما يترتب عليها من صلحة ودية ··· الخ ·

وفي عام ١٩٤٨ ، اصبح البيت ، فوق كل ذلك ، مقرا لقيادة الميليشيا المحلية، التي كان والدي يتولى قيادتها · فصار مخزنا للاسلحة والذخائر ، وغرفة عمليات ، ومحكمة ، اذ في بيته يؤتى الحكم · فيذلك البيت ، رايت قيادات جيش الانقاذ والجهاد المقدس مرارا · تعرفت من السوريين على اديب الشيشكلي ، وخليل كلاس ، وعمر ارناؤوط ، ومن السرية اليمنية ، على الرقيب صلاح ، ومن الاردنيين على اميل جميعان وعلوش ، ومن العراقيين على قائد المحور ، خالد العظمة ، ومن الفلسطينيين على الخليلي ، ابو الياس ، والصفدي ، ابو ابراهيم ، وغيرهم · كانوا يأتون اليه للتداول في امور الساعة ، الحرب وما اليها · وكان آخر عهدي بذلك البيت ، يوم رأيت من على سطحه الطائرة الوحيدة تقصف ترشيحا ، عشية الاحتلال · وفي فجر اليوم التالي ، شاهدت من ذلك المكان نفسه ، جنود الهاغاناه يدخلون القرية من طرفها الغربي · اما انا فيممت وجهي شطر المشرق ، وسرت · وعندما عدت اليه ، كان كومة من الركام ، وبعض اشلاء متناثرة في سفح التلة ، وفي فناء الجامع ·

وعلمت فيما بعد ، ان الهاغاناه ، عندما دخلت القرية ، كان همها الاول معرفة مصير السلاح : من يحوزه ، ومن يملك قرار تسليمه · وحاول كاهن القرية تمييع الموقف ، والتهرب من الاجابة المحرجة · وجهد في كسب الوقت ليكسر حدة المواجهة ، ويتجاوز دقة الظرف · وتعاون معه عدد من الشيوخ ، ممن وصل الى القرية ، وشارك في المفاوضات على تسليمها · ومع ذلك ، كان هناك من يتحرق لتسديد فواتير قديمة ، فأفضى بما عنده · وهكذا بدأ الفساد في ساعات الاحتلال الاولى ، وراح يستشري · ولكل زمان دولة ورجال · وفيما المفاوضات دائرة ، توجه نفر من الهاغاناه صوب البيت ، حزموة بزنار من الديناميت ، ونسفوه · توسلهم البعض للعدول عن نيتهم ، ولكن دون جدوى · اما كلبنا الامين ، نمر ، فوقف يدافع عن حرمة البيت · ناوشهم بشراسة فائقة،

ومنعهم من الاقتراب اليه ، حتى رموه بالرصاص ، وقتلوه ٠

لم ينسفوا غيره من بيوت القرية ، كما فعلوا في اماكن اخرى ، حيث دمرت قرى باكملها ٠ ولكن الكتابة كانت واضحة على الحائط ٠ فاما تسليم السلاح ، واما دمار القرية ٠ هكذا ابلغ الرسول والدي ، عندما جاءه في رميش ٠ ولم يكن من خيار سوى تسليم السلاح ٠ وهكذا حصل ٠ ونجت القرية ، وعاد اليها اهلهـــا ٠

٢ ــ وصادرت سلطات الاحتلال املاكنا

عدت مع الناس الى القرية ، قبل اهلي جميعا ، ونزلت عند بعض الاقارب اياما ٠ ثم تقاطر اخوتي وامي ٠ اما والدي فبقي في لبنان حتى عام ١٩٥٥ ٠ واخلت ابنة عم لنا بيتها ، فسكنا فيه ٠ كان هذا نصف بيتنا القديم في القلعة، حصتها من ارث والدها ٠ وفي النصف الاخر ، اقامت عائلة اخرى ٠ وبين الشطرين حاجز من قصب وطين ، رقيق ، يحجب البصر ولا يرد الصوت ٠ وعلى اي حال ، لم تكن هناك اسرار نخفيها ٠ وضاق بنا المقام في نصف البيت ذاك٠ وليس في القرية بيوت للايجار ٠ فالفلاحون لا يبنون بيوتا لذلك الغرض ، وهم يرفضون الفكرة ، ويحتقرون الظاهرة ٠ اذ ان ما يميزهم عن سواهم ، من البدو او اهل المدن ، الاستقرار وامتلاك الارض والبيت ٠ وكان التفكير ببناء بيت جديد مسألة غير واردة قط ٠ وساورتنا فكرة الانتقال الى بيت خال في القرية ٠ كان صاحبه قد وضعه في عهدة اقربائه ، ورحل ٠ وبعد الاحتلال اعتبرته السلطة ملكا متروكا ، ووضعت يدها عليه ٠ هكذا فعلت باملاك والدي، وصادرتهـــا ٠

الا ان انتقالنا الى بيت مأجور ٠ وهذا البيت بالذات ، كان امرا في غاية الحرج ٠ فهو ، بالاضافة الى ما يترتب عليه من شعور بالغربة والاستلاب في القرية ، يعني الاعتراف بشرعية قرار السلطة ، وبحقها في مصادرة املاك الغائبين ٠ وهو ايضا مستمسك علينا في صراعنا ضد مصادرة املاكنا نحن ٠ وبدأت السلطة عملية تجميع واسعة النطاق للسكان العرب ، ممن بقوا في قراهم واماكنهم ٠ فضمت المجموعات الصغيرة ، التي بقيت في قراها المهجورة باكثريتها ، الى قرى ظلت فيها الاغلبية ٠ وخلقت تلك العملية ارباكا كبيرا للناس ٠ فكانوا ، من ناحية ، يتعاطفون مع المهجرين ، ومن ناحية اخرى ، يخشون ان يتملك هؤلاء ، بمرور الزمن ، بيوت النازحين من ابناء قراهم ٠ ولم يكن احد يعتبر الاوضاع الراهنة امرا نهائيا ٠ ورأي الجميع تقريبا ، فيما خلا المتشائمين بطبعهم ، غمامة صيف ، لن تلبث ان تنقشع ٠ وفي غمرة هذا الارتباك ، انتقلنا الى البيت المذكور ، بعد انتوصلنا الى تفاهم مع الوكلاء

عليه · وبذلك اصبحنا ، في نظرنا اولا ، وفي نظر الناس ايضا ، لاجئين في بلدنا · فالغرباء في القرى فقط ، يعيشون في بيوت مأجورة · اما الصليبة، فلهم بيوتهم الموروثة عن الاجداد ، بيوت لها تاريخ وحرمة ·

وابلغنا الحاكم العسكري ان املاكنا مصادرة ، بسبب غياب والدي · وانها من تاريخه ، بتصرف « المقيم على املاك الغائبين » · والمقيم هذا رئيس دائرة مستحدثة ، همها نهب البيوت المتروكة ، ومصادرة املاك اصحابها · وتعلم الناس اسمها ، بعد ان ذاقوا الامرين منها · ولفظها كل بطريقته الخاصة : « رخوش نطوش » ، او ما شابه ، يساوي « املاك متروكة » · وبادارج يعني السلب والنهب · وكان علينا اذا اردنا فلاحة ارضنا ، ان ندفع الضمان الذي يقدره المقيم · ورفضنا · فحاول هذا تضمينها لآخرين من اهالي القرية ، ولم ينجح · لم يجد من يخرج على ارادة الجماعة ، ويتحدى الشعور العام بشكل صارخ · هذا الى جانب انه كان على من تساوره نفسه ذلك ، ان يجري بعض الحسابات القروية ، من عشائرية وغيرها · اذ قد يتخاصم الفلاحون ويقتتلون ، ولكنهم مع ذلك يقدسون ملكية الارض ، ولا يجيزون اغتصابها · فلم يبق امام المقيم الا صرف النظر عن الامر · وهكذا حصل · وفلحنا ارضنا ، متجاهلين قرار السلطة الجديدة ·

فهم الناس ان مصادرة املاك والدي ، انما جاءت نتيجة وضع خاص ، وبالتالي فهي مسالة شخصية ، ستبقى في تلك الحدود · ولكن هذا المفهوم ما لبث ان تلاشى ، عندما استوعب هؤلاء ابعاد القرارات التي ابلغها الحاكم العسكري لوجوه القرية · وكان الاخير ، قد اتخذ له مقرا في ترشيحا المجاورة · وذات يوم ، استدعى وجوه القرية ، وابلغهم ان اراضيها ، وهي واسعة حقا ، تدخل ، ضمن التقسيم الجديد ، في مناطق عسكرية مختلفة ، لكل منها رقم خاص واعلن بعضها مغلقا ، يحظر التجول فيه ، ليل نهار · ومن تجاوز ، فجزاؤه الغرامة او السجن ، او الاثنين معا · والبعض الآخر مفتوحا ، فيما خلا كروم الزيتون الغربية ، حيث كانت خطوط الهاغاناه منذ ربيع ١٩٤٨ ، اذ زرعت هذه بشبكة من الالغام · وقد تحقق الناس من ذلك ، عندما انفجر لغمان، اودى احدهما بحياة رجل من القرية ، وتسبب الثاني بعطل دائم في ساق امراة · وكان الرجل قد اسرع لاغاثة المراة ، عندما اصيبت · فنجت هي ، وقضى هو · وكان الاثنان يعملان في قطف الزيتون من الكروم الغربية · وعدل الناس عن محاولة جمع الموسم لذلك العام ، وعلمت فيما بعد ، ان حكومة اسرائيل الجديدة ، قد استصدرت قانونا يقضي بنزع ملكية جميع الاراضي العربية التي وقعت في يد الهاغاناه عند اعلان الهدنة ، في منتصف حزيران ١٩٤٨ · وهذا يضم اكثر من ثلثي اراضي معليا ·

وبمقتضى ذلك القانون ، جرت عملية نهب واسعة النطاق لاراضي القرية ·

وبدأت الحملة في الاطراف ، وراحت حلقتها تضيق ، حتى وصلت في بعض الاماكن الى جدار القرية · وما تزال الحملة مستمرة الى يومنا هذا (١٩٧٨)· وانتهجت السلطات في تلك العملية كل اساليب القمع والخداع · فاعلنت الاراضي مناطق عسكرية ، وحظرت على الفلاحين دخولها · وبمرور ثلاث سنوات ، طبقت عليها احكام قانون الاراضي البور العثماني ، وصادرتها · واراضي معليا ، كغيرها من القرى العربية ، معظمها من فئة « الميري » ، التي يملك الفلاحون فيها حق الاستثمار ، دون الرقبة · وعلى هذه الفئة من الاراضي بالذات ، يسري قانون الارض البور · وقسمت الارض المصادرة بين المستوطنات اليهودية ، القديمة منها والمستحدثة ، على اختلاف اهوائها السياسية · فعلى صعيد نهب الاراضي العربية ، تساوى المستوطنون الصهاينة في الجشع ، ولا فرق فيهم بين يسار ويمين ·

وفي مرج ترشيحا ، اقيم موشاف معونة · جاء مستوطنوه من مهاجري رومانيا · وبنوا قريتهم التعاونية على الطراز الاوروبي : بيوت منتشرة في قلب الارض ، كل في قسيمته · لم تعجبهم تقاليد البناء المحلية ، حيث بيوت القرية مجمعة ، تقوم عادة على مرتفع من الارض ، وحدث مرة ، ان غمرت مياه الفيضانات ، في ليلة ماطرة ، اراضي الموشاف · وفي صباح اليوم التالي، كان فلاحو معليا يجمعون البط والاوز من وادي جعتون ، على مسافة عدة كيلو مترات · وعمد المستوطنون الى حفر خندق ، يصرف مياه الفيضانات ، واعتبروا مشكلتهم تقنية ، يمكن درسها وايجاد حل لها · والمهم ان يحافظ المستوطنون على طبائعهم وتقاليدهم المستوردة ، وان يميزوا انفسهم عن سكان البلد الاصليين · وكان اهالي معليا ينظرون اليهم ببعض العجب ويتساءلون :ما لهؤلاء وهذه الارض ! فلا هي منهم ، ولا هم منها في شيء · لقد اعتادوا الربط بين المرج واهالي ترشيحا ، حيث ترك كل فلاح منهم طابعه الخاص على قطعة ارضه · كانت كل قسيمة تعكس خصوصية مالكها · فاصبح المرج كله يعكس عمومية الاستيطان : بيوت موحدة المظهر ، وقسائم ارض ، كل منها نسخة طبق الاصل عن الاخرى · هكذا بدا المستوطنون في نظر فلاحي معليا ـ نماذج مكررة ·

وفي التقسيم العسكري الجديد للمنطقة ، اصبح الطريق العام ، المار في سفح التل الى الجنوب ، والذي كان يصل معليا بترشيحا ، هو الحد الفاصل بينها وبين معونة · وعليه فلاهالي معليا حق التجول الحر في بلدهم ، وحتى الجانب الشمالي من الطريق ، الذي يقترب من بيوت القرية المتطرفة الى مسافة تقل عن مائة متر · واجتياز الطريق يستلزم تصريحا عسكريا ، لا يمكن الحصول عليه دون العبور الى الطرف الثاني · وهذه جنحة ، قد يقدم فاعلوها الى المحكمة · وكان الحاكم العسكري ، الذي انيط به منح التصاريح ، قد

اتخذ له مقرا في مركز شرطة ترشيحا · والمهم في الامر ، ان جميع اراضي القرية ، الواقعة على الجانب الآخر من الطريق ، صودرت ، وضمت الى موشاف معونة ·

اما حد معليا الغربي ، فاصبح ينتهي في منتصف الطريق تقريبا ، بينها وبين الكابري · اما بقية الاراضي ، فقد حظر فيها التجول ، وبالتالي فقد صودرت املاك الناس فيها · وكانت الشرطة العسكرية تقيم حاجزا عند مدخل الكابري ، تحتجز فيه من تجاوز الخط دون تصريح رسمي · وانتقلت الى الكابري جماعة ، كانت قد استوطنت « بيت هعرفا » ، شمالي البحر الميت ، واقامت فيها كيبوتس ، كان نصيبه من اراضي معليا ما وقع في جواره · والى الجنوب الغربي ، في وادي جعتون ، استولى كيبوتس يحيعام (جدين) على اراضي القرية هناك · ومن الشمال ، اتسع مجال معليا الحيوي ، فوصل الى وادي القرن ، وضم جميع الاراضي الوعرة في منحدرات الوادي · أما الاراضي الزراعية عبر الوادي ، فصارت من نصيب كل من كيبوتس ايلون ، وموشافي عبدة ، ويعره · ومن الشرق ، ظلت جسورنا مفتوحة على فسوطة · وازاء ما اصاب الناس جميعا ، حيث ذهب اكثر من نصف اراضيهم ، هانت علينا نحن مصيبتنا ·

لم يصدق الناس ما يجري امام عيونهم ، ولم يقتنعوا بجديته · اذ لم يستوعبوا امكانية انتزاع ملكية الارض من ايديهم · فهو في اعرافهم ، امر غير معقول · ولم يستسلموا للامر ، وحاولوا اختبار مدى جدية السلطة في تنفيذ قرارها · دخلوا المناطق المغلقة ، يتظاهرون البراءة ، وكأن امرا لم يكن ، وراحوا يمارسون اعمالهم الزراعية · وفوجئوا بالشرطة تقبض عليهم وتودعهم السجن ، ثم تقدمهم الى المحاكمة · لم توجيه اليهم تهم الاعتداء على املاك الغير او الدولة ، وانما سيقوا الى المحاكم بتهم امنية : تجاوز الاوامر العسكرية ، ودخول المناطق الحدودية المغلقة · وفرضت عليهم غرامات مالية ، واطلق سراحهم ، بعد ان تلقنوا درسا ،وتلقوا انذارات صريحة بانهم ان عادوا الى تجاوزاتهم ، فستضاعف عقوباتهم · وراحوا يقنعون انفسهم بان المسألة امنية فعلا ، وانها ستزول بزوال اسبابها · فعندما تنتهي الاحكام العسكرية ، وتستقر الامور ، تعود المياه الى مجاريها ، ويعود الفلاحون الى اراضيهم · وكانت قناعة شيوخ القرية لا تتزعزع : ملكية الارض اكثر ثباتا من اي حكم · فقد وعوا حكم الاتراك ، ثم رأوا حكومة الانتداب ، تأتي وتروح ، وهذه اسرائيل ، والدنيا دول ·

ومضت السنون ، وعاود الفلاحون محاولاتهم دخول الارض وفلاحتها ، فانتهوا كما في السابق ، الى السجون والمحاكم · وانتابهم القلق من تحول ما

كانوا يظنون امرا عابرا الى امر دائم · والاحكام العسكرية لا تلغى ، وانما تشتد وطأتها ، وتتصاعد الصرامة في تنفيذ بنودها · وسرت شائعات بان « الكيرن كاييمت » (الصندوق الدائم) ، يجري مفاوضات سرية مع بعض الملاكين ، من اجل شراء الارض منهم · ولا غرو فالصندوق اقيم اصلا لهذا الغرض ، وكان هذا نهجه منذ البداية ـ الطرق الملتوية · وما لبث ان ظهر الامر ، ووصل الى القرية احد موظفي الكيرن كاييميت الكبار ، يوسف نحماني · كان هذا صاحب تجربة طويلة في شراء الاراضي · وعلمت فيما بعد انه توفي · وقرأت مذكراته التي هي عبارة عن سلسلة طويلة ومتواصلة من تدابير صفقات الارض ، اللقاءات السرية مع سماسرتها · ليس في فلسطين فحسب ، وانما في الدول العربية المجاورة ايضا · وراح نحماني هذا يحاور الفلاحين وينورهم · كان يتكلم العربية بطلاقة ، ويأتي الى القرية برفقة الحاكم العسكري ، ليضفي على حضوره هيبة سلطة الاحتلال · بدأت المفاوضات على الاراضي البعيدة ، عندما أخذت الشكوك تساور الناس في امكان استعادتها · فقد رأي هؤلاء المستوطنين اليهود يفلحونها ، والسلطة تقيم عليها مستوطنات جديدة · وقاوم الفلاحون الترغيب والترهيب في البداية · وشدوا من ازر بعضهم بتماسكم · ولكن عقدهم بدأ في النهاية ينفرط ·

قصة مُعليا مع الاحتلال الصهيوني ، هي قصة الارض · وهذا ينطبق على جميع القرى العربية الاخرى ، التي ظل اهلها فيها · عايشت المشكلة حتى عام ١٩٦٢ ، عندما سافرت لاستكمال دراستي في امريكا · وعدت الى القرية ، لزيارة قصيرة ، في صيف ١٩٦٥ بشبب مرض والدي · وبقيت في البيت اسبوعين ، توافد الناس فيهما عليه ، للترحيب بي ولزيارة والدي · فأصبح ملتقى لاهالي القرية ، وندوة لمناقشة المشكلات ، والحديث الدائم هو الارض ، ودعاويها ، ومحاكماتها الصورية · وكانت السلطة قد قطعت شوطا بعيدا في نهبها لاراضي القرية · وتروض الناس ، ولجأوا الى التقاضي مع السلطة في محاكمها ، وحسب قوانينها · وعدت الى القرية ، لفترة وجيزة اخرى ، في صيف ١٩٦٨ · وكان ذلك آخر عهدي بوالدي ، الذي توفي بعد فترة قصيرة · وكان الموضوع اياه · فقصص الارض لا نهاية لها · وفنون السلطة في نهبها لا حصر لها · قوانين تستصدر ، وذرائع تتخذ ، واساليب ملتوية تمارس على الفلاحين ، وكلها بهدف واحد : نزع ملكيتهم للارض · وفي احدى الجلسات التي حضرها عدد من وجوه القرية ، سئلت ـ كوني قد خرجت الى العالم الكبير ، ولا بد عرفت خفاياه ، او هكذا ظنوا ـ عن مصير ارشيفات حكومة الانتداب · اليس هناك نسخة عن اوراقها في قبرص ؟ فكر الفلاحون في ارسال وفد الى قبرص ، وحتى الى بريطانيا اذا لزم الامر ، لاستخراج قيود تثبت ملكيتهم للارض · وعرفت انهم قد اعيوا ، ولم تعد لديهم حيلة على مناورات

الدولة الاستطانية · وقال احدهم بسخرية لاذعة : « اذا كانت الدولة لا تعترف بوجودكم ، فهل تعترف باوراقكم ؟ ما لكم ولهذا ، فانتم حاضرون ـ غائبون » ·

وأنتهى النقاش ·

وتعلم فلاحو معليا ، اسوة بغيرهم ، الربط بين قضيتهم الاولى : الارض ، والسياسة · والسياسة تعني قضية فلسطين · لقد قاتلوا دفاعا عن ارضهم ، وخسروا المعركة · لكن الحرب لا تزال مستمرة · الدول العربية لم تعترف باسرائيل ، وانما هي هدنة ·والمشهد الجاري امامهم ، ليس الا فصلا قصيرا لن يلبث ان يأتي على نهايته · والوضع الراهن لن يستتب · لا بد من حل للقضية · فهي ما تزال على جدول اعمال الامم المتحدة · وفي اسوأ الاحوال ، سيعودون الى قرار التقسيم ،ويعود الجليل عربيا ، ويعودون هم الى اراضيهم· ربما كان ذلك هو السبب في ان سلطات الاحتلال لم تطردهم ، كما فعلت بغيرهم وعليه فلا داعي لقطع الامل ، والتصرف على هذا الاساس · وقامت الثورة المصرية ، وبرز عبد الناصر · فرأوا في كل خطوة يقوم بها نصرا لهم · امم القناة ، وكسر حصار السلاح ، وهذا كسب لهم · وتوجهت الانظار اليه · ولم تثنهم حرب السويس عن قناعتهم · ثم جاءت الوحدة مع سوريا ، فتأكدوا ان الكيان الصهيوني قد وقع بين فكي الكماشة · وبدأوا يجاهرون بتحديهم لسياسة الكيان · وجاء الانفصال فخيب امالهم ، وانكفأوا على انفسهم · وظل الصراع قائما · يفتر عند انحسار الحركة القومية ، وينشط عند مدها ·وقامت الثورة الفلسطينية · واكتسب الصراع على الارض بعدا آخر · لم تعد وسيلة انتاج فحسب ، وانما رمز الانتماء القومي ايضا · على هذه الارضية وصل الصراع ذروته في يوم الارض ، عام ١٩٧٦ ، في الصدام الدموي العنيف ، بين القرويين العرب وسلطات الاحتلال الصهيوني ·

لم يكن لي شرف المشاركة الفعالة في هذا الصراع · فقد رحلت عن القرية في صيف ١٩٦٢ ، الى امريكا · ولفترة طويلة ، حتى عام ١٩٦٨ ، اقتصر اهتمامي بالقضية على متابعة اخبارها · والى حين سفري ، تركز نشاطي على تدبر امر املاكنا الخاصة · وضاع اكثر من نصفها · وفي نهاية الخمسينات جاءت الضربة الكبرى · فقد كانت لنا ارض واسعة فيوادي القرن · عمرها اجدادي وبنوا فيها طواحين الماء ، وزرعوا البساتين · فعرفت باسمهم : الشوفانية · وفي الاربعينات ، اولاها والدي اهتماما خاصا ، وبدأ يستصلحها ويغرس فيها اشجار الفاكهة · ولكن مشروعه لم يكتمل بسبب الحرب · وبعد عودته في عام ١٩٥٥ ، ضمن قانون جمع شمل العائلات ، راح يوسع مشروعه · وما كاد الشجر يثمر ، حتى عمدت الحكومة الى حصر مياه الوادي ، وضخها الى المستوطنات اليهودية الجديدة في الجليل الاعلى الغربي · فتوقفت

الطواحين بطبيعة الحال ، ثم جفت الاشجار وماتت · ولم تحصل معليا من ذلك المشروع حتى على ماء للشرب ، الا بعد سنين · فكنا نرى مياهنا تروي حقول المستوطنين اليهود وحدائقهم ، وهي علينا حرام ·ومع ذلك ، ومن اجل المشروع، ولضرورات مد الانابيب وتمهيد الطريق ، صودر معظم اراضينا في الوادي · واقمنا دعوى على « شركة مياه اسرائيل » (مكوروث) ، وطالبنا بالتعويض عن الاضرار التي لحقت بنا · وكانت تلك عملية مضنية من تقديم الطلبات والاتصالات بمكاتب الشركة ، والانتظار الطويل على ابواب موظفي الدولة ، ولم يكن لوالدي جلد عليها · فتوليت انا متابعتها ، وتعلمت منها الشيء الكثير عن الكيان الاستيطاني · وبعد ان تأكد لي ان المسألة اصبحت فيحكم المنتهية ، وصدر الحكم بتخصيص كمية من الماء لري ارضنا في الوادي ، سافرت · وعاد اخوتي لاحياء المشروع ، واستصلاح الارض · وكان آخر عهدي بالوادي الجميل ، ذي المياه العذبة الوافرة ، والاشجار الوارفة الظلال ، ذلك المجرى الجاف ، تصلي حجارته الملساء اشعة الشمس ، وقد كشح لونها ، واشجار الدلب الباسقة وقد ذوت على ضفافه وماتت ، وبستان كئيب ، ينتظر الفرج · وقد انعكس كل ذلك على نفسية والدي وصحته ، فلم يعمر بعدها طويلا ·

٣ ـ وتحول الفلاحون الى عمال مأجورين

عندما وقعت مياه معليا تحت الاحتلال ، كانت السيولة النقدية شبه معدومة فيها ، اذ لم يبع الفلاحون مواسمهم خلال السنتين الماضيتين ، وعندما جاء القيم على املاك الغائبين ، وعرض عليهم عملا مأجورا في نهب بيوت القرى المهجورة المجاورة ، لم يستطع عدد منهم مقاومة الاغراء · فكان ذلك ، على الصعيد الاقتصادي ، بداية عهد جديد ، عهد الانتقال من الفلاحة الى العمالة · اما على الصعيد الاخلاقي ، فقد آذن بانقلاب في قيم الناس واعرافهم · لقد عاشت معليا في وئام مع ترشيحا سنين طويلة · فتعارف الناس فيها وتزاوروا· وعندما واجه المعليون مسألة نهب بيوت جيرانهم ، انقسموا على انفسهم · فمنهم من تذرع بالموضوعية ، وطرح كون المسألة لا علاقة لها بالعواطف : الناس بحاجة الى سيولة ، وان لم يقوموا هم بالعمل ، فسيأتي غيرهم لادائه ، وفي القرى الدرزية المجاورة وفرة من العمال · وتمسك آخرون بمبادئهم واخلاقياتهم ، وناقشوا المسألة من الناحية الذاتية ، وما عساه يكون اثر ذلكعلى العمال انفسهم ، وبالتالي على العلاقات الاجتماعية التي سادت في القرية · اما عقلاء البلد ووجوهها فكان همهم الا يساء الى اهالي ترشيحا ، لقناعتهم بان هؤلاء عائدون لا محالة ، ان عاجلا او آجلا ·

وعلى اي حال ، نهبت ترشيحا ، وكذلك القرى الاخرى المجاورة ، ممن نزح عنها اهلها · نهبها القيم على املاك الغائبين · وكانت بامرة هذا الاخير فصائل

من جيش الاحتلال ـ قوات مسلحة من الدرجة الثالثة ، مهمتها حراسة المناطق بعد ان تحتلها القوات المحاربة ـ وكان افراد هذا الجيش يقودون مجموعات من العمال العرب ، تجوب البيوت ، وتحمل كل ما تجده فيها من متاع ومؤن الخ ... ، وتجمعه في مراكز محددة ، لينقل بعدها الى مستودعات الدولة ، حيث يتم التصرف به • واصبح هذا النهب حديث القرية • فلكل عامل يعود في المساء ، بعد أن يجري تفتيشه بدقة، لئلا تكون قد حمل معه شيئا ، قصة طريفة عن يوم عمله • والطرائف متنوعة ، كثير منها عن المآسي التي شاهدوها في البيوت المقتحمة • وتبين لي ان اهالي ترشيحا بمعظمهم ، قد تركوا بيوتهم على عجل ، ولم يأخذوا منها الا ما خف حمله • والبلد كبير والقصص كثيرة • والظاهر ان الناس ظنوها غيبة قصيرة ، يعودون بعدها الى بيوتهم • وخافوا السرقة • فخبأوا بعض امتعتهم في زوايا بيوتهم ودهاليزها • ولكن اعوان القيم اكتشفوها ونبشوها ونظفوها • ولما انتهوا من نهب اثاث البيوت ، تحولوا الى كروم الزيتون ، فجمعوا محصوله لحساب القيم • وكان اهالي ترشيحا ، عندما احتل بلدهم ، قد جمعوا موسم تبغهم • فاشترت شركة السجاير ، « دوبك » ، الموسم من القيم ، واستأجرت عمالا من معليا لرزمه وشحنه • واستغرق ذلك عدة اشهر ، فترشيحا معروفة بزراعتها الواسعة • وهكذا شكل نهب ترشيحا نقطة تحول في حياة فلاحي معليا • وتطور الامر فيما بعد حتى اصبح السمة البارزة لعلاقة هؤلاء بالاستيطان الصهيوني • تحول الفلاحون عن الزراعة الى العمالة المأجورة •

وفي بداية صيف ١٩٤٩ ، قررت دائرة الاشغال العامة رصف الطريق المؤدي الى كيبوتس يحيعام (جدين) وتعبيده ، وكان مستوطنو الكيبوتس لا يزالون يعيشون في القلعة الصليبية القائمة هناك • وقد تعرضت القلعة بمن فيها ، في بداية عام ١٩٤٨ ، لهجوم كبير ، ثم لحصار طويل ، ومن اجل اغاثتهم ، وقعت « معركة الكابري » ، في نهاية شهر اذار (مارس) ١٩٤٨ • وتوجهت قافلة كبيرة ، من التموين والامدادات العسكرية ، من نهاريا شرقا باتجاه يحيعام • ونصب لها جيش الانقاذ ، بمشاركة الميليشيات من القرى المجاورة ، كمينا عند الكابري • وجرت معركة عنيفة ، ابيدت فيها القافلة عن آخرها ، وقتل قائدها، بن ـ عامي • وبعد شهرين تقريبا ، قامت الهاغاناه بعملية « بن ـ عامي » ، على اسم قائد القافلة الى يحيعام ، والتي اسفرت عن احتلال سهل عكا والجليل الغربي الى حدود معليا • وبقيت هذه على خط التماس الى نهاية شهر تشرين اول (اكتوبر) ١٩٤٨ • وسقطت في عملية « حيرام » ، التي اطبقت على ما تبقى من الجليلين ، الاعلى والاسفل ، في ايدي جيش الانقاذ ، بقيادة فوزي القاوقجي • وفي تلك الحملة ، اغار بعض الطائرات على ترشيحا ، وقصفها ، فتهدمت بيوت عديدة في مركز البلد • ومن اجل رصف الطريق الى يحيعام ،

نقلت حجارة بيوت ترشيحا المهدمة · واجهزت دائرة الاشغال على البيـــوت القديمة فيها ، وهدمتها · وقد جندت تلك الدائرة العمال من القرى العربية ، بما فيها معليا · وبانتهاء تعبيد طريق يحيعام ، اصبحت في معليا فئة متفرغـة للعمل المأجور تماما · وراحت حلقة هؤلاء تتسع مع الوقت ·

ومنذ بداية الخمسينات ، اخذت موجات الهجرة الكبيرة تصل الى الكيـــان الصهيوني · وتضاعف عدد المستوطنين فيه خلال سنوات قليلة · واستوعب هؤلاء المهاجرون في مجمعات مؤقتة ، عرفت باســـم « معبروت » · ونشطت دائرة الاستيعاب في الوكالة اليهودية في بناء المساكن للقادمين الجدد · فشهد الكيان حركة بناء واسعة ، كان العمال العرب اداتهـــا الاساسية · وانغمس فلاحو معليا ، اسوة بغيرهم من اهالي القرى العربية الاخرى ، في اعمـــال البناء السوداء · وسرعان ما اكتسبوا مهارات مختلفة ،واصبحوا مقاولين ، يستأجرون غيرهم ، من ابناء قريتهم وسواها ، لانجاز اعمالهم · وتغير وجـه القرية ، واختلفت ساعات نومها وقيامها · فبدلا من ساعات الصباح الباكر ، والفلاحون على دوابهم الى حقولهم ، صاروا يتقاطرون بعد طلوع الشمس الى محطة الباصات ، كل وجراب زاده على كتفه · ويعود هؤلاء عند العصر ، ولا هموم اخرى لديهم ، فيستريحون ويلهون ، في حين يظل الفلاحون ، خاصة في ايام الموسم ، يعملون حتى المساء ، وانتشرت ظاهرة العمالة ، وجذبت اعدادا اكبر من الفلاحين ، خاصة وان اجور العمال كانت تفوق مداخيـــل الفلاحين من زراعتهم · وزادت مصادرة الاراضي الطين بلة ، هذا الى جانب ان اسعار المنتوجات الزراعية العربية ، والتي حدد بيعها في اسواق معينة ، كانت ادنى من اسعار المنتوجات اليهودية ، بحجة ان مستوى حياة الفلاح اليهودي اعلى من مستوى حياة الفلاح العربي ، وبالتالي فالاول يحتاج الى دخل اكبر مـــن الثاني · وهكذا تضافرت اغراءات العمالة وتنظيم العمال في نقابات ، مـــن جهة ، ومصادرة الاراضي وتحديد اسعار المنتوجات العربية ، من جهة ثانية ، على صرف اعداد متزايدة من الفلاحين عن الزراعة ، ودفعهم نحو العمالة ، خاصة في فروع البناء ، والاعمال السوداء الاخرى · وبينما كان الفلاحـــون يشكلون حوالي ثلاثة ارباع العرب الباقين في الكيان عند قيامه ، فانهم اليـوم (١٩٧٨) لا يكادون يصلون الى الربع · وقد شهدت المناطق المحتلة عـــام ١٩٦٧ الظاهرة نفسها ·

وقسمت « ادارة اراضي ــ اسرائيل » سهل الزيب الساحلي بين المستوطنات اليهودية في الجليل الغربي · فنال كل من كيبوتس حانيتا ، روش هانكراه ، غيشر هازيف ، ماتسوبا ، ايلون ، والكابري ، سهما من ذلك السهل · فغرسوه باشجار الموز ، وجروا اليه مياه نبع البردويل ، آخر ينابيع وادي القرن ، في طرفه الغربي · والنبع وجواره جزءان من اراضي معليا ، فصودرت هـــذه

جميعا · ومعلوم ان هذه الكيبوتسات قامت على مبدأ « العمـــل العبـري » الصهيوني ،الذي حمله مستوطنو الهجرة الثانية ، في بداية القرن · وكان من اهم اهدافه مقاطعة العمل العربي · ولكن هذه الكيبوتسات قضمت ، بعـــد قيام الكيان ، اكثر مما تستطيع مضغه ·ولكيلا تختنق ، تجاوزت مبادئهـــا التي غلفتها بالالفاظ الاشتراكية ، ففي تلك القرى التعاونية ، عاش المستوطنون فيمستوى حياة رفيع ، لا يتلاءم مع دخلهم من عملهم الذاتي · فكان لا بد لهم من استغلال عمل غيرهم · فوجدوا ضالتهم في القـــرى العربية ، وفـــي « المعبروت » ، بين اليهود الشرقيين · وقام عمال معليا الزراعيون بقسط وافر من العمل في بساتين الموز تلك · ولكنهم ظلوا بالاساس موسميين ، ودون تنظيم · ولما كان موسم العمل في السهل لا يتضارب مع الموســـم في معليا ، استطاع عدد من فلاحيها الاستمرار في زراعة ما تبقى لهم من حقول ، على ان يدعموا دخلهم منها ببعض العمل المأجور في السهـل ·وازداد الطلب علـــى العمال الموسميين ، فانقلبت الاية ، وصار عدد اكبر من الناس ، يعتمد اصـلا على العمالة ، يدعمها ببعض الزراعة · واهمل هؤلاء حقولهم في الاراضـــي الجبلية ، فاجتاحتها الاحراج ، وخرجت من دورتهم الزراعية · وبذلك اصبحت عرضة للمصادرة ، ضمن قانون جديد آخر ، ينزع ملكية الفلاحين العرب عن الاراضي الحرجية ، او شبهها · وزاد ذلك من توجه الفلاحين نحو العمالة · ودخلوا في حلقة مفرغة من هذا النمط ·

واقيمت في المنطقة عدة قرى زراعية يهودية، استوطنها مهاجرون شرقيون ، وحاولت الوكالة اليهودية ان توجههم الى زراعة التبغ ، التي كانت حكرا على الفلاحين العرب · ولكي تشجعهم على ذلك ، قدمت لهم الوكالة دعما ماليـا ، يوازي ما تدفعه لهم شركات السجاير مقابل محصولهم · وبذلك تضاعف ثمن منتوج المستوطنين اليهود من التبغ ، بالمقارنة مع ما يحصل عليه الفلاح العربي· وقيل في حينه ، ان هذا الدعم انما يأتي منالوكالة اليهوديـــة ، وليس مـــن الحكومة · والوكالة يهودية ، ولا تعنى بغيرهم · وبالتالي فهي تقدم الدعـــم للمستوطنين اليهود ، دون السكان العرب ، لان الاموال التي تنفقهـا انما جمعت من اليهود ولليهود · ولكن هؤلاء المستوطنين لم يفلحوا في زراعة التبغ ، التي تتطلب جهدا كبيرا ومتواصلا · فعمدوا الى مشاركة بعض الفلاحين العـرب ، ممن لم يملكوا ارضا · فكان المستوطن اليهودي يقدم الارض ، يضمنها بثمـن رمزي من الكيرن كاييمت ، التي بحسب دستورها الاساسي ، لا تؤجـر الارض التي تحت تصرفها لغير اليهود · وبالمقابل يقدم الفلاح العربي العمل الشاق · ويقتسم الطرفان الموسم · فيبيعاليهودي موسمه الى شركة السجاير ، حسب القانون ، ويقبض الثمن الاول · ثم تقدم له الوكالة اليهودية مثل ذلك المبلـــغ تشجيعا · وقد حصل في معليا ، كما في غيرها من القرى المجاورة ، ان الارض

المزروعة شراكة ، كانت في السابق ملكا لنفس الفلاح العربي ، صادرتها منه سلطات الاحتلال وسلمتها الى الكيرن كاييمت ، فاصبحت وقفا على المستوطنين اليهود ، ينعمون بخيراتها دون عناء ٠

والواقع ان الاوضاع الاقتصادية ، وبالتالي الاجتماعية ، لتلك الشريحة من الفلاحين ، قد تغيرت بشكل ملحوظ ، بعد ان تحولوا الى عمال مأجورين ٠ وقد انعكس ذلك على مساكنهم وملابسهم ، ولم يلبث ان ظهر فعله في علاقاتهم الاجتماعية ايضا ٠ واخذت العصبية العشائرية تفتر بينهم ، ولاحت في افق القرية بوادر تكتلات طبقية وحزبية ، اخذت تحل محل الانتماءات الطائفية والحمائلية ٠ وبرز ذلك خلال اربع سنوات فقط ، في نتائج الانتخابات لدورتين متتاليتين للكنيست الثاني والثالث ، جرت في شهر تموز (يوليو) من عامي ١٩٥١ و ١٩٥٥ ، على التوالي ٠ اما الانتخابات للكنيست الاول ، كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ ، فقد جرت تحت صدمة الاحتلال ، ولم تعكس وضعا طبيعيا لدى الناخبين العرب ، الذين شاركوا فيها بشكل جزئي ٠ واتخذ التصويت في معليا ، كما في غيرها من القرى العربية ، طابعا عائليا صرفا في انتخابات عم ١٩٥١ ٠ وصوتت الحمائل على شكل كتل متماسكة ، كل منها لقائمة مختلفة ٠ ومن حاد عن الخط ، كان الشاذ وليس القاعدة ٠ وحازت القوائم العربية ، التي شكلتها الحكومة من الوجهاء التقليديين واعوان السلطة، على نسبة عالية من الاصوات ٠ اكثر من النصف ٠ اما الحزب الشيوعي فنال حوالي ١٥٪ من مجموع اصوات العرب ٠ ومن معليا ، لم يحصل هذا الحزب، حتى ولا على صوت واحد ٠ اما في عام ١٩٥٥ ، فقد تغير الوضع ،وافلت زمام الامور من ايدي المخاتير ورؤساء الحمائل ٠ ونالت القوائم العربية التقليدية حوالي ثلث الاصوات فقط ، رغم الضغوط الكبيرة ، وحتى التهديدات العلنية ، من قبل السلطة ٠ في حين فاز الحزب الشيوعي باكثر من ثلث الاصوات ، اي ٣٥٪ وتوزعت الاحزاب الاخرى ، على مختلف اهوائها ، الثلث الباقي ٠

وكان للعمالة دور اساسي في هذا التحول ٠ فمع تحسن اوضاعهم الاقتصادية ، وسع العمال هامش استقلالهم عن العشيرة ٠ وبابتعادهم عن الارض ، اهتز انتماؤهم الى الحمائل ٠ وباعتمادهم على العمل المأجور ، اصبحت عوامل اخرى كثيرة ، خارجة عن نطاق القرية ، تفعل في حياتهم ٠ ودخلت الاحزاب الصهيونية ، حتى الدينية منها ، وحيروت ، الى القرى العربية ٠ ولم يحدث كل ذلك عن وعي سياسي ، وانتماء حزبي ايديولوجي ، وانما جاء نتيجة طبيعية للمنحى الذي اخذته تطورات الوضع ، ولارتباط العمال العرب بالمشروع الاستيطاني الصهيوني ٠ فلما اصبح العمل المأجور ذا مردود اكبر على صاحبه من الزراعة ، صار نوعا من الامتياز ، حق منحه في ايدي اصحابه ٠ فاشترط هؤلاء على من يريد العمل في مستوطناتهم ، وهي تقوم

على اساس حزبي ، ان يدلي بصوته في الانتخابات الى الحزب الذي يعينونه ٠ وكان اكثر هؤلاء تزمتا في الموضوع ، حزب مبام الاشتراكي ، الذي لم يقبل للعمل في مستوطناته ومؤسساته ، الا من رشحه معتمدو الحزب في القرى العربية ٠ وهكذا دخلت الاحزاب الصهيونية القرى العربية عن طريق العمال ، الذي كانوا حتى وقت قريب ، في ادنى السلم الاجتماعي ٠ اما الوجوه التقليدية والشيوخ ورؤساء الحمائل ، فقد حافظوا على ارتباطهم بالقوائم العربية التقليدية ، التي يرعاها الحزب الحاكم ، مباي ٠ واصبح الحزبيون المحدثون من اصحاب الحل والعقد في القرية ، ودخلوا الى مجلسها المحلي ، وصار على شيوخها الاخذ برأيهم ٠ وقد واكب هذا الانقلاب الاجتماعي ارتباك سياسي ، اختلطت فيه الامور على الناس ، خاصة فيما يتعلق بالمسألة القومية٠ فقبل الاحتلال ، كانت الامور محسومة وواضحة ، اما بعده ، فقد لفها ضباب كثيف ٠

عبد القادر ياسين

البطالة في أوساط الطبقة العاملة العربية في فلسطين حتى نكبة ١٩٤٨

انعكس التطور الصناعي في فلسطين * على اوضاع الطبقة العاملة العربية الفلسطينية · حيث اتسمت اوضاع هذه الطبقة ، في تلك المرحلة ، بالبؤس والشقاء ، من البطالة ، وتدني الاجور ، وغياب التشريعات العمالية ، التي تحمي هذه الطبقة من الجور ، وتحفظ لها حقوقها لدى أصحاب العمل ·

تطور حجم وتركيب الطبقة العاملة

لقد تطور حجم الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ، من خلال التطور الصناعي في البلاد ·

فقد كان حجم هذه الطبقة قبيل الاحتلال البريطاني صغيرا ، بسبب ضعف الصناعة وبدائيتها · ثم اتسع حجمها مع التقدم النسبي للصناعة · ففي الوقت الذي كان فيه عدد العمال العرب في العام ١٩١٣ ، ١٦٠٣ ، نجده يقفز في العام ١٩٢٥ الى حوالي خمسة آلاف ، ويتضاعف في العام ١٩٤٨ الى نحو خمسين الفا ، وهو ما يبينه الجدول رقم (١) ·

---

* راجع مقالنا حول هذا الموضوع في العدد ٨٠ من « **شؤون فلسطينية** » ص ٨١ ـ٩٦ ·

جدول رقم (١)

تطور حجم عمال الصناعة العرب الفلسطينيين (١)

السنة	عدد العمال	السنة	عدد العمال	السنة	عدد العمال
١٩١٣	١ر٦٠٣	١٩٢٩	١١ر٠٠٠	١٩٣٩	٤ر١١٧
١٩٢٥	٥ر٠٠٠	١٩٣١	٢٤ر١٢٩	١٩٤٢	٨ر٨٠٤
١٩٢٦	٦ر٠٠٠	١٩٣٣	٢٠ر٠٠٠	١٩٤٣	٤٦ر٠٠٠
١٩٢٧	٧ر٥٠٠	١٩٣٤	٢٩ر٠٠٠	١٩٤٨	٥٠ر٠٠٠
١٩٢٨	٨ر٧٤٦	١٩٣٥	٣٣ر٠٠٠		

ويلاحظ من الجدول رقم (١) ان حجم الطبقة العاملة العربية الفلسطينية اخذ في الاتساع بمعدل مرتفع نسبيا ، بلغ نحو ١ر٠٠٠٪ في مدى اقل من ربع قرن. ولم يهبط هذا المعدل الا في العام ١٩٣٩ ، بتأثير الثورة المسلحة ، وما رافقها من تعطيل الاعمال .

ويوضح الجدول رقم (٢) التوزيع النسبي للسكان العرب على مختلف القطاعات الاقتصادية ، مقابل توزيع المستوطنين اليهود على القطاعات نفسها، خلال العام ١٩٣٠ .

جدول رقم (٢)

توزيع العاملين في المهن والحرف من السكان الحضر للعام ١٩٣٠ (٢)

نوع العمل	كل الطوائف	العرب	اليهود
الزراعة	٧ر٥٠٪	٧ ر٤٠٪	١ر١٥٪
الصناعة	٦ر١٤٪	٤٥ر١٧٪	٩ر٢٨٪
التجارة	٢ر١٥٪	٩ ر١٥٪	٩ر٢١٪
المهن	٧ر٣ ٪	٤٥ر٤ ٪	٠ر١٠٪
اعمال اخرى	٨ر١٥٪	٢١٪	١ر٢٤٪
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

كما يوضح الجدول رقم (٢) مدى ضآلة نسبة العاملين في الصناعة من عرب فلسطين ، اذ لم تصل الى خمسهم . وترجع ضآلة نسبة عمال الزراعة اليهود

اولا الى استعانة اصحاب المزارع اليهود بعمال عرب رخيصي الاجر ، وثانيا بسبب اتجاه غالبية الوافدين اليهود من الخارج الى المدن ونفورهم من الريف ومن العمل في الزراعة ٠

ويرجع تقرير اللجنة الملكية البريطانية التي جاءت للتحقيق في اسباب نشوب ثورة ١٩٣٦ ، اتساع حجم العمال اليهود الى أن عدد اليهود الذين يمكنهم امتهان الزراعة لا يمكن ان يتجاوز حدا معينا ، ولذلك كان الاهتمام موجها ، في الاساس ، نحو الصناعة وما يتصل بها من حاجة الى العمال والمهاجرين ، بدلا من توجيهه الى سير الزراعة البطيء (٣) ٠

وجاء تركيب العمال العرب ، في العامين ١٩٣١ و ١٩٤٥ ، على الوجه الذي يوضحه الجدول رقم (٣) ٠

جدول رقم (٣)

توزيع العمال العرب في العامين١٩٣١ و ١٩٤٥ (٤)

القطاع	١٩٣١		١٩٤٥	
	عدد الاشخاص (بالآلاف)	النسبة	عدد الاشخاص (بالآلاف)	النسبة
الصناعة والحرف	١٨ر٨٠٠	٪ ١٩ر٠٢	١٩	٪ ١٢
البناء	٧ر٠٠٠	٪ ٧ر٠٨	٢٠	٪ ١٤
المدينون في الدفاع	—	—	٢٠	٪ ١٤
الفرق الفلسطينية	—	—	٣	٪ ٢
المواصلات والانباء	١٢ر٧٠٠	٪ ١٢ر٨٥	١٤	٪ ١٠
تجارة وخدمات	١٦ر٨٠٠	٪ ١٧ر٠٠	٣١	٪ ٢٠
الحكومة والبلديات	١٢ر٥٠٠	٪ ١٢ر٦٥	٣٢	٪ ٢٢
غير مصنف	٣١ر٠٠٠	٪ ٣١ر٣٨	١٢	٪ ٨
المجموع	٩٨ر٨٠٠	٪١٠٠	١٥١	٪١٠٠

ويلاحظ ان الجدول رقم (٣) حوى عمالا لا تنطبق عليهم صفة العمال الصناعيين ، كعمال التجارة والخدمات والعمال الحكوميين وعمال البلديات والحرف ٠ كما يلاحظ ضيق دائرة عمال الصناعة ٠ والاستنتاج الثالث ان العمل في شؤون الدفاع والفرق الحربية استجد في الاربعينات بفعل الحرب العالمية

الثانية ، وما رافقها من التوسع في اقامة معسكرات حربية بريطانية في فلسطين· والاستنتاج الاخير هو أنه بالرغم من اتساع عدد العمال الا أن نسب توزيعهم حافظت على معدلاتها تقريبا ، طوال اربع عشرة سنة ·

حركة البطالة

لم يحل توسع فروع متعددة للورش والصناعة اليدوية ، اواخر العهد التركي دون تردي احوال العمال العرب ، حيث فقد كثير منهم ومن الحرفيين اماكن عملهم ، وانضموا الى جيش العاطلين عن العمل ، وساء بذلك ، اكثر فاكثر ، الوضع الاجتماعي للعاملين · وزادت الامر سوءا تلك المحاولات الدؤوبة لتخفيض اجور العمال الى اقصى حد ممكن · وكان يوم العمل يمتد من طلوع الشمس الى مغيبها ، عدا ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، تبعا لازدياد مجمل الاسعار بنسبة ٥٠٪ في العام ١٩١٢ ، عما كانت عليه في العام ١٩٠٠ (٥) · فالآلات التي أدخلت الى فلسطين ضيقت دائرة العمل الحي ، وان وسعت حجم الانتاج · **على ان معدل الزيادة في الانتاج كان ادنى من معدل ازاحة الآلات للعمال ، كما أن توسع الانتاج جرى بشكل غير متساو** ، حيث توسع انتاج معين او استخدمت بعض القطاعات عمالا جددا ، في حين انكمش البعض الآخر، وقذف بالعمال الى رصيف البطالة · وامد التدفق الهائل للهجرة من الريف الى المدينة جيش العاطلين باعداد جديدة · كما أخفق عديد من الحرفيين وصغار التجار واصحاب الورش الصغيرة في منافسة المصانع الكبيرة ، وطحنتهم الضرائب والغلاء ، فأفلسوا ، وانخرطوا ضمن صفوف العاطلين ·

وترى الوكالة اليهودية ان البطالة تولدت في فلسطين مع الاحتكاك ، اي من خلال عبور الناس من عمل الى آخر (٦):

على أن الناس كانوا ، في العهد التركي ، في راحة وهناء نسبيين ، فالمساكن متوفرة ، رخيصة الاجور ، وكذلك اسعار الحاجيات ، اذ كانت رخيصة ومتوفرة للجميع · وكان قاضي المسلمين بالقدس هو الذي يحدد الاسعار · ورأيناه يحدد، في العام ١٨٦٢ ، ٤٨ بارة للرطل الواحد من زيت الزيتون الممتاز ، و ٦٥ للسمن العناني ، و ٨ بارات للحم البقري ، و ٤ بارات للكنافة المخروطة ، ومثلها للقطايف و ٦ بارات للدقيق · وبيع رأس الغنم الواحد بقرش ونصف القرش · وبيعت دار في حارة الواد بالقدس بعشرين قرشا · كما بيعت دار مثلها في حارة النصارى بمثل هذا الثمن ، واشتملت هذه على اربع غرف وساحة وصهريج · وبيعت دار مؤلفة من طابقين ، بباب العمود في القدس ، بثلاثين قرشا ، وفي باب حطه بخمسة وسبعين قرشا ، وذلك في العام ١٨١٦ ، وبالرغم من انخفاض اسعار المعيشة ، الا انه كانت ثمة طبقة من الفقراء تعيش على الصدقات · ولهذا

كثيرا ما سمعناهم يتحدثون عن « **الصرة** » التي كانت ترسل من دار الخلافة العثمانية في استانبول ، وهي عبارة عن مبلغ من المال يوزع لا على الفقراء فحسب ، بل على خدام الحرم وعلى المشايخ والعلماء · وكان المسيحيون الارثوذكس يتلقون مثل هذا العون من روسيا القيصرية ومن الدول المسيحية في اوربا الشرقية ، واللاتين من قداسة البابا والدول الكاثوليكية (٧) · في حين كان اليهود والاشكناز في فلسطين يتلقون هبات خارجية من أموال الـ «**حلوكاه**» (٨) ·

وما أن نشبت الحرب العالمية الاولى حتى أصيب عرب فلسطين ونكبوا ،وبرح بديارهم المرض والجوع (٩) · وتدهور الوضع المالي للعمال ، بشكل ملموس في السنوات التالية للحرب مباشرة ، فالاسعار تضاعفت عما كانت عليه قبل الحرب ، مما جعل الاجور الفعلية دونها قبل الحرب بكثير · فتقلصت الاجور الفعلية للعمال الفنيين ، كما انخفض مؤشر الاجور الفعلية في معظم الصناعات· أما فيما يتعلق بالعمال المياومين ، اي الاغلبية الساحقة من العمال العرب الفلسطينيين ، فان انخفاض اجورهم كان اشد حدة · **وادى ذلك التدهور المالي الى تعميق الصراع الطبقي** · وان انصب سخط العمال على النظام الاستعماري والحركة الصهيونية ·

واحتلت مشكلة العمال المهاجرين موقعا بارزا داخل الحركة العمالية الفلسطينية · وارتبطت احوال هؤلاء العمال ومصائرهم ، ارتباطا مباشرا . بالتطور الرأسمالي · واستفحلت ازمتهم مع كل ازمة اقتصادية ، بما تسببه من ضغوط على ظروف معيشة وعمل الطبقات العاملة وجماهير الكادحين ·

ومع التطور الصناعي في البلاد ، عقب الاحتلال البريطاني ، تسارعت معدلات نمو الطبقة البرجوازية · وتطلب هذا النمو مزيدا من الخدمات والمواصلات ، والانتاج الكبير ، ومعدلات عالية من الانتاج ، للصمود في وجه المنافسة الاستعمارية ـ الصهيونية الضارية · ولم تتم هذه الامور كلها بدون وارد كبير من الايدي العاملة الرخيصة · ومن ثم **فان الهجرة من الريف الى المدينة فرضها قانون الرأسمالية الاساسي : الحد الاقصى من الارباح** ·

وساهمت هذه الهجرة ـ الى حد كبير ـ في دفع عجلة الاقتصاد الجديد · كما منحت هذاالاقتصاد قدرا اكبر من المرونة ، بسبب سهولة تحريك وانتقال هؤلاء العمال من مؤسسة الى اخرى ·

ومعروف بان اليد العاملة المهاجرة تتكون ، اساسا ، من شبان اصحاء ، يقتحمون سوق العمل ، مما يجعلهم منتجين ومستهلكين ، في آن ·

وبسبب عمق ازمتهم ، وتردي وعيهم النقابي ، انطلقوا للتفتيش عن اي عمل لقاء اي اجر · مما جعلهم يعرضون قوة عملهم مقابل اي اجر مهما هبط ، وضمن

تصنيف ظالم وسوق عمل سوداء (بلا التزامات قانونية) ٠

واغلب هؤلاء العمال لم يسبق اعدادهم مهنيا ، مما جعل اصحاب العمل يعاملونهم كعمال مؤقتين ، بمستوى متدني جداً من الاجور ، وحرمان من مزية الاقدمية ، وغيرها ٠

وبهذا ، يجني اصحاب العمل من هؤلاء العمال المهاجرين فائدة مزدوجة : فمن ناحية يكسبون يدا عاملة ارخص ، ويتسلحون بسلاح يشهرونه في وجه العمال في مسألة الاجور ٠

وينجح اصحاب العمل ، بهذا ، في شق صفوف الطبقة العاملة ، وتسعير المنافسة والخصومة بين العمال ٠

وتقاضى العمال المهاجرون ادنى الاجور ، واضطرهم اصحاب العمل الى الحياة في اتعس الاوضاع الاجتماعية ٠ واول ما يصادفهم : مشكلة السكن ٠ اذ اصبحت سكنى المهاجرين موضع مضاربة للسماسرة واصحاب البيوت ٠ وغدا السكن مجالا للتمييز بين القرية والمدينة فسوء الحالة الاقتصادية لهؤلاء العمال حال دون تمكنهم من شراء مساكن ، كما مارس السماسرة والملاك تمييزا آخر ضد هؤلاء المهاجرين ، بمنعهم من دخول بعض العمارات ٠

ولا يبقى الا الاكواخ القديمة المبنية ، في اغلبها ، من صفائح الزيت الصدئة، والتي تؤجر للمهاجرين لقاء ايجارات مرتفعة نسبيا ٠ وحتى الاربعينيات كان أغلب العمال يعيشون في غرف قذرة ، يستهلك ايجارها نحو ٤٠٪ من اجورهم (١٠) ٠

وأدى انشاء صناعات يهودية الى فرض رسوم جمركية لحماية تلك الصناعات، والى ارتفاع اسعار المواد الاستهلاكية بالتالي ، وبسبب الزيادة المضطردة في عدد السكان ازدادت تكاليف المعيشة ارتفاعا ، في المدن والقرى على السواء (١١) ٠ وكان طبيعيا ان يقع العبء الرئيسي لهذا الغلاء على كاهل الطبقات الكادحة ومنها العمال ٠

وكان متوسط الاجر اليومي للعامل العربي في فلسطين، في العام ١٩٣٤، ٢٢٠ ملا فلسطينيا ، مقابل ٤٤٠ ملا للعامل اليهودي ٠ هذا في حين بلغ متوسط الاجر اليومي للعامل في سوريا ١٨٠ ملا ، وفي لبنان ١٤٠ ملا ، وفي العراق ٥٠ ملا (١٢) ٠ أما متوسط دخل الفلسطيني السنوي (اليهود والعرب) فبلغ في الثلاثينيات ، زهاء ٢٦ جنيها فلسطينيا ، مقابل ٤ جنيهات في الهند ، و ١٢ في مصر ، و ٢٠ في تركيا ، ومن ٨٠ ـ ١٢٠ جنيها في البلاد الغربية الصناعية (١٣) ٠

ولعل من نافل القول بأن نصيب العرب كان دون متوسط دخل الفرد اليهودي ، ولعل الشاعر الفلسطيني ، مطلق عبد الخالق ، نجح في تلخيص حالة العمال العرب ، حين قال :

بؤساء الدهر يا قوم العبيد يا ضحايا الجوع والموت الزؤام

اما الشاعر الثائر ، عبد الرحيم محمود ، فأراد ان يجعل من هذا الشقاء محركا للعامل كي يثور ، فخاطبه :

هذي القصور وأنت رافع سمكها ، هل هن لك ؟!

والدوح أنت زرعته ، هل ظللك ؟!

الحسن انت صنعته ، لكن سواك له ملك

لا تأس ، فالدنيا تعد اليك ان دار الفلك

وكانت الاكثرية الساحقة من عمال البلاد تجهل القراءة والكتابة ، ولا تعرف من أمر نفسها الا ما يقوله الاخرون عنها (١٤) ٠

وقال تقرير رسمي بريطاني ، في العام ١٩٣٠ ، ان كثيرين من العمال العرب كانوا يتمتعون ، في السنوات القليلة السابقة على صدور هذا التقرير ، بقسط وافر من البحبوحة والرخاء ، وأن احوالهم ساءت في اواخر العشرينات (١٥)٠ حيث امتلأت المدن الفلسطينية بالعاطلين المنحدرين من أصول فلاحيه ومن حرفيين سابقين وعمال صناعة صغيرة (صابون ، حياكة ، وغيرها) ، التي وجه اليها المستعمرون والصهيونيون ضربة قاصمة وكان الآتون من الريف والبادية يخشون حياة المدينة ، وتنهك قواهم قبل الحصول على عمل خاصة في مجال الصناعة ٠ لذا سادت البطالة المقنعة ، وان لم تبرز كظاهرة اجتماعية ، بسبب غالبية اسر العمال في الريف ٠

واتسعت البطالة المقنعة بسبب اتساع حجم سكان الريف ، وانكماش حجم الاراضي العربية المزروعة ، بعد تزايد استيلاء الصهيونيين على الاراضي ، وبطء تطور الانتاج الصناعي ٠ كما اتسعت البطالة الفعلية ، بعد تدهور الصناعة الحرفية واليدوية ، وطرد العرب من المزارع والمعامل اليهودية ٠

وظل الانتداب والصهيونية واصحاب العمال حريصين على المحافظة على مستوى معين من البطالة ، في سبيل كبح جماح المطالب الخاصة بالاجور ٠وكان مراقبو العمل الحكوميون يستخدمون عددا من العمال لاسبوع او اثنين ، يستبدلون آخرين بهم ، تحت زعم تحقيق العدالة بين المواطنين ! وان كانوا ، في حقيقة الامر ، يحققون ثلاثة اهداف بتصرفهم هذا : فاولا ينجحون في جمع

المزيد من المرشاوي من اولئك الراغبين في العمل ، وثانيا ينشرون البطالة ، وثالثا يعرقلون الاعمال الزراعية (١٦) ٠

وفي اوساط المستوطنين اليهود ارتفع عدد العاطلين ، في ايار (مايو) ١٩٢٣، الى ٢٫٣٠٠ منهم ١٥٠ امرأة ٠ وترجع الزيادة في حجم البطالة لدى المستوطنين هنا الى اغلاق عديد من المشروعات الصناعية، والى انحسار نشاط البناء (١٧)٠

وحدثت أزمتا بطالة في فلسطين ، وقعت الاولى خلال العام ١٩٢٥ ، بداية الازمة الاقتصادية التي اجتاحت فلسطين لاربع سنوات ٠ فبلغت البطالة اليهودية وحدها ما لا يقل عن ٤٠ ٪ من مجموع العمال اليهود ، وكانت البطالة العربية بنسبة مماثلة ٠ وجاءت الازمة الثانية ، في العام ١٩٣٦ (بداية الثورة التي تحمل اسم العام المذكور) ، حين بلغ عدد العاطلين عن العمل في سبع مدن فقط، ٢١٪ من العمال العرب ، و ١٢٪ من العمال اليهود (١٨) ٠

وفي الربع الاخير من العام ١٩٢٥ حلت ضائقة اقتصادية ، انعكست على تحديد الديون واحدثت اثارا سيئة في سوق العمل ، كما تاثرت العمالة بسبب توقف عمليات البناء ٠ وبلغ عدد العاطلين من اليهود الذروة في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦ ، حين ارتفع في اسابيع قليلة الى ٤٫٦٠٠ عاطل ٠ وفي منتصف نيسان (ابريل) من السنة نفسها انخفض هذا الرقم الى ٣٫٠٠٠ وظهرت علامات تحسن في سوق العمل (١٩) ٠وخلقت حكومة الانتداب اشغالا لنجدة المهاجرين اليهود ، وتجنيبهم البطالة (٢٠) ٠ وكان بعض اعضاء مجلس العموم البريطاني قد اشاروا ، في جلسة ١٩٢٧/٣/٢١ للمجلس ، الى وجود عمال متعطلين بدرجة كبيرة في فلسطين (٢١) ٠ وفي آخر آب (اغسطس) ١٩٢٧ ، بلغ عدد العمال اليهود العاطلين حسب سجلات اللجنة التنفيذية الصهيونية ، ٨٤٤٠ عاملا ٠ وحسب تقدير الحكومة ، كان نحو ١٫٦٠٠ عاطلا من العرب (٢٢) ٠

وخلال العامين ١٩٢٧ و ١٩٢٨ ، وتبعا لتقديرات حكومة الانتداب ، كان اغلب العاطلين من اليهود (٧٥٪ من مجموع العمال لسنة ١٩٢٧ ، و ٥٠٪ لسنة ١٩٢٨) (٢٣) ٠

وفي مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ ، اصدرت وزارة المستعمرات البريطانية بيانا ، يؤخذ منه ان عدد العاطلين عن العمل في فلسطين اخذ في التناقص ٠ وقدر البيان عدد العاطلين عن العمل ، في تشرين الاول (اكتوبر) (١٩٢٨ ، بنحو ١٫٤٠٠ يهودي و ٢٫٥٠٠ عربي ٠ كما اعلن المستر امري ، وزير المستعمرات البريطاني ، في جلسة ١٩٢٨/٢/٢٠ لمجلس العموم البريطاني ان ثمة الفي عامل عربي عاطلين عن العمل ، بالاضافة الى ستة آلاف وخمسمائة عامل يهودي (٢٤) ٠

وزاد معدل البطالة بين العمال العرب ، في العام ١٩٣٠ على معدل العام الذي سبقه ٠ وتأثر عمال المدن العرب بالضغوط السائدة ٠ وبحث فلاحون عرب عن عمل ، ليس فقط في الاماكن المحيطة بهم وانما ، ايضا ، في اماكن تبعد عن قراهم ، ووجدوا انفسهم عاجزين عن الاكتفاء بدخل ممتلكاتهم ، بسبب تدهور المحاصيل ، وانخفاض اثمان الانتاج الزراعي (٢٥) ٠

ويوضح الجدول رقم (٤) حجم البطالة في كل شهر من شهور العام ١٩٣٠٠

جدول رقم (٤)

البطالة في فلسطين خلال العام ١٩٣٠ (٢٦)

الشهر	غير اليهود	اليهود	المجموع
كانون الثاني (يناير)	٢ر٠٠٠	٢ر٨٥٠	٤ر٨٥٠
شباط (فبراير)	٢ر٤٠٠	٨٠٠	٣ر٢٠٠
آذار (مارس)	٢ر٣٠٠	٦٠٠	٢ر٩٠٠
نيسان (ابريل)	٢ر٢٠٠	٥٥٠	٢ر٧٥٠
ايار (مايو)	٢ر٢٠٠	٦٥٠	٢ر٨٥٠
حزيران (يونيو)	٢ر٦٠٠	١ر٣٠٠	٣ر٩٠٠
تموز (يوليو)	٣ر٦٠٠	١ر٣٠٠	٤ر٩٠٠
آب (اغسطس)	٣ر٣٠٠	١ر٠٠٠	٤ر٣٠٠
ايلول (سبتمبر)	٣ر٣٠٠	١ر٠٠٠	٤ر٣٠٠
تشرين الاول (اكتوبر)	٤ر٣٠٠	١ر١٥٠	٥ر٤٥٠
تشرين الثاني (نوفمبر)	٥ر٥٠٠	١ر٤٠٠	٦ر٩٠٠
كانون الاول (ديسمبر)	١٢ر٠٠٠	١ر٧٥٠	١٣ر٧٥٠

واكد جون سمبسون ، في تقريره عن فلسطين (تشرين الاول ١٩٣٠)، وجود بطالة بين العرب « خطرة وشائعة » (٢٧) ٠ وكان عدد العمال العرب العاطلين، في شهر صدور تقرير سمبسون المشار اليه ، قد بلغ ١٢ر٠٠٠ عامل (٢٨) ٠وفي نهاية العام ١٩٣٥ ، قفز عدد العاطلين من العمال العرب الفلسطينيين الى ٢٣ر٠٠٠ عامل عربي (٢٩) ٠

وفي المؤتمر الخامس « للاممية الحمراء » (١٩٣٠) القى مندوب الاقطار العربية الضوء على احوال العمال في مصر والعراق وفلسطين وسوريا ، واوضح مدى تأثرهم بالازمة الاقتصادية ، التي ابتدأت في العام ١٩٢٨ ٠ فذكر ان البروليتاريا في هذه البلاد زراعية على العموم ، اي تعمل في الزراعة ، مما

يجعلها شديدة التأثر بالازمة الزراعية · واثرت الازمة الزراعية ليس على الفلاحين فحسب ، بل ايضا على العمال · وكانت آثارها مضاعفة : فالفلاح الذي سرقت ارضه اضطر للهجرة الى المدينة ، وارتفعت بذلك نسبة العاطلين عن العمل في المدينة ، مما ادى الى انخفاض الاجور ، وازدياد احوال العمال سوءا · كما وجد العمال الزراعيون في وضع لا يحسدون عليه ، اذ تقلص العمل في حقول القطن الى درجة كبيرة ، ولحق الخراب بالفلاحين الصغار الذين يعملون من ثلاثة الى اربعة اشهر في حقولهم الصغيرة ، ويعملون ثمانية اشهر كعمال مأجورين في المدينة (٣٠) ·

وفي جلسة مجلس العموم البريطاني ليوم ١٩٣١/٣/٢٥ ، اعترف المستر شيلز ، وكيل وزارة المستعمرات البريطاني ، بوجود كثرة من العمال العرب العاطلين ، وان لم يحدد حجم هؤلاء العاطلين (٣١) · وذكر كنليف ليستر ، وكيل المستعمرات ، في جلسة ١٩٣٢/٤/١٤ لمجلس العموم وبريطاني ، ان حكومة الانتداب في فلسطين اتخذت الاجراءات الكفيلة بزيادة عدد العمال اليهود في الاشغال العمومية الحكومية (٣٣) وبذا أمكن تخفيف حدة البطالة في القطاع اليهودي · وفي جلسة مجلس العموم ليوم ١٩٣٤/٦/٢٧ ، اعلن ليستر ان عدد العمال العرب العاطلين بلغ حتى نهاية نيسان (ابريل) ١٩٣٤ اربعة آلاف عامل (٣٣) ·

ويوضح الجدول رقم (٥) حجم البطالة في صفوف العمال العرب ، ما بين العامين ١٩٣٢ و ١٩٣٦ ·

جدول رقم (٥)

حجم البطالة في صفوف العمال العرب (الزراعة والنقل) (٣٤)

سنة	العمال العاطلون	عمال زراعة	عمال نقل
١٩٣٢	٢٥ر٠٠٠	٢٢ر٥٠٠	٢ر٥٠٠
١٩٣٣	١٣ر٥٠٠	٦ر٤٠٠	٧ر١٠٠
١٩٣٤	١١ر٣٠٠	٩ر٠٠٠	٢ر٣٠٠
١٩٣٥	٩ر٠٠٠	٢ر٣٥٠	١ر١٥٠
١٩٣٦	١٥ر٠٠٠	٦ر٠٠٠	٣ر٠٠٠

ويتضح من الجدول رقم (٥) ان حجم البطالة لدى عمال النقل يتأثر ـ الى حد كبير ـ بالبطالة في قطاع الزراعة · كما ان البطالة في القطاعين اخذت في

الانحسار مع انتهاء الازمة الاقتصادية العالمية وان عادت الى الاتساع بعد نشوب ثورة ١٩٣٦ ، وما رافقها من توقف في الاعمال ٠

وفي اواخر العام ١٩٣٥ ، بلغ عدد العاطلين عن العمل في مدينة يافا وحدها ـ التي يبلغ عدد سكانها ٧١ الف نسمة ـ نحوا من ٢٢٧٠ عاملا وعاملة من العرب ، وارتفع هذا العدد ، بعد العام ١٩٣٦ ، الى اربعة آلاف (٣٥) ٠ وقدمت « جمعية العمال العرب » بيافا مذكرة الى المندوب السامي البريطاني في القدس، في السادس كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٥ ، احتجت فيها على الهجرة اليهودية الى فلسطين تلك التي تحوي اعدادا كبيرة من العمال ٠ واشارت الى زيف ارقام الهستدروت الخاصة بحجم البطالة بين العمال (عرب ويهود) ٠ وانتهت المذكرة الى ان قوة الاستيعاب في البلاد لا تسمح بدخول مهاجر واحد ، وقدرت المذكرة حجم العاطلين من العمال العرب بعدد ضخم جدا ، واشارت الى وجود نحو عشرين الف عامل عربي ، يتقاضى العامل منهم اجرا يقل عن ثلاثة جنيهات في الشهر الواحد ، مما يدل على اشتداد الازمة (٣٦) ٠ وعزا نقابي عربي فلسطيني البطالة والبؤس اللتين يعاني منهما العمال العرب الى : (٣٧)

ـ تدفق الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ـ نزوح القرويين الى المدن ، ـ طرد العمال العرب من الاعمال ، ـ سوء الحالة ، ـ تمييز الحكومة الشنيع للعمال اليهود ٠

ورأى النقابي نفسه انه « لو حميت الصناعة الوطنية من قبل الحكومة لكانت البطالة اقل » ٠

ومن الامثلة التي توضح مدى الارتباط بين العمل في الريف والعمل في المدينة ، ما حدث في قرية جمزو (قضاء الرملة) ، حين ارسل سكرتير جمعية القرية المذكورة بيانا عن البطالة في القرية ، الى مجلة عربية فلسطينية ، في ١١ نيسان (ابريل) ١٩٣٥ ، حدد فيه عدد العاطلين في قريته بمائة وخمسة وستين عاملا ، واشار الى ان مائة وعشرين منهم ذهبوا للمدن فلم يجدوا عملا ٠ ومعروف ان عدد سكان جمزو كان ، انذاك ، ١٢٢٥ نسمة (٣٨) ٠

وبسبب الضربات التي وجهها الاستعمار البريطاني والصهيونية الى الاقتصاد الوطني الفلسطيني اتسع حجم البطالة ، حتى وصل ، في العام ١٩٣٧ ، الى ٢١٫٠٠٠ عامل عربي ، و ١٢٫٠٠٠ عامل يهودي (٣٩) في حين لم يعترف اورمسبي غور ، وزير المستعمرات البريطاني ، في جلسة ١٩٣٧/١١/١٧ لمجلس العموم البريطاني ، سوى بوجود ١١٫٥٠٠ عامل عربي عاطل عن العمل ، حتى نهاية اذار (مارس) ١٩٣٧ (٤٠) ٠

وتوزعت الكتل الرئيسية للعاطلين العرب على الوجه التالي : يافا ٤٫٠٠٠ عامل ، حيفا ٤٫٥٠٠ ، قلقيلية ١٫٣٠٠ ، بيت لحم والناصرة ٧٥٪ من القوى

العاملة فيهما ٠ وكانت بطالة ٩٠٪ من العمال العرب جزئية ، اذ يشتغل العامل منهم يوما او يومين اسبوعيا في المدن الصغيرة والقرى ، وفي اكثر الصناعات العربية بالقدس ويافا ٠ كما كانت اشغال عمال البيارات موسمية (٤١) ٠

واشار الاحصاء الرسمي للعام ١٩٤١ الى ان العمال الفلسطينيين لا يعملون الا ٦٥ ـ ٧٠٪ من وقت العمل ٠ اي انهم يعانون من بطالة جزئية (٤٢) ٠

وهذا يعني ان حجم الطبقة العاملة ـ عربية ويهودية ـ اتسع اكثر من الضعف ، في مدى سبع سنين ٠ وغني عن القول بأن هذه الزيادة كانت بفعل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وما رافقها من اعتماد السلطات البريطانية على الصناعة المحلية ، من جهة ، ومن استيعاب المعسكرات البريطانية للمزيد من العمال المحليين ، من جهة اخرى ٠ كما ان التوسع في اقامة المصانع الجديدة لسد احتياجات القوات البريطانية المرابطة في فلسطين كان عاملا ثانيا لاتساع حجم الطبقة العاملة ٠ وقدر ما انفقته القوات المحاربة في الشرق الاوسط ، وجلها تابع للبريطانيين ، خلال الحرب العالمية الثانية ، بما مبلغه ٧٠٠ مليون جنيه ، ٣٠٠ مليون منها في مصر وحدها (٤٤) ٠

واكثر الجهات امتصاصا للعمالة ، في اعوام الحرب المذكورة ، كانت الجيش والاشغال العمومية وسكة الحديد والبريد والتلغراف ٠ ففي ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ ، كانت ١٤ مصلحة حكومية تشغل ١٠٣٫٤١٣ شخصا ، بينهم ٩٠٫٠٠٠ عامل عربي ، بالاضافة الى ٣٠٫٠٠٠ من العرب اشتغلوا في معسكرات الجيش ودوائر الحكومة للعمالة في فلسطين خلال سني الحرب ٠

جدول رقم (٦)
توزيع العمالة على مؤسسات الحكومة (٤٦)

الجهة	١٩٤٠	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥	النسبة ٪	نسبة الزيادة في العاملين بين ١٩٤٠ـ١٩٤٥
الجيش	٥٩٩٨	١٦٢٤١	٤٢٢٦٧	٤٧٢٦٥	٤٢٩٣٠	٣٥٥٤٩	٨٤	٤٩٢٫٥٪
الاشغال العمومية	٤٢٥٤	٧٢٤٨	٧١٨٨	٤٥٥٦	٣٢٥٦	٣٢٩٤	٧٫٥	٣٣ ٪
سكة الحديد	٢٢٠١	٢٩٩٨	٤٨٦٣	٣٦٢٠	٣٢٤١	٢٧٦٤	٦٫٢	٢٥٫٦ ٪
البرق والبريد والهاتف	٧٣٠	٨٦٩	١١١٦	١١٣٩	١٠٠٨	١١٤٢	٢٫٣	٥٦ ٪

وفيما بين العامين ١٩٣٨ و ١٩٤٠ حدث كساد في حركة البناء ، نجم عنه بطالة بين العاملين في ذلك القطاع ٠ وفي السنوات التالية وصلت البلاد الى مرحلة التشغيل الكامل ، حيث زاد الطلب على الايدي العاملة نتيجة لاحتياجات السلطات العسكرية المتزايدة للعمال ، وبسبب التوسع في الانتاج الصناعي المحلي الذي توسع لسد النقص في الواردات ، حتى اصبح ثمة نقص في الايدي العاملة ٠ وفي العام ١٩٤٤ انخفض عدد المشتغلين في معسكرات الجيش ، على

ان العمال الذين تم توفيرهم من هذه المعسكرات سرعان ما امتصتهم مجالات العمل الاخرى · وما كاد العام ١٩٤٥ يهل ، حتى عادت حركة البناء ، من جديد ، لتمتص الايدي العاملة في هذا المجال ، واصبح هناك عجز في اليد العاملة المختصة بصناعة البناء · وعين المندوب السامي ، في اب (اغسطس) ١٩٤٤ ، لجنة خاصة لتعاونه في ايجاد حل لمشكلة البطالة المتوقعة بعد انتهاء الحرب (٤٧) ·

وفي العام ١٩٤٤ كان حوالي ثلاثين الف عامل عربي عاطلين عن العمل ، واستمرت بطالتهم هذه لشهور عديدة (٤٨) ·

وعندما اقرت الامم المتحدة تقسيم فلسطين ، في ٢٩ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، انفجرت الصدامات الدامية بين العرب والمستوطنين اليهود ، وتعطل عدد كبير من العمال العرب ، اما لاغلاق محلات العمل ، او لتعذر وصولهم الى اماكن عملهم ، او لعدم تيسر الامن لهم اثناء العمل (٤٩) ·

وتمخضت الصدامات عن ما عرف بالنكبة الفلسطينية · وتغيرت ، مع هذه النكبة ، كلا ملامح اللوحة الطبقية في فلسطين ، تبعا لتغير اللوحة الجغرافية والسياسية · وتبعثرت الطبقة العاملة العربية الفلسطينية في ارجاء الوطن العربي ،لتبدأ مرحلة جديدة ، مغايرة لمراحل ما قبل النكبة ، بكل توابعها وملحقاتها ·

الحواشي

(١) سعيد حمادة · **النظام الاقتصادي في فلسطين** · بيروت ، الجامعة الاميركية ، ١٩٣٩ ، ص ٤١ ، ٣٧١ـ٣٧٢ ·

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢ ·
ظهر من احصاء اجرته اللجنة التنفيذية الصهيونية ، في شهر ايار (مايو) ١٩٢٨ ، للمستوطنين اليهود في فلسطين ، ان عددهم بلغ ١٤٩ر٠٠٠ نسمة ، منهم ١١٨ر٥٠٠ يسكنون المدن ، والباقي ، وهم نحو ٣٠ر٥٠٠ ، يسكنون الارياف· وبعبارة اخرى ، فان ٧٩ر٦٪ من يهود فلسطين كانوا ، انذاك ، يسكنون المدن ، و ٢٠ر٤٪ يسكنون الريف ، بالاضافة الى ان قسما غير قليل من سكان الريف اليهود لم **يتعاطى الزراعة** ، **بل هم من العمال او ممن** يتعاطون حرفا اخرى في المستوطنات ·

جون هوب سمبسون · **فلسطين ، تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران** ، القدس ، مطبعة دار الايتام السورية ، ١٩٣٠ ، ص ٢٢٤ ·

(٣) **تقرير اللجنة الملكية لفلسطين** · القدس ، ١٩٣٧ ، ص ٢١٨ ·

(٤) نبيل بدران · **التعليم والتحديث في فلسطين** ، الجزء الاول ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٦٨ ، ص ٢٣٣ ـ يوسف صايغ · **الاقتصاد الاسرائيلي** · بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٦٦ ، ص ٧٠ ·

(٥) دكتور عبد الله حفا · **الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥** دمشق ، دار دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ١٧ ·
(6) — Jewish Agency for Palestine;

Memorandum in Recoverlom in Palestine , Submitted to the UN–ESCOP. 1947 , P. 13 .

(٧) عارف العارف · **تاريخ القدس** · القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥١ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ·

(٨) عبد الحفيظ محارب · سياسة العمل العبري بين امس واليوم · **شؤون فلسطينية** ، العدد ٢٤ ، اب (اغسطس) ١٩٧٣ ، ص ١٣٣ ـ ١٦٠ ·

(٩) فرنسيس نيوتن · **خمسون عاما في فلسطين** ، ترجمة وديع البستاني ، بيروت ، مطابع صادر ريحاني ، ١٩٤٨ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ ·

(١٠) صادق سعد · **فلسطين بين مخالب الاستعمار** · القاهرة ، لجنة القاهرة للتأليف والنشر ، ١٩٤٧، ص ٥١ ·

(١١) جورج انطونيوس · **يقظة العرب** · ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد والدكتور احسان عباس ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ ، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦ ·

(١٢) نشرات الوكالة اليهودية · **اقتصاديات فلسطين بين العرب واليهود** · النشرة الثالثة ، ١٩٣٥ ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ·

(١٣) ٠ف٠ بونيه · **الدولة والتنظيم الاقتصادية في الشرق الاوسط** · ترجمة راشد البراوي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ ، ص ٣٣ ·

(١٤) نقابة العمال العامة في فلسطين· **العامل** · كراسة · تبحث في شؤون العمل والعمال . القدس ، مطبعة ملول ، ١٩٣١ ، ص ١٥ ·

(١٥) سمبسون ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩٤ ·

(١٦) مكتب العلاقات باتحاد العمال العرب · **تاريخ العمال العرب في فلسطين**· القاهرة ، د٠ت٠ ص ٤ ـ ٥ ·

(17) Public Record Office; 371 /45, *Monthly administerative report for May 1923*, p. 4.

(٢٠) سمبسون ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٦٩ ·

(21) Parliamentary Debates House of Commons, Vol. 204, p. 15. *Parl. Deb.*

(٢٢) لجنة التحقيق (شو) · **تقرير عن اضطرابات فلسطين التي وقعت في شهر اب (اغسطس)** ١٩٢٩ · ترجمة رسمية ، القدس ، مطبعة دير الروم ، ص ١٣٢ ·

(23) The National Council (Va'ad Leumi) of the Jews of Palestine. London, 1930, p. 49.

(24) *Parl. Deb.* , Vol. 213, p. 1190.

(25) Réport by His Majesty's government in the United Kingdom of great Britain and Northern Irland to the council of the League of Nations on the administrationof Palestine and Trans Jordan for the year 1930, London, 1931, p. 38.

(26) *Ibid*, p. 46, ·

(٢٧) سمبسون ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩٣ ·

(٢٨) عبد الوهاب الكيالي · **تاريخ فلسطين الحديث** · بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥٧ ·

(٢٩) . مذكرة جمعية العمال العربية (انظر : عيسى السفري · **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** · يافا ، ١٩٣٧ ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٢) ·

(٣٠) حنا · **مصدر سبق ذكره** ، ص ٩١ ـ ٩٢ ·

(31) *Parl. Deb.*, Vol. 256, p. 330.

(32) *Ibid*, Vol. 264, p. 994.

(33) *Ibid*, Vol. 291, p. 1129.

(٣٤) شهادة علي النجدي (انظر : محمد توفيق جانا · **الشهادات السياسية امام اللجنة الملكية في فلسطين** · دمشق ، ١٩٣٧ ، ص ٤٢٢) ·

(٣٥) . حمادة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥١ و ٥٥ ·

(٣٦) السفري ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣ ·

(٣٧) . جورج منصور من شهادته امام لجنة بيل (انظر : جانا ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٠٩) ·

(٣٨) . **الاقتصاديات العربية** (القدس)· العدد العاشر ، ١٩٣٥/٥/١٥ ·

(٣٩) . سعد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥١ ـ نديم البيطار · **قضية العرب الفلسطينية** · بيروت ، مطابع صادر ريحاني ، ١٩٤٧ ، ص ١٢١ · .

(40) *Parl. Deb.*, Vol. 309, p. 368.

(٤١) شهادة جورج منصور (انظر : جانا ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠) ·

(٤٢) سعد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥١ ·

(43) Government of Palestine; *A Survy of Palestine*. Jerusalem, 1946, Vol. II, p. 732.

(٤٤) بونيه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣١٥ ·

(٤٥) أنور كامل · **الصهيونية** · القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٣٧ ·

(46) *Survey*, Vol. II, p. 732.

(47) *Ibid*, Vol. II, p. 734.

(٤٨) . سامي طه في شهادته امام اللجنة الانغلو أميركية (انظر : جميل الشقيري [جامع] **مجموعة الشهادات والمذكرات المقدمة الى لجنة التحقيق الانكلو أميركية المشتركة** ·· الطبعة الاولى ، يافا ، مطبعة النجاح ، حزيران ١٩٤٦ ، ص ١٢٧ ـ ١٣١) ·

(٤٩) **الاتحاد** (حيفا) ، العدد ٣٣ ، السنة الثالثة ، ١٩٤٧/١٢/٢١ ·

حـازم صاغيـة

جـذور الوعي
الديـني ـ السـياسي في ايـران

على مدى تسعة اشهر ، تحولت ايران الى مسرح صدامي دموي ، فالتظاهرات لا تنتهي حتى تبدأ ، والشوارع لا تفرغ حتى تمتلىء ، وبدا ، في شيء مـن الرمز ، ان وضع الشاه وصل الى حد من الكارثة بات معه الزلزال معبـر « الخلاص » الوحيـد ·

وانتصبت المسألة الدينية ، عبر « حركة رجال الدين » ، بوصفها المسألة الابرز في الحالة الايرانية ، فالشيعية الايرانية هي السنية العربية ، مـن حيث ان الاثنتين لعبتا الدور المركزي في الحضارتين ، والتطابق مع الذاتين الوطنيتين·

من هذا الموقع ، وجدت الشيعية الايرانية ان الامبريالية تطلب رأسها فـي الدرجة الاولى ، وان كل خطوة في تقدم مشروعها هي خطوة اكبر في تقهقـر الشيعية الوطنية ·

والداء نفسه ، الذي اصاب السلطنة العثمانية ، أصاب ايران · ففي ١٨٢٨ هزمت السلطنة على يد روسيا ، وحصلت الاخيرة بفعل انتصارها على تنازلات استراتيجية وامتيازات اقتصادية عرفت بمعاهدة تركمانشاي ·

كانت روسيا القيصرية تضغط من الشمال لاذلال ايران وابتزازها ، وكانـت بريطانيا تضغط من مواقعها المبكرة في الخليج جنوبي ايـران للهدف نفسه · فايران في العين البريطانية احدى الحلقات الاساسية في الطريق الى الهنـد ، وحملة نابوليون الى مصر والشرق نبهت بريطانيا الى جدية المخاطر التـي تتهدد الطريق على يد فرنسا ·

في هذا المناخ تسللت الثقافة الغربية الى ايران ، وبدأ التأسيس للاوربة ، وفي الوقت نفسه بدأت الارساليات البروتستنتينية تتوافد على البلاد ، معششة بين الاقليات ، مروجة ثقافة مؤداها ان على المسلمين ان يتحولوا عن دينهم « المعارض لتطور » ، ويأخذوا بـ « الاخلاق البروتستنتينية » الرافعة الايديولوجية للرأسمالية ٠

وبين خطرين ، احلاهما مر ، عاشت ايران : خطر روسي في الشمال يدافع عن سلطة تحرس التخلف والطغيان ، وخطر بريطاني في الجنوب بدأ يغير خطة تعاطيه مع البلاد في مطالع القرن العشرين ، وخصوصا بعد قيام ثورة اوكتوبر البلشفية عام ١٩١٧ ٠

فالبريطانيون كانوا قبل ذلك التاريخ يدعمون سلطات المناطق المحلية على حساب السلطة المركزية ، ويعقدون « اتفاقات » مع زعيم قبيلة البختياري ، والشيخ خزعل شيخ المحمرة ، وغيرهما ، للحصول على امتيازات نفطية في « اراضي » هؤلاء الزعماء ، متجاهلين بالكامل سلطة «مركزية» يدعمها الروس٠

أما بعد ١٩١٧ فقد اخذ البريطانيون دور القياصرة ٠

الثورة الدستورية

٠ في مطالع القرن التقت مصلحتان :

ـ مصلحة البريطانيين في تحوير البنى الاقتصادية والسياسية ، بحيث تتسع للدخول الامبريالي الموسع ، على قاعدة العلاقات النفطية التي ارساها « دارسي» عام ١٩٠١ ، فبدأ البريطانيون مدافعين عن « تقدم » ايران ، وتوجهها توجها بورجوازيا ديمقراطيا دستوريا (!) ينجر اليه تجار المدن الوسطاء الذين ارتبطوا بالمصالح البريطانية في القرن التاسع عشر ٠

ـ ومصلحة قطاعات واسعة من الايرانيين، تأثر مثقفوها ورجال دينها بانتصار اليابان (الاسيوية) على روسيا (الاوروبية) ، وثورة البوكسرز الصينية ، وتحركات مصر الوطنية ، وبنسبة اضأل : ثورة ١٩٠٥ الروسية ٠

وقام ما عرف بالثورة الدستورية او « المشروطية » في عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦، والتي انتهت بانتصارات ، اهمها : انتزاع الدستور الذي لا زالت المعارضة الراهنة تطالب به ٠

وزحف القائد القوزاقي لياشوف على طهران لوقف الثورة ، وحراسة « الآسيوية » الايرانية التي تبقي البلاد ضمن الفلك الروسي ، بدل الاتجاه الدستوري الذي يغرب ايران ، ويفتح كل ابوابها للبريطانيين ٠

اذن ، كان الصراع الداخلي محكوما بتوازن القوى بين الجارتين العظميين ، وفي ١٩٠٧ تم تقسيم ايران الى ثلاث مناطق نفوذ : شمالية ، تحت السيطرة الروسية · وجنوبية تحت السيطرة البريطانية · وبينهما منطقة محايدة « ايرانية » ·

لكن النجم البريطاني كان في صعود ، وكان النجم الروسي يهبط ، يزيد في ذلك ان القيصرية لم تمتلك اي مشروع داخلي لايران ، وهذا ما جعل جميع مسام الجسد الايراني تتفتح على النفوذ البريطاني ، ومحموله الثقافي المتضارب مع الثقافة الوطنية المشبعة بالوعي الديني ·

وسيطر البريطانيون (والاميركان) على اقتصاديات البلاد ، وجيء على التتالي ، بمستشارين اميركيين ، هما شومستر وميلسبورغ ليمسكا بمالية ايران، فانشئت على يد الاول وزارة للمال ، وارسى الثاني اسس البنية التحتية للوافد الامبريالي من الغرب ·

كل تلك العوامل جعلت صدمة اوروبا على مسلمي ايران صدمة عاصفة ، فقد تحولت بلادهم تحت وطأة « الثورة الدستورية » الى مزرعة كاملة للاقتصاد الغربي، ومجمع لانتاج واعادة انتاج الثقافة الغربية ، التي تأتي الى المستعمرات وهي واقفة على رأسها ·

ضاعف ذلك امران ، اولهما ان ادخال الجيب الرأسمالوي في الاقتصاد الوطني قاد الى خراب ، دفع ثمنه السكان المرتبطون باقتصاد الحرف ، والبازار (الحي الصغير) ، وهم الذين يسكنهم الوعي الديني والثقافة الوطنية · والثاني، ان الذين استفادوا من تضخم هذا الجيب هم الوسطاء من ابناء الاقليات غير المسلمة ، اي اليهودية والمسيحية والزرادشتية والبهائية ·

دولة رضا خان

وزاد الامر سوء صعود رضا خان الى السلطة عام ١٩٢١ ، بدعم البريطانيين، وقد انعكس في صعوده تغير طال الستراتيجية البريطانية في التعاطي مع ايران :

قبل ثورة ١٩١٧ الروسية ، كان مطلوبا من ايران ، كما رأينا ، ان تبقى دويلات صغرى تستحيل على التوحيد المركزي ، وعبرت عن ذلك «الثورة الدستورية » ، التي حملت بعض نوازع الاستقلال في الاطراف ·

اما بعد ثورة ١٩١٧ ، فامسى الهاجس انشاء « سد منيع في وجه البلشفية »، ودعم سلطة مركزية ، تقوم بتوحيد قسري ، وتنهض على عنصرية فارسية تجد

حاضرها في الارتباط بالغرب ٠

وفي تفكيك العناصر المكونة لتلك الدولة ، نقع على العناصر التي شكلـــت الوعي الديني السياسي المعارض :

□ فايران تتألف من عدد لا يحصى من الشعوب ، يشكل الفرس ٤٠٪ منها ، وتتشكل الـ ٦٠٪ الباقية من اكراد واتراك وعرب وبلوخستانيين وغيرهم ، ومن بين مجمل الشعوب في ايران ، يمثل الشيعة ٩٠٪ ، وعموم المسلمين ٩٥٪ ٠

ومحاولة رضا شاه بناء وحدة قسرية مركزية فيها المواطن الفارسي المحظوظ ، والمواطن المحروم غير الفارسي ، جعلت الوعي الديني يقدم نموذجا عن الوحدوية الديمقراطية ، متقدما عن الوحدوية القسرية تحت العباءة القومية ٠

اذن ، وضعت الحالة الكونية للدين في تعارض مع عقدة التفوق القومية ٠

□ وفي محاولة رضا شاه التمايز عن الشرق العربي والمسلم ، واستكمـالا لنهجه العنصري ، عمل على احياء الثقافة الفارسية على حساب الاسلامية ، فبعث الزرادشتية ، وزين للشيعية على انها زرادشتية مؤسلمة ٠

فاقم ذلك تغريب ثقافي ، وان لم يبلغ شأو مصطفى كمال في تركيا ، فقـــد استطاع ان يساهم في عزلة الناس عن الدولة ، والقيم التي تستهلكها ، والثقافات التي تدعو لتعميمها ٠

□ وحاول رضا استئصال البنى والتنظيمات القبلية التي رآها معرقلات فـي وجه القومية الفارسية و « الدولة » التي تحاول التحديث ،وعمل على « تمدين » القبائل بالقوة ، ودفعها نحو الاستقرار الحضري بفظاظة تقترب من الوحشية ٠

وكان في هذا وذاك ، يجتث اساسا اقتصاديا ووعيا دينيا ، فقامت في وجهـه عصيانات قبلية عديدة اهمها عصيانات القواشقة ٠

وتوازت هذه العصيانات مع العصيانات التي اعلنتها القوميات المقهورة ، حيث نظر اليها هي ايضا كشعوب مجهزة بخصائص مشؤومة ، وقوميات محرومـة من كل سمة ايجابية ٠

وكان النمو المتفاوت على قاعدة التبعية منذ عهد رضا يوسع الفوارق فيما بين المناطق ، بل فيما بين المدن ٠ ففي ١٩٦٦ بلغت العاصمة طهران ستة اضعـاف المدينة الثانية اصفهان !

وفي مقابل هجوم « الدولة » ، وهو هجوم يتذرع بالميول الرديئة المنسوبـــة للاسلام والشرق ، مثلت العجينة الاسلامية القاعدة الوحيدة ، المشتركة لخميرة الـــرد ٠

الدين والدولـة

□ اقام رضا « دولة » مستعارةمن الغرب ، تتعارض في تكوينها، وفي السياق الذي جاءت ضمنه ، مع المجتمع الايراني المسلم ٠

ترتب على ذلك ان انتقلت وظائف عديدة من يد الدين الى يد « الدولة » ، بـل فرضت الثانية على الاول عددا من التفصيليات الغربية ، كأن يجبر رجل الديـن على لبس الثياب الاوروبية ، ووضع القبعة فوق رأسه ، وغير ذلك ٠

□ لكن « دولة » رضا شاه لم تكن في حقيقتها غربيـــة ، بل كانت دولـة استبدادية ، استبدلت فيها البورجوازية بالحاكم الفرد ، فنمت البورجوازية نموا مشوها وهي محاطة بالتأخر السياسي الذي لا يعطيها اي موقع قدم تقريري ، ولا يتردد عن قمعهـا اذا اقتضى الامر ذلك ٠

هذه المواصفات الطغيانية الآسيوية ، جعلت الايراني ، الموعـود بالدولـة الديمقراطية الحديثة ، يقفمشدوها امام « الدولة » القائمة ، كما يقف عامل ماركس امام السلعة العجائبية ٠

□ وفتح رضا شاه ابواب ايران كلها للرساميـــل الاجنبية ، الانجليزيـــة فالاميركية ثم الالمانية ٠ وكان واضحا ان انهيار الركائز الاقتصادية للمجتمـــع القديم المؤمن لا يتم لصالح بورجوازية ايرانية ما ٠ فكل طرق المواصلات والسدود والجسور جاءت تخدم اغراض الرأسماليات الغربية ، والضرورات العسكريـــة التي لا تجد ايران فيها مصلحة لها ، وكل العالم الرأسمالي الجديد ، من مـدن تزدهر ، وموانىء تتسع ، جاء مدموغا بشمع المصالح النفطية ٠

وهكذا دفع رضا الى الامام عملية الانهيار التي تطال الركائز الاجتماعيـــة للايمان الديني ، وتطرح بانهيارها علامة استفهام كبيرة حول الدور الوظيفـــي لرجـــال الدين ٠

□ وعملت سياسة العنصرية والتغريب على فصل الايرانيين عن باقي الشعوب الاسلامية ، التي شاركتهم الايمان ، وقسطا من التاريخ ، وهذا ما تفاقم بشكل واضح في عهد محمد رضا ، حين انشئت دولة اسرائيل « صديقة » الفرس ٠

ان سياسة الشاه العربية مثلت واحدا من اكبر الاستفزازات للوعي الدينـي الوطني في ايران ، ونموذجي ، بهذا المعنى ، ان تشكل قضية فلسطين ركيـزة محورية في الوعي الايراني المعارض ، وان يطلق على احدى حركات الكفـــاح المسلح في فترة لاحقة اسم « مجموعة فلسطين » ٠

تجربـة مصـدق

في ١٩٤١ اقصي رضا خان ونفي الى جنوب افريقيـا بسبب ممالأتـه للنازيين في وجه الجارتين المتحالفتين روسيا وبريطانيا ، وجيء بابنه محمـد رضا ليحافظ على نهج ، خانه ابوه ، في خدمة البريطانيين ٠

واستمر محمد رضا محافظا على « دولة » ابيه واحتضان الثقافة الفارسيـة « المتفوقة » ، حتى كانت تجربة الدكتور مصدق الذي امم النفط الايراني ٠

لقد وقف الشعب ، بما فيه رجال الدين ، الى جانب مصدق ، واعطاه كل زخم مطلوب ، بل ان حركة « فدائيين اسلام » الدينية التي تأسست عام ١٩٤٦ ، مهدت لتفجير معركة التأميم والديمقراطية عن طريق اغتيال رئيس الحكومة الجنـرال رازمارا عام ١٩٥١ ، الذي كان عدوا لدودا للتأميم والديمقراطية معـا ٠

وقاد رجال الدين الوطنيين آية الله كاشاني ، الذي شارك مصدق في الشوط الاول من المعركة ، ثم تخلى عنه منحازا الى الشاه ، عاجزا عن ان يجر وراءه ثلث القطاع الديني ٠

وحين انتهت معركة مصدق بقيام انقلاب زاهدي وكيـرمت روزفلت ، احس الشعب الايراني بقهر عميق منطو على مذلة اعمق ، فقد ضربت المحاولة التـي انعقدت عليها قلوب الايرانيين ، واستعيد الشاه ، الذي كان في الخارج ، بهمة وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ٠

وقويت كل اتجاهات الالتحاق والتبعية والحضور الغربي :

ـ على المستوى الاقتصادي تشكل الكونسورتيوم النفطي ، الذي تهيمن عليه الرساميل الاميركية ، كمكافأة على تمويل الولايات المتحدة للانقلاب ، واشرافهـا عليـه ٠

ـ وعلى المستوى السياسي ، اقتيدت ايران عام ١٩٥٥ الى الدخول فـي « حلف بغداد » الذي هندسه جون فوستر دالاس ٠

ـ وعلى المستوى العسكري ، بدأت تصب « المعونات » الاميركية لايران فـي طاحونة جيش لا وظيفة له سوى تعطيل العقلانية الاجتماعية في ايران ، واعطاء ركيزة للشاه من خارج المجتمع المدنـي ٠

كانت كلها تحديات ، تنضاف الى التحدي الاساسي الذي تنطوي عليه ، بنيويا ، شاهنشاهية ايران : فالاحتلال الاقتصادي عهر البلد ، والانخراط في الاحـلاف زاد الغربة عن المحيط الطبيعي ، والاهتمام الفائق بالجيش جعل حقل المفارقات يتسع ، وهذا ما رأيناه على نحو مركب ، بعد حين ، عندما تحول الخليـج

(المسلم) الى متنفس للاندفاع المدمر والغضب الدموي ٠

بـذور العجـز

بسقوط مصدق ، سقط الجميع ، فالجبهة الوطنية التي انشأها الزعيم الوطني منبرا لبورجوازية وطنية تريد ان تحكم ، وجدت نفسها تتحطم على يد الاجهـزة البوليسية التي انشأها الاميركان ، اما حزب تودة الشيوعي فلم يقتلع فحسب ، بل هجر من البلاد ، واعلنت قيادته ، التي انتقلت الى اوروبا الشرقية ، انه بات يفتقر الى اي وجود في ايران ٠

لقد حملت تلك القوتان بذور العجز المبكر ، ليس فقط في الخلافات بينهما ، بل وهذا هو الاهم ، في قانون علاقتهما بالوضع الايراني :

□ فمصدق رشح نفسه للمهمة التاريخية متكئا على بورجوازية وطنية ضعيفة، ومراهنة برلمانية غير مقنعة في « العالم الثالث » ، وكان لخوفه من السقوط فـي « الخطأ » الثوري اثر اسوأ من الخطأ ، اي خطأ ٠

وهكذا انحصر في المدن التي تخوض حروبا « مدروسة » ، وانكفأ عن الارياف التي تخوض حروبا « مفتوحة » ، وكان شديد الحرص على محدودية الصراع ، فلم يسلح اتباعه ، ولا استشرف كيف تكون المعركـــة مع الولايات المتحـــدة الاميركيـــة ٠

□ وتوده ، الذي لعبت الاقليات دورا هاما في تكوينه ، وارتبط في نشأتـــه ونموه وخطه بالستراتيجيةالسوفياتية ، لم يستطع ان يخترق المجتمع الاسلامـي ويتمثل اشكالياته وقوانينه ، بل مارس الخضوع المتتالي لسهولة جوهرها الورع العمـــالي ٠

ولم يعكس المجتمع الايراني اي احتمال معقول للرؤيتين المتألقتين :

ـ فالبورجوازية الوطنية لم تأت الى الحلبة وهي منهكة سياسيا فقط ٠ لقـد كان هذا الانهاك السياسي مؤسسا على انهاك اقتصادي ، انتجه الدور المركزي للرساميل الاجنبية ، والكومبرادور الايراني ، في اقتصاد البلاد ٠

ـ والبروليتاريا منهكة للسبب نفسه ، يزيد في السوء ان «ممثليها» السياسيين ارتبطوا بها وحدها ، كجيب رأسمالوي « مستورد » راهنوا على معارضتـــه العمالية ، دون تماس يذكر مع الطبقات التي اجتثها بالكامل مجيء هذا الجيب٠

الثورة البيضـــاء

وامتدت مرحلة القمع الاعمى من ١٩٥٣ الى ١٩٦٣ ، فحصل انكفاء عميق نحو الوعي الديني ، عززته قساوة شعر الجميع بآثارها ، وتحطم اصاب البدائـــل السياسية كافة ٠

هذا ما ترجم نفسه في انتفاضة ١٩٦٣ ، التي قادها الامام الخميني ، ضـــد مشروع «الاصلاح الزراعي » ، الذي عرف بـــ « الثورة البيضاء » ٠

لقد كان الهدف الاساسي من اعلان تلك « الثورة » توسيع السوق امـــــام الرأسمالية ، وتقديم الريف المغلق على مذبح النهب الامبريالي ٠

وبطبيعة الحال ، حصل بعض الفلاحين على الارض ، لكن بسبب ضعف هؤلاء خسروا الاراضي التي كانوا يملكونهـــا ٠

وعلى المستوى الايديولوجي ، جرت محاولة فجة لادخال القيم الرأسمالية الـــى الريف ، وتثبيت ما هو متوافر منها في المدينة ٠

واستنفر خزان القيم الاسلامية من جديد : فهل يعقل ان الذي يمنـــع علـــى الشعب حريته ، هو نفسه الذي يريد ان يحرر المرأة ؟

لقد وجد المصب الديني مجموعة من الروافد والتيارات التي تصب فيـــه ، فاضافة الى القمع والتعطيل السياسيين الواسعين ، جاء النزوح الهائل مـــن المدن الى الارياف ، ومن المدن الى العاصمة طهران ، والاستفزاز الايديولوجـــي ممثلا بتحويل طهران الى حاضرة تعرض سلع العالم ، والاستفزاز المماثـــــل المباشر في تعميم الاوربة في المدرسة والجامعة والمجتمع ، والمضي في جـــذب الريف والقبائل جذبا وحشيا الى « الحضارة » ٠

لقد جاءت كل التيارات ترفد الوعي الديني ٠

وتأهب الشاه ، تيمنا بأبيه ، لانتزاع المزيد من الصلاحيات الموضوعة في يـــد الدين ، ونقلها الى يد البلاط ، وقد حقق قسطا هاما من عملية الانتزاع ٠

وقضي على انتفاضة الخميني الذي نفي الى تركيا فالنجف في العراق ، فيما كان الوسط الثقافي يعتمل ببعض الجديد ٠

الكفـاح المسلح

لقد التقت ثلاثة تيارات طلابية على ضرورة الكفاح المسلح :
ـ احد هذه التيارات يجد اصوله في « الجبهة الوطنية » التي انشأها مصدق ٠

لقد اعتنق هذا التيار « الماركسية اللينينية » ، وشق الجبهة ، تاركا في ارشيفها بعض الشخصيات الوطنية التي لم تنقطع عن اللعبة البرلمانية، واوهام المصدقية، على قاعدة ما تبقى من ركام البورجوازية الوطنية ٠

ـ التيار الثاني يجد أصوله في حزب تودة الشيوعي ، فقد انشق عنه محتجا على انعدام الوجود الحزبي في الداخل من جهة ، وعلى العلاقات النامية بين الاتحاد السوفياتي وايران من جهة أخرى ٠

وبدأ هذا التيار يتأثر بالتجربة الفيتنامية ، والمقاومة الفلسطينية ، والظاهرة الغيفارية ، ومن ثم بالثورة الثقافية الصينية ٠

ـ التيار الثالث يجد اصوله في الوسط الديني ، مستلهما اللوحات المضيئة في تراثه ، منذ « اضراب مدخنين » عام ١٨٩١ ، والذي الغى امتياز تبغ مبكر منح للانجليز ، حتى تجارب « فدائيين ايران » ، و « حركة تحرير ايران » ، اللتين تعرضتا لقمع مكثف على يد الشاه ٠

وكان هذا التيار الاخير منفتحا على الاشتراكية العلمية ، قابلا للحوار ، مؤمنا بصراع الطبقات وبشيء غير واضح التصور عن الملكية العامة لوسائل الانتاج٠

على ان تجربة الكفاح المسلح التي بدأت عمليا عام ١٩٧١ لقيت مصيرا بائسا، فهي لم تستطع ان تتعدى شرنقة ثقافية حكمت بها اصلا ، ولم تستطع ان تستنهض « الطبقة العاملة » التي راهن عليها معظم الماركسيين الجدد في حركة الكفاح المسلح، ولم تستطع ان تخترق الارياف، بعد فشل عملية سياهكل الفدائية الاولى٠

وفيما كانت هذه التجربة تراكم العجز والفشل ، وينخرها داء الخلافات والانشقاقات والتصفيات والتصفيات المضادة ، كان الشاه يظهر كالباز الذي لا تطاله الايدي ، ولا تؤثر عليه : ها هو في المرحلة نفسها يتحول الى زعيم اقليمي، يحل محل بريطانيا في الخليج ، ويستثمر « مبدأ نيكسون » للتحول الى امبريالية فرعية تقوم بمهام الوكالة ، ويطمح للعب دور عربي مهدته له هزيمة حزيران ، ثم وفاة عبد الناصر ٠

تصاحب انهيار الكفاح المسلح مع انهيار النموذج الصيني في عقول الثوريين الايرانيين ، فبكين وموسكو ، على السواء ، تقيمان افضل العلاقات مع الشاه، وتحبطان المستوى الايديولوجي لصالح مستوى الدولة السياسي ٠

هذا الفشل الآخر ، كان ايضا بمثابة مياه جديدة تصب في طاحونة الوعي الديني الوطني ، سيما وان انهيار النماذج اعطى العودة الى الذات زخما ودفعا جديدين ٠

وفاضت عائدات النفط الخرافية على ايران في ١٩٧٣ ، و ١٩٧٤ ، فشكلت

مادة جديدة لتصليب دولة تقوم على القمع والديكتاتورية ، وتوسيع ثقافة اساسها الانفصال العميق عن التراث الوطني والديني ٠

ان تاريخ ايران الحديث يسير في خطين متضاربين لم يشهد اي بلد تضاربا كتضاربهما ، فالقول ان « الازدهار ابو البؤس » ، لم ينطبق بهذا التجلي كما ينطبق في ايران :

فالازدهار ممثل بتراكم اسطوري في المال والخيرات ، وبالتالي في السلاح وادوات القهر والتعذيب ، انه في تصعيده الاقصى ٠

والبؤس ممثل في صفعة الغرب التي تحمل مشروع امحاء كامل على اصعدة الاقتصاد والسياسة والايديولوجيا ، وهو في تصعيده الاقصى ايضا ٠

وهنا شيء من الخصوصية الايرانية التي جعلت « الحقل الروحي » ، كما سماه سيكوتوري ، هو الحقل الذي يتصدى للرد ، فتركيا التي خضعت للتغريب، لم تمتلك شيئا من نفط ايران ، والسعودية التي ماثلت ايران في النفط لا زالت تتمتع ببكارة ايديولوجية يعبر عنها موقع الوهابية في المجتمع السعودي ٠

قد يكون طبيعيا ان يشار الى ضعف في تكوين هذا الحقل الروحي ، اي ان تعامل ردوده بشيء من الحذر المألوف ٠ لكن المنطق قد فتح هذه المرة مخرجا واحدا ،وربما بدا هذا المخرج عند المتشائمين ، او الذين يحبون « الحكم » الثورية الجاهزة ، لغة ممتازة للاستعمال الطقسي فحسب ٠

هذا لا يجدي الا مع ضعاف الخيال ٠ انه بالمقابل تحد لاكتشاف « السحر الشرقي » ، فمن هنا الثورة ٠

القوات المسلحة الأميركية في أواخر السبعينات :

البحرية الأميركية

« في الازمات التي كان لي علاقة بها ، تبين ان استخدام القوة البحرية ـ وخاصة قوة الحاملات ـ كان العنصر الحاسم من دون استثناء تقريبا » ·

هنري كيسنجر

تحتل البحرية الاميركية موقعا خاصا في القوات المسلحة الاميركية · وكان لهذا السلاح دور اساسي في فرض الهيمنة الاميركية على جزء كبير من العالم منذ القرن المنصرم · كما لا يزال هذا السلاح يتحمل عبئا رئيسيا في تنفيذ السياسة الاميركية ، في ظروف السلم والحرب على حد سواء ·

ويعود تاريخ البحرية الدائمة في الولايات المتحدة الاميركية الى العام ١٧٩٤ ، عندما اتخذ الكونغرس الاميركي قرارا ببناء ٦ فرقاطات بهدف حماية السفن التجارية الاميركية، وخاصة في منطقة البحر الابيض المتوسط · وسرعان ما تزودت البحرية الناشئة بالنيران، مع بدء الحرب المحدودة مع فرنسا في العام ١٧٩٨ ·

ومن المثير للاهتمام ان الولايات المتحدة بدأت بنشر قواتها البحرية بعيدا عن اراضيها، نتيجة لاحتكاكها بدول المغرب العربي التي كانت تتمتع بشبه استقلال عن العثمانيين ، في مطلع القرن التاسع عشر · فلقد ارسل الرئيس الاميركي توماس جيفرسون حملة «انتقامية» في تموز (يوليو) ، ١٨٠١ قامت بفرض حصار على طرابلس الغرب ، بحجة الدفاع عن المصالح التجارية الاميركية ، و « لعرض العلم » الاميركي في البحر الابيض المتوسط ·

وبعد فترة من القتال ضد انكلترا (ابان حرب ١٨١٢) ، تم ارسال حملة ثانية الى البحر الابيض المتوسط في العام ١٨١٥ ، « لمعاقبة » الجزائر ، ووضع حد للجزية التي كانت تفرضها دول شمال افريقيا على السفن التجارية الغربية · وكان ذلك بدء تواجد شبه

مستمر للبحرية الاميركية في منطقة البحر الابيض المتوسط · ومع العام ١٨٤٠ ، كانت البحرية قد انتشرت في المحيط الهادىء وجنوبي المحيط الاطلسي ، حيث اصبحت تفيد من مراكز امامية في مختلف انحاء العالم ، رغم أن البحر الابيض المتوسط حافظ على اولويته بالنسبة لاهتماماتها ·

واستمرت البحرية الاميركية في التنامي ، وكان لها دور هام خلال الحرب الاهلية الاميركية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ، حيث ساهمت البحرية الاتحادية (الشمالية) في فرض حصار على الجنوب الكونفدرالي · وكان لهذا الحصار اثر هام على الولايات الانفصالية التي كانت تفتقد الى قاعدة صناعية متقدمة ، وكانت بالتالي تضطر لاستيراد احتياجاتها من الاسلحة والعتاد والتجهيزات من اوروبا · كما قامت البحرية الاتحادية ابان الحرب الاهلية بالاستيلاء على عدد من المرافىء الجنوبية ، وتعاونت مع الجيش في الانهار والممرات المائية الداخلية ، وحاولت ان تحمي خطوط المواصلات البحرية والسفن التجارية الشمالية·

ولقد كانت الحرب الاهلية حقل تجارب هام في مجال الحرب البحرية ، حيث ظهرت اختراقات هامة في المدفعية والتدريع والالغام ، بالاضافة الى الغواصات · وعلى الرغم من ذلك ، ومن الدور الهام الذي لعبته البحرية خلال تلك الحرب ، فلقد استمرت العقيدة البحرية الاميركية سجينة نظريتي الدفاع الساحلي والاغارة على السفن التجارية ، ولم تتحرر من ذلك السجن حتى اواخر القرن التاسع عشر ، بعد أن نمت القاعدة المادية الضرورية لذلك التحرر ، بعد ان تنامت الاحتياجات الاميركية لقوة بحرية فاعلة ، تفيد متطلبات التوسع ، ولقد وجد ذلك التنامي ترجمة فكرية في كتابات « الفرد ثاير ماهان »، منظر « القوة البحرية » ·

في العام ١٨٩٠ ، نشر ماهان كتابا بعنوان « اثر القوة البحرية في التاريخ ، ١٦٦٠ ـ ١٧٨٣ » · وقارن ماهان ما بين وضع انكلترا ووضع الولايات المتحدة ، وتوصل الى الاستنتاج بان الولايات المتحدة قادرة على ان تكون قوة بحرية كبرى ، اذا لم تكن الاكبر في العالم · واشار الى ان الولايات المتحدة تمتلك ، فيذلك الوقت ، الحلقة الاولى من الحلقات الثلاث الضرورية لنمو القوة البحرية ، وهي قاعدة انتاجية وتطور داخلي ، واسطول تجاري ، ومستعمرات · واعتبر ماهان ان العزلة النسبية والموقع المركزي الذي تحتله الولايات المتحدة بالنسبة للشرق والغرب ، يشكلان نقاط تميز مهمة في المجال البحري · كما اكد ان على الامة الراغبة في ان تكون قوة بحرية ان تمتلك قوة متفوقة قادرة على طرد الخصم من البحار · ذلك ان « الهدف العظيم للاسطول ليس المطاردة ··· وانما السيطرة على البحار » (١) · ومنذ تلك الفترة بدأ مفهوم « السيطرة على البحار » يحتل مكانه البارز في الاستراتيجية البحرية الاميركية ·

وسرعان ما تتالت الاحداث التي ساهمت في تعديل الوضع الاستراتيجي في المحيط الهادىء والبحر الكاريبي ، لتعطي البحرية الاميركية دفعا كبيرا · فعلى اثر الحرب الاسبانية ـ الاميركية (١٨٩٨)، ومعركتي خليج مانيلا ، وسانتياغو ، تمكنت الولايات المتحدةمن ضم الفيليبين وبورتوريكو ، كما طردت اسبانيا من كوبا · وتلا ذلك نمو متسارع في القوة البحرية الاميركية ، التي اصبحت قبيل الحرب العالمية الاولى القوة الثالثة في العالم بعد البحريتين البريطانية والالمانية ·

ولقد ساهمت احداث الحرب العالمية الاولى في تعزيز قوة البحرية الاميركية ، اذ اتخذ الكونغرس الاميركي في العام ١٩١٦ قرارا ببناء بحرية لا تتفوق عليها اي بحرية اخرى

« A navy second to none » · وعلى الرغم من ذلك ، فلقد كان دور البحرية الاميركية خلال تلك الحرب ثانويا · اذ كانت مهمتها الاساسية هي الحرب المضـــادة للغواصات ، بالاضافة الى نقل القوات الاميركية ومعداتها وامداداتها عبر المحيط الاطلسي الى فرنسا ·

ولقد ساهم « مؤتمر واشنطن » (١٩٢١ ــ ١٩٢٢) للحد من سباق التسلح ، اضافة الى الانهيار الاقتصادي الذي عانت منه الولايات المتحدة في اواخر العشرينات ، فـــي التخفيف من تسارع نمو البحرية الاميركية في فترة ما بين الحربين · وكان اهم تطـور في تلك الفترة هو نمو سلاح طيران البحرية · وفي العام ١٩٢٢ ، تم تحويل ناقلة الفحم « لانغلي » الى حاملة للطائرات · وكان ذلك بدء عصر جديد بالنسبة للبحرية الاميركية ·

كانت الحرب العالمية الثانية نقطة تحول على صعيد ميزان القوى البحري في العالـم · فلقد خرجت الولايات المتحدة من تلك الحرب كأقوى قوة بحرية ، وذلك على الرغم من انهـا كانت قد دخلت الحرب اثر ضربة قاسية تلقتها بحريتها في بيرل هاربور (١٩٤١) · فقد لعبت البحرية الاميركيةدورا هاما خلال تلك الحرب في الصراع على خطوط المواصـــلات البحرية ، ذلك الصراع الذي شاركت فيه الغواصات والطائرات ، الى جانب سفن السطح· كما لعبت دورا اساسيا في تطوير العمليات البرمائية ، التي ساهمت في تمهيد الطريـــق امام هزيمة المحور في افريقيا الشمالية ، واوروبا الغربية · غير ان الدور الاساسي الذي لعبته البحرية الاميركية ، خلال الحرب ، كان على مسرح المحيط الهادىء ، حيث خاضـت صراعا عنيفا على خطوط المواصلات البحرية ضد الاسطول الياباني ، كما قامت بسلسلة منالعمليات لتدمير قوى ذلك الاسطول في البحر ، ونفذت سلسلة من العمليات البرمائيـة لطرد اليابانيين من مختلف انحاء ذلك المحيط ·

لقد شهدت الحرب العالميةالثانية بروز حاملة الطائرات كسيدة للحـــرب البحرية دون منازع ، بعد ان حلت محل البارجة كأهم قطع الاساطيل الكبرى ، وذلك اثر ظهـور نمـط جديد من المعارك البحرية ، حيث لم تكن الاساطيل المتواجهة تبدو على مرأى بعضها مـــن بعض ، بل كانت تكتفي باطلاق طائراتها لتحسم المعركة في بعض الاحيان ·

البحرية الاميركية اثر الحرب العالمية الثانية

لم تصبح البحرية الاميركية مع انتهاء الحرب العالمية الثانية القوة البحرية الاولى في العالم فحسب ، بل اصبحت ايضا بحرية الدولة الرئيسية في المعسكر الامبريالي ، الامـــر الذي فرض عليها متطلبات جديدة ، وساهم في تعزيز دورها على الصعيد الاستراتيجي في العالـــم ·

فلقد ادى ظهور العصر النووي ، والتوازن الاستراتيجي ما بين الاتحاد السوفياتـــي والولايات المتحدة ، الى بروز مهام جديدة كان على البحرية الاميركية ان تضطلع بهـــا · سواء على صعيد القوة النووية ، او في ظروف « الحرب المحدودة » التي ظهرت كخيـار اساسي في فترة ما بعد الحرب ·

ومن جهة ثانية ، فلقد ساهم « الفراغ » النسبي الذي خلقه تدهور اوضاع بريطانيـــا والاستعمار القديم ، وتخفيض التواجد البحري البريطاني في مختلف انحاء العالم ، فـــي

تنامى الجهود الاميركية الرامية الى ملء ذلك « الفراغ » وضمان الهيمنة الاميركية على العالم ، وفرض الحصار على الكتلة الاشتراكية ٠

ولئن تمثل جانب من تلك الجهود في الاحلاف التي صممتها الولايات المتحدة ، والتي امتدت من اوروبا الى المحيط الهادىء ، فلقد تنامى الوجود العسكري الاميركي في مناطق عديدة من العالم ، وانتشرت القواعد العسكرية الاميركية في العديد من البلدان ٠

قسمت البحرية الاميركية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الى اربعة اساطيل ٠

ففي الاول من حزيران ، ١٩٤٨ ،وبعد مضي ايام قليلة على قيام دولة العدو الصهيوني اعلن تشكيل الاسطول السادس الاميركي رسميا ٠ لملء « الفراغ » الناجم عن الانسحاب البريطاني من فلسطين ، وللمساهمة في اعطاء دفع لمبدأ ترومان الهادف الى تدعيم الاوضاع في اليونان وتركيا ٠ ويعتبر الاسطول السادس القوة الضاربة الجنوبية لحلف شمال الاطلسي ، وخط الدفاع عن مجنبة ذلك الحلف الجنوبية ٠ كما يعتبر اداة رئيسية لبسط النفوذ الاميركي في البحر الابيض المتوسط ، ومنطقة الشرق الاوسط ٠

وينتشر الاسطول الثاني الاميركي في المحيط الاطلسي ، حيث يعتبر القوة الضاربة لحلف شمال الاطلسي فيذلك المحيط ٠ كما يتولى المهمة الحيوية المتمثلة بالحفاظ على خطوط المواصلات مفتوحة بين اوروبا والولايات المتحدة الاميركية في حال اندلاع حرب على المسرح الاوروبي ٠ ويعتبر الاسطول الثاني ، كذلك ، اداة ردع في المحيط الاطلسي نفسه ، وبمثابة احتياطي للاسطول السادس ، اذا ما دعت حالات الطوارىء المحلية الى تعزيزه ٠

وينتشر الاسطول السابع في غربي المحيط الهادىء ، وفي المحيط الهندي ٠ ويعتبر هذا الاسطول بمثابة امتداد للاسطول « الآسيوي » الاميركي القديم ، ويشكل اداة رئيسية لبسط النفوذ الاميركي في المنطقة الآسيوية ، وفي شرقي افريقيا ، كما يشكل قوة ضاربة ، واداة ردع في تلك المنطقة من العالم ٠ اما الاسطول الثالث (الاول سابقا) ، فينتشر في شرقي المحيط الهادىء ، حيث يتولى ، الى جانب الاسطول السابع ، مهمة « السيطرة » على ذلك المحيط ٠

ولقد اعتبرت البحرية ـ بحاملاتها ـ القوة الهجومية الرئيسية ضد الاتحاد السوفياتي في السنوات التي تلت الحرب مباشرة ٠ الا ان تطور الاسلحة الاستراتيجية والعقيدة الاستراتيجية الاميركية ، بالاضافة الى المنافسة ما بين مختلف الاسلحة ، حول ذلك الدور الى سلاح الطيران ، الامر الذي ساهم في وقوع ما عرف « بثورة الاميرالات » في عهد الرئيس الاميركي ترومان ٠

وسرعان ما استعادت البحرية الاميركية اعتبارها اثر اندلاع الحرب الكورية ٠ اذ فقدت الولايات المتحدة كل قواعدها الكورية خلال الايام الخمسة الاولى من الحرب ، الامر الذي اظهر حيوية البحرية ، وحاملات الطائرات بشكل خاص (٢) ٠ ولقد تحمل الاسطول السابع عبئا اساسيا خلال تلك الحرب ٠

اكد تقرير لمعهد « بروكينغز » ، ان البحرية الاميركية قد استخدمت ١٧٧ مرة ، من اصل ٢١٥ حالة استخدمت فيها القوة العسكرية الاميركية ، لاهداف سياسية منذ الحرب العالمية الثانية (٣) ٠ ومن ابرز الازمات التي استخدمت فيها البحرية خلال تلك الفترة

احداث لبنان في العالم ١٩٥٨ ، حيث تم انزال قوة من مشاة البحرية جنوبي بيروت ، في الوقت الذي توجهت فيه احدى حاملات الاسطول السابع الاميركي الى البحر الاحمر · كما شكل الاسطول الثاني اداة ردع خلال حصار كوبا ، ابان ازمة الصواريخ الكوبية (١٩٦٢)، وتولى الاسطول السابع انزال مشاة البحرية في تايلاند في العام نفسه كما لعب ذلك الاسطول دورا اساسيا في حرب فيتنام ، واحداث جنوب شرق آسيا في الستينات والسبعينات · وتجدر الاشارة ، الى ان الاسطول السادس قد كلف بمراقبة التطورات في المواجهات العربية ـ الاسرائيلية في العامين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ·

القوة البحرية الاميركية في اواخر السبعينات

في العام ١٩٧٧ ، كان الاسطول الثاني الاميركي يضم ٥ حاملات طائرات ، و ٦٢ سفينة سطح قتالية · ويضم الاسطول الثالث ٤ حاملات ، و ٦٥ سفينة سطح قتالية · اما الاسطول السادس فيضم حاملتي طائرات ، و ١٥ سفينة سطح قتالية ، ووحدة مشاة بحرية برمائية (٥ ـ ٧ سفن برمائية ، تحمل كتيبة مشاة بحرية) ·ويضم الاسطول السابع حاملتي طائرات ، و ٢٠ سفينة سطح قتالية ، ووحدة مشاة بحرية برمائية ، اضافة الى فريق انزال كتيبة مشاة بحرية (وحدة مشاة بحرية برمائية ليس لديها طائرات الهليكوبتر) (٤) · ويضاف الى تلك الارقام عدد من الغواصات وسفن الخدمات ·

وتمتلك البحرية الاميركية ٤١ غواصة نووية مزودة بصواريخ بالستيكية من نوعي بوسيبيدون وبولاريس · ويبلغ عدد الصواريخ من النوعين ٦٥٦ صاروخا ، تحمل أكثر من ٥٠٠٠ رأس حربي مستقل ، تشكل حوالي ٥٥٪ من مجموع الرؤوس الحربية الاستراتيجية الاميركية (٥) · وبذا تشكل البحرية الاميركية جانبا هاما في « الثالوث النووي » الاميركي ، وتلعب دورا اساسيا في الردع الاستراتيجي · وتنتشر هذه الغواصات في مختلف المحيطات والبحار ، وتشكل العنصر الاقدر على البقاء في حال قيام الاتحاد السوفياتي بتوجيه الضربة النووية الاولى نظرا لصعوبة تحديد مواقعها ، ولقدرتها على الغوص لفترات طويلة من الزمن ، وذلك رغم ان بعض التقديرات تشير الى ان ٤٠ ـ ٥٠٪ من الغواصاتالنووية المزودة بصواريخ بالستيكية ، قد تدمر عند الضربة النووية الاولى، وهي جاثمة في مرافئها (٦) ·

وتشكيل بقية قوة الغواصات الاميركية من غواصات هجوم معظمها يعمل على الطاقة النووية · وكان عددها في العام ١٩٧٧ يبلغ حوالي ٧٥ غواصة ، باستثناء الغواصات الموجودة فيالاحتياطي ، او تلك التي هي قيد الانشاء ·

وتعتبر حاملات الطائرات العمود الفقري لاسطول السطح الاميركي · وتمتلك البحرية الاميركية ١٣ حاملة في الخدمة الفعلية ، ثلاث منها تعمل على الطاقة النووية (انتربرايز، ونيميتز ، وايزنهاور) · وتحمل كل من هذه الحاملات ما يتراوح بين ٧٠ واكثر من ٩٠ طائرة ، تشكل « جناح الحاملة الجوي » · ويتشكل الجناح الجوي نموذجيا من الحاملات الاكبر من الاسراب التكتيكية ، والمضادة للغواصات ، التالية : سربا هجوم ، كل منهما مجهز بـ١٢ طائرة « ا ـ ٧ اي كورسير ١١ » ، سرب هجوم مجهز بـ ١٠ طائرات « ا ـ ٦ اي انترودر » ، اضافة الى ٤ طائرات « ك ا ـ ٦ د » لتزويد الطائرات الاخرى بالوقود ابان تحليقها ، سربا مقاتلات ، كل منها مجهز بـ ١٢ طائرة « ف ـ ٤ جي فانتوم»،

او « ف ـ ١٤ أتومكات » ، سرب حرب الكترونية تكتيكية مزود بـ ٤ طائرات « اي أ ـ ٦ب براولر » ، سرب انذار مبكر محمول جوا مزود بـ ٤ طائرات «اي ٢ ـ ب» او « اي ٢ ـ س هوكاي » ،سرب استطلاع هجومي مزود بـ ٣طائرات « ر أ ـ ٥ سي فيجيلانت » ، او مفرزة من ٣ طائرات « ر ف ـ ٨ ج كروسيدر » من سرب تصوير جوي ، سرب مضاد للغواصات مزود بـ ١٠ طائرات « سي ـ ٣ أ فايكينغ » ، وسرب طائرات هليكوبتر مصممة للحرب المضادة للغواصات،مزود بـ ٨ طائرات «س هـ ـ ٣ د »، او « ٣ ج »، او « ٣ هـ سي كينغ » (٧) ٠

ويتبين مما سبق ان حاملة الطائرات هي عبارة عن قاعدة جوية عائمة تتمتع بقدرات هجومية كبيرة ، وبحركية جيدة ٠ ويبلغ مجموع الطائرات العاملة من على متن الحاملات حوالي ١١٠٠ طائرة ٠ اما اجمالي عدد الطائرات التابعة لطيران البحرية فيبلغ حوالي ٧٠٠٠ طائرة ٠ واضافة الى اجنحة الحاملات الجوية ، يوجد ٢٤ سرب استطلاع / دورية بحرية ، و ٣ اجنحة جوية تابعة لمشاة البحرية ، كما يستخدم احتياطي البحرية واحتياطي سلاح مشاة البحرية ٧ اسراب مقاتلة ، و ١١ سرب هجوم ، و ١٢ سرب دورية ، بالاضافة الى عدد من وحدات الاستطلاع ، والحرب الالكترونية ، وطائرات نقل الوقود ، والهليكوبتر والنقل ٠

ويتشكل بقية اسطول السطح الاميركي ، الذي يتمحور حول حاملات الطائرات في « قوات مهمة » Carrier task forces ، من ٢٥ طرادا ، (٥ منها يعمل على الطاقة النووية) مزودا بصواريخ موجهة ، و ٣٨ مدمرة مزودة بصواريخ موجهة ، و ٥٣ مدمرة ، و ٦ فرقاطات مزودة بصواريخ موجهة ، و ٥٨ فرقاطة ، و ٦٥ سفينة حرب برمائية ، و ٢٥ كاسحة الغام قادرة على العمل في المحيطات ، بالاضافة الى عدد من زوارق القوات البحرية الخفيفة (التي تعمل في البحار الضيقة وعلى السواحل) ٠ وعدد كبير من سفن الخدمات ،وقسم كبير منها مصمم لامداد الاساطيل بالذخيرة ، والتموينات ، والوقود ابان عملها (٨) ٠

وتعمل « قوات المهمة » كنظام متكامل ، وذلك انسجاما مع العقيدة العسكرية الاميركية في مجال البحرية ، ومع التصور الذي يحمله قادة البحرية حول المعركة الحديثة في البحر٠ ولقد شرح روفن ليوبولد ـ مدير تصميم السفن فيمركز هندسة السفن البحرية ، والمسؤول عن تصميم كافة سفن السطح والغواصات ـ ذلك التصور ، في معرض عرضه لفلسفة بناء السفن ، ردا على الانتقادات التي وجهت الى البحرية في مجال تفوق تسليح السفينة السوفياتية ، حيث ان نسبة انظمة الاسلحة / سفينة ، تبدو اعلى لدى السوفيات منها لدى الاميركيين ٠

ولقد اشار ليوبولد الى تمايز المهام التي صممت من اجلها السفن السوفياتية ، عن تلك التي صممت من اجلها السفن الاميركية ٠ وانتقل الى التاكيد بأن ميزات السفن القتالية الحديثة تشير الى أن الاتجاه يعود الى « دور السفن الحربية القديم كسفن نقل » ٠ الا انها تنقل « تشكيلة متطورة من انظمة الاسلحة بدلا من نقل القوات ٠ ولفهم حرب السطح البحرية الحديثة ، يحتاج المرء لفهم تطور حرب السطح المتعددة السفن منذ ادخال نظام المعلومات التكتيكية البحرية NIDS في١٩٦٠ ، اذ تسمح اتصالات ربط المعلومات التكتيكية بتبادل سريع ، وبعيد المدى ، وخال من الاخطاء ، للمعلومات التكتيكية ، ومعلومات حول وضع الوحدة ، واوامر الاشتباك ٠ وتسمح انظمة الحاسبات التكتيكية

بالتعامل مع هذه المعلومات فيوقت واقعي · وهكذا ، تصبح قوة سفينة واحدة جزءا من اجمالي القوة » (٩) ·

ولقد حدد الاميرال « ستانسفيلد تورنر » المهام التي يفترض بالبحريات الكبرى الحديثة ان تضطلع بها تحت عنوانين رئيسيين : السيطرة على البحار ، و « اسقاط » القوة على الشاطىء (١٠) ·

وتتم السيطرة على البحار في فترات السلام عبر التهديد بحرمان الخصم من الوصول الى البحر · أما في حالة الحرب ، فان احد اطراف الصراع يحاول حرمان الآخر من استخدام البحر ، في حين يحاول الاخر ضمان ذلك الاستخدام · والسيطرة على البحر مسألة نسبية ، حيث يمكن ان تبدأ بمحاولة التأثير ، ثم حرمان الخصم من الوصول الى المرافىء الصديقة ، او المياه الساحلية ، وثم السيطرة على بعض خطوط المواصلات البحرية التي يرغب الخصم في استخدامها ، وقد تصل الى محاولة السيطرة على مناطق باكملها ، او حتى على كافة البحار ·

أما « اسقاط » القوة على الشاطىء ، فيتم في فترات السلم عبر الردع الاستراتيجي ، والردع التقليدي ، او التهديد بالقيام بهجوم تقليدي · أما في ظروف الحرب ، فيتم « اسقاط » القوة على الشاطىء عبر الاقتحام البرمائي ، او القصف بالمدافع او بالصواريخ او عبر الطائرات ، وصولا الى الصواريخ الاستراتيجية · وتبدأ عملية « اسقاط » القوة بمحاولة التأثير على الخصم واجباره على الخضوع ، ثم القيام بهجوم محدود ، وصولا الى التدمير الشامل ·

وتبرز ، في هذا المجال ، الحدود التي طرأت على حرية عمل البحرية الاميركية خلال العقد الاخير من هذا القرن (١١) · ذلك ان تنامي الاسطول السوفياتي ، وانتشاره في مختلف المحيطات ، يشكل مصدر قلق جدي بالنسبة للبحرية الاميركية · اذ ان مجرد التواجد السوفياتي ـ مهما كان حجمه ـ قد ساهم في الحد من هامش حرية حركة تلك البحرية ، بعد ان اصبحت مضطرة لادخال احتمال الاحتكاك بذلك التواجد في حساباتها · كما وان التعديلات الاستراتيجية التي طرأت على اوضاع العالم في اعقاب حرب فيتنام خاصة ، ادت الى مزيد من الحد لهامش حرية حركة القوات المسلحة الاميركية بشكل عام، والقوات البحرية التي تشكل نقاط ارتكاز امامية بشكل خاص ·

وتؤثر هذه الاعتبارات على معضلة ايجاد معادلة مناسبة بين تركيز البحرية الاميركية على السيطرة على البحار ، وتركيزها على « اسقاط » القوة على الشواطىء · ذلك ان تنامي البحرية السوفياتية ، ذات القدرة العالية المضادة للسفن ، قد ضاعف من مصاعب مهمة السيطرة على البحار ، وزاد الامر صعوبة انسحاب القوات الاميركية من عدد من مناطق العالم ، وانخفاض عدد القواعد ما وراء البحار الى اقل من ٣٠قاعدة ، وهو انخفاض دراماتيكي ،اذا ما قورن بعددها عند انتهاء الحرب العالمية الثانية · ومما لا شك فيه ان موقع اميركا المعزول عن حلفائها ، وعن مصادر المواد الاولية في العالم الثالث ، قد تحول الى عامل سلبي في هذا المجال ، وذلك على العكس من الاتحاد السوفياتي ·

واذا كانت تلك العوامل تشكل اعتبارات هامة لصالح التركيز على « السيطرة على البحار » ، فان « اسقاط » القوة على الشاطىء كان الشكل الاساسي لاستخدام البحرية الاميركية في القتال منذ الحرب العالمية الثانية ، وتجربة كوريا وفيتنام خير دليل على ذلك·

وتعكس « السيناريوات » التي توضع لمواجهة حالات الطوارىء المختلفة المحتملة ، الصعوبات التي تبرز في مجالي السيطرة على البحار و « اسقاط » القوة على الشاطىء · وابرز تلك « السيناريوات » ذلك الذي يفترض وقوع مواجهة بين حلفي وارسو و « الناتو » في اوروبا الغربية ، حيث يكون على البحرية الاميركية أن تؤمن ايصال التعزيزات والامدادات الى اوروبا ، اضافة الى تأمين استمرار تدفق الوقود والمواد الغذائية الى الدول الغربية · وتتبنى الاستراتيجة الاميركية في هذا المجال الدفاع في العمق ، عبر انشاء سلسلة من الحواجز المضادة للغواصات (١٢) ، مستفيدة من اضطرار القطع البحرية السوفياتية الى المرور عبر عدد من البحار الضيقة ، والمضائق ، قبل الوصول الى اعالي المحيطات · وتتشكل حواجز الخط الاول حول قواعد « الخصم » من غواصات هجوم ، وطائرات دورية ، في حين تركز حواجز الخط الثاني في « نقاط خنق » ، كثغرة «غرينلاند ـ ايسلاندة ـ بريطانيا » في شمالي المحيط الاطلسي · وتتشكل حواجز ذلك الخط من طائرات دورية بعيدة المدى ، وغواصات هجوم تساعدها انظمة مراقبة ، بالاضافة الى طائرات تنطلق من على متن الحاملات · أما الحاجز الثالث ، فيتشكل من قوات الحراسة التي ترافق القوافل ، ومن طائرات الهليكوبتر ، التي تعمل عليها ·

ويؤكد الاميرال موريس ويزنر ، القائد العام الاميركي في المحيط الهادىء ، انه في حال اندلاع حرب تقليدية في اوروبا ، سيبرز صراع على خطوط المواصلات البحرية التي تنقل نفط الشرق الاوسط وغيرة من المواد الاولية الحيوية الى الغرب واليابان ، وان الولايات المتحدة ستجد صعوبة في حماية خطوط المواصلات الهامة هذه (١٣) · اما الاميرال ايزاك كيد ، القائد الاعلى للحلفاء في المحيط الاطلسي ، فكان قد اكد ان الوضع في المحيط الاطلسي لن يكون افضل بكثير (١٤) ·

ويعزز قادة البحرية تلك الحالة الى انخفاض حجم الاسطول الاميركي ، مقابل التنامي المستمر في قدرات الاسطول السوفياتي · ذلك ان حجم الاسطول الاميركي قد تناقص من ٩٧٦ سفينة في العام ١٩٦٨ الى ٤٥٩ سفينة تقريبا في الوقت الراهن · وتعكس هذه الحالة ، في جانب منها ، الضغوطات الاقتصادية والمادية على قدرات القوات المسلحة الاميركية بشكل عام · وتبرز في هذا المجال معضلة هامة تواجه صانعي القرار في الولايات المتحدة ، وهي هل من الافضل ان تقوم البحرية ببناء عدد صغير من السفن عالية الكلفة والقدرات في آن معا ، أم عليها ان تقوم ببناء اعداد كبيرة من السفن ، القليلة الكلفة ، ذات القدرات المتواضعة نسبيا ؟·

ومما لا شك فيه ان « ازمة حاملة الطائرات النووية الخامسة » ترتبط ارتباطا وثيقا بتلك المعضلة · ذلك ان مجلس النواب الاميركي كان قد اتخذ قرارا في مطلع شهر آب (اغسطس) الماضي ، يقضي بتخصيص جزء من موازنة السنة المالية ١٩٧٩ لبناء حاملة طائرات نووية خامسة (الحاملة النووية الرابعة كارل فينسون قيد البناء حاليا ، ويتوقع ان تدخل الخدمة في العام ١٩٨١) · ولقد ادى ذلك القرار ، وخاصة بعد ان اقره مجلس الشيوخ الاميركي كذلك ، الى ازمة سياسية حادة بين الكونغرس والادارة · ذلك ان كلفة الحاملة تصل الى ٢ر٤ مليار دولار وهو رقم كبير حتى بالنسبة الى الولايات المتحدة الاميركية ، وخاصة في الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها الان · وبرز جدل حاد بين « انصار الحاملة » و « معارضيها » ، وتناول الجدل دور البحرية ومستقبلها · و « عقيدة حاملات الطائرات » التي لم تختبر فعليا منذ الحرب العالمية الثانية · وركز معارضو الحاملة على تعرضها للاصابة في ظروف الحرب البحرية الحديثة ، وانعكاس تخصيص

المبالغ التي يتطلبها بناؤها على مستقبل البحرية ، وبرامج بناء سفن السطح الاخرى ٠ وعلى الرغم من ان الرئيس الاميركي كارتر اضطر للتأكيد بان « الولايات المتحدة ستحتفظ بقوات بحرية لا يمكن ان تتمكن اي قوة اخرى على الارض من ان تتحداها بنجاح » (١٥) ٠ فلقد استخدم كارتر حق النقض ، الذي تتمتع به الادارة الاميركية ، للحؤول دون تمرير التعديل القاضي ببناء الحاملة الخامسة ضمن موازنة السنة المالية ١٩٧٩ ٠

ويجمع معظم مسؤولي الدفاع وقادة البحرية الاميركية على ضرورة بناء قوة بحرية متوازنة ٠ ويشير ليوبولد الى المعضلة التي تواجه البحرية في هذا المجال ، حيث ان حدود الموازنة فرضت على البحرية ان تطور سياسة ينجم عنها بناء سفن حربية باعداد مناسبة، وفي الوقت نفسه ،تستجيب للمتطلبات العسكرية ٠ ونتج عن ذلك بناء عدد صغير من السفن ، ذات قدرات عالية ، بحيث تتمكن من العمل في مناطق التهديد الاقصى ٠ ويكمل تلك السفن عدد اكبر من السفن الاقل تعقيدا (١٦) ٠

وتنفذ البحرية الاميركية في الوقت الراهن ، عددا من البرامج التي تستهدف تعزيز قدراتها القتالية ، ومواجهة « التهديدات » المتنامية في كافة المجالات ٠ وسيشرف الاميرال توماس هايوارد ــ الذي ورث مشكلات البحرية الاميركية بعد ان حل محل الاميرال جيمس هولواي كرئيس للعمليات البحرية في السنة الحالية ــ على تنفيذ تلك البرامج في فترة اشبه بالفترات الانتقالية في حياة البحرية الاميركية ٠

ففي مجال القوة النووية الاستراتيجية ، تشير كافة المؤشرات الى ان دور البحرية سيكتسب اهمية متزايدة في هذا المجال ٠ ويتوقع ان تدخل الغواصة الاولى من فئة « اوهايو » الخدمة في العام ١٩٧٩ ٠ والغواصة المذكورة مصممة لتحمل ٢٤ صاروخ « ترايدنت » ، الذي يبلغ مداه حوالي ٧٤٠٠ كلم ٠ ومن جهة ثانية ، فان العمل مستمر على تطوير الصاروخ الجوال « توماهوك » الذي يطلق من البحر ٠

وتشير التوقعات الى ان ٧٥٪ من اسطول السطح القتالي الاميركي سيكون مشكلا في اواسط الثمانينات من ٥ فئات حديثة من السفن ، تم تصميم معظمها في فترة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٥ (١٧) ٠ ويتم العمل ، في الوقت الراهن ، على تطوير مجموعة كبيرة من انظمة الاسلحة والاتصالات والحرب الالكترونية ، بهدف تعزيز قدرات الاسطول الاميركي في مجال الحرب المضادة للغواصات والدفاع الجوي ، اضافة الى القتال سطح ــ سطح ٠

اما في مجال الحرب البرمائية ، فيتوقع ان تدخل السفينة الخامسة من فئة تاراوا الخدمة في العام ١٩٨٠ ٠ ولقد صممت تلك السفينة بحيث تكون قادرة على حمل كتيبة مشاة بحرية معززة (٢٠٠٠ رجل) مع كل مدفعيتها ودباباتها وعرباتها ، ومجهزة بحيث يتم انزال الموجة الاولى بطائرات الهليكوبتر ، في حين تنزل الموجة الثانية بزوارق الانزال بتوافق زمني ، في الوقت الذي تقوم فيه طائرات الهليكوبتر ، او الطائرات القادرة على الاقلاع عموديا ، او من مسافة قصيرة ، والعاملة من على متن السفينة ، بتقديم الدعم القريب للكتيبة ٠

وتبقى البحرية الاميركية اداة رئيسية من ادوات الامبريالية ٠ وعلى الرغم من انها لا تزال القوة البحرية الاولى في العالم ، فان مرحلة الانحدار قد بدأت ٠

الحواشي

(1) Sprout , Margaret Tuttle , « Mahan : Evangelist of Sea Power ». *Makers of Modern Strategy* , Ed. Edward Mead Earle . Princeton University Press , 1971. p. 433.

(2) Will , George F. , « The Carrier and Carter's Veto ». *International Herald Tribune* , September 7 , 1978. p. 6.

(3) *Time* , May 8 , 1978 . p. 22.

(4) *The Military Balance, 1977 - 1978.* The International Institute for Strategy Studis. p. 7.

(5) Moore , John , Ed. *Jane's Fighting ships , 1977 - 78.* Macdonald and Jane's , 1977. p. 550.

(6) Burt , Richard, « The Strategic Forces Triad ». *Foreign Affaires* , July , 1978. p. 782.

(7) Kilduf , Peter , « Where Are The Carriers ? » *Air International* , December , 1977. P. 270.

(8) Moore , *op. cit. p.* 531.

(9) Leopold , Reuven , « Naval Ship Design : Plat From vs. Payload ». *Us Naval Institute Preceedings* . August , 1975. p. 32.

(10) Turner , Stansfield , Adn. USN , « Designing a Modern Navy : A Work shop Discussion ». *Adelphi Papers 123.* The International Institute for Strategic Studies . Spring 1976. p. 25.

(١١) انظر الدراسة حول « القـــوات المسلحة الاميركية في اواخر السبعينات : دور جديد ومعضلات مستعصية » ، فـــي مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٨٢/٨١ .

(12) Holst , Johan Jorgen , « The Navies of The Super - Powers : Motives , Forces , Prospects ». *Adelphi Papers 123.* The International Institute for Strategic Studies . Spring 1976 . pp. 5 - 6.

(13) *International Herald Tribune* , August 14 , 1978. p. 3.

(14) *US News and World Report* , October 10 , 1977. p. 41.

(15) *International Herald Tribune* , August 7 , 1978. p. 3.

(16) Leopold , *op. cit.* , p. 34.

(17) Holst , *op. cit.* , pp 4-5.

مراجعات

هاني حوراني ، التركيب الاقتصادي الاجتماعي لشرق الاردن ، مقدمات التطور المشوه ٢١ ـ ١٩٥٠ ٠

(مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت : ١٩٧٨)

ثالثا : المساهمة في اعادة كتابة تاريخ الناس ، الصانعين الحقيقيين للتاريخ ، وتاريخ القوى الاقتصادية والاجتماعية ، كقوى محركة وفاعلة في حركة التاريخ وتطور المجتمع ٠

وتبرز تلك الاهمية للكتاب ، وتتأكد ، اذا ما وضع في اطاره العلمي وفي سياقه التاريخي في آن معا ٠ فحيث كتب الحكام و « كتبتهم » التاريخ وفق مناهج لا علمية ورجعية بهدف طمس واخفاء اهدافهم ومصالحهم الطبقية ، فأن العديد من الاحزاب والقوى التقدمية التي ساهمت في كتابة التاريخ الاجتماعي لمجتمعاتها ، عبر كتابتها لتاريخ احزابها ، ابقت تلك الكتابات تفتقد الى الشمول اولا ، والى التعميم الواسع ثانيا ٠

منذ سنوات ، دخلت كتابة التاريخ الاجتماعي ومنهجية البحث العلمي في التاريخ ، حلبة الصراع التحرري الوطني والديمقراطي الدائر ، على ارض وطننا كأحدى جبهاته التي لا تقل اهمية وسخونة عن بقية الجبهات ٠ فكتابة التاريخ وخاصة التاريخ الاجتماعي ، ووفق منهجية علمية ، لم تعد مهمة اكاديمية فحسب ، بل اصبحت مهمة سياسية ووطنية وذات وظيفة نضالية ايضا ٠ فلا يستطيع هذا الحزب التقدمي او ذاك ، ولا هذا النظام التقدمي او ذلك ، ان يضع برنامجا للتحرر والتقدم الحقيقيين ، وبشكل صائب ، دون معرفة حقيقية ودقيقة لتاريخ المجتمع ، تاريخ الناس ، وتاريخ تطور القوى المادية الفاعلة وانعكاساتها ٠ وهكذا برز مؤرخون تقدميون عرب ، ليساهموا بنشاط في انجاز هذه المهمة ٠ اما ابرز هؤلاء المؤرخين ، فهم على سبيل المثال ،

« ان التاريخ الفعلي لهذه البقعة (شرق الاردن) لم يكتب بعد الا بالمعنى الجزئي للكلمة » وان « نتائج السيطرة البريطانية ، والنمط الخاص للتطور الكولونيالي المرافق لهذه السيطرة والثمار الفعلية لهذا التطور على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي لم يجر تناولها قط ، وهذا ما تحاول هذه الدراسة في رسم لوحة له ٠٠٠ » ٠

تلك ، هي المهمة التي وضعها « هاني حوراني » امامه في كتابه ـ الدراسة « التركيب الاقتصادي الاجتماعي لشرق الاردن ٠ مقدمات التطور المشوه ١٩٢١ ـ ١٩٥٠ » الذي صدر مؤخرا عن مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ٠

لقد تصدى المؤلف بجدية وصبر ، لهذه المهمة ، وقام بتشريح دقيق لـ « مجتمع شرق الاردن » وبنيته الاجتماعية الاقتصادية ، وتوصل بنتيجة ذلك الى عدد من الاستنتاجات الهامة حول نتائج التركيب والتطور المشوهين لاقتصاديات ، ومجتمع شرق الاردن ، وحول طبيعة نشوء ومن ثم التطور البطيء والمعقد

للحركة الوطنية الاردنية ، او ما أسماه « تفسير الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية » ... وهكذا جاء هذا الكتاب ـ الدراسة بمثابة مساهمة كبيرة الاهمية في تحقيق الاهداف التالية :

اولا : انجاز المهمة التي وضعها المؤلف امامه ، لكتابة جديدة لتاريخ شرق الاردن الحديث ·

ثانيا : المساهمة في توسيع دائرة المؤرخين التقدميين العرب ، في استخدام وتعميم المنهجية العلمية في كتابة التاريخ ·

صلاح عيسى ، طارق بشيري وغيرهما في مصر · ومسعود ضاهر ووجيه كوثراني في لبنان ·

فبعد ان اخذت المنهجية المادية التاريخية في كتابة التاريخ ، تتقدم لاحتلال مكانها وموقعها في الصراع ضد المناهج الاخرى ، اصبح لزاما ان يعاد النظر في كتابة كل تاريخنا وخاصة التاريخ الحديث · فما ان صاغ ماركس وانجلز مذهبهما الفلسفي ، المادي الجدلي التاريخي ، وتمكنا من امتلاك اداة علمية جديدة لدراسة التاريخ ، حتى اعلنا ، انه « ينبغي لنا ان ندرس التاريخ كله من جديد ، ينبغي ان نبحث بالتفصيل ظروف التشكيلات الاجتماعية قبل ان نحاول ان نستخلص منها مفاهيم سياسية وحقوقية وجمالية وفلسفية ودينية وما الى ذلك » (١) ·

ضمن هذا الاطار العلمي ، الذي يحدده الصراع الدائر بين مناهج البحث التاريخي وكتابته ، وفي السياق التاريخي ، لدور كتابات التاريخ الاجتماعي في الصراع التحرري الوطني الجاري في هذه المرحلة ، نستطيع ان نحدد الاهمية العلمية ، والوظيفة النضالية لكتاب هاني حوراني ·

ماذا في الكتاب ـ الدراسة ؟

على امتداد صفحات الكتاب وفصوله الخمسة ، يحاول المؤلف ان يرسم لوحة للتركيب الاجتماعي الاقتصادي لشرق الاردن ، وللطبيعة المتخلفة لهذا التركيب ، وما يرتكز اليه من تخلف علاقات الانتاج ، وكذلك ما يولده من تطور مشوه في مجمل التغييرات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية ·

للتمهيد لذلك ، يعود المؤلف الى الجذور التاريخية « القريبة » ، اي ابان الفترة الاخيرة من السيطرة العثمانية، ليستعرض المقدمات الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية للتطور المشوه اللاحق · ومنذ تأسيس الامارة الهاشمية ـ الدولة عام ١٩٢١ ، كأداة محلية للامبريالية البريطانية ، وحتى عام ١٩٥٠ ، يغوص الكاتب في تحليل طبيعة الانماط الاقتصادية المتعددة ، وعلاقاتها المتبادلة ، ليخلص الى تحديد نتائجها وانعكاساتها واثارها على : طبيعة ومميزات هذا التركيب كنمط للتطور الكولونيالي التبعي ، طابع التشوه الحاصل ونتائجه الاجتماعية والسياسية ، الخصائص المميزة لنشوء وتطور الدولة ، ودورها في تثبيت وتكريس ذلك النمط التبعي للتطور ، وكذلك دورها في خدمة الاهداف والمصالح الاستراتيجية للامبريالية البريطانية ، وبالاستناد الى ذلك العرض والتحليل ، يكشف المؤلف عددا من الاستنتاجات والملاحظات ، التي تفسر ، من وجهة نظره ، « الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية » ·

لقد بذل هاني جهدا كبيرا وبارزا في

---

(١) ـ ماركس ، انجلز ، **المختارات** ، الجزء الرابع ، ص ١٦٧ ·

محاولته انجاز ذلك ، والأجابة الى تساؤلاته ، وفي استخلاص استنتاجات بحثه ، بيد انه لم يستطع تجنب الوقوع في العديد من الاخطاء المنهجية والتحليلية وكذلك في الاستنتاج · فكيف استخدم اذن ، تلك المنهجية العلمية لمعالجة موضوعات كتابه ؟ والى اي مدى استطاع الاجابة بالضبط على تساؤلاته وابراز طبيعة التطور المشوه والتبعي ؟ وهل كانت تلك الاستنتاجات تتوافق مع المقدمات والوقائع التي يعرضها ؟ واخيرا ·· هل استطاع ان يفسر تفسيرا مقنعا وصحيحا اسباب « اخفاق حركة التحرر الوطني الاردنية » ؟ ·

ان الاقرار بأهمية هذه الدراسة ووظيفتها السياسية الوطنية ، وكذلك بأهمية مساهمتها الجدية في اغناء كتابة « التاريخ الاجتماعي » للاقطار العربية ، تستوجب ، من وجهة نظرنا ، ابراز وتثمين تلك الاهمية ، وفي اللحظة ذاتها، تستوجب ، تصفية الحساب مع ما نراه من اخطاء · وهذا ما سنحاول القيام به في هذه المراجعة ـ المناقشة ! ·

ملاحظتان اساسيتان ، حول منهجية البحث ، ونطاق الدراسة ، لا بد من توضيحهما ، قبل الدخول في مناقشة الموضوعات الاساسية للكتاب ·

الملاحظة الاولى : بالرغم من ان المؤلف لم يعلن صراحة المنهجية التي اتبعها في بحثه ، فانه قد اشار اليها عرضا ومواربة ، وقد استخدمها في البحث والتحليل والاستنتاج · واذا كان استخدامها الصائب في احيان كثيرة، والمرتبك في احيان اخرى ، فان قول بضع كلمات حول الاشارة العرضية لتلك المنهجية ، امر تفرضه طبيعة المراجعة ـ المناقشة ، مثلما تفرضه اهمية الكتاب التي اشرنا اليها اعلاه ·

في سياق نقد المؤلف ، في مقدمة كتابه ، لما كتب عن تاريخ الاردن وقال « ان ما كتب هو وصف احداث من وجهة نظر مضادة للجماهير بالمعنى الوطني والطبقي للكلمة · اما تاريخ الحركة الجماهيرية والوطنية المناهضة للاستعمار ولسياسة الطبقة الحاكمة القائمة على الولاء للامبريالية والعداء للديمقراطية والحريات، فانه لم يكتب بعد » · وبما ان المؤلف اراد ان يكتب ، « التاريخ الاجتماعي » للاردن ، من موقف نقدي لما كتب ، فان موقعه ومنهجيته في الكتابة ، سيكونان بلا شك ، من وجهة نظر « غير مضادة للجماهير » اي من « وجهة نظر الجماهير بالمعنى الوطني والطبقي للكلمة » · بيد ان الاكتفاء بذلك لتحديد منهجية البحث ، غير كاف · ذلك لانه يفتقد الى الدقة اولا ، ويدعو الى طرح الكثير من التساؤلات والتفسيرات الغامضة ثانيا ·

فالحركة الجماهيرية والوطنية المناهضة للاستعمار ، هي تعبير عام ، وتحمل في احسن الاحوال ، معنى محددا ، هو المعنى الديمقراطي ، الذي يضم سائر المنهجيات والايديولوجيات ووجهات النظر ، من البرجوازية والبرجوازية الصغيرة حتى العمالية والماركسية او المادية التاريخية ·

ان الصراع الدائر بين منهجيات البحث التاريخي وكتابة التاريخ ، **لم يدع مجالا** للمواربة او التملص من الاعلان المحدد ، بأية منهجية يكتب الباحث · ان المؤرخ اللبناني التقدمي وجيه كوثراني ، قد أثار الشكوك حول ما اسماه بمنهجية او «وجهة نظر الجماهير » ، والتي عبر عنها في مقدمة كتابه « الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ » الصادر عام ١٩٧٥ والذي قال في مقدمته « اطمح واحاول ان اقرأ التاريخ من وجهة نظر الجماهير العربية ، وهي وجهة نظر قومية اولا وقبل كل شيء » · وبرغم

الدهشة والصمت الذي قوبلت به هذه « المنهجية الجديدة » ، الا ان مسعود ظاهر ، قد اماط اللثام مؤخرا عن حقيقة ذلك ، وانتقد بشكل عام القائلين بها ، وموضحا « ان الكلام عن جماهير شعبية دون تحديد علمي لهذه الجماهير في الزمان والمكان والموقع ، وفي علاقات الانتاج ، لن يقود الى اكتشاف «منهجية» جديدة » (٢) ، لذلك فقد اكد في نهاية مقاله على المنهجية التي يقترحها — وهي ليست جديدة كما يقول — بأنها التي تستند الى « جماهير القوى المنتجة المسحوقة » (٣) . وهكذا نجد انه ، رغم المحاولة الجادة للتدقيق والتوضيح ، الا انه لم يعلن بالضبط المنهجية العلمية المحددة ، والمتعارف عليها في الكتابة العلمية للتاريخ ، وهي المنهجية المادية التاريخية .

ان بحثا جديا وهادفا ، ككتاب حوراني ، يدخل طرفا في الصراع الذي اشرنا اليه ، كان يفترض أن يحدد ، منذ البدء ، وبالضبط ، اتباعه لمنهجية المادية التاريخية ، التي استخدمها فعلا والى حد كبير في دراسته ، وبصرف النظر عن طبيعة هذا الاستخدام .

الملاحظة الثانية : لقد اهمل الكاتب ، وبشكل واضح نطاق دراسته . اي انه لم يحدد موقعها ومكانتها في علم التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الذي ناقش ودرس ، وما يزال ، اوضاع وتاريخ بلدان مشابهة لشرق الاردن ، وهي البلدان « المتعددة الانماط الاقتصادية » او التي اصطلح على تسميتها ببلدان « العالم الثالث » . لقد انطلق هاني من القول ، ان التطور الاقتصادي والاجتماعي في الاردن هو « فريد نوعا » عن سمات التطور الكولونيالي في غالبية الاقطار التابعة والمتخلفة » . ومع اننا نوافق تماما على ذلك ، من حيث المبدأ ، حيث لكل بلد خصائصه ومميزاته المحددة ، — وهي في الاردن اكثر خصوصية ، الا اننا لا نوافق على عدم ادراجه ضمن مجموعة تلك الدول التي خضعت للسيطرة الاستعمارية المباشرة او غير المباشرة ، وتميزت بماض تاريخي متميز، فعكست بالتالي مظاهر متشابهة وطرق تطور متقاربة . ان التأكيد على ذلك ، ولفت نظر القارىء اليه ، يساعد في تحديد نطاق قضية البحث المطروحة امامه، ويسهل بالتالي ، عملية احالته المستمرة الى الظاهرات المشابهة او التأشير على ما هو خاص وجديد ومتميز وفريد في الوضع الاردني ، واعتبار ذلك اضافة ومساهمة جديدة في التوجه الواسع ، على الصعيد العالمي ، لدراسة قضايا وخصائص ومشكلات بلدان « العالم الثالث » اي « البلدان ذات الانماط المتعددة » وبصدد ذلك كتب ماركس بوضوح مؤكدا « ان الاحداث متشابهة الى حد مدهش ، ولكنها اذ تجري في وسط تاريخي مختلف تؤدي الى نتائج متباينة تماما . ومن السهل ايجاد المفتاح لفهم هذه الظاهرة اذا ما درسنا كل واحدة من عمليات التطور على حدة ثم قمنا بمقارنتها مع بعضها البعض » (٤) . ان ادارة الظهر لنطاق البحث وابرز نظرياته ، وعدم وضع اسس المقارنة للسمات والمظاهر المتشابهة ، اوقع الكاتب

---

(٢) — مسعود ظاهر ، **مقالة في مجلة « الفكر العربي »** ، العدد الثالث ، اب ١٩٧٨ ، ص ٩٧ .

(٣) — **المصدر نفسه** ، ص ٩٧ .

(٤) — « ارشيف ماركس ، انجلز » ، الجزء الاول . نقلا عن « **اسيا تختار** » ، دار التقدم ، موسكو ، ص ٧٥ — ٢٩ .

في الكثير من التكرار لما هو مشترك في دول العالم الثالث من جهة ، والى طمس اهمية ما هو متميز و « فريد نوعا » في وضع الاردن من جهة اخرى · ان نظريات ومداخل نظرية واستنتاجات كثيرة طرحت حول دراسة البلدان « ذات الانماط المتعددة » قام بها باحثون ومفكرون تقدميون على الصعيد العالمي ، وهي تشكل بمجموعها اسهامات جدية وكبيرة الاهمية لفهم اوضاع بقية البلدان ، ولا يمكن لاية دراسة تعالج قضية مشابهة ، وتقدم نفسها بانها تساهم في هذا المجال ، ان لا تقول رأيا بذلك، وتحدد بالتالي موقعها من نطاقه ، سواء بقبول تلك المداخل النظرية ، او رفضها ، مع التوضيح اللازم للموقف الثاني في حال وجوده ·

حول استنتاجات عرض وتحليل تطور التركيب الاقتصادي الاجتماعي ونتائجه

في نهاية الفصل الاول ، وكذلك في بداية الفصل الخامس والاخير ، يورد المؤلف عددا من الاستنتاجات حول طبيعة التركيب الاقتصادي الاجتماعي ابان الفترة الاخيرة من السيطرة العثمانية فيقول « ان البلاد كانت ككل ذات اقتصاديات طبيعية ـ معيشية ، ما قبل رأسمالية ، وانها ذات انماط انتاجية متعددة » وان كون البلاد متعددة الانماط قد اضفى « صفة الانقسام والعزلة الاجتماعية على الجماعات الاقتصادية المرتبطة بهذه الانماط » ص ٣٥ · وفي بداية الفصل الخامس والاخير يعود الى تلخيص نتائج بحثه حول هذه الفترة ، ليؤكد : « ابرز الوضع التاريخي بالاردن انذاك واقع تعددية انماط الانتاجية ، حيث هي غالبا انماط انتاج بدائية وتقليدية (···) وحيث الانتاج الرئيسي للمجتمع كان مكرسا للاستهلاك المباشر ولتلبية حاجات الاكتفاء الذاتي في حين كان الحيز المعين من الفائض ، المكرس للسوق والمبادلة ، محدودا للغاية ، وبالتالي كانت مكانة العلاقات البضاعية والانتاج البضاعي ثانويا » ص ١٣٥ · وفي الصفحة التالية ، يضيف قائلا « ان عدم تطور الانتاج البضاعي والتبادل البضاعي وبالتالي عدم تكون سوق محلية، لا يعود فقط الى الشروط الموضوعية الداخلية وانما بسبب الفوضى الادارية وعدم استقرار السلطة وهيمنتها ، كما انه بسبب عمق الاستنزاف العثماني » ص ١٣٦ ·

وترتيبا على استنتاجه بوجود الانقسام والعزلة الاجتماعية للجماعات الاقتصادية» يخلص بصدد ذلك الى « ان الاردن لم يتكون كمجتمع من قبل ، او كتشكيل اقتصادي ، وانه بالاحرى عدة مجتمعات» اما لماذا ؟ فيجيب بان « **المجتمع يفترض** سيادة نمط محدد من الانتاج او لنقل سيادة نمط رئيسي من الانتاج تقوم الى جانبه انماط اقتصادية اخرى ·· » ص ١٥٣ ، ونظرا لانعدام سيادة نمط اقتصادي محدد على صعيد البلاد ، والتي تسمح لنا باطلاق صفة « مجتمع موحد»، وبسبب تفسخ اشكال المشاعية للملكية والانتاج ، فقد توفرت شروط « وحدة مناطقية » ـ حسب اعتقاد المؤلف ـ حيث نجد انه « في كل منطقة من البلاد تفسخت فيها اشكال المشاعية للملكية والانتاج ، كانت تتجسد وحدة مناطقية اساسها سيادة نمط اقتصادي اكثر تطورا » ص ٣٧ ·

ان الكاتب ، اذ استطاع ان يفسر اسباب « العزلة الاجتماعية للجماعات» و « عدم تكون الاردن كمجتمع » لانه كما يقول « بالاحرى عدة مجتمعات » بالاستناد الى تأكيده على ان البلاد « ذات اقتصاديات طبيعية ـ معيشية ما

قبل رأسمالية » ، فانه لم يسم لنا ذلك « النمط الوسيط » الذي وصفه بـ « الاكثر تطورا » واستطاع تجاوز « العزلة المشاعية ـ الطبيعية » لكنه عجز عن الارتقاء الى « وحدة كيانية » لمجتمع الاردن وبقي منجزا « الوحدة المناطقية»، الاساس المادي لمقولة « عدة مجتمعات » ؟ وفي الواقع ، فان حوراني هو الذي عرض واستنتج لنا طبيعة التركيب الاقتصادي الاجتماعي ونتائجه ومظاهره ابان تلك الفترة ، بشكل اوضح واكثر تفصيلا ، بحيث ينسق ذلك الاساس المادي « للعزلة » و « الوحدات المناطقية » ٠

لتأكيد ذلك ، نقتبس بعض الاستنتاجات المتعلقة بهذا الموضوع ٠ في حديثه عن اوضاع الزراعة والفلاحين انذاك كتب يقول « ان شيئا من الاستقرار والهيبة قد توفرت ، ومهدت السبيل للاستقرار الزراعي » ص ٢٢ ، وان « جميع الجماعات السكانية ذات الانماط الطبيعية كانت على صلة وطيدة بالتجارة ، وان تجارة القبائل كانت قوية منذ فترة بعيدة (٠٠٠) والتي كانت قادرة لا فقط على تجديد انتاجها بفضل مراعيها الواسعة وهيمنتها ٠٠٠ وانما بفضل اقتطاعها الفائض من الفلاحين من جهة ، ومن القوافل التجارية وقوافل الحج من جهة اخرى » ص ٢٣ ٠ اما عن الفلاحين فقد كانوا « القوة المنتجة الرئيسية في البلاد » ص ٢١ ٠ وعندما يقيم طبيعة تلك الفترة عموما يقول « ان فترة نهاية القرن ١٩ كانت فترة ازدهار الاقتصاد البضاعي والعلاقات البضاعية الداخلية ، اذ كانت الظروف الاجتماعية والطبقية مهيأة لمثل هذا التطور ، وكانت الزراعات ذاتها ذات طابع سوقي ـ بضاعي » ص ٢٤ ٠ وعن المشاعية يستطرد في تقييمه قائلا « ان النصف الثاني من القرن الماضي قد شهد تفسخ العلاقات المشاعية التي تحكم الزراعة وملكية الاراضي (٠٠٠) وان التمايز الطبقي قد بلغ في اواخر القرن ١٩ مداه في الكرك » ص ٢٥ ٠ وفي « السنوات الاخيرة من القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي ، اخذت القرى تظهر كمراكز ثابتة للفلاحين وسط اراضيهم الزراعية » ص ٢٥ ٠ وكذلك فان « انشاء الخط الحديدي (١٩٠٠ ـ ١٩٠٨) كان احد الدوافع الهامة لجملة التطورات الايجابية بالنسبة لشرق الاردن ، اذ الحق ضربة قاصمة بالهيمنة البدوية » ص ٢٨ ، كما وساعد انشاء الخط « على انتعاش العلاقات البضاعية والنقدية وعلى ربط البلاد بالسوق الخارجي ووسع نطاق التجارة ، وكون ظروفا مناسبة لتتطور الاسواق المحلية » ص ٢٨ ٠ وهكذا فان « كل الشواهد المختلفة خلال القرن الماضي اظهرت ان التحول نحو الاقطاعية هي عملية جارية في كل بقعة زراعية في البلاد » ص ٣٠ ٠

وعندما نقوم بجمع وترتيب الافكار والاستنتاجات الواردة ، وغير المختلف على صحتها ، يمكننا ان نلخص التركيب الاقتصادي الاجتماعي لشرق الاردن ابان الفترة الاخيرة من السيطرة العثمانية وقبيل الحرب العالمية الاولى بالقول ، ان هذه البقعة التي تحولت لاحقا الى كيان تتعايش فوقها انماط اقتصادية متعددة ، حيث اخذت الانماط الاشد تخلفا في التفتت والتفسخ ، وافسحت المجال لنمو وتطور ومن ثم اتساع انماط متقدمة زراعية وبضاعية ، بل واظهرت بشكل بارز عناصر لانماط رأسمالية ، مثلته التجارة واتساع التبادل ٠ حيث جرت عملية « زحف النقود المظفر » ـ كما يسميه انجلز بشكل واسع وبارز ـ وبذلك ، دخل قطاع كبير من «الجماعات» و « التجمعات » السكانية في علاقات

اجتماعية مع بعضها البعض ، واخذت تتحطم جدران العزلة فيما بينها والتي ارضتها سابقا قوة انماط المشاعية والانتاج الطبيعي الاكتفائي · وهكذا حيث اخذت تتحطم تدريجيا ، وبلا رحمة ، الشروط المادية للعزلة ، بقيت العلاقات القبلية والعشائرية والمناطقية ، تلعب ادوارا هامة في الانقسام الاجتماعي · حيث فرضت ، من جهتها ، بوادر وظاهرات التمايز الطبقي ، انقسامات ، اقل حدة على اساس الطبقات ·

ان هذه الخلاصة تظهر بوضوح ، انعدام شروط العزلة ، كظاهرة اجتماعية اقتصادية ، واتخاذ الانقسام في المجتمع، اسبابا اجتماعية وطبقية اضافة للاسباب القديمة الاخرى (العشائرية ـ القبائلية والبطريكية والمناطقية) ·· وحيث لم يتحول « مجتمع شرق الاردن في هذه الفترة ، ولا في الفترات اللاحقة الى « مجتمع موحد » بالمعنى الاقتصادي ـ الاجتماعي ، الذي يرتبط ، بسيطرة اسلوب انتاج محدد (حيث يقال عندئذ ، مجتمع عبودي ، او اقطاعي او رأسمالي ·· الخ مثلا) ·· فان سكان الاردن انذاك كانوا يشكلون مجتمعا في مرحلة انتقالية ، كان يفرضها التعدد في الانماط الاقتصادية ، وهي سمة جميع « المجتمعات » في الدول ذات الانماط المتعددة : تشكل وتمايز طبقي جنيني ، تداخل في علاقات الانتاج لمختلف انماطه الاقتصادية ، بعض مواقع العزلة التي تفرضها بقايا العلاقات العشائرية القبلية ، انقسام حاد في المجتمع ، متعدد الاسباب (علاقات قديمة اضافة الى العلاقات الجديدة التي يفرضها نمو انماط اقتصادية جديدة) ·

وفي معرض انتقاده لاستنتاج « جميل هلال » في كتابه « التركيب الاجتماعي الاقتصادي في الضفة الغربية » عن تشكل الطبقات في الاردن قال حوراني بان « ليس صحيحا الزعم القائل بأن الطبقات لم تتشكل قبل نشوء الدولة ـ الادارة المركزية في الاردن وانما تشكلت بعدها » · ونحن اذ نوافق على هذا النقد ، الا اننا لا نوافق على رأي المؤلف في استطراده في النقد وقوله « المشكلة ان الطبقات والفئات تشكلت وتمايزت لاعلى مستوى البلاد والمجتمع كطبقات وفئات اجتماعية اقليمية ، فذلك لم يكن ممكنا تاريخيا ··· انما ظاهرة تبرقش طبقي » ص ٣٦ · والذي يهمنا هنا اعتراف الكاتب بوجود تشكل الطبقات الاجتماعية في مناطق شرق الاردن في تلك الفترة ، الذي يعني بداية تفسخ الشروط المادية للعزلة الاجتماعية ، واذ اكد المؤلف على عدم تكونها على اساس اقليمي (كيان الاردن) فانه اكد وجودها وتكونها على صعيد المناطق ، ويظهر هذا القسر في تشكل ووجود الطبقات ، الرغبة في توظيف هذا الاستنتاج لخدمة « الوحدة المناطقية » لمجتمعات شرق الاردن · بيد ان عملية تشكل الطبقات ، التي يقرها حوراني ، هي عملية ارقى واوسع من تشكيل « الجماعات » · وهكذا وباعترافه بوجودها وتشكلها ، تصبح هي الظاهرة العلمية الثابتة ، التي يفحص بموجبها مستوى تطور المجتمعات · حول تعريف الطبقات كتب لينين معرفا ان « كلمة طبقات تطلق على جماعات (لاحظ جماعات) واسعة من الناس تمتاز بالمكان الذي تشغله في نظام الانتاج الاجتماعي، محددا تاريخيا بعلاقتها (التي يحددها ويكرسها القانون في معظم الاحيان) بوسائل الانتاج ، بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبالتالي بطرق الحصول على الثروات الاجتماعية وبمقدار حصتها من هذه الثروات · ان الطبقات هي جماعات من الناس تستطيع احداها ان تستملك عمل جماعة اخرى بسبب

الفرق في المكان الذي تشغله في نمط معين من الاقتصاد الاجتماعي » (٥) ٠

وبعد تفنيدنا للاساس المادي والاقتصادي لاطلاق « صفة العزلة الاجتماعية » و « الوحدة المناطقية » و « تعدد المجتمعات » ٠ لا بد من قول كلمة اخيرة حول الاستخدام الخاطىء « لسيادة نمط اقتصادي اكثر تطورا » واتخاذه مقياسا لتكون « مجتمعات المناطق » وذلك بأحالة المؤلف الى مدخل نظري ، اصبح شائعا ومعترفا به لدى الاقتصاديين التقدميين المهتمين بالمجتمعات « ذات الانماط المتعددة » ٠ يقول الاقتصادي السوفياتي الدكتور بوبوف حول ذلك « لم يصبح بعد اي من الانماط الموجودة في اقتصاد البلدان النامية المتعددة الانماط ، بما في ذلك (لاحظ بما في ذلك) النمط الرأسمالي في بلدان الوجهة الرأسمالية شاملا ومسيطرا حتى النهاية في اطر الاقتصاد القومي (٠٠٠) وهكذا فان سمة اقتصاد غالبية البلدان النامية ليست في ان هذا الاقتصاد متعدد الانماط فحسب وانما في عدم تمتع اي من هذه الانماط القائمة بالسيطرة » (٦) ٠ والسؤال هنا ، ماذا يمكن ان نقول عن الاردن ، الاكثر تخلفا ، وفي تلك الفترة ، عن « سيطرة نمط اكثر تطورا » على صعيد المناطق فحسب ؟ ٠

التطور التابع ـ المشوه والتركيب الاقتصادي الاجتماعي (١٩٢١ ـ ١٩٥٠)

في ملاحظاته الختامية حول التركيب الاجتماعي ، توصل الكاتب الى انه قد « طرأ تطور ملموس على التركيب الاجتماعي لشرق الاردن خلال العقود الثلاث (بين ١٩٢١ ـ ١٩٥٠) ص ١٧٨ ٠ وقد تمثل هذا التطور في : اضعاف الانماط الانتاجية المشاعية ، تحطيم الملكية المشاعية بسبب السياسة الكولونيالية ، تحويل المدن والبلدان في نهاية الاربعينات « على اساس السوق والتبادل الصناعي ٠ وكذلك ، تم خلال هذه الفترة التغلغل الرأسمالي للريف وتحولت المدن « كأسواق للريف » كما ونمت الفئة البيروقراطية من العسكريين والموظفين التي شكلت قاعدة النظام الاجتماعية ، وتغيير التركيب الاجتماعي للسكان ، واصبح الاردن « قبيلة التجار » ٠ ويبرز المؤلف طبيعة التشوه الحاصل في التركيب الاقتصادي الاجتماعي وفي تطور البلاد ، فيوجزه بالدور الفريد والمتميز للدولة كأداة استنزاف بيد الكولونيالية البريطانية ،

وان هذه الدولة ومن ورائها الكولونيالية كانت تلعب دورا اقتصاديا كبيرا وحاسما في طبيعة التركيب الاقتصادي الاجتماعي وتطوره المشوه ٠ لقد نمت خلال هذه الفترة فئة التجار الكومبرادوري ، وتحطمت العلاقات والملكية المشاعية دون ان تقوم اية تنمية اقتصادية ، وخاصة صناعية ، في البلاد ٠ مما ادى الى نزوح اعداد واسعة من الفلاحين وانصاف الفلاحين ، للعمل في المدن في قطاع الخدمات والتجارة او في المؤسسات البريطانية ٠

وهذا كان يدفع بهم في احيان كثيرة للهجرة الى الخارج ، وخاصة الى فلسطين ، حيث ان « احد مظاهر التغلغل الرأسمالي في الريف هو اعادة تشكيل التركيب الاجتماعي وانحدار المزيد من

---

(٥) ـ يوري بوبوف ، **الاقتصاد السياسي الماركسي والبلدان النامية** ،وكالة نوفوستي ١٩٧٧ ، ص ١٠٧ ٠

(٦) ـ **المصدر نفسه** ، ص ١٠٤ ٠

الفلاحين الى مصاف البروليتاريا » ص ١٤٣ ٠

ويعطي هاني اهتماما بارزا لدور السيطرة الكولونيالية الخاص والمتميز في التمهيد لنمط التطور الكولونيالي المشوه وترسخه ٠ وكذلك لدور الدولة « كجهاز كولونيالي » حيث اعطيت هي والجيش « مكانة اقتصادية متنامية جعلت منها قطاعا موظفا للقوى العاملة (٠٠٠) واصبحت موارد الدولة هي العامل الحاسم في تنمية التركيب الاقتصادي الاجتماعي » ص ١١١ ٠

لقد توسع المؤلف في عرض وتحليل اسباب التطور المشوه والتبعي وابراز اشكاله ومظاهره الاجتماعية والاقتصادية، الا انه عاد ليكرر ، على ضوء الاستنتاجات الجديدة لهذه الفترة ، ما سبق ان قاله في الفترة التي سبقت نشوء الدولة ، عن المجتمع الاردني ، بالرغم من جميع التغييرات والتحولات التي تمت خلال العقود الثلاثة وعن الدور الخاص للنمط الكولونيالي ، فكتب يقول « اخذ المجتمع الاردني خلال فترة ٢١ ـ ٥٠ يتكون (٠٠٠) لكن المجتمع الاردني مع ذلك لم يتبلور في وحدة مجتمعية واحدة ولم يستقر على علاقات محددة بسبب عدم سيادة نمط انتاجي رئيسي » ص ١٨١ ٠

فاذا كان التدخل والتعقيد في التركيب الاقتصادي الاجتماعي والانماط الاقتصادية وعلاقاتها قبل نشوء الدولة يعكس صورة مشوشة وغير واضحة المعالم للعلاقة بين الفئات والطبقات الاجتماعية ، ويسمح بسبب ذلك للاجتهاد واختلاف وجهات النظر حول هذه القضية ، فان التطورات اللاحقة قد حسمتها ٠ ولا يعني الاصرار على صحتها الا موقفا مسبقا لم يخبرنا المؤلف بأسبابه ومبرراته ! ٠

ويقع المؤلف في خطأ بارز وكبير عند تناوله لمسألة الفئة البيروقراطية ودورها في الدولة والمجتمع وتطور البلاد ، حيث يضع امامها امكانية اكتساب طابع وطني ديمقراطي ، او نحو اتجاه وطني ديمقراطي وحول ذلك كتب يقول « ان الدور السياسي الذي لعبته النخبة المثقفة من ابناء الاسر والعشائر النافذة في هذه الحقبة كان محدودا ، حيث اضطلع بالدور الرئيسي السياسي الموظفون والمحترفون السياسيون (٠٠٠) ان صغر حجم البلد ، وعدم الحاجة الى كادرات كبيرة العدد ، لم يسمح ايضا باكساب البيروقراطية طابعا وطنيا ديمقراطيا او لنمو اتجاه وطني ديمقراطي فيها » ص ١٨٠ ٠ والسؤال هو ما علاقة الـ « كادرات كبيرة العدد » و « صغر حجم البلد » باضفاء صفة سياسية على فئة او طبقة اجتماعية ؟ ان المنظرين والاقتصاديين البرجوازيين هم وحدهم الذين يبحثون عن دور سياسي اساسي للجغرافية ٠ هذا اولا ٠ اما ثانيا، فان « النخبة » التي يتحدث عنها من ابناء الاسر والعشائر ، هي جزء من السلطة ، اي جهاز الدولة الاداة الطيعة بيد الكولونيالية ، التي عرض لنا حورانسي نفسه دورها الخاص والمتميز و «الفريد» في خدمة المصالح والاستراتيجية الامبريالية البريطانية في المنطقة ، ومن ثم دور الدولة كأداة امبريالية في تشويه وتبعية التطور الاقتصادي للبلاد ٠

ان « الفئة البيروقراطية » العسكرية والمدنية ، وعلى حد سواء ، في الاردن وفي اي بلد « متعدد الانماط الاقتصادية » هي فئة طفيلية متعيشة ، لا علاقة لها بالانتاج، والطبقات المنتجة ، الا علاقة الطفيلي المستهلك ، وبالتالي ليس لها علاقة بالقطاعات الاقتصادية الانتاجية ، التي يمكن ان تدفع بشرائح منها ـ كما في البرجوازية الوطنية ـ الى اتخاذ مواقف وطنية وديمقراطية ، سواء ضد الاستعمار او ضد الرأسمال واحيانا ضد التجارة الخارجية ، حفاظا على مصالحها الاقتصادية هي بالذات ، والتي قد تكون

في فترة تاريخية ما ، متوافقة ومتماثلة مع اهداف ومصالح القـــوى والطبقـات الاجتماعية الوطنية والديمقراطية الاخرى.

لقد اكدت « الفئـــة البيروقراطيـــة » العسكرية والمدنية في دول العالم الثالث، وبالرغم من ان جذور معظمها يعود الى الطبقات والفئات الديمقراطية والبرجوازية الصغيرة (الفلاحية والمدينية) ـ وليست من « ابناء الاسر والعشائر » كما هي الحال في الاردن ـ انه سرعان ما تنتفي لديها كل السمات الديمقراطية ، وتبقى لفترة محتفظة ببعض الشحنات الوطنية ، الى ان تتخلى عنها بالتدريج ، او بصفقات خيانية صارخة ، كما هو حاصل امامنا في النظم العربيـــة ذات الطبيعـــة البيروقراطية ، رغم التقـــدم النسبي لتراتبها الاجتماعي .

من ذلك نصل الى تاكيد قولنا ، بخطأ الاستنتاج ، حول توفر امكانيـــة مـــا « لاكتساب » البيروقراطية العشائريـــة والاسرية المثقفة بعض سمات ديمقراطية وطنية .

كيف ولماذا قامت الحكومـــات المحليـــة (١٩٢٠) ؟

عند تقييمه لفترة قيام الحكومـــات المحلية بين شهري اب ١٩٢٠ ونيســـان ١٩٢١ ، اي حتى قيام الامير عبداللـــه بتشكيل حكومة مركزية للبلاد ، يستخلص المؤلف جملة من الملاحظات حول هـــذه التجربة ، ويتخذها كـ « مقياس » لدرجة التطور الاقتصادي الاجتماعي في البلاد اول هذه الملاحظات هي تأكيده على « ان ظهور الحكومات المحلية هو بمثابة اعلان عن نضج اجتماعي ـ سياسي في مختلف مناطق البلاد . ففي سائر المناطق تقريبا جرى الافصـــاح عن الحاجة الى وجـــود سلطة او هيئة سياسية ، اي بناء فوقـــي ملائم عكس نفسه في شكل حكومـــات محلية » ص ٤٩ . الخطأ الاول في هـــذا الاستنتاج يتجسد ، في كون الفتـــرة القصيرة التي قامت فيها الحكومات ، لـــم تتعد الثمانية اشهر ، ولا يمكن بالتالـــي اتخاذها مقياسا لدرجة تطور المجتمـــع ، وقاعـــــدة للتحليـــل نشيد عليهـــا استنتاجاتنا . فالتحولات والظاهرات التي يمكن اتخاذها كمقياس هي التي تجري على « اساس عصر ، او مرحلة تاريخية كاملة ، على اساس طول وقصر فتـــرة الانتقال والعوامل المؤثرة فيها » (٧) . ان اية تحولات تجري هنا وهناك ، ومهما بدت هامة وكبيرة في لحظة قيامهـــا ، فانها تبقى تحولات كمية ، تحولات فترة انتقال ، تؤثر فقط وتساعد على التنبـــؤ في المراحل اللاحقة . ولذا فان اسقـــاط هذا المقياس يسقط استطرادا اعتبـــار ظهور الحكومات المحلية « بمثابة اعـلان عن نضج اجتماعي سياسي في مختلـــف مناطق البلاد ، وهو الخطأ الثاني في هذا الاستنتاج .

بيد ان الكاتب اذ يفسر لنا ظهـــور الحكومات المحلية نتيجة النضج فـــي « مختلف مناطق البلاد » وحيث جـــرى الافصاح عن الحاجة الى وجود هيئـــة سياسية ، اي بناء فوقي ملائم ، لا يخبرنا، كيف تم انعكاسه في سلطات محليـــة ، وهل هو حقا تلبية للحاجة التـــي تـــم الافصاح عنها . واذا ما اخذنا بذلـــك الافتراض القائل بان تلك الحاجة تقررها فعلا شروط ومستوى الوضع الاقتصـادي الاجتماعي والسياسي ، فأن تلك الحاجـــة لم تكن مقتصرة ـ كما عبـــرت عنهـــا حكومة اربد وعجلون ومار يوسف ـ على كيان اردني وحكومة مركزية للبلاد ، بـــل واعتبار الكيان الاردني جـــزءا مـــن سورية ، الولاية الموحدة الاجزاء ، ابـــان السيطرة العثمانية ، وباعتبار الحركـــة

---

(٧) ـ **آسيا تختار** » ، مصدر سبـــق ذكره ، ص ٥٦ .

الاستقلالية والقومية في الاردن ، تمثل جزءا او امتدادا لما هو في سورية ٠

والمؤلف اذ يعتبر ان حكومة أربد هي واحدة من « المناطق والمجتمعات الاردنية » ، يهمل في تفسيره ، دعوتها للحكومات المحلية الاخرى لـ « تشكيل حكومة وطنية موحدة وجيش واحد تحت زعامة امير عربي » ص ٥١ ، ولا يعتبرها الاساس في استنتاجه ، (وهي الاكثر تطورا وآنتي بامكانها فرض هيمنتها على المناطق الاخرى) للتعبير عن الطبقات والفئات الاكثر وعيا في الاردن انذاك ، والتي كانت بمثابة الاستجابة ، الاكثر موضوعية للحاجة الى هيئة سياسية موحدة ، حيث عرقلت قيامها عوامل واسباب اخرى (محلية وخارجية) ٠

واكثر من مرة يؤكد الكاتب في الوقت ذاته على دور الكولونيالية البريطانية ورجالاتها في قيام هذه الحكومات ، وخاصة فيما اورده من نص للورد كرزون التوجيهي الى صموئيل (المندوب السامي على فلسطين) والذي جاء فيه « ان الخطوة الاولى يجب ان تبدأ بأرسال عدد قليل من الضباط والسياسيين الاكفاء الى اماكن السلط والكرك (١٠٠) ويجب ان تقتصر واجبات هؤلاء الضباط على تشجيع الحكم الذاتي المحلي واعطاء المشورة آنتي يطلبها الاهلون ، وعليهم ان يساعدوا على تشكيل هيئات البلديات الادارية في المناطق » ص ٤٣ ٠ وقد عمل صموئيل فعلا ، بهذا التوجيه ، بالرغم عن الافصاح آنذي عبر عنه صموئيل بالذات ، عن الحاجة الى هيئة سياسية لكل البلاد !

ان عدم الاكتراث بالوجه الاخر من الوقائع المادية والسياسية المحلية ودور السياسية البريطانية ، كعوامل خارجية ، في اقامة الحكومات المحلية يؤكد اصرار المؤلف على تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية ـ التاريخية ، ظاهرة الحكومات المحلية وفق تفسير اقتصادي ومادي غير جدلي ، انطلاقا من فكرة مسبقة ، وهي ان « اهمية وقيمة هذه الحكومات تكمن جوهريا في طبيعتها الاجتماعية » ص ٤٤ ٠ اما الدور البريطاني فانه يقوم بتصغير حجمه وتقليل اهميته بالقول « فالواقع ان مساعدة هؤلاء المستشارين البريطانيين كانت الى حد كبير فنية وقانونية » ص ٤٦ ٠ مع اننا نعتقد ، كما يقول المؤلف ، بأن السلطات الكولونيالية كانت تعارض وتحرض حكومتي « السلط والكرك ضد أربد » ص ٥١ ٠

قيام الدولة ـ الامارة : شروط قيامها ، تطورها ، دورها

يشدد المؤلف في دراسته بطبيعة التطور المشوه للتركيب الاقتصادي ـ الاجتماعي لشرق الاردن ، يشدد على الدور الرئيسي والفاعل للدولة في تثبيت وترسيخ نمط التطور الكولونيالي ، الذي فرضته الكولونيالية على البلاد ٠ وهو اذ يلتقط هذا الموقع المؤثر والفعال للدولة ، فانه يخصص فصلا كاملا لدراستها : كيفية نشوئها ، تطورها ، علاقتها بالكولونيالية (كأداة بيدها) علاقتها بالطبقات والفئات الاجتماعية المعبرة عن الانماط الاقتصادية المتعددة ٠ واخيرا دورها الاقتصادي (الذي هو جوهر دورها السياسي) في التطورات والتحولات الاقتصادية الاجتماعية ٠

وعلى ضوء دراسته للطابع المميز للدولة ، يخلص الكاتب الى القول بأنها برزت منذ البداية كنتوء خارجي بالنسبة للتركيب الاقتصادي الاجتماعي ، وليس كمحصلة للتوازن الداخلي ، حيث برزت كدولة « هجين » ٠ ثم يضيف ، بأنها افتقدت صلتها بالتركيب الاجتماعي الاقتصادي ، بوصفها اداة في يد الامبريالية وجهازا كولونياليا ، حيث

يتميز الجهاز بهيمنة فئة مستقلة عن المجتمع والدولة ، واخذت تتشكل فئة محترفة من السياسيين والضباط والموظفين الذين شكلوا ذواة البرجوازية البيروقراطية المرتبطة مصلحيا مع الامبريالية · واخيرا يبرز الطابع المميز للدولة وطابع التناسب بين مضمونها وجوهرها كجهاز كولونيالي، وبين شكلها ووظائفها من خلال اعتمادها ، اساسا ، على الدعم المالي البريطاني ، حيث « كانت عملية تشكيل الدولة كجهاز كولونيالي بغلاف محلي ـ عربي ، هي العامل الرئيسي الثاني في التمهيد لنمط خاص من التطور التبعي والذي كان عماده الانفاق والمساعدات » ص ١٢٩ · اما الوظيفة الخاصة للدولة وجهازها ونتائج هذه الوظيفة ، فقد كانت « ليس فقط تأمين الاستقرار الداخلي ، وانما ضمان الاستقرار والامن لمناطق الاقتسام البريطاني الفرنسي في فلسطين وسورية وضمان الاستيطان الصهيوني في فلسطين » ص ١٣٠ ·

يظهر توغل المؤلف في البحث العميق لطبيعة الدولة واهداف السيطرة الكولونيالية ، توجهها لاحتواء كامل دور ووظيفة الدولة · الا ان الخلل في بحثه، يبرز في رفعه للخصوصية والتمييز في نموذج السيطرة الكولونيالية في شرق الاردن ، الى درجة النفي الشديد لاية مطامع او مصالح اقتصادية : « ان الفريد والاصيل في نموذج السيطرة الكولونيالية في شرق الاردن ، هو ان الامبريالية لم تستهدف من سيطرتها الانتفاع من ثروات البلاد وخاماتها الطبيعية ولا النهب الاستعماري للثروات الطبيعية ولا الاستنزاف ولا الاستثمار التقليدي لها (···) وكان النمط الخاص من التطور التبعي للاقتصاد الاردني حصيلة سيطرة كولونيالية تستفيد من موقع الاردن الاستراتيجي اساسا لغايات النهب والسيطرة والنفوذ خارج الاردن وليس فيه » ص ١٣٠ · ان ذلك الطابع المطلق للاستنتاج ، بأن الكولونيالية البريطانية ، لم ترغب ، ولم تعمل على استغلال الاردن ونهبه واستنزافه · خاصة وان الكاتب يؤكد المفهوم ذاته وبصيغ مختلفة، ولكن بمعنى واحد ، في عدد من صفحات الكتاب ·

والواقع اننا اذ نوافق على « النموذج الفريد والاصيل في السيطرة الكولونيالية » وعلى الاهداف الاستراتيجية لها في المنطقة ، فان النتائج العملية والفعلية ، لوجودها ، هي ممارسة الكولونيالية بشتى اساليب الاستغلال والنهب عبر الدولة (اداتها) وعبر مشاريعها الاقتصادية ، من اجل توفير الشروط المادية والسياسية لتواجدها ونفوذها في الاردن ، حيث تعزز هذه الشروط ، بالضرورة ، فرض نمط خاص من التطور الكولونيالي الذي يقوم على النهب والاستنزاف · لقد ورد في الكتاب اكثر من دليل على ذلك · مثال ذلك القول انه « على هامش مشاريع الدولة ، نمت ورش الانشاءات الخاصة بالقوات البريطانية » ص ٩٢ · و « ان البلدان والمدن نشأت بفضل السيطرة الكولونيالية » ص ١٥٦ · ان الكاتب نفسه يحتج على الاعتقادات الخاطئة حول طبيعة استنزاف الاردن فيعلن « هناك اعتقاد سطحي . ان الاردن كان بلدا ممولا من الكولونيالية البريطانية ، اكثر مما هو بلد مستنزف وهذا ليس صحيحا » ص ١١٢ ·

لماذا الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية ؟

بالرغم من اشارة الكاتب في مقدمة الكتاب الى « ان اهتمام هذه الدراسة مكرس لجوانب التطور الاجتماعي ـ الاقتصادي وليس للتطور السياسي » ، الا انه وفي سياق عرضه وتحليله لذلك

التطور ، كان يتطرق في احيان كثيرة الى تناول الجانب السياسي ، مؤكدا عرضا ، الحقيقة العلمية القائلة بالعلاقة بين الاقتصاد والسياسة ! وبالاضافة الى ذلك ، فانه اوضح ، وفي المقدمة ايضا ، ان « عرض ثمار هذا التطور الاقتصادية والاجتماعية له وظيفة اخرى ، وهي المساعدة على تفسير الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية (خلال سنوات ١٩٢١ ـ ١٩٥٠) » ٠

وبالطبع ، فان تلك الاشارات العابرة، لم تلزم المؤلف بالغوص في دراسة الجانب السياسي ، الا انه تناول ، في الوقت ذاته ، مسائل ذات اهمية ليست قليلة ، تتعلق بنشوء وتطور الحركة الوطنية الاردنية ، او كما يسميها « تفسير الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية » ٠

ورغم ان الاشارة العابرة لا تفسح في المجال لمعالجة هذه المسألة معالجة واسعة، فان ما ذكره حول ذلك ، يصلح اساسا لابداء بعض الملاحظات حوله ٠

بعد عرضه لتاريخ التركيب الاقتصادي الاجتماعي ، ابان الفترة الاخيرة من السيطرة ، يخلص المؤلف الى استنتاج يقول « لم تشهد البلاد نهوضا وطنيا ، ولم يشارك ابناؤها في النضال السياسي المناهض للسلطة العثمانية ، ص ٣٧ ٠ والسبب في ذلك ـ كما يراه الكاتب ـ هو « ان الوعي القومي التحرري لم يتسرب الى البلاد ، وبالاصح لم يتجسد في تعابير ملموسة ٠وان الشعارات القومية التي رفعتها الاحزاب والتجمعات القومية العربية لم تكن مؤتلفة مع التكوين الاجتماعي التقليدي (٠٠٠) فظلت هذه الشعارات مظلة سياسية عائمة للسكان المحليين » ص ٣٧ ٠ بيد انه وبعد اسطر قليلة ، يقول « تبرز ثورة الكرك ان الوضع الموضوعي كان يدفع نحو التحرر المناهض للسلطات العثمانية » ويضيف « وجدت حركة الشريف حسين البلاد مهيأة موضوعيا للانتفاض ضد العسف العثماني » ثم يؤكد « لكن التحرك المناهض للعثمانيين اثار حماسة الفئات الاجتماعية الدنيا ، جماعات الحرفيين والتجار ، وبشكل رئيسي الفلاحين وكذلك المثقفين وسكان البلدات والاقلية المسيحية ٠ فقد كان هم اهالي البلاد التحرر من الضرائب والعسف والسخرة واشكال النهب المختلفة » ص ٣٨ ٠ ومن الاقتباسات الاخيرة الواضحة ، يظهر افتقاد الدقة ، والاحكام السريعة حول عدم وجود نهوض وطني ، وعدم مشاركة الجماهير الاردنية في النضال ضد العثمانيين ٠ اما عن تسرب الوعي او عدم تسربه ، وعن ابتعاد الشعارات القومية عن وعي الجماهير ، فان ذلك يدعو الى طرح السؤال الاتي : هل ان وعي الناس، العادي والملموس ، يدخل اليهم من اماكن اخرى ، ام انه انعكاس لوضعهم الاجتماعي الاقتصادي السياسي ، والذي كان يتكون لديهم ويتجلى بأوضح صوره، ابان سيطرة العثمانيين كاحتلال وسيطرة واستغلال وتعسف ؟ ثم كيف « اكتسب الوعي » للجماهير السورية والعراقية مثلا ، حيث انهم كانوا يعيشون نفس الظروف ؟ وهنا نستطيع ان ندرج نفس التساؤل حول ابتعاد الشعارات القومية عن وعي الجماهير ، وكيف ادركتها الجماهير السورية ، او الوطنيين السوريين ، حيث لم يتحقق ذلك في الاردن ؟ وايضا ، فان حوراني بالذات، قد اخبرنا في بداية الفصل الاول عن الوضع في ولاية سورية (ومن ضمنها الاردن) ، وعن توفر اساس نهضتها القومية حين قال « ان اساس وحدتها وشروط تطورها الموحد والشامل كان متوفرا بدلالة نهوضها القومي والنضالي ضد الاستبداد العثماني منذ نهاية القرن الماضي ، وبدلالة تبلور حركتها القومية

من اجل التحرر والاستقلال والوحـــدة » ص ١١ ٠

ان الثغرة التي أراد حوراني ان يجعل منها « عقب اخيل » في ثورة الكرك وهـي عدم امتلاك جماهيرها « لا الخبرة الكافية ولا القيادة الكفوءة والمنسجمة في نضالها ضد العسف العثماني » ص ٣٧ ٠٠ هـي مسألة لا تنفي وجود الحركة الوطنيـة ومشاركتها في الكفاح ٠ فالنجاح والفشل في تحقيق النصر ، او الخطأ والصـواب في قيادة الصراع لا يقضي بعدم وجـود الحركة ، بل يحدد فقط ، طبيعة قوتهـا او ضعفها ٠

ومثلما اخطأ هناك في « التفسيـر السياسي » بطبيعة الحركـة الوطنيـة والجماهيرية ، فانه يقع هنا في خطـأ « التفسير الاقتصادي » لضعف « استعداد الجماهير للنضال من اجل الاستقـلال والوحدة القومية » ص ٣٧ ، وارجاعـه لتدني وعي الجماهير نتيجة تخلف العلاقات الانتاجية ؟! ٠

في ثورة الكرك كانت الجماهير ، تفتقد للخبرة و « للقيادة الكفوءة » وحيـن توفرت لها مثل تلك القيادة في سوريـة ، برزت نزعتها الارستقراطية التي لا تعتمد على الجماهير وتفضل المساومة ٠ ولكـن برغم كل الشروط التي يحددلها الكاتـب اطرا معينة ، فان الحركة الوطنية السورية انذاك قد لعبت ادوارا بالغة الاهمية فـي قيادة النضال الوطني ضد الاستعمـار الفرنسي ٠

وحين تناول المؤلف اوضاع الحركـة الوطنية الاردنية بعد تاسيس الدولة ، اي فترة العقود الثلاث (١٩٢١ ـ ١٩٥٠) ، فان نظرته لطبيعة نشوئها وتطورها قـد تحكمت بها الافكار والمواقف التالية :

١ ـ الموقف السلبي المسبق من تاريخ الحركة الوطنية الذي عبر عنه بالقـول « المساعدة في تفسير الاخفاق التاريخـي لحركة التحرر الوطني الاردنية » بدلا من القول ، مثلا ، تبيان ظروف نشأة وتطور ونمو الحركة الوطنية وكذلك الانتكاسات والانعطافات التي مرت بها ٠

٢ ـ عزل الاردن عن ماضيه « القريب» كاحدى اقضية ولاية سورية ، لمرحلـة تاريخية طويلة ، بما يتركه ذلك من اثـار اقتصادية واجتماعية وسياسية ، لا يمكـن لاية دراسة جادة عن الاردن أن لا تأخذها بعين الاعتبار ، وكذلك استمـرار هـذا التأثير والعلاقة حتى ما بعد تأسيـس الامارة ٠

٣ ـ فكرة الموقف المسبق من القـوى والطبقات غير الحديثة (العماليـة) واستبعاد فكرة تطور الحركة الوطنيـة عموما دون وجود او فعل تلك القـوى الحديثة في فترات تاريخية محددة ، حيث يبدو وكأنه يتحدث عن نضال او ثـورة اشتراكية مطروحة على جدول الاعمال ٠

في تلخيصه للوجه غيـر المباشـر للاستنزاف الامبريالي للاردن ، ولمضمـون وجوهر نمط التطور الاقتصادي الـذي حملته السيطرة الكولونيالية ، يؤكد المؤلف ان هذه العملية التاريخيـة « ادت الى اضعاف مقومات التحرر الوطنـي بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي واعاقت تطور القوى المنتجة » ص ١٢٨ ٠ وفـي مكان اخر يضيف قائلا بان « سطحيـة التحولات الاقتصادية الاجتماعية ، اضعفت فرص تطور الطبقات الوطنية المرتبطـة بالانتاج الحديث (الفئات الوسطـى والعمال) ومكانتهم ودورهم الاجتمـاعي والسياسي مما اثر في ضمور ومحدودية نفوذ الحركة الوطنية في المجتمـع » ص ١٨١ ٠ وفي مكان اخر يستنتج قائـلا « ٠٠ وهكذا لم يعد التطور الكولونيالـي لا الـى خلـق طبقـة عاملـة حديثـة ولا حتى الى بلورة تجمعات عمالية كبيرة في المدن ومرافق الانتاج الحديثـة (٠٠٠) ولذلك كان حجم العمال والفئات الشغيلة

في البلاد صغيرا جدا وكان دورهـــا ومكانتها محدودين للغاية » ص ١٥٩ ·

عندما يتأمل القارىء ويتفحص هـذه الاستنتاجات الرئيسية حول « ضعـف مقومات التحرر الوطني » و « ضمـور » و « محدودية نفوذ الحركة الوطنيـة » والحجم « الصغير جدا » للعمال و « فئات الشغيلة » لا بد ان يستعيد فورا ما ذكره المؤلف في المقدمة من ان السيطـرة الامبريالية « لم تخلق القوى الاجتماعية النقيضة لها او « حفار قبرها » بل خلقت شروطا جديدة ملائمة تماما لاستدامـة سيطرتها » ص ١١ · اما الخلاصة التي يمكن الوصول اليها فهي موافقة الكاتب على استنتاجاته ، وكذلك القبول معـه « بتفسير الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية » ·

بيد اننا اذا ما تتبعنا نشوء وتطـور الحركة الوطنية ، ودور الفئات والطبقـات الاجتماعية في العديد مـن النضـالات الوطنية ، وباشكال نضالية مختلفة ، على امتداد الفترة الزمنية التي اتخذها المؤلف مجالا للبحث ·· فاننا سنتصـل الـى استنتاجات متعارضة مع العديد مـن الاستنتاجات التي توصل اليها حول هـذه المسألة ، ويتبين لنا في الوقت نفسـه النظرة الاحادية لديه في رؤية جانب واحد من جوانب طبيعة نشوء وتطور الحركـة الوطنية ، وهو الجانب الديمقراطـي والعمالي المفترض ، حيث اتخـذه كـ « قياس » لفهم جدلية تكـون الحركـة الوطنية وتطورها في الاطوار المختلفة من تلك الفترة ·

يحدد الكاتب انه في « نهاية العشرينات بدأت نشأة الاحزاب الوطنية المعارضـة وقد تلتها حملة معارضـة وارهـاب للشخصيات الوطنية » ص ١١٢ · وفـي مكان اخر يتحدث عن « عودة الموجـة الثورية لتجتاح البلاد (···) والتـي كانت تأخذ شكل الاجتماعات والمؤتمرات» ص ١٦٢ · ويضيف انه في « سيـاق نهوض الحركة الوطنيـة الديمقراطيـة المناهضة للاستعمار » نشأت في اطـاره « محاولات التنظيم النقابي العمالي » ص ١٦٣ ، الذي « بعث مجددا عام ١٩٣٦ بمبادرة من ملحم قاسم الذي كان يحظى بدعم الشيوعيين في فلسطين » ص ١٦١ · وكذلك فان احاديث بعض النقابيين ، التي اعتمدها المؤلف ، اشارت الى « قيـام اضرابات عمالية في البلاد فـي سيـاق محاولات لاقامة نقابة خاصة بهم » ويستند المؤلف ايضا الى تقاريـر البوليـس البريطاني في فلسطين التي تحدثت عـن محاولات الحزب الشيوعي لتنظيم خلايـا ومجموعات عمالية في الاردن منذ منتصف العشرينات (···) وعن نشاط عناصر الحزب الشيوعي ومحاولاتهم في شـرق الاردن » ص ١٦١ ، وكذلك عن نشاطات « عصبة مناهضة الامبريالية » ، وعـن قيام « اتحاد للعمال الاردنيين في مطالع الثلاثينات ، الذي اسسه الدكتور صبحي غيمة ، وهو احد الشخصيات المعارضة » ص ١٦١ ، واخيرا عن دور « المؤتمـر الاردني الاول » ، الذي عقد في تمـوز ٩٢٥ بعمان واصدر ميثاقا وطنيا انتقـد فيه دور ونفوذ بريطانية فـي الدولـة الاردنية » ص ١١٢ ·

تظهر تلك التحركـات والنضـالات الديمقراطية والوطنيـة ، عـن الدور النضالي لـ « طلائع » القوى الحديثـة والجذرية ، وبعض تعبيراتها السياسيـة ، والتي تكونت ، بشكل جنيني في سياق ، وضمن التطور المشوه والتبعي للسيطـرة الكولونيالية ، فماذا عن النضالات الوطنية التحررية العامة على صعيـد القـوى الاقتصادية والاجتماعية الاخـرى ذات الطابع التقليدي ؟ ·

يؤكد حوراني ، عند كشفه للممارسات القمعية للكولونيالية واداتها المحلية ، بـان « الشغل الشاغل للكولونيالية واداتهـا

المحلية هو كسر شوكة الشيوخ المناهضة للسلطة حتى مطلع الثلاثينات » ص ١٧٦ ٠ وابرز الامثلة على ذلك ، هي انتفاضة كليب الشريدة ذات الطابع الوطني ، والتي استمرت اكثر من عام ، وكذلك « اضطرابات الكورة ، وتمرد ال العدوان » ص ٥٧ ٠

اما عن دور المعارضة الوطنية الليبرالية التي تصدرها ما يطلق عليهم عادة بـ « الزعيل الاول من القوميين ، مثل « حزب الاستقلال » ، فان المؤلف يشير الى « الثقل الاساسي » الذي كانوا يحتلونه في جهاز الدولة المؤسس حديثا ص ١٧١ ٠ ونظرا لاشتداد معارضتهم للامير وبريطانية ، فقد تمت تصفيتهم عام ١٩٢٤ بعد صراع مع الاتجاه البريطاني استمر اربع سنوات ٠

وعلى صعيد « الصراع الوطني » داخل الجيش ، فقد « ظلت قيادة القوات وحتى عام ١٩٢٣ تحت قيادة وطنية » ص ١٧٥ الى ان تصاعدت محاولات احكام القبضة عليهم و « تصفية الطابع الوطني للاطر القيادية » ص ١٧٦ ٠

وعدا تلك النضالات الوطنية الديمقراطية والليبرالية ضد السلطة والادارة الكولونيالية فقد أتخذت بعض الفئات مواقع المعارضة الوطنية ، عبر ممثليها في المجلس التشريعي (البرلمان) ، حيث كان هؤلاء الممثلين يقارعون السلطة واجراءاتها وتبعيتها ص ١٧٢ ٠

ان تناول حوراني لهذه النضالات ذات الطبيعة التحررية الوطنية في معرض التسجيل لوقائع تاريخية ، في حين اصدر احكاما عامة على ضمور ومحدودية نفوذ الحركة الوطنية ، هو الذي دفع به الى وضع مقياس محدد ، ومسبق لما يجب ان تكون عليه الحركة الوطنية . حيث اصيبت بـ « الاخفاق التاريخي » عندما لم تقع ضمن اطاره ! ٠

وفي الواقع ، فقد خلص هاني الى عدد من الاستنتاجات الهامة عن طبيعة الفئات والطبقات والتغييرات التي افرزها التطور المشوه ، ورسم من خلالها صورة واضحة لتوفر شروط مادية وموضوعية للنضال الوطني التحرري ومن ثم الديمقراطي ، عبر توفر قواعده الاجتماعية ٠ فقد اكد وبالارقام ، وهو يتابع حركة القطاعات والانماط الاقتصادية ونتائج التغييرات والتحولات التي تطرأ عليها في كل طور من اطوار تلك الفترة ، اكد تحطم الملكية المشاعية . واستقرار افراد العشائر ، واتساع القاعدة السكانية للريف وتبلور القوى الاجتماعية الحديثة ، وبداية التغلغل الرأسمالي في الريف واتساع حجم التبادل البضاعي واستخدام النقود ، وكذلك « ارتفاع الطلب على الايدي العاملة » ص ١٦٠ ٠

وهذا يعني ، انه ، ومن خلال هذا السير الموضوعي للتطور المشوه ونتائجه وبالرغم منه ، كانت تخلق قواعد اجتماعية عريضة ، وتحقق اصطفافا معينا مع بعضها البعض في معارضتها من موقع متناقض او متناحر للسيطرة الكولونيالية واداتها المحلية (هذا بصرف النظر عن كيفية انتاج هذه القوى الاجتماعية في سياق النمط الكولونيالي) ٠

والخلاصة التي يمكن ان نصل اليها من هذا العرض هي اننا رغم حذرنا من الحديث عن وجود حركة وطنية وتحررية وديمقراطية ، قوية ومنظمة وواسعة النشاط . فاننا لا نستطيع بالمقابل اهمال تلك الوقائع التاريخية ، ونتحدث عن « اخفاق تاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية ، انطلاقا من فكرة مسبقة . يعيد الكاتب تكرارها « وهي عدم نمو القوى « الحديثة والجذرية » ، وعدم خلق السيطرة الامبريالية للقوى الاجتماعية النقيضة لها او « حفار قبرها » ٠

لقد اتخذ نشوء وتكون ، ومن ثم تطور الحركة الوطنية الاردنية اشكالا ومظاهر عديدة ، تحكمت بها مجمل ظروف الوضع الخاص للاردن وتشكيل الدولة والاهداف الخاصة للسيطرة الامبريالية على الاردن، وكذلك السمات العامة المشابهة التي تتسم بها دول العالم الثالث ، الدول « ذات الانماط المتعددة ·

واذا كنا نتحفظ في الحديث عن وجود حركة وطنية اردنية ، في تلك الفترة بالمعنى المحدد للكلمة ، كحركة منظمة وقوية وواسعة وذات برنامج من جهة ، ولا نوافق ، من جهة اخرى ، على الحديث عن اخفاقها التاريخي فقط ، وكذلك حصر وجودها بالطبقات والفئات الحديثة ، فأن ما يمكن قوله ، هو ان بدايات نشوء وتكون ، ومن ثم تطور الحركة الوطنية الاردنية ، كان جنينيا وبطيئا ، تخللته انتكاسات وانعطافات شديدة الا انه كان في الوقت ذاته بمثابة الخميرة اللازمة لتطور واشتداد نضال عموم الحركة الوطنية والديمقراطية في الفترات اللاحقة · وهنا يكمن جوهر اهميته ·

ولا يمكن بأي حال ، الحديث عن انعدام وجود « حفار قبر الامبريالية » في الدول المستعمرة وذات النمط الخاص للتطور الكولونيالي · فقد اجابت النظرية الثورية (الماركسية) وتجربتها ، على دور اكثرية السكان الساحقة في هذه البلدان وخاصة الفلاحين في النضال ضد الامبريالية والرأسمال ولا يعني ذلك بالطبع دورهم في الثورة الاشتراكية . ان نضال الشعب الفيتنامي في الثلاثينات ، وكذلك الجزائر في الخمسينات واليمن الديمقراطي في الستينات ، هي امثلة ملموسة على وجود « حفار ـ قبر » للامبريالية في تلك البلدان ، رغم عدم وجود القوى الحديثة المفترضة ، ولا ينقص من هذه الحقيقة شيئا طبيعة التطور اللاحق واحتمالات الانتكاس في حال عدم وجود وتطور الطبقات العمالية والشغيلة لتتبوأ مركز القيادة فيها ·

ان عناصر اكثر تعقيدا وتشابكا ساهمت وفعلت في طبيعة تطور شرق الاردن والحركة الوطنية الاردنية خلال الفترة مجال البحث · فأضافة الى خصائص ومميزات نشوء الدولة والحركة الوطنية التي ذكرت ، فان الطبيعة الخاصة لنشوء الاردن ككيان مستقل كان قد انسلخ حديثا عن كيان اكبر هو ولاية سورية (حيث بقي ضمنها كقضاء فترة طويلة) ، تنمو طبقاته وسكانه ومؤسساته واقتصاده وتتأثر عما يجري في كل الولاية وفي مركزها تحديدا · وهذا التكون الجديد ، فرض عليه مرور فترة من الوقت ، يحدد فيها بالضبط اختياره وتكويناته «الكيانية» الجديدة ، والتي طبعت بكاملها حتما ، طبيعة وكيفية نشوء وتطور الحركة الوطنية ·

واخيرا لا بد من التأكيد ، انه مهما كانت الملاحظات الانتقادية التي قيلت وستقال حول كتاب هاني حوراني ، ومهما كانت الثغرات والاخطاء ، فأن قيمة الكتاب الاساسية وجوهره بل والكثير من تفاصيله ، ستبقى تحتفظ بأهميتها كمرجع جاد لمعرفة التاريخ الاجتماعي لشرق الاردن · واذا كانت مأثرة الكاتب والكتاب المهمة ، هي الاجابة على جانب « لم يتناوله احد قط » من تاريخ شرق الاردن ، فأن المأثرة الاهم ـ من وجهة نظرنا ـ هو الدور والوظيفة النضالية لهذا الكتاب ، وجرأة الولوج للبحث في موضوع معقد وشائك ، حيث شكلت المساهمة فيه ، اضافة جدية لكتابة « التاريخ الاجتماعي » لاحد الاقطار العربية ·

حليم احمد

اديب اسحق « الكتابات السياسية والاجتماعية » ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٨ ·

« الكتابات السياسية والاجتماعية » لـ « اديب اسحق » التي « جمعها وقدم لها ناجي علوش » ونشرتها « دار الطليعة » تؤكد حقيقتين : الاولى ان ثمة اهتماما خاصا لدور النشر والقراء ، خصوصا في لبنان ، برواد النهضة الاجتماعية والقومية · والثانية ان تقديم هؤلاء الرواد يتم عبر الوثائق التي هي كتاباتهم اكثر من تقديمهم عن طريق الدرس والتحليل ·

كان حرب الثلاث سنوات لها علاقة غير مباشرة بالرواد وتراثهم · بل كان مقاومة المؤامرة ونتائجها يقتضيها تجنيد كل الطاقات والفعاليات وفي طليعتها الرواد ، كيف لا ، وادوات المؤامرة تسعى في سبيل خلق وطن قومي مسيحي في لبنان او في جزء منه ، محاولة ايهام اللبنانيين وخصوصا المسيحيين منهم وفي الطليعة هؤلاء الموارنة · انهم ، في مشروعهم التقسيمي الطائفي ، انما يستلهمون الاباء والاجداد · ولعل خير مثال على ذلك ، ما تحفل به مطبوعات التقسيميين من وثائق ودراسات ، اقل ما يقال فيها انها انتقائية ومجتزأة ·

ولكن رواد النهضة الاجتماعية القومية – وليس الادبية – المسيحيين لم يكونوا طائفيين وانعزاليين · كان هؤلاء الرواد ، بدءا بالمعلم بطرس البستاني ، قوميين وعلمانيين وتقدميين · وهذا يعني ان السلاح التراثي الذي تستعمله المؤامرة من اجل تحقيق هدفها ، هو نفسه الذي يجب ان يستعمله المتصدون للمؤامرة بهدف تفشيلها ·

غير ان التعتيم والتزوير الذي تعرض لهما التراث ، يجعل من كل دراسة تراثية عرضة للتشكيك ، حتى ولو كانت معززة بالمراجع والوثائق · ولم يبق لهؤلاء المتعاملين مع رواد النهضة المسيحيين الا ان يقدموهم كما هم ، اي عبر كتاباتهم مكتفين بدراسة صغيرة تكون مدخلا ودليلا · وهذا ، بالضبط ، ما فعله ناجي علوش من خلال جمعه لابرز ما كتبه اديب اسحق في الصحف التي اصدرها في اوائل الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وتقديمه لها بدراسة مكثفة وشاملة ·

في الدراسة التي تصدرت الكتاب واستغرقت ٦٠ صفحة حاول ناجي علوش ان يقدم اديب اسحق المفكر والانسان ·عن سيرته او ترجمته « تؤكد جميع المصادر التي ارخت لاديب اسحق انه ولد سنة ١٨٥٦ ، ويشير بعضها الى انه ولد يوم الحادي والعشرين من كانون الثاني· وكان ميلاده في دمشق » (ص ٨) · في سن الثانية عشرة انتقل اديب الى بيروت حيث « وجد ضالته عبر العمل في جريدة التقدم » · (ص ٩) ·

ولكن سرعان ما اضطره العسف العثماني للانتقال الى مصر اسوة بسائر الرواد · هناك تعرف اسحق بالافغاني · ولما رأى هذا الاخير « استعداد اديب وقدرته اشار عليه باصدار صحيفة وكان اديب لا يملك شيئا من المال الا عشرين فرنكا ، فساعده الافغاني على استصدار الامتياز » (ص ١٠) · وهكذا « صدرت « مصر » في اوائل تموز سنة

١٨٧٧ في مدينة القاهرة » : (ص ١١)، وكانت اسبوعية ٠

وفي القاهرة ، اصدر اسحق ايضا جريدة « التجارة » اليومية بالاشتراك مع سليم النقاش ٠ ويؤكد صاحب المقدمة ان « مصر » و « التجارة » قد ساهمتا « في الحركة الثقافية والسياسية ، وعبرتا عن خط الافغاني ، فأيدتا الشورى ضد الاستبداد ، وهاجمتا السياسة البريطانية ، ونقلتا افكار الثورة الفرنسية » (ص ١٢) ٠ لذلك صدر قرار بتوقيفهما نهائيا ٠ مما اضطر اديب اسحق الى التوجه نحو باريس في اواخر العام ١٨٧٩ ٠ وفي العاصمة الفرنسية تابع اسحق مقالاته الثورية في جريدة « مصر» الباريسية ، وقد ورد في افتتاحية العدد التاسع منها : « هذه صحيفة مصر ،طواها الاستبداد فماتت شهيدة ثم احيتها الحرية فعاشت سعيدة ٠٠٠ مقصدي ان اثير بقية الحمية الشرقية واهيج فضالة الدم العربي ، ليعلم قومي ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه » (ص ١٥) ٠

في بداية ١٨٨١ عاد اديب الى بيروت ليحرر ، رغم مرضه ، « التقدم » التي اضطر الى تركها سابقا ٠ ثم انتقل مرة ثانية الى مصر ليعيد اصدار « مصر » « وطنية سياسية ادبية » اسبوعية ٠

واخيرا عاد الى بيروت وقد تفاقم مرضه ، فمات بعد عودته بثلاثين يوما ، في حزيران سنة ١٨٨٤ « وكان عمره لا يتجاوز التاسعة والعشرين » (ص ١٩) ٠

بعد ذلك ، اورد ناجي علوش لائحة بكتب اديب اسحق ، ومنها كتاب « الدرر » الذي طبع ثلاث مرات وتضمن مختارات من مقالاته الصحفية ، ولكنها مختارات «غير موثقة ، ونحن الان في حاجة الىمختارات موثقة ، وهذا ما حاولنا عملـه » (ص ٢٤) ٠

بعد التوثيق والدرس وجد كاتب الدراسة أن تفكير اديب اسحق السياسي يتمحور على ركنين اساسيين : « ١ ـ المحافظة على السلطنة العثمانية ٠ ٢ ـ الاصلاح » (ص ٢٨) ٠

عن عثمانية اديب اسحق ، يؤكد علوش انها تتضمن ايمانا بالامة العثمانية ودفاعا « عن الوحدة العثمانية ضد المطامح الهادفة الى تقسيمها » (ص ٢٨)٠ ولكن هذه العثمانية كانت تتقاطع احيانا بموضوع العرب والعروبة الذي طرحه اديب اسحق بايجابية ٠ لذلك يعتقد ناجي علوش « ان أديب اسحق يساهم بأول طرح سياسي واضح نسبيا حول الوحدة العربية والقومية العربية ، وهو هنا يتجاوز ابراهيم اليازجي في قصيدته: تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » (ص ٣٢)٠

اما اديب المصلح فانه يرى ان يتم الاصلاح « بالتدرج ، وان يكون ضمن حدود الممكن ، وان يجيء منسجما مع حاجات الزمان والمكان والناس » (ص ٣٧)، وهذا الاصلاح يجب ان ينطلق من اساسين : « مشاركة الامة ٠٠ العدل والعلم » (ص ٣٧) ٠

وينفي كاتب المقدمة ان يكون اديب اسحق ثوريا ، ولكنه يستدرك بأن عدم ثورية اسحق لا تعني « انه لم يتحدث عن الثورة » ٠ (ص ٣٥) ٠

وينتقل ناجي علوش الى عنوان اخر في سياق درسه لاديب اسحق ، فيتحدث عن « خطة الوطني والموقف من الاجانب »٠ يقول كاتب الدراسة : « كان اديب اسحق يرفع راية الوطنية ضد السيطرة الاجنبية عموما ٠ فهو يحذر الامة من الاجانب لانهم يقفون لها بالمرصاد ٠ وهو لايني يشير الى التغلغل الاجنبي ، وتدخل الدول الاجنبية ، وكيف ابتلع الغرب شمس استقلالنا » (ص ٤٣) ٠ ويورد الكاتب نماذج من كتابات اسحق ضد روسيا

وانكلترا وفرنسا وضد جريدة « المستقل » التي كانت تصدر في ايطاليا ، ولمصلحة سياستها الاستعمارية ، حيث يقول اسحق عنها « لقد انحى الزمان على المستقل الذي لم يكن له من اسمه نصيب » (ص ٤٥) ·

ولكن ، رغم وطنية اديب اسحق فانه اتخذ موقفا سلبيا من ثورة عرابي في مصر · لذلك خصص ناجي علوش ثماني صفحات لدراسة هذه الظاهرة وملابساتها· اما موقف اسحق السلبي من الثورة العرابية فقد تجلى في جميع كتاباته التي تناول فيها عرابي وثورته · يقول اسحق: « ان الرئاسة انتهت الى نفر من القوم لم يسلموا من الجهل ، ولم يتنزهوا عن الطمع الدنيء ، فقصرت افهامهم عن ادراك احكام الزمان وعواقب الامور ، فنفذت فيهم حيل الخادعين ، وضاقت صدورهم عن الجلد ، فراموا في الشهر ما لا ينال في الاعوام · ثم رأوا تهيب الامة من عواقب التهور ، فاضرموا في القلوب نار البغضاء للاجنبي ، وهاجوا في الصدور عواصف التعصب للدين ، واماتوا صحف الاعتدال » (ص ٤٦) · ويرد ناجي علوش مناهضة اسحق للثورة العرابية الى عاملين : الاول مبدئي ، وينبع من كون اسحق « مع الاعتدال ضد الطفرة » · والثاني سياسي حزبي يعود الى انشقاق الحزب الوطني في مصر «بعد ابعاد الافغاني » ، وتأييد اسحق للجناح الذي يوالي « الخديوي والانجليز في الصراع ضد عرابي والثورة العرابية » (ص ٤٧) ·

مع ذلك ، فان اديب اسحق هو تلميذ للثورة الفرنسية على حد تأكيد رئيف خوري في كتابه « الفكر العربي الحديث » وفي هذا الاطار يشير كاتب المقدمة « الى موضوعتين : الاولى ان اديب اسحق اخذ من المجتمع الفرنسي والدولة الفرنسية في عهده مثالا للدولة والمجتمع اللذين يجب أن يحتذيا · وثانيهما ان افكاره كانت في معظمها صدى لافكار الثورة الفرنسية ، واذا استثنينا فكرة الامة التي لم ينسجم فيها مع مفكري الثورة الفرنسية لانه لم يعتبر اللغة عاملا اساسيا من عوامل تكوين الامة ، استحسنه ، فان اديب اسحق لا يكاد يخرج عن اطار افكار الثورة الفرنسية » (ص ٥٤ و ٥٥) ·

اخيرا ، يختم ناجي علوش مقدمته الطويلة باربع صفحات كتب فيها عن «اديب اسحق الصحفي » · وفي هذا الباب ،يدور البحث في محورين :

١ ــ ممارسة اسحق للصحافة عبر « التقدم » و « مختصر » ، وغيرهما من الصحف التي أصدرها ، أو اشترك في اصدارها او في تحريرها ·

٢ ــ مباحث اسحق في الصحافة ، وتتناول تعريف الصحيفة ، وتاريخ الصحافة العربية ، ومنافع الصحف · اضافة الى تطرقه « لحرية الصحافة » (ص ٥٧) ·

ويرى ناجي علوش ميزتين لصحافة اديب اسحق :

١ ــ انها ليست صحافة خبر فحسب ، انما هي صحافة تحليل وتعليم وخبر ·

٢ ــ انها تهتم بالمستوى الادبي للكتابة ، وخاصة الافتتاحيات والتحليلات السياسية · (ص ٥٨) ·

تلك هي الخطوط الكبرى لدراسة ناجي علوش المنشورة في القسم الاول من كتاب « اديب اسحق » ، حيث تليها مقالات اديب اسحق بدءا من الصفحة ٦١ وحتى نهاية الكتاب في الصفحة ٣٩٦ ·والدراسة تتميز بالدقة والكثافة والموضوعية · وقد اجتهد كاتبها ان يقدم « كل » اديب اسحق مكثفا ، كما هو · فهل وفق ؟ ·

قبل الاجابة على السؤال ، لا بد من عرض سريع لوثائق الكتاب · وزع علوش

مقالات اسحق التي جمعها من كتاب «الدرر» ، ومن جرائد « التقدم » ، و « مصر » القاهرية والباريسية ، في ابواب رئيسية وفقا لمضامينها · وهذه هي عناوين الابواب : « الحياة السياسية والاخلاق · الامة والوطن · حول الحرية والاستقلال · امانى وطنية · الاصلاح والثورة · حركة الافكار · حول الحقوق والواجبات · حول الشرق · حول مصر · في السياسة الدولية · حول الانتخابات النيابية والبلدية · شخصيات سياسية · حول التعليم · في الكتابة والصحافة · مباحث في الجرائد · في التاريخ · نظرات اجتماعية » · وهي عناوين اعتمدها اديب اسحق نفسه عندما نشرها في الصحف ·

وناجي علوش لم ينشر في الابواب الانفة كل ما كتبه اسحق فيها ، بل انه انتقى نماذج لكل باب ، من شانها ان تعطي فكرة معقولة عن رأي كاتبها في الموضوع · ان عملية البحث عن مقالات اديب اسحق وتنسيقها قد استغرقت جهدا فائقا نظرا لكون كتاب « الدرر » ـ وهو الوحيد المنشور لاديب اسحق ـ لا يتضمن سوى بعض انتاج اسحق ، حيث استبعد ناشروه كل المقالات التي رأوها « متطرفة » · لذلك فان تقميش مقالات اديب اسحق وفرزها ونشرها ، بالشكل الذي تمت فيه ، من شانه ان يشكل مركز الثقل في الكتاب ، لانه الاكثر فائدة في هذا الزمان والمكان ·

طبعا هذا لا يعني ان عملية انتقاء العناوين كانت موفقة تماما · خذ مثلا موضوع الاستبداد الذي سبق اديب اسحق الكواكبي في بحث شؤونه وشجونه ··· الم يكن من المناسب لو يخصص له باب رئيسي باعتباره احد ابرز واخطر كتابات اديب اسحق ؟ ·

نعود الى السؤال حول مدى تطابق مضمون دراسة ناجي علوش على مضمون كتابات اديب اسحق · مما لا شك فيه ان الدراسة قد شملت معظم الافكار الرئيسية السياسية والاجتماعية التي حفلت بها الوثائق · الا ان الدراسة بقيت ناقصة لجهة نشاط اديب اسحق الفكري والاعلامي في اطار احدى الجمعيات السرية التي كانت ناشطة في اوائل الربع الاخير من القرن الماضي · وكان يمكن ان يكون النقص ثانويا لولا ان مسؤولية اسحق في « لجنة الاصلاح » من شانها ان توضح العديد من الاشارات والانتقادات المبطنة التي وردت في المقالات ·

خذ مثلا مقالات اسحق عن الامير عبد القادر الجزائري ، اثر وفاته · يقول اسحق في احداها : « تشرفت بلقائه منذ ثلاثة اعوام فرأيت مجلسه العالي كما وصفت ، وبابه المقصود كما عرفت » · ويقول اسحق في الثانية « وما يبلغ القول في مثل الامير الكبير الفقيد حد الاسهاب . ولو مدت فيه اطناب الاطناب ، فكيف ونحن لم نؤد من ندبه فرضة · ولم نقض من تأبينه واجبه ولا بعضه » (ص ٣٠٣ ، نقلا عن التقدم ، العدد ٤٧ تاريخ ٢١ حزيران ١٨٨٣) ·

لا شك ان عبد القادر الجزائري قائد فذ لا بد للكتاب من ان يرثوه عند مماته · ولكن رثاء اسحق له ، والاشارة الى تعزفه به ، والاعتراف بالتقصير ازاءه ، قد تأخذ بعدا جديدا اذا ما علمنا ان الجزائري كان القائد الابرز للجمعية السرية ، وان الرسائل المتبادلة بينه وبين مسؤول الجمعية في بيروت الشيخ اسكندر العازار عن اديب اسحق تكشف سر اللقاء الذي تم بين الرجلين « منذ ثلاثة اعوام » ·

كذلك ، فان كتابات اسحق ، خصوصا التي نشرها بعد اعفاء مدحت باشا من ولاية سورية في العام ١٨٨٠ ، تتضح هويتها وتتحدد استهدافاتها ، فلا تبقى ، كما توحي عناوينها ومعانيها ، مطلقة · ان مدحت باشا ، واضع الدستور

العثماني ، كان هو ايضا عضوا في الجمعية السرية · وكان هدف الجمعية في البداية اصلاح الولاية السورية على اساس اللامركزية · ولكن تنحية مدحت باشا من قبل الباب العالي ، وتدبيرعملية اغتياله في الجزيرة العربية ، قد اقنعا اسحق والجزائري والعازار والمطران بطرس البستاني وغيرهم بضرورة الثورة على السلطنة ، واستقلال العرب عن الترك·

ولنأخذ مثلا على ذلك ما ورد في مقالة « الاتحاد يمحو الاستبداد »المنشورة في «مصر » (القاهرة ، العدد ٢٠ ،تاريخ ١٨ حزيران ١٨٨٠) ، ولنر كيف ان مضمون المقالة يتمحور على مدحت باشا الذي شاء النهوض بالولاية السورية ، فقضى عليه عدو النهوض في السلطنة · وسنرى ايضا كيف يحرض اسحق السوريين على الثورة بعبارات تستنكر وتستغرب سكوتهم على الظلم والظالمين ·

يستهل الكاتب مقالته بالقول : « الطامة الكبرى ، وما ادراكم من الطامة الكبرى ؟ ان يؤتى بهم كقطاع الطريق الى سجون القتل وانتم تبصرون · اريد الذين يطلبون دينهم وديونكم ، ويدافعون عن انفسهم وعنكم ، ويقولون الحق يعرضونه لمجلس اعلن لكم استعداده لسماع ما تدعون ، فتقتلعهم الايدي الظالمة من بينكم ، وانتم شركاؤهم في المنفعة لو حصلت ، وفي ما هو حاصل من المضار· ثم لا يأتي الليل الا وقد صارت حادثتهم سمرا ، تضيعون بها الوقت ، غير مبالين بما تؤول اليه حالكم بعد ذلك من استفحال الظلم واشتداد الجور الذي تربونه بالطاعة العمياء والاستكانة والذل ، فيفترسكم بالانياب التي غذيتم بالتهاون والضعف فيخرب ما بنى اباؤكم بأيدي ابنائهم » ·

بعد الوصف يأتي التحريض : « يا قوم ان سكتم عن هذا الحق الظاهر ، فأي حق بعده تطلبون ، وان رضيتم بهذا الظلم الواضح ، فبأي ظلم بعده تغضبون ؟ لقد فتح النبهاء لنا باب الحمية فانقض الظالمون عليهم يضربونهم ويسجنون فان لم ندخل ذلك الباب افواجا متسابقين الى الكرة ، فكأنما اشترينا بأموالنا السلاسل والاغلال ، وجعلناها في اعناقنا ، ثم تقدمنا الى سدة الظالم نلتمس منه ان يأخذ بأطرافها ، فيقودنا الى حيث شاءت نفسه الدنيئة » ·

اخيرا يختم اسحق مقالته التحريضية بملامح تفاؤلية كما هي عادة الثوار القادة : « لامحل للقنوط من غيرتكم ، ولا موجب لليأس من همتكم فقد سلكتم في هذه الايام سبيلا جديدا ، فعسى ان لا تهولكم العقبات ولا تروعكم المشقة وطول الشقة ، فانه لا راحة بعد تعب ، وعفا الله عن شاعرنا حيث قال :

ترومين ادراك المعالي رخيصة

ولا بد دون الشهد من ابر النحل »
(ص ١٠٠) ·

باستثناء ذلك ، فالدراسة عكست فكر اديب اسحق الملتزم بصورة دقيقة عميقة · وهنا تجدر الاشارة الى الجانب من المبحث الذي تناولت فيه المقدمة عروبة أديب اسحق · كان الباحث ازاء كتابات أسحق في « دولة العرب » عقلانيا حتى النهاية · وهو هنا قد شذ عن الاتجاه السائد في الدراسات التراثية ، والذي يقوم بتضخيم الافكار او الاحداث ·

لقد كتب اسحق اكثر من مرة عن الجنس العربي والاتحاد العربي و « دولة العرب » · والعبارة الاخيرة هي عنوان مقالة اسحق المنشورة في « مصر » (القاهرة ، العدد ٢ ، الصادرة في ١٨٨٠/١/٢٢) · ويقول اسحق في مطلع المقالة : « شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام ، والعراقين ، ومصر ، والمغرب ، والهند ، واتصلت باطراف الفرنجة فملأتها نورا ونارا ، فهي بنورها تستضيء ومن

نارها تقتبس » · ويقارن اسحق بين عرب الفتح الاسلامي وعرب القرن التاسع عشر فيقول : « فمن رأى العرب مشات من الرجال يفتحون مصر الفراعنة ، وملك القياصرة ، وبلاد القساطلة ، وسلطنة الاكاسرة ، ينكرهم اذ يراهم يقادون بخيط مما نسجت العنكبوت » · ويتساءل اسحق في المقال نفسه : « ما للحجاز محجوز الانوار ، وما لشام مشؤوم الاحوال ، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر ، وما للعراق مؤذن العز بالفراق ، وما لحلب متوالية النوب ، وما لليمن فاقد اليمن ، وما لتونس عديمة الانس » (ص ١٩٦) ·

مع ذلك ، فان صاحب المقدمة يؤكد « بأن اديب اسحق ظل عثمانيا ، ولكنه عثماني يطالب بالاصلاح ، واقامة علاقات صحيحة بين شعوب الدولة العثمانية وبين الامة والدولة » · الى جانب تأكيده بأن اسحق « طرح القضية العربية ، وكان يتابع في صحفه اخبار البلاد العربية من اقصاها الى اقصاها ما استطاع الى ذلك سبيلا » (ص ٣٣) ·

جان داية

رسائل

رسالة موسكو

حديث مع العالمة السوفياتية
جالينا نيكيتينا

يقوم الاتحاد السوفياتي في السنوات الاخيرة بحملة توعية واسعة لمواطنيه يفضح فيها الجوهر الرجعي للصهيونية ولدولة « اسرائيل » ، ويبين مخاطرها على حركة التحرير الوطني العربية والفلسطينية بالذات · ويفضح حملاتها العدوانية والتخريبية على البلدان الاشتراكية وعلى كافة قوى التحرر والتقدم في العالم ·

وللدكتورة جالينا نيكيتينا دور ملحوظ في هذه الحملة اذ انها تعتبر من العلماء السوفيات البارزين الذين يتصدون بمنهجية علمية تقدمية للحركة الصهيونية فكرا وممارسة · وان كتابها الذي صدر عن « دار العلوم » (١٩٦٨) والذي حمل اسم « دولة اسرائيل » يعتبر مرجعا هاما لدى الاختصاصيين والباحثين السوفيات والاجانب في هذا الموضوع ، اذ ترجم الى (١٤) لغة اجنبية ، وتناوله بالبحث والتحليل والنقد ما يقارب الاربعين باحثا · ويدرس ككتاب مدرسي في كل من معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية في موسكو وفي معهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي · كما وانه يدرس في معهدي الاستشراق والتاريخ التابعين لاكاديمية العلوم السوفياتية · ولعل اهمية هذا الكتاب تكمن في انه يعتبر اول دراسة علمية موسعة غنية بالوثائق والارقام ، اذ يسلط الاضواء على خصائص التطور الاقتصادي والسياسي لدولة « اسرائيل » ويفضح سياستها الداخلية والخارجية المرتكزة على الايديولوجية الصهيونية الفاشية · كما وانه يبين ارتباط هذه الدولة الوثيق مع الاحتكارات الرأسمالية الصهيونية والامبريالية العالمية ·

وقد دافعت جالينا نيكيتينا عن اطروحتها التي حملت اسم « دولة اسرائيل والصهيونية العالمية » في اكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في ٢٨ كانون الاول ١٩٧٧ · وحصلت على لقب الدكتوره في العلوم التاريخية ، وتعتبر هذه المرتبة اعلى درجة علمية في الاتحاد السوفياتي ·

بعد دفاعها عن اطروحتها اجرينا معها حديثا عن كتابها وعن بعض القضايا المتعلقة بفكر ونشاط الصهيونية ودولة « اسرائيل » في المرحلة الراهنة :

ـ من الملاحظ ان اللجان المختصة في اكاديمية العلوم السوفياتية ووسائل الاعلام تقوم بحملة مكثفة في الفترة الاخيرة وبالتحديد في السنوات العشر الاخيرة ضد الصهيونية · فما هي الخلفية الفكرية والسياسية لذلك ؟ .

□ ـ كما سبق وذكرت، نحن نعتبر الايديولوجية الصهيونية عنصرية شوفينية تمثل مصالح الاحتكارات الرأسمالية الكبرى ذات المنشأ اليهودي · وقد وقف بلدنا منذ البداية ضد هذه الحركة التي كرست نفسها منذ نشأتها لخدمة الامبريالية ·

وفي المرحلة المعاصرة برزت الصهيونية كحركة عنصرية تحاول ان توحي لليهود بانهم مكروهون من كافة بلدان وشعوب العالم · وان معاداة السامية ازلية ابدية ·· وهي لا تترك مناسبة الا وتكيل الاكاذيب والشتائم لبلدنا متهمة اياه بانه يساعد على نشر العداء للسامية ·

وفي السنوات الاخيرة يختلق القادة الصهاينة الاخبار الكاذبة عن وجود ملاحقة لليهود في الاتحاد السوفياتي · ولكن العالم بأسره يعلم ان النظام السوفياتي بطبيعته الاممية صفى الارضية الاجتماعية للعداء للسامية · واليوم يؤمن جميع الشرفاء وحتى غير المتحيزين بان السياسة القومية للدولة السوفياتية ادت الى المساواة التامة في الحقوق بين اليهود وبين جميع شعوب الاتحاد السوفياتي الاخرى ، والى حل « المشكلة اليهودية » المزعومة في بلدنا · لا شك ان هذه الاقتراءات اضحت معروفة لقطاع واسع من الرأي العام العالمي · فالصهيونية العالمية كما هو معلوم تطالب باجراء مراقبة غير محدودة على جميع الطوائف اليهودية في العالم ، وتطالب بعزل هذه الطوائف على هيئة « مجموعات يهودية خاصة » ·

وهم يغذون من حدة العداء للسامية لان هذا يعتبر امرا ملائما لمصالح الصهيونية ، ويساعدهم على وضع يهود العالم في حالة قلقة غير مستقرة مما يدفعهم للانضمام الى صفوفهم لخدمة مآربهم · ويهتم الصهاينة في المرحلة الراهنة بتعزيز قوة « اسرائيل » كدولة ذات سيادة استثنائية ، ويطالبون العالم بالاعتراف بحق « اسرائيل » في القيام « بمهمة دولية » خاصة اي بمعنى اخر يطالبون باكساب اعمال التخريب التي تقوم بها الصهيونية في البلدان الاخرى شكلا قانونيا · وهم يصرون على الانعزال الذاتي لليهود لغرض ، وهو تحويل الطوائف اليهودية الى « طوابير خامسة » منتشرة في كل انحاء العالم وذات « جنسية مزدوجة » ، والقصد من ذلك هو السعي الى شن الاعمال التخريبية ضد الدول الاشتراكية وضد البلدان العربية والافريقية ·

ان مضمون الصهيونية عنصري شوفيني موجه ضد حركة التحرر الوطني العربية بالذات ضد طليعته حركة التحرر الوطني للشعب العربي الفلسطيني · هذا الشعب الذي يناضل بثبات من اجل حقوقه القومية المشروعة ·

– من يتتبع المؤتمرات الصهيونية الاخيرة يرى بان الصهاينة يولون اهمية خاصة للاتحاد السوفياتي ، اذ يصرفون ما بين ٧٠٠ – ٨٠٠ مليون دولار للدعاية ضد بلادكم وضد المعسكر الاشتراكي عامة · فما هي برأيكم الاهداف لهذه الحملة المعادية ؟

□ – ان الصهاينة يطبلون ويزمرون في الغرب وكأنه توجد « مشكلة يهودية » في الاتحاد السوفياتي ويهدفون من ذلك التدخل في الشؤون الداخلية لبلادنا · ويعملون من اجل دفع اليهود السوفيات للهجرة الى اسرائيل ، لكي يؤمنوا العنصر البشري للمستوطنات التي يبنوها في الاراضي العربية المحتلة · كما وانهم يعملون المستحيل من اجل تخريب العلاقات – السوفياتية – الاميركية ، من اجل حرف انظار الرأي العام الدولي عن مشكلة الشرق الاوسط ، وعن ممارسة اسرائيل العدوانية التوسعية ضد شعبكم لخدمة مآربهم على الصعيدين الشرق الاوسطي والعالمي ·

ان الصهيونية العالمية تمر في الازمة الايديولوجية والسياسية التي تمر بها الامبريالية · فكلما ازداد نفوذ وتأثير الاشتراكية في العالم ، كلما هبطت مكانة

الامبريالية وتعمقت بالتالي الازمة التي تمر بها الصهيونية · لا ان من الخطأ الا نرى انه ما زال للصهيونية تاثير ايديولوجي كبير · ان هذه الايديولوجية مسيطرة في اسرائيل ، ولها تاثير كبير في اوساط وجماعات يهودية في البلدان الرأسمالية ··

ـ ما هي الارضية الفكرية التي ترتكز عليها الصهيونية المعاصرة ؟ وهل هناك من تغيرات معينة في فلسفة الصهيونية الكلاسيكية ؟ ·

□ ـ ان اصطلاح الصهيونية المعاصرة برز بعد تأسيس دولة اسرائيل ، الا ان الارضية الفكرية ما زالت تستند على المبادىء القديمة للايديولوجية الصهيونية : وهي ان « معاداة السامية » ابدية ازلية ولا يمكن تجنبها في كل البلاد وفي كل العصور التاريخية · والتأكيد على وجود امة يهودية « عالمية » واحدة تعاني من التشرد والتشتت · وان مشكلة تشتيت « الامة » هي مشكلة عالمية · (من هنا يتولد نداء رجعي لتضامن يهود العالم) · بغض النظر عن المنشأ الطبقي لهم ·

وكماهو معروف ان حل « المشكلة اليهودية » في نظر مفكري الصهيونية كان عن طريق الحصول على الارض اي تكوين دولة · ويعلن الصهاينة الان ان حل « المشكلة الصهيونية » ممكن فقط بطريقة « توحيد المنفيين » وخروجهم من المنفى · وعلى هذا وطبقا لما يعلنه الصهاينة الحاليون فانه على جميع اليهود الذين يعيشون خارج « اسرائيل » في الشتات الا يعقدوا العزم فقط على الهجرة الى « الوطن » ولكن عليهم التغلب على كل الصعوبات في سبيل « انقاذهم » · الا ان الحقائق تثبت ان معظم يهود « المنفى » لا يرغبون في تلبية نداء العودة الى « ارض الجدود » ولا يرغبون في ان تكون اسرائيل وطنا لهم · ومن الاهمية بمكان الاشارة ايضا الى احد مبادىء الصهيونية الاساسية وهي مسألة « الامة اليهودية الواحدة » من وجهة نظر تكوينها في الظروف الحديثة · ففي هذه الفكرة يظهر بصورة كاملة الوجه الخطير والرجعي لفلسفة الصهيونية الكلاسيكية والحديثة · ان الصهيونية الحديثة لا تضيف شيئا جديدا في هذا الصدد ولكن تحاول فقط ان تكيف الاوضاع الكلاسيكية للواقع الحاضر · ان الهدف من هذا هو جعل اليهود غرباء عن اوطانهم الاصلية والتعلق في الجنة المعهودة « اسرائيل » · ان المسألة تطرح ببساطة اما العيش بسلام والاندماج بين الشعوب التي يعيشون فيها او « الانفراد » وكم هي صحيحة كلمات لينين عندما قال : « ان المسألة اليهودية فعلا هي هكذا ، التجنس او الانعزال وفكرة القومية اليهودية هي بوضوح فكرة رجعية من الاساس ، ليس فقط عند مروجيها « الصهيونيين » ولكن ايضا عند هؤلاء الذين يحاولون ان يشركوها مع افكار الاشتراكية الديمقراطية « البوند » وتناقض فكرة القومية اليهودية مصالح البروليتاريا اليهودية وهي تخلق فيها بطريق مباشر او غير مباشر مزاجا معاديا للتجنس » (١) ·

واشار لينين الى انه « عن طريق ضم عمال جميع الامم في اتحاد واحد يمكن للطبقة العاملة ان تصبح قوة تجابه رأس المال ، وتحصل على تحسين فعال لمستوى المعيشة » (٢) ·

---

(١) ـ ف · لينين ، وضع البوند في الحزب · **المجموعة الكاملة** ، المجلد الثامن ص ٧٤ ·

(٢) ـ **المصدر نفسه**، المجلد ٢٣ ص ٣٧٦ · المجلد ٢٣ ص ٣٧٦ ·

ـ يخيل للبعض بان خطر الصهيونية محصور في نطاق دولة اسرائيل كيف تنظرون الى هذا الرأي ؟ وهل لكم اعطاء القارىء صورة موجزة عن علاقة أسرائيل بالصهيونية العالمية ؟

□ ـ ان الصهيونية العالمية دون شك تقدم كافة انواع الدعم لاسرائيل ولتثبيت وجودها ودفعها للقيام بمغامرات عدوانية عسكرية ضد البلدان العربية ، وضد نشاط منظمة التحرير الفلسطينية على كافة الاصعدة · الا ان الممارسة السياسية للصهيونية ليست محصورة في حدود « اسرائيل » وليست موجهة فقط ضد حركة التحرر الوطني العربية ، بل ان خطرها يمتد ليشمل حركة التحرر الوطني في افريقيا · وتعتبر الان احدى الادوات الضاربة الاساسية في يد الامبريالية الموجهة ضد قوى التقدم والسلام في العالم · أن خطر الصهيونية في تنظيمها العالمي المتشعب ، اذ يوجد لها مركز واحد في كل من نيويورك واسرائيل ويتشعب منه فروع في ٨٠ بلدا من بلدان العالم ·

ففي داخل المنظمة الصهيونية العالمية يوجد المؤتمر اليهودي العالمي الذي يوجد له فروع في ٦٧ بلدا من بلدان العالم ·

والمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية والمؤتمر اليهودي العالمي «امبراطورية» صهيونية ليس لها احداثيات جغرافية ولكن حدودها السياسية مرسومة بصورة جد واقعية ، وقادتها يجتمعون كل فترة في القدس وقد اصطلح على تسميتهم « بمؤتمر المليونيرية في القدس ، وهم يمثلون اصحاب المليارات الصهاينة · اذ يقدمون العون المالي لهذه الحركة على كل الاصعدة · وفي هذه الامبراطورية تتحول اسرائيل الى حصن تنظيمي وسياسي للنشاطات الموجهة ضد البلدان الاشتراكية والحركة العمالية وضد حركة التحرر الوطني · ففي مؤتمر المليونيرية اليهود الذي عقد في القدس سنة ١٩٦٨ اتفقوا على تأسيس لجنة خاصة لاستثمار الرأسمال الصهيوني في اسرائيل وبالتالي لزيادة دعم هذه الدولة اقتصاديا ·

كما وان للصهيونية العالمية نفوذا كبيرا في وسائل الاعلام · اذ تصدر في العالم حوالي ١٠٣٦ نشرة دورية تحمل اسماء مختلفة تروج للدعاية الصهيونية· ففي العام ١٩٧٧ عقد في القدس مؤتمر عالمي للصحفيين اليهود · وقرر المؤتمر تأسيس « المركز الاعلامي الموحد »· ان المهمة الاساسية لهذا المركز هو توحيد ومراقبة هذه الصحف الصهيونية واليهودية المهتمة باوضاع اليهود في كافة انحاء العالم ، اما فيما يتعلق بالشق الثاني من السؤال ، فكما هو معلوم ، كانت المنظمة الصهيونية العالمية تقود الحركة الصهيونية قبل عام ١٩٤٨ تاريخ تأسيس دولة « اسرائيل » وفي ٢٤ نوفمبر ١٩٥٢ اصدرت الحكومة الاسرائيلية قانونا خاصا عن وضع المنظمة الصهيونية العالمية ـ الوكالة اليهودية · وطبقا لهذا القانون تكون المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية في اسرائيل منظمتين مندمجتين للعمل قبل كل شيء في اغراض تطوير الدولة اليهودية · اي انها تشتغل بنقل المهاجرين من الخارج وتنسق عمل المؤسسات الصهيونية واليهودية · وتمارس المنظمة الصهيونية العالمية نشاطها على اساس التعاون الوثيق مع دولة اسرائيل وحكومتها · واكثر من ذلك وطبقا لقانون ١٩٥٣ فان الوكالة اليهودية تظهر كشخصية قانونية · ولها الحق في حيازة ملكية خاصة بكل ما يترتب على ذلك من حقوق : فالمنظمة الصهيونية العالمية الموجهة الى اليهود تتبع القوانين الاسرائيلية · وحينما تتوجه الى اليهود في داخل اسرائيل فانها تتوجه اليهم

كمنظمة اجنبية فوق الجهاز الحكومي · وهي تملك القدرة للضغط على الحكومة الاسرائيلية · وبتعبير اخر ، فان المنظمة الصهيونية العالمية تعتبر شكلا قانونيا لاتحاد البيوتات العالمية وتضم الحكام الاسرائيليين ـ الشوفينيين من جهة ومن جهة اخرى اصحاب رؤوس الاموال الصهاينة في الولايات المتحدة واوروبا وافريقيا الجنوبية الذين يديرون في حقيقة الامر هذه المنظمة · ان اتحاد البنوك هذا يتمثل في شكل اخطبوط حقيقي يمد براثنه في العالم كله ·

ـ نحن والاتحاد السوفياتي في خندق واحد ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية ، فهل لديكم من اقتراحات محددة لتطوير وتعميق العلاقة بين العلماء السوفيات والباحثين الفلسطينيين والعرب المختصين في هذه القضية ؟

□ ـ لا شك ان اهدافنا واحدة ، لان العدو الذي يواجهنا يتسلح باستراتيجية شاملة واحدة وان كانت تأخذ اشكالا مختلفة · ونحن من جهتنا حريصون على تطوير وتعميق العلاقات بين الهيئات العلمية السوفياتية والفلسطينية · كما ونرى من الضرورة تبادل الزيارات معا للتداول في الشؤون المشتركة ، ولالقاء المحاضرات والقيام بمشاريع علمية مشتركة · ونرى من الاهمية بمكان اذا بادرت اللجان المختصة في الثورة الفلسطينية مثلا للدعوة لمؤتمر فكري عالمي في معهد السلام العالمي الموجود في فينا عاصمة النمسا · هذا المعهد الذي يهتم بكافة المشاكة لدولية الراهنة التي تعيق قوى التحرر والتقدم والسلام · وقد يكون موضوع الندوة « الصهيونية والشعب العربي الفلسطيني» ويشارك في هذه الندوة ممثلون عن الدول والشخصيات الفكرية والسياسية المناهضة للصهيونية العالمية ·

سهيل عامر

شهريات

المناطق المحتلة

هبت ردود الفعل في المناطق المحتلة الناجمة عن اتفاقية كامب ديفيد ، في دائرة الرفض والتصدي ، التي اخذت اشكالا وقوالب متعددة ، في وجه اخطر عمل خياني يرتكبه زعيم عربي في حق النضال الوطني للشعب الفلسطيني ، خصوصا ، والشعوب العربية عموما . وحاد عن دائرة الرفض هذه نفر صغير من المتعاونين امثال : مصطفى دودين وعبد الرؤوف الفارس والياس فريج ، بينما حاول البعض الامساك بالحبل من طرفيه ، كرئيس بلدية غزة ، الذي يحرص ، وهو يدعو « للتفاهم » مع الاسرائيليين حول مشروع الحكم الذاتي ، على الاشادة بمنظمة التحرير .

سنقف في هذا التقرير الذي يغطي ردود الفعل على الاتفاقية حتى منتصف شهر اكتوبر الماضي ، على وجهات النظر المختلفة في المناطق المحتلة ، والمتفاوتة في حدتها او منطلقاتها .

رد الفعل الشعبي

عقب الاعلان عن الاتفاقية ، شهدت مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية في العشرين من ايلول الماضي ، اضرابات وتظاهرات استنكار للاتفاقية ، استمرت اربعة ايام متتالية ، رفع خلالها المتظاهرون الاعلام الفلسطينية ، واقاموا في الطرق الرئيسية حواجز من اطارات الدواليب المشتعلة ، واصطدموا في اماكن متعددة بقوات الاحتلال التي القت القبض على البعض ، وفرضت نظام منع التجول على بعض الاماكن ، مثل بلدة حلحول .

وعادت الاضرابات والتظاهرات وغطت مدن نابلس والخليل وجنين ورام الله ، استجابة للنداء الذي وجهه المؤتمر الوطني في القدس .

وفي العاشر من اكتوبر تجددت الاضرابات والتظاهرات في انحاء الضفة الغربية بمناسبة البدء بالمباحثات المصرية الاسرائيلية في « بلير هاوس » استجابة لنداء وجهته الهيئات الوطنية .

وسط التحرك الشعبي المناوىء لاتفاقية كامب ديفيد ، تحركت سلطات الاحتلال من خلال جهاز الحكم العسكري ، وطلبت من رئيس بلدية رام الله كريم خلف العودة من الولايات المتحدة ، حيث كان يقوم بالقاء محاضرات في عدد من الجامعات هناك . وفعلت الشيء نفسه مع رئيس بلدية الخليل فهد القواسمه ، الذي كان يقوم بزيارة لبريطانيا . وعزت الصحف الاسرائيلية سبب الاستدعاء الى رغبة الحكم العسكري في اسهام رئيسي البلديتين « في المشاورات حول مشروع الحكم الذاتي ، ووضع حد للتظاهرات » في المدينتين . الا ان رئيس بلدية رام الله اعلن عقب وصوله رفضه التام للاتفاقية ، حين ذكر لصحفي اسرائيلي : « لن نقبل في اي حال من الاحوال مشروع الادارة الذاتية ، فهذا المشروع يأتي لتخليد الاحتلال باسم اخر ... كل حل في الشرق

الاوسط ، لا يشترك فيه الفلسطينيون من خلال قيادتهم المعترف بها م٠ت٠ف ، مآله الفشل ٠٠٠ » ٠

وفي غضون ذلك ، صدرت ردود فعل مشابهة من قبل الاكثرية الساحقة من رؤساء البلديات والمجالس المحلية ، عبرت عن الرفض المطلق للاتفاقية ، مثل تصريح رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة ليهودا ليطاني (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٥) « ان الاصبع الممدودة نحونا ، تأتي لخنقنا ، وليس لمنحنا الحرية والوطن او الحقوق ٠ اسأل رجل الشارع اذا كنت لا تصدقني ٠ الكل يجمعون على رأي واحد : التسوية بين مصر واسرائيل تمت على حساب الفلسطيني ، على حساب الضعيف » ٠

ومما يستوقف المرء ، جملة اوردها ليطاني على لسان شخصية فلسطينية ، تصور عمق الرفض الفلسطيني للاتفاقية ، ومأساوية ما ذهب اليه السادات ٠ قال الفلسطيني للصحفي الاسرائيلي : « **رجائي اليك ، اثناء زيارتك القادمة للقاهرة ، ان توصي السلطات هناك بالسماح لي بدخول مصر ٠ فانت اسرائيلي وانا فلسطيني** » (المصدر السابق) ٠

ومع ذلك نشط جهاز الحكم العسكري في اعمال « جس النبض » بين صفوف رؤساء البلديات ، وفئة الزعامة التقليدية ، حيث عقد منسق شؤون المناطق المحتلة العميد ابراهام اورلي وكذلك الحكام العسكريون للمناطق ، سلسلة من اللقاءات مع عدد من الاشخاص في الضفة الغربية ٠ وشاركت السفارة الاميركية جهود سلطات الاحتلال في اعمال « جس النبض » ٠ ونشطت في هذا المجال القنصلية الاميركية في القدس ٠ وفي الخامس والعشرين من ايلول ، عقد اجتماع بين شخصيتين اميركيتين في السفارة الاميركية ، وبين عدد من شخصيات الضفة الغربية ، من بينهم نائب رئيس بلدية نابلس ظافر المصري ، ورئيس بلدية حلحول محمد ملحم والمحامي عزيز شحاده من رام الله، اوضح خلاله المسؤولان الاميركيان موقف الولايات المتحدة من الاتفاقية ، وحاولا استشفاف الموقف في الضفة الغربية ٠

الا ان عملية جس النبض لم ترتق – حتى منتصف اكتوبر – الى خطة اسرائيلية مبلورة ، علما ان المصادر الاسرائيلية ، ألمحت الى وجود خطة تقسم بمقتضاها الضفة الغربية الى ثلاث مناطق جنوبية (الخليل) ، وسطى (رام الله) ، وشمالية (نابلس) ٠ واشارت الى شخصيتين تراهن عليهما سلطات الاحتلال لشغل المنطقتين الجنوبية والشمالية ، هما: مصطفى دودين وعبد الرؤوف الفارس ٠

فئة المتعاونين المؤيدين

عشية انعقاد مؤتمر كامب ديفيد نشطت سلطات الاحتلال في خلق وبلورة فئة متعاونة معها ، واسفر نشاطها ، عند اواسط شهر تموز الماضي ، عن ولادة « رابطة قرى الخليل » بزعامة مصطفى دودين ، الوزير الاردني ، في الحكومة العسكرية التي انيطت بها مهمة تصفية المقاومة الفلسطينية في ايلول ١٩٧٠ ، وعن تنمية ورعاية « المركز الاجتماعي » في نابلس ، الذي تلتف حوله مجموعة من العملاء في المدينة ، وعلى رأسهم عبد الرؤوف الفارس ، عضو البرلمان الاردني سابقا٠ وحرص وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان قبل توجهه الى كامب ديفيد على الاجتماع بمصطفى دودين ، وبعض المتعاونين مع سلطات الاحتلال ، بغرض حثهم على تنظيم انفسهم في حال التوصل الى شيء ما في كامب ديفيد ، ومن اجل

التصدي للهيئات الوطنية المهيمنة على معظم المؤسسات الشعبية والبلدية في الضفة الغربية . ولكن ، على الرغم من حث دايان وتشجيعه ، فان مصطفى دودين لم تسعفه ، لا قوته ولا شجاعته ، للقيام بالمهمة التي انيطت به . ولا شك في ان مطاردة الوطنيين له تعتبر من بين اسباب تقصيره وتقاعسه . ففي الثالث والعشرين من ايلول ، ووسط السخط الشعبي العارم الذي عم المناطق المحتلة ، وضع الوطنيون عبوة ناسفة في مقر « رابطة قرى الخليل » ، في محاولة لوضع حد لحياته التي قضاها في معاداة كل عمل وطني . اما عبد الرؤوف الفارس ، المنافس الرئيسي لمصطفى دودين في مناهضة النضال الوطني الفلسطيني ، فقد حرص على القيام بدوره بعيدا عن الاضواء ، وخارج الضفة الغربية . ففي الثامن من تشرين الاول ، وبعد لأي ، حظي الرئيس السادات بأول « غنيمة » من المناطق المحتلة حين اجتمع بعبد الرؤوف الفارس. ومن الجدير بالذكر ان الفارس كان قد شكل وفدا من وجهاء منطقة نابلس عقب زيارة السادات لاسرائيل ، وحاول التوجه به الى القاهرة لتهنئة الرئيس بخطوته « الجريئة » ، بيد ان المحاولة لم تنجح بسبب انسحاب العديد من اعضاء الوفد بفعل تهديدات العناصر الوطنية ، ولم يجد الفارس من يسافر معه .

الى جانب هاتين الشخصيتين ، تميز رئيس بلدية بيت لحم ، الياس فريج ، في موقفه عن موقف سائر رؤساء البلديات في الضفة الغربية . فقد حرص – حتى منتصف تشرين الاول – على عدم حضور اجتماعات تندد بالاتفاق او التوقيع على بيانات تدين مشروع الحكم الذاتي . الا ان المصادر الاسرائيلية اشارت اكثر من مرة الى ان فريج « يرحب » بالاتفاق .

لم يتضح حتى الان ، موقف بعض الرموز الموالية للاردن في الضفة الغربية، اذا استثنينا الشخصيات الثلاث الانفة الذكر . وقد افصحت المصادر الاسرائيلية ان هذه الرموز تلتزم حتى الان جانب الصمت ، وتبدي « لامبالاة تامة » تجاه المشروع . ويعود السبب في ذلك الى عاملين : الموقف الاردني العائم تجاه المشروع ، وحالة الرفض القوية السائدة في الضفة الغربية ، والتي تجد تعبيراتها في ردود الفعل الشعبية المتتالية ، وبيانات الادانة والاستنكار الصادرة عن المؤسسات والهيئات الوطنية . ومن الجدير بالذكر هنا ، ان البعض من الرموز الاردنية في الضفة ، مثل انور الخطيب ، الوزير الاردني السابق ، جاري انصار م.ت.ف ، ووقع على بيانات تشجب الاتفاقية .

موقف العناصر والهيئات الوطنية في الضفة الغربية

لم تشهد الضفة الغربية طوال حكم الاحتلال تلاحما بين الجماهير العريضة ، وبين المؤسسات والهيئات الوطنية ، كالتلاحم الذي شهدته عقب التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد . وليس هنالك شك بأن هذا التلاحم هو ثمرة النضال الجماهيري على امتداد الفترات السابقة . فقد حرصت الهيئات والمؤسسات الوطنية على التجاوب الفوري مع التحرك الشعبي، والسير معه .

وسنقف هنا ، بغية استكمال صورة الموقف ، على موقف مختلف الهيئات في الضفة الغربية كما عبرت عنها في المؤتمرات ، او البيانات ، حتى اواسط تشرين الاول الماضي .

الصحفيون الفلسطينيون : عقب الاعلان عن الاتفاقية ، بعث عدد من الصحفيين الفلسطينيين في المناطق المحتلة برقية الى قيادة الثورة الفلسطينية تستنكر الاتفاقية،

وتؤكد على التالي :

١ – ان سلاما عادلا في المنطقة لن يتم بلا موافقة م٠ت٠ف التي تمثل كافة قطاعات الشعب الفلسطيني حيثما كان تواجده ٠

٢ – اننا نرفض بشدة مؤامرة الادارة الذاتية والتي هي معنى اخر للاحتلال ، ونؤكد وقوفنا في وجه المؤامرة ، ونرفض نتائج واجتماعات كامب ديفيد ٠

٣ – اننا نطالب دول الصمود والتصدي بدعم م٠ت٠ف والعمل معا للوقوف في وجه هذه المؤامرة الشرسة الامبريالية الصهيونية الرجعية ٠

٤ – نطالب الشعب المصري الشقيق بتحمل مسؤولياته والتصدي لخيانة السادات الذي يقف في الصف المعادي للامة العربية » ٠

المرأة الفلسطينية : في الثالث والعشرين من ايلول الماضي ، صدر في القدس بيان عن المرأة الفلسطينية ، وجهت منه نسخة الى السكرتير العام للامم المتحدة جاء فيه :

« ان المرأة الفلسطينية ، في الارض المحتلة ، تعلن رفضها الاتفاق الذي انبثق عن مؤتمر كامب ديفيد ، وتعتبره خروجا عن مبادىء السلام العادل ، وتجاهلا للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وتؤكد للعالم اجمع ان السلام لن يتحقق ما دام هناك حق مسلوب ، وشعب يكافح منذ خمسين عاما من اجل استرجاع ما اغتصب من ارضه والحفاظ على ما تبقى منها » ٠

وبعد ان شجب البيان « استسلام » السادات ، اكد وقوف المرأة الفلسطينية الى جانب « م٠ت٠ف٠ الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني اينما كان وحيثما وجد » ٠ وناشد البيان الاشقاء العرب وشعوب العالم « الوقوف الى جانبنا لتحقيق تطلعاتنا القومية وآمالنا في ان نبني من جديد على ارض آبائنا واجدادنا وطننا فلسطين » ٠

المؤتمر الوطني في بيت حنينا : في الثلاثين من شهر ايلول ، عقد في بيت حنينا مؤتمر وطني حضره رؤساء واعضاء البلديات والمجالس المحلية ، والنقابات، والاندية، وعدد من الشخصيات الوطنية ، اسفر عن صدور بيان يدين فيه نتائج كامب ديفيد التي اعتبرها المؤتمرون بانها « كانت تصعيدا للنهج الاستسلامي الساداتي ، والذي استهدف مكتسبات شعبنا العربي الفلسطيني ٠٠٠ » ، والذي استهدف ايضا « ضرب حركة التحرر العربي بشكل عام ، واجهاض حركة التحرر بشكل خاص ، وابعادهما عن حلفائهما الاستراتيجيين في حركة التحرر العالمي من اجل العودة الى سياسة الاحلاف الاستعمارية التي رفضتها جماهير شعبنا العربي في السابق » ٠ واكد المؤتمرون على البنود التالية :

« اولا : ان شعبنا العربي الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها هو وحدة واحدة تاريخيا ونضاليا ومصيريا ٠

ثانيا : ان شعبنا يؤكد ويصر على ان ممثله الشرعي والوحيد هو م٠ت٠ف ويرفض اية وصاية او بدائل مهما كان دورها او شكلها ٠

ثالثا : ان مشروع الحكم الذاتي مرفوض شكلا وموضوعا ، ونعتبره تكريسا للاحتلال واستمرارا لاضطهاد هذا الشعب واستلابا لحقوقه ٠

رابعا : اننا اذ نطمح لاقامة سلام عادل ودائم في المنطقة ، فاننا لا نرى ذلك الا من خلال ممارسة شعبنا لحقه في تقرير

المصير والاستقلال الوطني بعد الانسحاب الكامل من كافة المناطق واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ٠

خامسا : ان عودة السيادة العربية الفلسطينية على مدينة القدس كجزء لا يتجزأ من الضفة الغربية ، هي قضية تاريخية وروحية لا يمكن التراجع عنها »٠

مؤتمر القدس : في الاول من تشرين الاول الماضي ، وفي اليوم التالي على انعقاد مؤتمر بيت حنينا ، عقد في القدس في مقر النقابات المهنية ، مؤتمر وطني حضره عدد من رؤساء البلديات وممثلي النقابات المختلفة ورجال الدين الاسلامي والمسيحي ، وصدرت عن المؤتمرين القرارات التالية :

« اولا : رفض ومعارضة هذه الاتفاقيات بجميع تفسيراتها ووثائقها جملة وتفصيلا٠

ثانيا : أن اتفاقات معسكر داود تتناقض مع قومية المعركة وذلك لانها في حقيقتها صلح منفرد بين مصر واسرائيل من شانه أن يخرج مصر من حلبة الصراع العربي الاسرائيلي لتتفرغ لضرب حركات التحرر العربية والافريقية ٠

ثالثا : ان الاتفاقات المذكورة مخالفة صريحة لجميع قرارات مؤتمرات القمة العربية بشكل عام وقمتي الجزائر والرباط بشكل خاص ، والتي نصت صراحة على رفض الحلول المنفردة ، وطالبت قوى المواجهة بالعمل المشترك في كافة الميادين ٠

رابعا : ان الاتفاقات المذكورة تتناقض وقرارات الجمعية العامة للامم المتحدة ذات العلاقة بالقضية الفلسطينية ، وتشكل تحديا صارخا للارادة الدولية ، واعتداء على الحق الطبيعي للشعب الفلسطيني ٠

خامسا : الاتفاقات المذكورة تنكرت لحقوق الشعب الفلسطيني ، وتجاهلت قضيته العادلة التي هي لب النزاع في الشرق الاوسط ، واغفلت حقوقه المسلوبة، وحقه في تقرير مصيره على ارضه ، كما اغفلت قيادته الشرعية م٠ت٠ف في القيادة الشرعية والوحيدة للشعب العربي الفلسطيني ، بل هي تحاول خلق قيادة بديلة لها تحت الاحتلال ، باقامة حكم ذاتي سبق للشعب ان رفضه رفضا قاطعا بجميع قطاعاته المرة تلو الاخرى ٠

سادسا : ان نضال الشعب الفلسطيني كان وما زال جزءا لا يتجزأ من نضال الشعوب العربية في سبيل حريتها ووحدتها وتقدمها ، ومن حركة التحرر العالمية ٠ وان الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها وحدة واحدة لا تتجزأ ٠

سابعا : لا سلام في المنطقة دون الانسحاب الكامل والحقيقي للقوات الاسرائيلية من جميع الاراضي العربية المحتلة ٠

ثامنا : ان مشروع الحكم الذاتي مرفوض شكلا وموضوعا ، ونعتبره تكريسا للاحتلال واستمرارا لاضطهاد هذا الشعب واستلابا لحقوقه المشروعة ، ومؤامرة مكشوفة للالتفاف على طموحات شعبنا وحقه في وطنه وفي تقرير مصيره بنفسه » ٠

موقف العناصر والهيئات الوطنية في قطاع غزة

منذ الاعلان عن اتفاقية كامب ديفيد وملحقاتها ، والعناصر الوطنية في قطاع غزة تنشط لعقد مؤتمر وطني يمثل كافة التيارات والشرائح الاجتماعية للوقوف في وجه الاتفاقية ، حيث تم تشكيل لجنة للاعداد للمؤتمر وتنظيمه ، تتشكل من :

المحامي فايز ابو رحمه ، نقيب المحامين في القطاع ، وتوفيق ابو غزالة ، والدكتور حاتم ابو غزالة ، ويسرى البديري رئيسة اتحاد المرأة ، والمحامي فرج الصوالف ٠

ومما تجدر ملاحظته الاعداد الجيد للمؤتمر ، والتلاحم الجماهيري الرائع حوله ٠ فقد انعقد المؤتمر في الحادي والعشرين من اوكتوبر الماضي في مدينة غزة وسط تظاهرات شعبية كانت تجوب الشوارع مرددة الاهازيج الوطنية ، رافعة الاعلام الفلسطينية ، شاجبة للاتفاقية ومشروع الحكم الذاتي ، تحت مظلة من اللافتات المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠

واسفر المؤتمر عن صدور بيان وقعت عليه البلديات والمجالس المحلية والغرف التجارية والنقابات العمالية ، يشجب الاتفاقية ، ويقرر التالي :

« ١ ـ ان اتفاقية « كامب ديفيد » تتنكر للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وحقه في الحرية وتقرير المصير وحقه في اقامة دولته المستقلة على ارضه ، وتخالف ميثاق الامم المتحدة وشرعة حقوق الانسان واحكام القانون الدولي ٠

٢ ـ ان اتفاقية « كامب ديفيد » تخالف ما اجمعت عليه الدول العربية في مؤتمرات القمة العربية المختلفة وبصورة خاصة مقررات قمتي الجزائر والرباط ٠

٣ ـ تخالف اتفاقية « كامب ديفيد » القرارات الصادرة عن الجمعية العامة للامم المتحدة وبصورة خاصة القرار ٣٢٣٦ الصادر في نوفمبر عام ١٩٧٤ والقرار رقم ٣٣٧٥ الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر عام ١٩٧٥ ٠

٤ ـ ان الاتفاقية تكرس الاحتلال « الاسرائيلي » لمدة غير محددة وتضفي عليه الصيغة الشرعية وتمزق وحدة الشعب العربي الفلسطيني في الداخل والخارج وتخلق واقعا جديدا وحقائق جديدة تتعارض ومصلحة الشعب الفلسطيني تعارضا جوهريا اساسيا ، فضلا عن انها لا تنص على ازالة المستوطنات القائمة في الضفة الغربية والقطاع المحتلين ٠

٥ ـ ان الاتفاقية تجاهلت مستقبل القدس العربية ، وان هذا الاغفال المقصود يمثل خطرا جسيما على مقدساتها الاسلامية والمسيحية وحقوق سكانها العرب الفلسطينيين ٠

٦ ـ ان الحل العادل للقضية الفلسطينية لا يتحقق الا باحترام حقوق الشعب الفلسطيني في ارضه ووطنه وممارسة حقه الطبيعي في الحرية والعدالة وتقرير المصير وبالانسحاب الكامل الفوري للقوات « الاسرائيلية » من كافة الاراضي العربية المحتلة ٠

٧ ـ يؤكد المجتمعون ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وان مشاركتها على قدم المساواة مع جميع الاطراف امر اساسي في ايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية ، وان تجاهلها المتعمد لا يخدم قضية السلام في الشرق الاوسط ٠

٨ ـ ان الحكم الذاتي وفقا لاتفاقية « كامب ديفيد » ليس له مضمون ولا محتوى ٠ اي انه لا يحقق الحد الادنى لمطالب وحقوق الشعب الفلسطيني ، وليس الوسيلة الصحيحة لممارسة حق الشعب الفلسطيني في الحرية وتقرير المصير ، لما يحيط به من غموض وابهام وتعقيد ، وخلوه من ضمانات حقيقية محددة تكفل

له الحرية والعودة وتقرير المصير على ارضه ووطنه ·

٩ ـ بناء عليه يشجب المجتمعون اتفاقية « كامب ديفيد » بشدة ويناشدون كافة القوى المحبة للعدل والسلام في العالم ، والعالمين العربي والاسلامي والرأي العام العالمي ، ومنظمة الامم المتحدة ان يساندوا الشعب الفلسطيني في الحصول على حقوقه الوطنية ووضع حد لمأساته المستمرة ، ويؤكد المجتمعون انهم يؤيدون السلام العادل تاييدا كاملا ، ويؤكدون ان الشعب العربي الفلسطيني يتطلع الى هذا السلام العادل ، وهو اكثر شعوب العالم حاجة اليه ورغبة فيه ليتخلص من هذه الالام العظيمة والمحن القاسية التي فرضت عليه دون ارادته مؤكدين انه كان دوما ضحية للحروب المستمرة والتي حرمته من حقه الطبيعي في الحرية والحياة الكريمة على ارضه ووطنه » ·

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

I

ردود الفعل الحزبية والعامة على اتفاقات كامب ديفيد

رقص في الشوارع ومزاودة في الكنيست

صادق الكنيست الاسرائيلي على اتفاقات كامب ديفيد ، بأغلبية ٨٤ صوتا ضد ١٩ صوتا ، وامتناع ١٧ آخرين ، وذلك في ختام نقاش طويل ، تحدث خلاله معظم نواب الكنيست من ائتلاف ومعارضة حول مواقفهم المؤيدة والمعارضة للاتفاقات المذكورة · وقد اعتبر هذا النقاش تتويجا للنشاط الحزبي الذي ابدته مختلف الاحزاب والكتل السياسية في اسرائيل ، اثر صدور اتفاقات كامب ديفيد في التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) الماضي · وقبل الخوض في مختلف المواقف الحزبية هذه ، لا بد من التطرق اولا الى ردود الفعل على الصعيد الشعبي ، فور ورود نبأ التوصل الى الاتفاقات المذكورة ·

رقصوا في الشوارع

استقبل الاسرائيليون نبأ اتفاقات كامب ديفيد بالفرحة والابتهاج ، رغم ظهور المعارضة بين صفوف المجموعات العنصرية المتطرفة ، على غرار حركتي « غوش ايمونيم » و « ارض ـ اسرائيل الكاملة » · وخرجت الالاف من سكان تل ابيب ترقص في الشوارع طوال الليل ، بعدما زينت واضيئت ، معبرة عن فرحها « بحلول السلام » ، حسب تعبيرها ، وتحول بيغن الذي « حقق السلام » ، الى شخصية شعبية محبوبة ، بعدما كان متهما طوال السنة الماضية ، من جانب مجموعات واسعة في اسرائيل ، خاصة اعضاء

حركة « السلام الآن » ، بأنه يشكل عقبة امام السلام ، بسبب تعنته وتصلبه · وقد اعلنت هذه الحركة عن رضاها واقتناعها الكاملين بما توصل اليه بيغن في كامب ديفيد ، وعن رغبتها في استقباله استقبال الابطال حال عودته الى اسرائيل · وفعلا فقد خرج الاف من الاسرائيليين لاستقبال بيغن في مطار اللد وفي القدس ، حيث قدموا له الخبز والخمر ، وهتفوا باسمه عاليا ، بينما كان يبشرهم من مطار اللد، بأنه « حقق [لهم] اتفاق سلام مشرف يضمن امنهم » (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٤)· وقد اثار هذا الاستقبال الحافل حالة من الاستياء لدى بعض وسائط الاعلام ، فوصفته احدى الصحف الرئيسية ، في مقالها الافتتاحي ، بأنه « ظاهرة عربية ، يجب الا تخفي حقيقة الصعوبات التي سيواجهها بيغن في عملية « بيع » اتفاقات كامب ديفيد للشعب في اسرائيل ،ومواصلة المفاوضات التي بدأتحتى الوصول الى نهاية ناجحة » (افتتاحية دافار ، ٧٨/٩/٢٢) · كذلك اعتبر احدهم ان استقبال بيغن على هذا النحو ، يدل على ان اسرائيل خطت خطوة مهمة نحو « الاندماج في المجال السامي : فالاستقبال الذي نظم على شرف بيغن مشابه لتظاهرات الفرح المنظمة التي استقبلت السادات في مصر · فهنا وهناك نشطت هيئاترسمية في تنظيم مهرجان احتفالي فوري ··· وفي خلق جو خداع مغر ·· ويجدر بنا ان نذكر جيش المتملقين الذي يلتف حول بيغن ، انه ليس قيصر بيزنطة ، وانما يترأس دولة ديمقراطية في اواخر القرن العشرين » (عوزي بنجيمان هآرتس ، ٧٨/٩/٢٤) ·

مقابل الجو الاحتفالي ، الذي شاركت فيه مجموعات واسعة من الاسرائيليين ، ظهر ان هنالك معارضة شديدة لاتفاقات كامب ديفيد ، لدى فئات اخرى بينهم ، دعت اليها وتزعمتها حركتا « غوش ايمونيم » ، و « ارض – اسرائيل الكاملة » ، وشارك فيها معظم الحركات الاستيطانية ، خاصة مستوطنو مشارف رمح · وكانت اولى بوادر هذه المعارضة، « التظاهرات » الاستيطانية التي نظمتها « غوش ايمونيم » ، حيث قامت بعمليات استيطان سريعة في اماكن مختلفة من الضفة الغربية ، احتجاجا على اخلاء مستوطنات سيناء · وقد قام الجيش الاسرائيلي بأخلاء المستوطنين بالقوة ، بناءا على امر صادر عن وزارة الدفاع · وكرد على ذلك ، اعلن زعماء هذه الحركة انهم سيواصلون عمليات الاستيطان ، لكي يثبتوا عدم مقدرة رئيس الحكومة على المحافظة على التزامه تجاه تجميد الاستيطان ، حتى لفترة ثلاثة اشهر (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٩/٢٢) ·

اضافة الى عمليات الاستيطان السريعة هذه ، نظم المستوطنون المظاهرات الصاخبة في القدس ، خاصة اثناء النقاش السايسي في الكنيست ، بهدف التأثير على النواب ، لكي يصوتوا ضد اخلاء مستوطنات سيناء · الا ان هدفهم هذا لم يتحقق ، اذا ما اخذنا في الاعتبار الاغلبية التي ايدت قرار الاخلاء ، ومن بين الشعارات الكثيرة التي رفعها المتظاهرون : « لا تصدقوا بيغن – انه يخدعكم » و « اليوم يميت – وغدا القدس » ، و « سلام بلا مستوطنات يميت جسم بلا صهيونية » (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٦) ·

ومن ثم ، عقدت الحركات الاستيطانية ، عدة اجتماعات للاحتجاج على قرارات كامب ديفيد ، اهمها ذلك الذي عقد في نهلال بمبادرة من وسط « عين فيرد » وحركة « ارض – اسرائيل الكاملة » ، وشاركت فيه بعثات من جميع التجمعات الاستيطانية في الاراضي المحتلة · وقد دعا المجتمعون للعمل على « انقاذ المشروع

الاستيطاني » في المناطق المحتلة ، « والنضال ليس فقط من اجل رفح ،وانما من اجل سيناء كلها · لان العرب يريدون تحويل اسرائيل الى دولة صغيرة وضعيفة » (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٤) ·

كذلك بادرت مجموعة من اعضاء ليحي (جماعة شتيرن) سابقا، الى العمل من اجل « منع بيغن من تسليم اجزاء الوطن الى العدو » ، على حد زعمهم ، فعقدت مؤتمرا صحفيا ، تحدث فيه اربيه كوتسير، احد الاعضاء البارزين ، بقوله : « سوف نناضل بكل قوتنا من اجل القضاء عليه [اي بيغن] · انا على يقين من ان غالبية الشعب معنا ، وستفهم الوضع على حقيقته ··· ايها اليهود ، ان البلاد تغلي · لقد شاهدت بيغن رافعا يديه لدى عودته من كامب ديفيد · لقد تقزمت صورته وتقلصت » (رأ ، ٧٨/٩/٢٦) ·

واضاف المتحدثون ، رفاق بيغن سابقا، ان اتفاقات كامب ديفيد اسوأ من اتفاق ميونيخ لسنة ١٩٣٨ ، عندما تنازل تشامبرلين البريطاني عن دولة ليست له ، وهي تشيكوسلوفاكيا ، « بينما بيغن يتنازل عن دولته · ان وعود الماضي تحولت لديه الى آثار ، والوضع الجديد يحمل بين طياته خطرا على الشعب اليهودي بأجمعه» (المصدر نفسه) ·

كذلك وجه الحاخام تسفي ـ يهودا كوك، الزعيم الروحي لغوش ايمونيم ، رسالة الى اتباعه يقول فيها انه « ليست هناك اية قيمة للتحدث حول السلام · ففي تاريخ [اسرائيل] لم تشهد سلاما مع مصر · [اليهود] ومصر عنصران متناقضان روحيا وسياسيا » (رأ ، ٧٨/٩/٢٠) · وفي حديث للحاخام كوك مع مراسل الاذاعة الاسرائيلية اعلن ايضا ، ان اتفاقات كامب ديفيد تعتبر « امتهانا لتاريخ اسرائيل · وان كل الاتفاقات التي تؤدي الى تقليص مساحة ارض اجداد اسرائيل ، لاغية وملغاة » (المصدر نفسه) ·

الا ان هذه المعارضة ، تبقى محدودة التأثير والفعالية ، رغم الضجة الكبيرة التي اثارتها ، نظرا لعدم ارتكازها على قاعدة شعبية واسعة ، بحيث يبدو كأن عدد مؤيديها لا يتجاوز بضعة الاف من غلاة المتطرفين ·

الموقف الرسمي والحزبي من اتفاقات كامب ديفيد

قبل طرح اتفاقات كامب ديفيد للنقاش امام الكنيست ، قامت الحكومة الاسرائيلية باجراء بحث مطول حولها استغرق اكثر من ثماني ساعات ، تمت خلاله المصادقة على القرار التالي : « سيقترح رئيس الحكومة على الكنيست المصادقة على اتفاقات كامب ديفيد وتفويض الحكومة باخلاء المستوطنين من سيناء ، واعادة توطينهم من جديد ، اذا اسفرت المفاوضات مع مصر ، عن تحقيق اتفاق حول جميع المشكلات ، يعبر عنه في وثيقة مكتوبة » (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٥) · وقد ايد هذا القرار ١١ وزيرا ، بينما عارضه اثنان ، وامتنع وزير واحد عن التصويت · كذلك لم يشترك ٤ وزراء اخرين في التصويت ، والوزيران المعارضان هما يغئال هوروفيتس الذي استقال فيما بعد من الحكومة ،بسبب معارضته هذه ، واليعيزر شوستاك من ليكود ·

وسبق النقاش في الحكومة عدة تصريحات وتفسيرات من جانب المسؤولين الاسرائيليين لمضمون الاتفاقات ، والمكاسب التي حققتها اسرائيل في كامب ديفيد · ففي لقاء مع المراسلين الاسرائيليين في واشنطن ، بعد وقت قصير من اعلان الاتفاقات ، حدد بيغن مكاسب اسرائيل ، خاصة فيما يتعلق بالضفة الغربية، بقوله: « لم تلتزم [اسرائيل] باخلاء

المستوطنات في الضفة خلال خمس سنوات · ولم توافق على وجود اي جيش غريب في هذه المنطقة ، بما في ذلك الجيش الاردني · ان الجيش الاسرائيلي ، فقط ، هو الذي سيتواجد في الضفة بعد مرور الفترة الانتقالية ، كذلك لم توافق [اسرائيل] على ترك المنطقة بعد هذه الفترة » (معاريف ، ٧٨/٩/١٩) · اما بالنسبة للاستيطان في الضفة ، فقد نفى بيغن ان يكون هناك اي التزام اسرائيلي بعدم اقامة مستوطنات خلال السنوات الخمس، وانما اقتصر ذلك على فترة ثلاثة اشهر فقط (المصدر نفسه) · وفيما يتعلق بالعلاقات مع مصر ، بعد الانسحاب من سيناء ، ذكر بيغن انه « بعدالانسحاب الاول الى خط رأس محمد ـ العريش ، سيتم تبادل السفراء · وافترض [اي بيغن] ان هذا سيحدث خلال ٩ـ١٢ شهرا ، اي ، سيكون هنالك سفير مصري في القدس في رأس السنة [العبرية] المقبلة » (المصدر نفسه) · كذلك ذكر بيغن ان ترتيبات الامن في سيناء « ممتازة » ، وتشمل « تجريد وتخفيف قوات ومحطات انذار مبكر · اما المطارات العسكرية ، فستسلم للاستعمال المدني · وقد حصلت اسرائيل على موافقة من حكومة الولايات المتحدة ، تقضي باقامة قاعدتين جديدتين في النقب · اضف الى ذلك ، فأننا لن نخلي المطارات الحالية في سيناء قبل الانتهاء من اقامة القاعدتين المذكورتين » (هآرتس ، ٧٨/٩/١٩) ·

وبالنسبة للقدس ، فقد ذكر بيغن ان اسرائيل اصرت خلال تبادل الرسائل بين الاطراف الثلاثة التي اشتركت في المؤتمر، بشأن مستقبل المدينة ، « على بقاء القدس موحدة وعاصمة اسرائيل الى الابد » (المصدر نفسه) ·

ويجدر الذكر ان بيغن عاد وكرر اقواله هذه في كلمته التي افتتح بها النقاش السياسي في الكنيست · الا انه اضاف ان «اهمية الاتفاق مع مصر تكمن في التزام [اسرائيل] للمرة الاولى بالتوقيع على معاهدة سلام · ليس اتفاقات جزئية ولا حلول وسط ، تبقى بها حالة الحرب على حالها، وانما معاهدة سلام ··· تجعل العلاقات طبيعية بصورة كاملة ، خاصة اقامة علاقات ديبلوماسية، واخرى اقتصادية وثقافية ، ووضع حد للمقاطعة الاقتصادية ، ثم حرية التنقل للاشخاص والبضائع » (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٦) ·

وحذر بيغن الكنيست من ان اسرائيل تواجه الان خيارا واحدا : قبول قرارات كامب ديفيد او عدم اجراء اية مفاوضات اخرى حول معاهدة السلام ، بحيث تعتبر جميع الامور التي تم الاتفاق عليها في المؤتمر ، لاغية تماما · ثم انتقل الى الوضع في الضفة الغربية وقطاع غزة موضحا ان مشروع الحكم الذاتي كان الاساس في الاتفاق حول هذا الموضوع · وبموجب الاتفاق « سيلغى الحكم العسكري ، بما في ذلك ادارته المدنية · وينتخب السكان العرب بأنفسهم مجلسا اداريا · اما اسرائيل ، فلن تتدخل من جانبها في ادارة شؤونهم اليومية · ويبقى الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة للحفاظ على امن اسرائيل القومي ··· وسيبقى هذا الجيش في المنطقة حتى بعد انتهاء الفترة الانتقالية كذلك لم نبق اي مجال للشك ، وقد اعلنا ان بعد الفترة الانتقالية التي ستمتدخمس سنوات ، وعندما ستطرح قضية السيادة ، ستطالب [اسرائيل] بحقها في السيادة على المنطقة · واذا ما تحقق اتفاق على اساس ادعاءات مضادة ، فليكن ، اما اذا لم يتحقق مثل هذا الاتفاق ، فان النتيجة ستكون استمرار انظمة الحكم الذاتي والامن الاسرائيلي » (المصدر

نفسه) · وحدد بيغن شرطين اساسيين لاي اتفاق في المستقبل ، قائلا : « اولا ، لم ولن يحدث اي استفتاء في [الضفة الغربية وقطاع غزة] ··· ثانيا ، لن نقبل ابدا ، وفي اي حال من الاحوال ، قيام دولة فلسطينية · وهنا اكرر · ان م·ت·ف· ليست ولن تكون طرفا في المفاوضات ··· ولقد سئلت : اذا انتخب احد من مؤيدي المنظمة في المجلس الاداري ، فماذا سيكون موقفكم ؟ واجبت، اننا لن نعارض انتخابه ، ولكننا سنقول له : اذا تصرفت بشكل لائق ، عندئذ تستطيع الاشتراك في هذه اللجنة ··· » (المصدر نفسه) ·

وكان بيغن قد اعلن ، في مقابلة له مع معاريف عشية رأس السنة العبرية ، انه لن يكون لسكان الضفة الغربية وغزة برلمان وجيش وعلاقات ديبلوماسية مع الدول الاجنبية ، « لانهم اذا ما حصلوا على كل هذا ، لن يكون في استطاعتهم تقرير مصيرهم ومستقبلهم فقط ، وانما مصير الدولة اليهودية ايضا » (نقلا عن ر١٠ ، ٧٨/١٠/١) ·

لا ضغط من اميركا

كذلك تحدث وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان حول مغزى اتفاقات كامب ديفيد ، نافيا أن تكون اسرائيل قدتعرضت لاي نوع من الضغط من جانب الولايات المتحدة ، خلال المؤتمر ·

« لقد قاسينا من الحيرة ، بين الرغبة في المفاوضات مع مصر وبين الثمن الذي ينبغي دفعه مقابل ذلك ، وبين اقتراح السلام الكامل · لم يحدث مرة في الماضي ان قدم لنا اقتراح بشأن العلاقات الطبيعية كما حدث في كامب ديفيد » (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٨)· واضاف دايان ، خلافا لما اعلنه في الماضي ، انه يفضل السلام على شرم الشيخ ، بشرط ضمان حرية الملاحة الاسرائيلية فيالقناة · واشار الى انه مستعد « لان يكون غريبا » في سيناء، بينما لا يمكنه ذلك في الضفة الغربية · وعاد دايان وكرر أن الاتفاق لا يتحدث عن اقامة دولة فلسطينية ، ويضمن وجود الجيش الاسرائيلي في الضفة (المصدر نفسه) ·

اما وزير الدفاع عيزر وايزمان فقد اعلن في كلمته امام الكنيست ، أن الحرب والسلام لا يمكن قياسهما بالمساحة فقط ، رغم ان الارض هي عامل مهم ، وانما بواسطة عوامل اخرى ايضا ، « بينها المعدات ، وانتظام القوات العسكرية وما شابه » (المصدر نفسه) · وفي ختام كلمته ، رد وايزمان على الذين يعارضون الاتفاق ، مدعين أن السادات لم يحكم مصر الى الابد ، فأعلن انه « اذا حدث وتسلم الحكم احد بدل السادات ، فأن الجيش الاسرائيلي سيكون مستعدا في وضع انتشاره الجديد » ·

وتحدث وزير الزراعة اريئيل شارون ، المشرف على النشاط الاستيطاني في المناطق المحتلةفي عهد ليكود ، فأعلن انه قرر تأييد اتفاقات كامب ديفيد « بقلب مثقل » ، وان لديه « القوة والحق الادبي في مواجهة المعارضين والمستوطنين » (دافار ، ٧٨/٩/٢٦) · ودعا شارون المستوطنين الى « التحلي بالصبر والشجاعة وهدوء الاعصاب ، لمواجهة الطريق الطويلة التي ما زالت [اسرائيل] في بدايتها ، والتي ستحتاج فيها الى النواة الطلائعية من المستوطنين ، اذ انها تواجه مشكلات لم تعرف لها مثيلا في السابق » (المصدر نفسه) ·

موقف نواب الائتلاف

ظهر من خلال ردود الفعل الحزبية

المختلفة حول اتفاقات كامب ديفيد ، ان جزءا لا يستهان به من اعضاء الائتلاف الحكومي ، وعلى وجه التحديد من كتلتي ليكود والمفدال ، قد عارض الاتفاقات المذكورة • فمقابل ٣٠ نائبا ايدوا الاتفاقات من كتلة ليكود ، هناك ٧ نواب صوتوا ضدها ، و ٨ آخرين امتنعوا عن التصويت ، اي ان ثلث اعضاء ليكود كانوا بين المعارضين والمتنعين • اما بالنسبة للحزب الديني القومي (المفدال) فقد ايد الاتفاق خمسة من نوابه ، بينما عارضه ٣ ، وامتنع ٤ آخرين عن التصويت • اما باقي كتل الائتلاف ، الحركة الديمقراطية للتغيير (٧ نواب)، واغودات يسرائيل (٤ نواب) فقد ايدت الاتفاقات بصورة شاملة •

يتزعم المعارضية لاتفاقات كامب ديفيد النائبة غيئولاه كوهين والنائب موشي شامير من حركة حيروت ، وقد اعلنت النائبة كوهين انها ستبدأ وزملاءها التحرك داخل كتلة ليكود وفروعها ، وبين الاوساط الشعبية ، ومع غوش ايمونيم ، وكل هيئة محسوبة على قائمة دعاة « ارض ـ اسرائيل الكاملة » ، « وأمل ان تتوفر لدينا قوة اكبر من القوة التي يعتقد بيغن انها محسوبة علينا • فقوته اضعف بكثيرمن القوة المتوفرة لدينا » (رأ ، ٧٨/٩/٢٨) • واضافت كوهين « ان الخوف الكبير ، الذي اسمه الا نقول « لا » لبيغن قد تلاشت ••• وبيغن اصبح موضع نقاش ••• انني لا ارى نفسي وحيدة • ربما نستطيع القيام بصراع فعلي ضد سياسة الحكومة • ومن الجائز ان يؤدي ذلك الى انشقاق جزء من الكتلة او من حركة حيروت » (المصدر نفسه) •

ماذا يعارضون ؟

يلاحظ من خلال ردود الفعل المختلفة لدى هؤلاء النواب المعارضين لاتفاقات كامب ديفيد ان معارضتهم تدور حول معظم بنود الاتفاقات ، سواء تلك المتعلقة بالانسحاب الاسرائيلي من سيناء واخلاء المستوطنات ، او الحكم الذاتي المقترح في الضفة الغربية وقطاع غزة •

فالانسحاب من سيناء يشكل في نظرهم خطرا امنيا على اسرائيل ، وقد اعلن شموئيل كاتس ، المستشار الاعلامي لرئيس الحكومة سابقا ، ان اتفاق سيناء معناه «تنازل كامل عن الحد الادنى الضروري من متطلبات الامن ! حتى حكومة المعراخ رسمت خطا في سيناء لا يمكن تجاوزه ابدا • اي انه اذا قامت اية حكومة بالتوقيع حول الانسحاب من سيناء الى ما وراء هذا الخط ، فانها تتنازل بذلك تنازلا مطلقا عن الحد الادنى الضروري من متطلبات الامن ، وليس لهذا الامر اية علاقة مع من يحكم مصر ، او اذا كان الحاكم الحالي يرغب في السلام او لا (في مقابلة مع يديعوت احرونوت، ٧٨/٩/٢٢)، واكثر ما يضايق هؤلاء المعارضين ، هو اخلاء مستوطنات مشارف رفح • وقد اعلن الوزير المستقيل هوروفيتس ، احد اشد المعارضين ، « ان مطلب السادات حول سحب المستوطنات لا يتجانس ابدا مع ارادته في السلام • ان اقامة المستوطنات في المنطقة العازلة [يقصد مشارف رفح] الواقعة بين غزة وسيناء ، كان عملا منطقيا ، صهيونيا وامنيا • اما اخلاء المستوطنات ، فسيقرب المصريين في المستقبل حتى ناحال عوز ، وليس هذا فحسب ، وانما سيصلون الى مشارف رفح وغزة حيث يعيش الآن ٤٥٠ الف نسمة [من الفلسطينيين] ••• مما يشكل خطرا امنيا على اسرائيل من جهة اخرى ، علينا الا نتنازل عن المستوطنات ، لان السادات قد لا يكون غدا في الحكم • وعندئذ لن تكون سيناء فقط بحوزة المصريين ، وانما سيكون هنالك

لسان عميق داخل اسرائيل » (رأ ، ٧٨/٩/٢٤) ٠

كذلك تحدث رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست موشي ارنس ، احد المعارضين للاتفاقات ، حول اخلاء المستوطنات بقوله : « اننا نناضل ضد الاخلاء ٠٠٠ فالقيمة الامنية للمستوطنات في مشارف رفح و [الضفة الغربية] والجولان ، تكمن في عدم اخلائها ، لان ذلك معناه ضمانة لوجود الجيش الاسرائيلي ٠ وهذا يكسبنا مناعة اكبر ضد الضغوط ، ويسهل علينا البقاء في تلك المناطق ٠ هذا هو تقليد الاستيطان اليهودي في ارض ـ اسرائيل ، منذ الاستيطان في تل ـ حاي ٠ ويبدو لي انه لا يمكن لاحد ان ينكر ، انه في حال اخراج هذه اللبنة ، اي مستوطنات سيناء ، من السور الذي بنته اسرائيل خلال سنوات ٠٠٠ فانه لن يبقى قويا متينا كما عهدناه » (من خطابه في الكنيست ، دافار ، ٧٨/٩/٢٨)٠

كذلك اعرب النائب يهودا بن ـ مئير (المفدال) عن مخاوفه من ان تتحول مسألة اخلاء المستوطنات من سيناء الى سابقة بالنسبة لمناطق اخرى ٠ واعلن ان احد شروط حزبه هو منع مثل هذا التطور (معاريف ، ٧٨/٩/٢٢) ٠

وتبدو المعارضة قوية ، بين نواب الائتلاف ، بشأن الاتفاق حول الضفة الغربية وقطاع غزة ، خاصة بين نواب الحزب الديني القومي ، الذي يرى ان ما اتفق عليه في كامب ديفيد ، يعارض معارضة تامة مشروع الحكم الذاتي الذي اقرته الحكومة الاسرائيلية في كانون الاول الماضي ٠ وقد تحدث النائب بن ـ مئير ايضا حول هذه المسألة بقوله : « ان مشروع السلام الاسرائيلي تحدث فقط حول الغاء ادارة الحكم العسكري ،وليس الغاء الحكم العسكري كمصدر صلاحيات٠ الا انه في اتفاق [كامب ديفيد] ، تم الغاء الحكم العسكري وادارته في آن واحد ٠ كذلك اعتبر المشروع الاسرائيلي، الحكم الذاتي في الضفة الغربية بمثابة حل دائم ، مع امكانية البحث المجدد بعد مضي خمس سنوات ، بينما تقرر الآن ان يكون هذا بمثابة حل مؤقت ، ويدور الحديث حول نقل السلطة الى جهة اخرى٠ كذلك فقد اتفق في كامب ديفيد على تقييد قوات الجيش الاسرائيلي ، واعلن انه سيتم انسحابها من الضفة الغربية ، بينما تتواجد القوات المتبقية في نقاط امنية محددة ٠ وبالنسبة للاستيطان ، فقد ورد في المشروع الاسرائيلي بند واضح حول حق اليهود في شراء الارض والاستيطان في الضفة الغربية ، كحق العرب في الاستيطان في اسرائيل ، وهذا لم يرد في اتفاقات كامب ديفيد ٠ كذلك لم تذكر هذه الاتفاقات شيئا حول المستوطنات القائمة في الضفة » (المصدر نفسه) ٠

وانطلاقا من هذه المواقف ، فقد بدأ المعارضون يشككون ، ايضا بفائدة « السلام » بالنسبة لاسرائيل ٠ ويمكن استخلاص ذلك من كلمة النائبة كوهين امام الكنيست ، اذ قالت : « لا يمكن القول ان السلام هو اكبر القيم لدى اسرائيل ٠ ان مليون فلسطيني [في المناطق التي تطالب كوهين بضمها الى اسرائيل] هو حقا امر مؤلم ٠ ولكن هل ينبغي علينا بسبب ذلك ، ان نحطم رؤوسنا ؟ » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٩/٢٨) ٠

هذه هي اهم النقاط التي طرحها المعارضون لاتفاق كامب ديفيد من اعضاء الائتلاف ، اما المؤيدون منهم ، فقد تبنوا موقف الحكومة ، مع التشديد على « الثمن الباهظ » الذي اضطرت

اسرائيل لدفعه مقابل السلام على حد زعمهم ٠

موقف المعارضة

نجحت الحكومة الاسرائيلية في تمرير اتفاقات كامب ديفيد في الكنيست بفضل اصوات المعراخ (التجمع) العمالي المعارض ، حيث ايدها ٢٤ نائبا من نواب تلك الكتلة (مع معارضة ٤ نواب ،وامتناع ٣ أخرين) ٠ ومن ابرز المعارضين والممتنعين يغئال الون وشلومو هيلل ، وزيرا الخارجية والشرطة سابقا ٠ وقد جاء هذا التأييد في الكنيست بعد سلسلة من الاجتماعات والمباحثات، التي نشط حزب العمل في اجرائها ، منذ صدور اتفاقات كامب ديفيد ، وابرزها اجتماعي مركز حزب العمل ومكتبه ، في الرابع والعشرين من ايلول (سبتمبر) الماضي٠ وبرزت في هذه الاجتماعات بوادر التأييد لاتفاقات كامب ديفيد ، رغم التحفظ الشديد ازاء مسألة اخلاء مستوطنات سيناء ، حتى ان المجتمعين لم يستطيعوا اتخاذ قرار صريح حول هذه المسالة (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٥) ٠

ويدل هذا على حالة البلبلة التي اصابت اعضاء الحزب ، بعد صدور اتفاقات كامب ديفيد ٠ « فزعماء المعراخ لم يعرفوا كيف يقررون ٠ هل يؤيدون الاتفاق ويعرضون انفسهم لاسئلة على غرار ٠ « اين كنتم طوال ثلاثين سنة ، بينما بيغن حقق اتفاق سلام بعد مرور٣٠٠ يوم على توليه الحكم ، او معارضة الاتفاق ، والظهور كمن يقف حاجزا امام السلام » (بينا برزيل ، يديعوت احرونوت، ٧٨/٩/٢٢) ٠ والرأي السائد بينمختلف الاوساط ، حتى داخل حزب العمل ، هو ان اتفاقا كهذا ، لو تحقق ايام المعراخ ، لادى الى وقوع المذابح في اسرائيل ، ونشوب حرب اهلية ، لذلك ينبغي الايبدي احد اسفه لان بيغن حقق السلام ٠

انطلاقا من هذه الاعتبارات ، ايد المعراخ اتفاقات كامب ديفيد ، كما ذكرنا سابقا٠ الا انه احتفظ لنفسه بحق المعارضة والتحفظ على مسائل اساسية ، سواء فيما يتعلق بالاتفاق حول سيناء ، او حول الضفة الغربية وقطاع غزة ٠

ومن اكثر القضايا التي آلمت زعماء المعراخ انهيار مشاريعهم في سيناء ، من مطارات ومستوطنات ومنشآت اخرى ، اقيمت جميعها في عهدهم ، وفق سياسة توسعية شاملة ، هدفت الى السيطرة على مناطق استراتيجية في سيناء ، كمشارف رفسح مثلا ، بهدف خلق حاجز « استيطاني ـ امني » بين غزة وسيناء ، وتحييد التجمع السكاني العربي في غزة ، لكي يسهل فيما بعد السيطرة على القطاع نهائيا ٠ وقد انهار هذا المشروع امام اتفاقات كامب ديفيد ، وبتصديق من الكنيست الاسرائيلي ٠ وتحدث زعماء المعراخ طويلا حول « هذا الثمن الباهظ جدا » الذي دفعته اسرائيل ، بسبب « الاخطاء » التي ارتكبتها حكومة بيغن خلال المفاوضات ، على حد قول شمعون بيريس ، زعيم حزب العمل ، اثناء النقاش السياسي في الكنيست ٠ وكان بيريس قد ذكر اثناء ذلك النقاش ان « اسرائيل اضطرت الى دفع ثمن مضاعف مقابل السلام : ثمن السلام الذي لا مهرب منه ، وثمن الاخطاء التي ارتكبت اثناء المفاوضات ٠٠٠ لقد تنازلت [الحكومة] عن سيناء كلها في امسية قدسية صافية [يقصد مع وصول السادات الى القدس واختلائه ببيغن في اول اجتماع لهما] ، وبعد ذلك بدأت باجراء مفاوضات ندم ،

دون فائدة · ففي سيناء حطمت الصداقية الاسرائيلية · ان [حكومات المعراخ] اصرت على حدود قابلة للدفاع ، مع مستوطنات واراض واتصال اقليمي من شرم الشيخ حتى ايلات ، [وكذلك مع] قطاع يميت · هذا ما اعلناه امام المستوطنين ، واعلنه كل واحد منا امام الاخر ، وسمينا ذلك اجتماعا قوميا ··· لقد تلاشى هذا الاجتماع في رمال سيناء لاننا انسحبنا الى حدود ١٩٦٧ ، وتنازلنا عن حدود قابلة للدفاع ، والان بدأنا نسمع من الحكومة الحالية ان [قوات] الامم المتحدة افضل من الجيش الاسرائيلي، مذكرة ايانا ان ما تم التوصل اليه حول سيناء يمكن ان يكون اساسا للمفاوضات مع سوريا ، الاردن ولبنان » (هآرتس ، ٧٨/٩/٢٦) ·

كذلك هاجمت غولده مئير ، رئيسة الحكومة سابقا ، سياسة الحكومة بشدة متهمة بيغن بأنه باع سيناء مقابل الاحتفاظ بالضفة الغربية . الامر الذي لن يتحقق في نظرها ، في ظل الحكم الذاتي · ودافعت مئير ، امام مكتب حزبها ، عن الاستيطان في سيناء متسائلة : « ما هو السيء في هذا الاستيطان ؟ هل ذلك [المستوطن] الذي قدم من استونيا الى يميت ، لم يجد مكانا اخر له في اسرائيل ؟ ام انه قدم الى يميت في مهمة قومية ـ امنية ؟· هل يجب علي ان اغير موقفي لان وزير الخارجية بدل رأيه السابق ، بأن كل شيء عرضة للدمار باستثناء يميت ، والان لم يعد هذا الامر ذا اهمية في نظره ، كشرم الشيخ التي باتت عديمة الاهمية ايضا ؟ » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٩/٢٢) · ووبخت مئير اعضاء حزبها ، الذين بدأوا يلومون انفسهم لعدم قدرتهم على تحقيق السلام اثناء عهد المعراخ ، بقولها :

« لماذا نلوم انفسنا هكذا ؟ أمن اجل اننا لم نحقق السلام ؟ ومن الذي حققه ؟ بيغن الذي شق حكومة التكتل الوطني [سنة ١٩٧٠] لاننا وافقنا على وقف اطلاق النار والقرار ٢٤٢ ، وبفضل ذلك حصلنا على معدات للجيش لم نكن نحلم بها » (المصدر نفسه) ·

اما رئيس الحكومة السابق يتسحاق رابين ، فيعتبر ان مسألة الانسحاب من سيناء تعتبر تنازلا عن الكثير من المفاهيم التي تبناها الاسرائيليون منذ حرب ١٩٦٧· كذلك فان اخلاء المستوطنات قد يشكل ـ بحسب رأيه ـ سابقة مبدئية ، اذا ما قررت سوريا الانضمام الى المفاوضات ، الامر الذي سينعكس بالطبع على مستوطنات الجولان (المصدر نفسه) ·

اما بالنسبة للاتفاق حول الضفة الغربية وقطاع غزة ، فان زعماء حزب العمل يعتبرون ان الحكم الذاتي سيمهد الطريق امام قيام دولة فلسطينية في المستقبل ، وقد تحدث شمعون بيريس حول تصوره لتطور الاوضاع في الضفة في ظل الحكم الذاتي بقوله : « يتضح الان ان الحكم الذاتي لن يكون بديلا للقرار ٢٤٢ ، وانما اضافة اليه · ان مبادىء وبنود هذا القرار ستسري على جميع المناطق · اما اللجنة المشتركة للاردن واسرائيل والممثلين المنتخبين عن المناطق ، فستضطر ايضا الى تعين الحدود وطابع ترتيبات الامن · ان الحكم الذاتي هو لمتطلبات الاعلام ، اما مبدأ الانسحاب فهو المعد للتنفيذ ·

« لقد تحول الحكم الذاتي ··· الى مشروع مؤقت ، ولم يعد « اتفاقا جزئيا دائما » ، وانما « اتفاقا مؤقتا وعابرا »· وحسب الاتفاق ، سيلغى الحكم العسكري ويمنح السكان صلاحية الحكم الذاتي مع ادارة ذاتية متكاملة · وستقوم هيئة عربية منتخبة ، تقر كيفية ادارة الامور حاضرا ، وتقرر ايضا مستقبل المناطق · سيقوم حكم ذاتي منتخب ، مع ادارة وشرطة ،

والاساس في ذلك رغبات كامنة . وامكانية للاعلان عنها ، سواء بالنسبة لبقاء الجيش الاسرائيلي ، او بالنسبة لتقرير المصير . ولا اتوقع ان يلجأ هذا الحكم الى التوسل للبحث الاسرائيلي طالبا منه البقاء في المناطق في نهاية السنوات الخمس . او يعلن تفضيله الارتباط مع اسرائيل على تقرير المصير » (من خطابه امام الكنيست ـ هآرتس ، ٧٨/٩/٢٦) . واضاف بيريس ان اهم ما في الاتفاق هو ان حكومة اسرائيل ، صاحبة « المبادىء القوية » ، اعلنت انها توافق سلفا ، على ان تشمل المفاوضات عبارة « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وامانيه العادلة » . لقد « انتهى بذلك نقاش تاريخي ، واعترفنا بوجود شعب فلسطين . وليس صعبا تخمين الحقوق المشروعة لشعب يشكل الاكثرية الساحقة على ارض يعيش فوقها ... ولا يمكن احتجاز شعب في صندوق بريد » (المصدر نفسه) .

كذلك اعتبرت غولده مئير ان ما « سيتقرر نتيجة الحكم الذاتي هو العودة الى حدود ١٩٦٧ . وهذا ما سيبقى من حلم الحكم الذاتي » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٩/٢٢) .

ويتوقع رابين ان تواجه اسرائيل مشكلات ، مع بدء تطبيق الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة . وحدد هذه المشكلات بقوله : « يحتمل ان تحدث امور كثيرة ، وتطرح اسئلة عدة : من سيراقب حركة المارة على جسور الاردن ؟ من سيشرف على عودة السكان الذين تركوا بيوتهم بعد حرب ١٩٦٧ ، او قبلها ؟ ولمن ستكون ملكية اراضي الدولة والمناطق ؟ ومن سيكون صاحب الصلاحية في عملية التصديق على شراء الاراضي ؟ ومن سيكون مسؤولا عن الخرائط الهيكلية [للبناء] في المناطق ؟ ومن سيكافح عمليات الارهاب ، التي يكون مصدرها من المناطق واهدافها في اسرائيل ؟ وماذا سيحدث اذا طلب المجلس الاداري بعد سنة من الحكم الذاتي ، مركز مراقب في الجمعية العامة للامم المتحدة » (المصدر نفسه) .

موقف الكتل الصغيرة

يبقى ان نذكر ان الكتل الصغيرة (شلي، حركة حقوق الانسان ، حركة شاي المنشقة عن داش ، الاحرار المستقلون ، بلاتو شارون ، اساف ياغوري ، بوعالي اغودات يسرائيل) قد ايدت جميعها اتفاقات كامب ديفيد . اما الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) فقد صوت ٤ نواب منه ضد الاتفاق ، بينما امتنع ممثل الفهود السود في الحزب ، النائب تشارلي بيتون ، عن التصويت .

خريطة حزبية جديدة

يعتقد المراقبون في اسرائيل ان اتفاقات كامب ديفيد قد تؤدي في النهاية ، على الصعيد السياسي الداخلي ، الى ظهور خريطة حزبية جديدة ، نتيجة الاراء المتباينة حول الاتفاقات المذكورة بين مختلف الاحزاب في اسرائيل ، واحيانا بينها وبين نفسها، خاصة بين كتل الائتلاف الكبيرة . والاحتمال القائم ، والذي يمكن استنتاجه من خلال متابعة ردود الفعل الاسرائيلية المختلفة ، ان الاهتزاز او الانشقاق سيحدث في الاساس داخل كتلتي ليكود ، خاصة ضمن حركة حيروت، وفي الحزب الديني القومي (المفدال) . وربما اثر ذلك على نسب القوى بين الائتلاف والمعارضة ، وادى الى تقلص القاعدة البرلمانية التي يعتمد عليها الائتلاف الحكومي حاليا ، وهي قاعدة

واسعة على اي حال ، بعد انضمام داش الى الحكومة · واذا ما حدث ذلك فان قوة المعارضة ستزداد ، وبالتالي ليس امام بيغن الا ان يحسب لها حسابا في كل قرار صادر عن حكومته · غير انه ، على الرغم من ذلك ، يكاد يكون من المؤكد ان تعاون اسرائيل ، استنادا الى خريطة القوى السياسية داخلها ، مهما كانت التناقضات او الاختلاف في وجهات النظر فيما بينها ، على اتفاقات كامب ديفيد ، وعلى المدى الذي يتعلق ذلك بها وحدها ·

حنة شاهين

II

سيناء « والتنازلات » الاسرائيلية

منطقة مشارف رفح ، ومشارق سيناء: جغرافيا وطيوغرافيا

هي المثلث الذي يمتد من الطرف الجنوبي لقطاع غزة ، وعلى طول ٤٥ كم على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، حتى مداخل مدينة العريش في سيناء · اما حدودها الشمالية الشرقية ، فهي الحدود الدولية بين مصر وفلسطين ، والتي تمتد حوالي ٢٠ كم، وحدودها الجنوبية صحراء سيناء ·

وتضم مشارف رفح ، بالاضافة الى مشارق سيناء حوالي مليون دونم زراعي مناخها معتدل وتلالها المتموجة ترتفع تدريجيا من شاطىء البحر وحتى ارتفاع ٦٠ مترا فقط ·

وعلى الرغم من النقص في المياه في منطقة مشارف رفح، والتي يصل منسوبها السنوي من ١٥٠ ــ ٢٠٠ ملم فقط ، الا ان مناخها المعتدل وتربتها ، « يسمحان بتطوير الزراعة الشتوية في مشاتل وبساتين شبه استوائية ، بالاعتماد على مصادر المياه المحلية والينابيع الساحلية في المنطقة » (دافار ٧٨/١/٦) · كما يشكل ساحلها الطويل والمستقيم برماله الناعمة ، وواحات النخيل على طول امتداده ، « احد المرافق السياحية والانتجاعية على مستوى عالمي » (المصدر نفسه) ·

من الناحية الجيو ــ سياسية والاستراتيجية

اما اهمية مشارف رفح بما فيها مشارق سيناء ، من الناحية الجيو ــ سياسية والاستراتيجية ، فانها تنبع من مرور الطريق الدولية القديمة عبرها ، وهي الطريق الموصلة من طرف الدلتا في مصر في اتجاه فلسطين ــ طريق البحر · وقد كانت لهذه الطريق اهمية خاصة عبر التاريخ ، اذ كان قد « مر بها ابتداء من عام ٢٣٠٧ ق·م وحتى يومنا هذا ، حوالي ١٠٣ حملات حربية مصرية في اتجاه فلسطين ، بينما لم يمر بها غير ١١حملة عسكرية في الاتجاه المعاكس ضد مصر ، كانت آخرها ، تلك التيجردتها اسرائيل عام ١٩٦٧ م » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/٢/١٤) ، بالاضافة الى حملتين سابقتين عام ١٩٤٨ ، وعام ١٩٥٦ ·

وكان نابليون بونابرت ، كبير الاستراتيجيين في بداية القرن التاسع عشر قد حدد اهمية سيناء كمنطقة عازلة بوضوح ـ حين جرد حملته العسكريةعلى فلسطين من مصر ، في ربيع عام ١٧٩٩ ، سالكا الطريق القديم اياه ـ بقوله : « ان هذه الصحراء هي اشد العقبات التي يمكن ان تستخدم لحماية حدود اية دولة كانت، وتفوق بفعاليتها على سلاسل جبال الالب، ناهيك عن الانهار » (المصدر نفسه) ٠

وكان استنتاج نابليون الاستراتيجي هو ، ان « الجيش المدافع عن مصر ، يجب عليه التمركز بالقرب من العريش ، او بالقرب من واحة قاطية (منطقة رمانة) » اي ان خط الدفاع يجب ان يتركز على عتبات فلسطين في العريش ، من ناحية ، او على عتبات مصر في منطقة رمانة الى الشمال من العريش ـ كبديل لها ـ من ناحية ثانية ٠ كما وان نابليون كان يعتقد ان ليس من قاعدة عسكرية « افضل من مدينة غزة » ، التي تستطيع « امداد الجيش بمعظم متطلباته » (المصدر نفسه)٠

الاستيطان الاسرائيلي والمستوطنات

وقد فسر الاسرائيليون ملاحظات نابليون الاستراتيجية هذه ، على انها « اثبات للحقيقة الجغرافية العسكرية من جديد » ، اي ان « حدود غزة الجنوبية ـ الغربية لا تتوقف في رفح ، وانما تصل حتى مدينة العريش تماما » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/٢/١٤) ٠ كما ان هذا التحديد هو « صحيح من وجهة النظر التاريخية الاستيطانية » ، اذ ان الانتشار السكاني لفلسطين « امتد منذ القدم حتى مصب وادي العريش » (المصدر نفسه)، مما دفع بآباء الصهيونية الى « التوجه بجدية نحو الاستيطان اليهودي في هذه المنطقة ، كجزء من ارض ـ اسرائيل » (دافار ، ١٩٧٨/١/٦) ٠ وقد بدأ المحاولات في هذا الاتجاه « تيودور هرتسل واستمر به د٠ هليل يافيه، والعالم الزراعي زليغ سوسكين » ، وكانت ثمة تحسسات يهودية « لشراء ٩٠ الف دونم ارض من منطقة رفح » ٠ واكثر من ذلك ، فقد «٠الف ز٠ د ليفونتين جمعية في العامين ١٩١٢ ـ ١٩١٣ ، مهمتها امتلاك الاراضي الى الغرب من حدود رفح » ، الا ان الاستيطان اليهودي لم يبدأ في هذه المنطقة ، « الا بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ » (المصدر نفسه) ٠

وقد كانت وجهة النظر الاسرائيلية بعد احتلال مشارف رفح وسيناء ، عام ١٩٦٧ ، ان « الشروط الجيو ـ سياسية الاساسية لم تتغير مع مرور الزمن » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٢/١٤) ، وانه كان من الطبيعي ان « يعود قطاع غزة الاكبر ـ بما فيه مشارف رفح ومشارق سيناء حتى العريش ـ الى سابق عهده٠ بواسطة المشروع الاستيطاني اليهودي الجديد ، حتى مداخل العريش » (المصدر نفسه) ٠

ووفقا لهذا الاتجاه ، فقد خططت الحكومة الاسرائيلية ، لمشروعها الاستيطاني في تلك المنطقة ، وهوالمشروع الذي عرف باسم لواء اشكول ، او المشروع الجنوبي ، فيما بعد ، كوحدة « ادارية واحدة منذ عام ١٩٦٩ » اي ، كتركيبة استيطانية تابعة « للجنة ماعون القطرية » ، داخل الاراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨ والمستوطنات الجديدة في قطاع غزة ، ومشارف رفح ومشارق سيناء ٠ وقد تم ذلك « لربط المستوطنات القائمة والمتطورة من جهتي الخط الاخضر [حدود الاحتلال منذ عام ١٩٤٨] ، في مشروع تطوير قطري وشامل في جميع المجالات ، الكفافية ، والاقتصادية ، والمواصلاتية ، والخدماتية » (المصدر نفسه) ، لخلق

« قاعدة استطانية يهودية حتى الاعتاب الجنوبية الغربية [لفلسطين] ، ليس للدفاع عنها في وجه مصر فقط ـ وفقا لتحديد نابليون ـ وانما لتكثيف الاسفين الديموغرافي ـ الامني بين قطاع غزة المكتظ بالسكان ، وبين اطراف الدلتا المصرية (...) ولخلق امر واقع ، وفقا للنظرية الامنية والاستيطانية التي اثبتت صحتها خلال المئة عام الاخيرة : الاستيطان اليهودي هو الذي يقرر حدود الدولة » (يديعون احرونوت ١٩٧٨/٩/٢) ٠

اما التخطيط الكفافي الشامل لهذا المشروع ، فقد اعد بخطوطه العامة ، « في اطار شعبة التخطيط والتطوير لمنطقة النقب عام ١٩٧١ » ، حيث اطلق عليه اسم « المشروع الجنوبي » ، والذي يضم « ١٫٧٤٢٠٠٠ دونم من الارض ، ٤٣٪ منها داخل الخط الاخضر ، و ٥٧٪ اخرى في نطاق جنوب قطاع غزة والممر الواقع بين رفح والعريش في مشارق سيناء » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/٢/١٤) ٠

وقد تركزت الاهداف العامة لهذا التخطيط الكفافي خلال المدة « المقترحة في المشروع للانتهاء منه وهي عام ١٩٨٢ » ، على « التكثيف السكاني »بحيث تقام في هذه المنطقة « ١٠٠ مستوطنة ، يقطنها ٢٠ الف عائلة تعد ١٥٠ الف نسمة » وعلى « اعتماد الزراعة المكثفة المتخصصة في شريحة المستوطنات القروية ، وتطوير وتوسيع المشاريع السياحية والخدمات العامة ، وترسيخ المشاريع الصناعية » (المصدر نفسه ، ويديعوت احرونوت ، ١٩٧٧/٩/٢) ٠ ولم يشمل هذا المشروع السكان العرب في مشارف رفح ومشارق سيناء ، اذ كانت « ثمة خطة منفردة قد اعدت بتوجيه من الحكم العسكري ، لتطوير واسكان البدو في العريش ، والشيخ زويد وقسيمة» (المصدر نفسه) ٠

وكانت الخطوة الاولى للاستيطان في مشارف رفح ومشارق سيناء ، قد « تمت في اواخر عام ١٩٦٧ » ، عندما ارسلت نواة من الـ « ناحال » (الشباب الطلائعي المقاتل) الى « مزرعة تجريبية مصرية تقع الى الجنوب من العريش ، لاقامة مستوطنة ناحال ـ سيناي شبه العسكرية » ، والتي تحولت في عام ١٩٧٣ الى « قرية تعاونية تابعة لحركة بيتار الحيروتية ، بعد ان نقلت الى مكان جديد الى الشمال من العريش وتحمل اسم ناؤوت سيناي » (دافار ، ١٩٧٨/١/٦) ٠ اما المستوطنة الثانية التي اقيمت في تلك الفترة فقد كانت « ناحال ـ يام ، على شاطيء بحيرة البردويل» اما تجربة اقامة «قرية صيادين في هذا المكان فقد فشلت » (المصدر نفسه) ٠ الا ان مشروع اقامة استيطان مكثف في المنطقة ، لم يتجسد الا « مع اقامة مستوطنة ديكله عام ١٩٦٨ كمستوطنة ناحالية ، ومن ثم كمستوطنة مدينية تابعة لحركة بيتار عام ١٩٧١ » ٠ اما المستوطنة المدينية الاولى التي اقيمت في مشارف رفح ، فقد كانت « المستوطنة الزراعية ، سدوت ، التي اقيمت عام ١٩٧١ » (المصدر نفسه) ٠

وهذه هي المستوطنات الاهلة الموجودة حاليا في مشارف رفح:

١ ـ سدوت ، قرية زراعية ، اقيمت عام ١٩٧١ .

٢ ـ نتيف هاعشراه ، قرية زراعية ، ١٩٧٣ ٠

٣ ـ اوغداه ، قرية زراعية ، ١٩٧٣ ٠

٤ ـ نير ـ ابراهام ، قرية زراعية . ١٩٧٦ ٠

٥ ـ ابشالوم ، مجمع ، ١٩٧٣ ٠

٦ ـ سوفاه ، كيبوتس ، ١٩٧٣ ٠

٧ ـ حوليت ، كيبوتس ، ١٩٧٣ ٠

٨ ـ تلمي ـ يوسف ، قرية زراعية . ١٩٧٧ ٠

وهناك مستوطنة في « طور الاقامة هي مستوطنة فريئيل ،ومستوطنتان اخريان في طور التخطيط ، وهما ، ييغول وفري غان » (دافار ، ٧٨/١/٦) ، ويديعوت احرونوت ، ١٤ /٧٨/٢) ٠

اما المستوطنات الموجودة في مشارق سيناء فهي :

١ ـ ناؤوت سيناي ـ قرية زراعية ، اقيمت عام ١٩٧١ (وفي مكانها الجديد عام ١٩٧٥) ٠

٢ ـ ديكله ، قرية زراعية ، ١٩٦٨ ،

٣ ـ ترساغ ، قرية زراعية ـ سياحية، ١٩٧٧ ، بالقرب من خليج خروبة ،

٤ ـ يميت، مركز مديني ، وقد اقيمت عام ١٩٧٤ ، وتتكون الان من ٢٠٥ بنايات في طور البناء كما وافرز فيها ١٠٠قطعة ارض للبناء الفردي ٠

اما المستوطنات الموجودة في عمق سيناء فهي :

١ ـ داي ـ زهاف (ذهب) ، قرية زراعية ـ سياحية، اقيمت عام ١٩٧٣ ،

٢ ـ نفيعوت ـ (نويبع) ، قرية زراعية ، ١٩٧٣ ،

٣ ـ اوفيرا ـ (شرم الشيخ) مدينة ١٩٧١ ،

وتقع جميع تلك المستوطنات في شمال سيناء على خليج العقبة ٠

ويبلغ مجموع السكان الاجمالي في جميع هذه المستوطنات « بالاضافة الى مستوطنات قطاع غزة ٣٠٠٠ نسمة (٧٠٠ عائلة) بينهم ١٨٠٠ طفل ، ومنهم في يميت وحدها ٣٥٠ عائلة مع ١٠٠٠ طفل » (ملحق يديعوت احرونوت ، ١٣/١/ ١٩٧٨) ، اي ان هذه المستوطنات شبه خالية تقريبا ، ولا قيمة سكانية لها ٠ انما قيمتها الاساسية ، سياسية ٠

اما بالنسبة للاموال التي وظفتها الحكومة الاسرائيلية في هذه المستوطنات، القروية منها والمدينية ، فيكفي ان نطلع على بعض المعطيات ـ قبل السياسة الاقتصادية الجديدة ـ لكي نقف على مدى هذه التوظيفات ، ففي « مستوطنة سدوت وظف حتى ايلول ١٩٧٧ حوالي ١٥ مليون ل٠ا ، وفي اوغداه ٥ر١٨ مليون ل٠ا ، من دون الجزء الزراعي ، ويكفي ان نذكر ان المشتل الواحد يكلف ٢٥٠ الف ل٠ ا » (دافار ، ٧٨/١/٦ ، ويديعوت احرونوت، ٧٨/٢/١٤) ٠ اما في بناء مدينة يميت، فقد « وظف حتى ايلول ١٩٧٧ حوالي ١٨٠ مليون ل٠ا ، وفي مدينة اوفيرا ٢٢٠ مليون ل٠ا ٠٠٠ وهذه المبالغ لا تشمل استصلاح الارض وشق الطرق وتطوير المرافق الاقتصادية » (المصدر نفسه) ٠

وبالنسبة للمبالغ التي وظفت في الجهاز الامني الذي اقيم في المنطقة « فاننا لا نستطيع تقديرها » (المصدر نفسه) ٠

النفـــط

لقد قامت اسرائيل بعد احتلال شبه جزيرة سيناء عام ١٩٦٧ ، بالتنقيب عن النفط والغاز الطبيعي في خليج السويس، مستخدمة في ذلك امكانياتها وحدها ، ولكنها سرعان ما « فشلت في ذلك فشلا ذريعا ، متكبدة خسائر فادحة » (هارتس، ٧٨/٤/٢١) ٠ وكانت اسرائيل قد نقبت في « ستة اماكن بين الطور في الشمال ورأس الكنيسة في الجنوب ، في البر ،

وفي مكانين آخرين في البحر ، الا انها انتهت جميعها الى الفشل » (المصدر نفسه) ، مما اضطرها لاشراك الشركة الاميركية « سوبير يور ـ نفطون » التي اخذت « كامل المسؤولية في التنقيب على عاتقها » ، والتي تقوم شراكتها مع اسرائيل على « ٧٥٪ من دخل النفط الذي تنتجه لاسرائيل ، و ٢٥٪ منه لشركة وفقا للعقد » (المصدر نفسه) ٠

البئران الاولان اللذان حفرتهما هذه الشركة في « رأس غره ٣ » و « علما ١ » في منطقة الطور على خليج العقبة لم تسفرا عن اية نتيجة ، غير انه لم يمض وقت طويل حين « اكتشفت النفط في علما ٢ ، ومن ثم في علما ٣ ٠٠ ويضاف اليها الآن البئر الثالثة علما ٤ » (المصدر نفسه) ، في منطقة الطور على خليج العقبة ٠

واستنادا الى دراسة وضع البئرين الغزيرتين في « علما ٢ » وفي « علما ٣»، فان الخبراء الاميركيين والاسرائيليين يؤكدون ان « مخزون حقل علما يحتوي على كمية كامنة من النفط ، تقدر بـ ٨٠ ـ ١٠٠ مليون برميل » (المصدر نفسه) ٠

وهذا يعني ان قيمة حقل « علما » تعادل الآن «٢ر١ مليار دولار » ،والذي قد يتضاعف انتاجه في المستقبل ، اذا ما اكتشفت آبار تجارية اخرى « كما تتوقع الشركة » والتي قد تصل في عددها الى « ستة او سبعة آبار حتى نهاية عام ١٩٧٨ » (المصدر نفسه) ٠

وكان الضخ التجاري في بئري علما ٢، وعلما ٣ ، قد بدأ بانتاج « ١٢ الف برميل يوميا في بداية شهر نيسان ١٩٧٨ » ، ولكن المنقبين المنتجين ، وضعوا نصب اعينهم هدفا « انتاج ٤٠ الف برميل يوميا حتى نهاية العام الحالي ١٩٧٨ » ، اي بدخل يساوي « نصف مليون دولار يوميا، وفقا للاسعار الراهنة وهي ٥ر١٢ دولار لبرميل » (المصدر نفسه) ٠

ان استهلاك اسرائيل اليومي من النفط هو «حوالي ٢٠٠ الف برميل » ، اي ان حقل « علما » يستطيع تزويد اسرائيل حتى نهاية عام ١٩٧٨ بـ « ٢٠٪ ، اذا لم يكن اكثر ، من استهلاكها اليومي » ، واستنادا الى « المعطيات التي يملكها الخبراء » ، فان آبار البترول في حقل علما سوف « تبدأ بانتاج ٧٠ الف برميل يوميا او اكثر ، ابتداء من نهاية العام ١٩٧٩ » ، اي انها ستغطي « ٣٥٪ الى ٤٠٪ من استهلاك اسرائيل اليومي من النفط » (المصدر نفسه) ٠وهذا يعني انها « ستوفر مبلغ ٢٨٠ مليون دولار سنويا » ، اذان استهلاكها السنوي من النفط « يبلغ ٧ ملايين طن بقيمة ٧٠٠ مليون دولار » ، (المصدر نفسه) ٠

وهذا يعني بالتالي ، بان حقل النفط البحري هذا ، المسمى « علما » ، في مركز خليج السويس بالقرب من الطور ، كان « سيدفع اسرائيل نحو التقدم ، والاستقلال الاقتصادي ، ويوفر عليها المئات من ملايين الدولارات في كل سنة» (المصدر نفسه)، ٠ واكثر من ذلك ، فقد كان من شأنه ان « يقلص من تبعيتها في استيراد النفط ٠٠ بل والاستقلال التام في احتياجات الطاقة، وربما تصدير النفط » ٠ (المصدر نفسه) ٠

الغاز الطبيعي

في الطرف الآخر لسيناء ، في الجزء الغربي للصحراء ، وبالقرب من مستوطنة « سدوت » في مشارف رفح ، اكتشفت شركة « جيفوسي ـ نفط » ـ وهي شركة اسرائيلية متفرعة عن « شركة النفط الوطنية »، والتي تمتلكها الحكومة الاسرائيلية بكامل اسهمها « الغاز بكميات

تجارية في حقل سدوت ، على عمق ١١٥٠ مترا » (هآرتس ، ١٩٧٨/٤/٢١) · وقد قدر خبراء اميركيون ، ان هذه البئر ، تحتوي على « كمية من الغاز المساوية ١٧٠٠ برميل نفط يوميا ، او ١٠ مليون قدم مكعب من الغاز في اليوم ، والتي تساوي ٢٣٠ طنا من النفط الخام » (المصدر نفسه) ·

اما المخزون التجاري لهذه البئر ، فقد قدر بـ « ١٢ ـ ١٤ بليون قدم مكعب » ، في بئر واحدة فقط ، اذ ان الشركة قد عثرت في الآونة الاخيرة على الغاز في (سدوت ٢ » ايضا ، ويبحثون الآن عن ابار اخرى كي « يعثروا على مدى الحقل الذي قد تكون مساحته ثلاثة او اربعة اضعاف الطاقة الكامنة ، التي كانت قد حددت » (المصدر نفسه) ·

وهذا الغاز الذي عثر عليه في «سدوت ١ » ، يساوي في فتحة البئر من « ٢٠ ـ ٢٥ مليون دولار » ، ولكن الشركة تعتقد، « وفقا للمعطيات التي لديها اليوم » ،انه بعد تطوير حقل سدوت ، قد يحتوي على « كمية كامنة تساوي مليون طن من النفط ، بقيمة ١٠٠ مليون دولار » (المصدر نفسه) ·

اما ما الذي سيحصل لهذين الحقلين من النفط والغاز ، في « علما » وفي « سدوت » ، في سيناءومشارف رفح ، حين تتوصل اسرائيل الى « سلام » مع مصر، وتنسحب من سيناء المحتلة ، فقد اجاب على ذلك رئيس « شركة النفط الوطنية »، يسرائيل ليئور ، بقوله انه « في كل العالم يوزعون امتيازات نفط لشركات اجنبية · وسيناء ليست شاذة · في سلام حقيقي نستطيع ان نحصل على امتيازات من مصر ، اذ ان لشركتنا اسما عالميا ، وشركة سوبيريور تستطيع المنافسة مع الشركات الاميركية الاخرى ، التي تعمل في الجانب المصري · اننا نستطيع تقاسم الارباح مع مصر ، ونقيم قاعدة للشراكة معها » (هآرتس ، ٧٨/٤/٢١) ·

توفيق فياض

قضايا دولية

لا يمكن ـ موضوعيا ـ فصل نتائج قمة « كامب ديفيد » عن مقدماتها · وربما كانت مقدمات« كامب ديفيد » كامنة في حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ، وربما قبلها ، وحتى قبلها بكثير · ولكنه يكفي ـ اذا كان هدفنا رصد وتحليل ردود الفعل العالمية ازاء النتائج الاولية لقمة « كامب ديفيد »» ـ ان نرجع الى المقدمات القريبة لهذه القمة ، وهي على وجه التحديد زيارة رئيس النظام المصري انور السادات للكيان الصهيوني ، والاسلوب الذي تمت به ، والطريقة التي من رؤية ردود الفعل ازاء النتائج الاولية والصهيوني والامبريالي تلك الزيارة واسلوبها ·

فاذا لم يكن ممكنا فصل « كامب ديفيد » عن «مبادرة» السادات ، فلا بد ، بالتالي من رؤية ردود الفعل ازاء النتائج الاولية لهذه القمة الثلاثية على خلفية من ردود الفعل ازاء « المبادرة » · ويصدق هذا بصفة خاصة على ردود الفعل العالمية

اذ يظهر في هذه الحالة تقييم عالمي متعددة الجوانب للطريق الذي افضت اليه حركة السادات الفجائية ·· تقييم متحرر من عنصر المفاجأة الذي حكم ردود الفعل العالمية ازاء « الزيارة » ·

وتساعدنا مصاحبة ردود الفعل العالمية من بداياتها على ان نعرف مدى تأثر المحيط الدولي في رؤيته لهذه التطورات في الصراع العربي ـ الاسرائيلي بالمواقف العربية منها ، اي مدى استعداد اطراف المجموعات الدولية او الدول ذات الوزن العالمي الخاص لان تضع في حسابات سياستها الخارجية ، وخاصة الشرق اوسطية ، مواقف الاطراف العربية المتباينة ، بما في ذلك المواقف التي لا تندرج تحت وصف « مواقف رسمية » ، وبصورة اصرح ، الى اي حد تؤثر المواقف الجماهيرية المعبر عنها بمختلف سبل التعبير المتاحة للجماهير على تشكيل المواقف العالمية ، ان لم يكن نوعيا فعلى الاقل من حيث الدرجة ·

ومن ثم لا بد ان نلاحظ اذا كانت ردود الفعل للاطراف التي نسميها « عالمية » قد تغيرت فيما بين المبادرة ونتائج « كامب ديفيد » ، وماذا كانت العوامل الفاعلة في هذا التغيير · وان نلاحظ ، بالمثل ، اذا كانت مواقف اطراف « عالمية » معينة قد تغيرت بين لحظة صدور البيان عن توقيع وثيقتي « كامب ديفيد » وبين مرور بعض الوقت على هذا البيان ، اي مرور وقت اتاح لاطراف خارجية ان ترى وتتأثر بطبيعة ردود الفعل العربية ـ رسمية وغير رسمية ـ ازاء « الوثيقتين » ·

وربما يمكننا ان نقرر ، من البداية ، ان ثمة اختلافات ملموسة بين ردود فعل عدد من الاطراف العالمية على « مبادرة » السادات ، وردود فعل هذه الاطراف ذاتها على وثيقتي « كامب ديفيد » · ولعل احد اسباب هذا الاختلاف مرده الى اختلاف طبيعة الحدثين · فقد كانت الزيارة مفاجأة اخذت معظم الدول على غرة فاكتفت بقياسها بمقاييس غير سياسية ـ او غير موضوعية بالاحرى ـ من نوع « شجاعة السادات » ، ومن نوع « كسر الحاجز النفسي بين العرب واسرائيل » ، ومن نوع « خطوة تجبر اسرائيل على ان ترد بمستوى مماثل من الكرم » · وهذه كلها مقاييس او معايير اخلاقية او ذاتية لا دور لها في النهاية في تشكيل سياسات الدول ومواقفها ، وسريعا ما تزول · اما نتائج « كامب ديفيد » الاولية فكانت ـ رغم التعتيم الاعلامي الذي احاط بالعلاقات الثلاثية في « الكامب » بمثابة « سيرورة » متصلة من التوقعات والتحليلات ، التي بنيت قدر الامكان على حسابات موضوعية لموازية القوة العسكرية بين العرب واسرائيل ، وبين مصر واسرائيل حصرا ، وموازين القوة السياسية ، للاطراف ، وبنيت على حسابات ما بدا من حدود استعداد اسرائيل للاستجابة لخطوة المبادرة الساداتية · وبنيت كذلك على حسابات ما بدا من حدود استعداد الاطراف العربية الاخرى للسير في اتجاه خطوة المبادرة الساداتية · وبنيت اخيرا على حسابات احتمالات النجاح والفشل الاخيرة لهذه المبادرة ·

وثمة نقطة اختلاف رئيسية ينبغي ان تؤخذ في الاعتبار ايضا · فعلى حين بدأت « الزيارة » عملا منفردا وخاصا الى اقصى حد ، يتحمل مسؤوليته صاحبه (ونظامه) ، فان قمة « كامب ديفيد » كانت عملا اميركيا بالدرجة الاولى ، وثلاثيا (مصريا ـ اسرائيليا ـ اميركيا) بالدرجة الثانية · ومن ثم فان ردود الفعل العالمية ، ازاء « الزيارة » ، هي ردود فعل غير محكومة بما حكم ردود الفعل ازاء « القمة » ، حيث الاخيرة

حملت وزن الولايات المتحدة ونفوذها ؛ بما يعنيه ذلك ايجابيا بالنسبة لحلفائها والمرتبطة بسياستها العالمية بدرجة او بأخرى ، وما يعنيه ذلك سلبيا بالنسبة للقوى المعادية للولايات المتحدة وسياساتها العالمية ، والشرق اوسطية خاصة ـ بدرجة او بأخرى ·

الموقف الروماني

وعلى سبيل المثال ـ وحتى نبقى في حدود التحليل النظري المجرد ـ فان موقف طرف دولي مثل رومانيا يعطي نموذجا لاختلاف المواقف من المبادرة ، ومن نتائج « كامب ديفيد » الاولية ، خاصة وان رومانيا احاطتها باهمية خاصة نظرا لما نسب اليها من دور في التمهيد لزيارة السادات للكيان الصهيوني ·

لقد اعلن الرئيس الروماني نيكولاي شاوشيسكو ـ في بيان رسمي له امام مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني بعد حوالي اسبوعين من انتهاء زيارة السادات للقدس المحتلة (تحديدا ، في ١٩٧٧/١١/١٨) ـ « ان المفاوضات المباشرة تقدم ضمانا ، بان التسوية التي يتم التوصل اليها في الشرق الاوسط ، قابلة للتطبيق وتؤدي الى احلال سلام دائم ··· ان رومانيا تحبذ دائما تسوية القضايا المتنازع عليها عن طريق المفاوضات المباشرة ··· ان زيارة الرئيس السادات لاسرائيل كانت عملا له اهمية خاصة في تاريخ تلك المنطقة المضطربة » ·

فماذا كان موقف رومانيا بعد نهاية قمة « كامب ديفيد » ؟ وبالتحديد كيف رأت رومانيا هذه النهاية ، في ضوء ما قاله رئيسها شاوشيسكو من البداية ؟·

في ١٩٧٨/٩/٢١ ـ بعد اربعة ايام من انتهاء قمة « كامب ديفيد » ـ قالت صحيفة « سينيستيا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الروماني، « ان سلام الشرق الاوسط يعتمد على الانسحاب الاسرائيلي الشامل من الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق الفلسطينية·· ان القرار بتوقيع معاهدة سلام يشير الى مرحلة متقدمة اكثر في حل المشاكل الخاصة ، ولكنها حلت فقط جزءا من المشكلة » · ودعت الصحيفة الرومانية الى « مفاوضات بين الدول العربية مع دعم من الامم المتحدة واشتراك الاتحاد السوفياتي » ·

وبالمقارنة بين التعقيبين ـ الاول على « الزيارة » ، والثاني على « الوثيقتين » ـ يمكن ان نتوصل الى عدد من الاستنتاجات :

☐ ان رومانيا انتقلت من دور المشارك المتحمس لفكرة « المفاوضات المباشرة » بين العرب واسرائيل ، الى دور المراقب « بفتور » لما انتهت اليه التجربة · (اجمعت وكالات الانباء الغربية التي تابعت رد الفعل الروماني ازاء نهاية قمة « كامب ديفيد » بانه اتسم بـ « الفتور ») ·

☐ ان رومانيا انتقلت من توقع « ضمان يركن اليه » بان التسوية التي سيتم التوصل اليها « قابلة للتطبيق وتؤدي الى احلال سلام دائم » الى افتقاد واضح لما توقعته ، حيث رأت في « كامب ديفيد » انها « حلت جزءا فقط من المشكلة » ، فلم يتحقق شرط الانسحاب الكامل ولا شرط الاعتراف بالحقوق الفلسطينية ·

☐ ان رومانيا ـ كنتيجة لتطورات ما بعد « الزيارة » حتى نهاية «كامب ديفيد » ـ انتقلت من اقتناع بان

المفاوضات المباشرة كافية في حد ذاتها « لاحلال سلام دائم » الى اقتناع يكاد يكون متقاضا بضرورة مفاوضات تشارك فيها منظمة التحرير الفلسطينية والامم المتحدة والاتحاد السوفياتي · وهو اقرب الى صيغة مؤتمر جنيف ، مع ملاحظة ان مشاركة الولايات المتحدة لم تذكر على وجه التحديد ، وان كان هذا لا يعني ـ بالضرورة ـ استبعادا لها ، وان يكن يمكن ان يعني تقليلا من اهميتها ·

□ ان رومانيا ابقت فقط من موقفها الثابت من هذه التطورات على جانب من المسافة القائمة بينها وبين باقي الدول الاشتراكية (الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية وكوبا وفيتنام) ، وهو الجانب المتمثل في عدم اتخاذها موقف التنديد او النقد الايجابي لا من « الزيارة » ولا من « كامب ديفيد » · ومن الواضح انها مسافة اقصر كثيرا مما كانت عليه وقت الزيارة ، حيث كانت رومانيا متفردة ـ وسط الاشتراكيين ـ بتقييمها الايجابي « المطلق » لهذه الخطوة بوصفها « عملا له اهمية خاصة في تاريخ المنطقة » ·

هكذا يتضح من المثل الروماني انه بالنسبة لطرف دولي مؤيد للمفاوضات المباشرة ـ مؤيد حتى للصورة التي اتخذتها ، وهي مبادرة السادات الى زيارة اسرائيل ، والتوجه بالحديث مباشرة الى الحكومة الاسرائيلية والكنيست الاسرائيلي ـ فان النهايات التي افضت اليها هذه « المبادرة » ،عندما تحولت الى عملية ثلاثية باشتراك الولايات المتحدة في المفاوضات المباشرة ، لم تات على النحو الذي كان مقصورا لهذه النهايات · وهنا ، لا بد من الاشارة الى ان « النهايات المتصورة » بالنسبة لرومانيا لا بد ان تكون مستمدة من فهم رومانيا ـ او واضعي سياستها الخارجية ـ لما يمكن ان يعتبر نتائج ايجابية لدى الدول لعربية في مجموعها ، وبصفة خاصة الدول العربية المتصلة اتصالا مباشرا بالجانب الساخن من الصراع العربي ـ الاسرائيلي · وهذا ما يسمح لنا بدوره ان نقدر ان الفترة الامنية المنقضية من اتمام « الزيارة » للكيان الصهيوني حتى اتمام قمة « كامب ديفيد » سمحت لرومانيا بأن تعرف طبيعة الموقف العربي من حركة السادات في اتجاه اسرائيل ، وتدرك حجم المعارضة العربية لها ، الامر الذي حول حركة السادات هذه الى عمل منفرد ـ من جانب واحد ـ لا يمثل فيه السادات غير نفسه ونظامه · وبالتالي ان شرط «المفاوضات المباشرة » الذي أيدته رومانيا من البداية لم يأت وفقا لتصورها له ، انما جاء مفاوضات مباشرة بين اسرائيل وطرف واحد منشق ·· وبالتالي فليست هناك مفاوضات « عربية ـ اسرائيلية »·

الامر الذي جعل النهايات ، في تقييم رومانيا ، بعد توقيع وثيقتي « كامب ديفيد » ، « جزئية » فحسب ، فيما كان التقدير السابق ان الاتجاه هو نحو « الحل الشامل » ·

الموقف الفرنسي

واذا انتقلنا الى مثل آخر ، فرنسا ، امكن ان نصل الى استنتاجات مماثلة على الناحية الغربية من ردود الفعل العالمية ·

ان فرنسا تحكم موقفها من الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، منذ اواخر عهد ديغول ، اعتبارات معقدة ومتشابكة للغاية، تتعلق بمصالحها النفطيةوالتجارية والثقافية مع العرب من ناحية ، وبعلاقاتها ومصالحها الاطلسية ـ الاميركية من ناحية اخرى ، وبتباين مواقف وميول التيارات الداخلية في فرنسا ، ومنها ما

هو واقع تحت تأثيرات صهيونية مباشرة وغير مباشرة ٠

ووسط كل هذه العوامل المؤثرة ـ بما تنطوي عليها من تناقضات وتناقضات مضاعفة ـ فان مواقف فرنسا تتسم عادة بدرجة من الغموض والتذبذب ٠٠٠ وسمتها الاساسية انها تحتمل ـ فيما تصدره من بيانات وتصريحات رسمية ـ التفسير على اكثر من وجه ، ان لم نقل تحتمل تفسيرات متناقضة ٠ ولكن تبقى سمة معينة واضحة للمواقف الفرنسيةهي « الرغبة » ـ مجرد الرغبة في ان تبدو ذات اتجاه متميز وسط اتجاه مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة يميل نحو الجانب العربي يحتاج رصده الى التدقيق الشديد عادة ٠

واذا رجعنا الى ردود الفعل الفرنسية تجاه زيارة السادات للكيان الصهيوني، وجدناها تراوحت بين « التخطيط » الذي انعكس في معارضتها (في ١٩/١١/ ١٩٧٧) اصدار بيان من مجموعة دول السوق المشتركة يعبر عن ارتياح هذه المجموعة للزيارة ، وذلك على الرغم من ان الولايات المتحدة بذلت مساع لدى المجموعة الاوروبية لاستصدار مثل هذا البيان ، وبين « التأييد » الذي انعكس في تصريح الرئيس الفرنسي جيسكار ـ ديستان (٢٣/١١/١٩٧) بان مبادرة السادات « تخلق مسؤولية تاريخية تحتم علينا ان لا نخيب الامال التي فجرتها ٠ كما اعلنت الحكومة الفرنسية ـ في اليوم نفسه ـ ان زيارة السادات الى اسرائيل « وضعت حدا نهائيا للعداء وانعدام الثقة بين البلدين » ٠

وعندما بدأت ردود الفعل العالمية تظهر ازاء وثيقتي « كامب ديفيد » ،قالت مصادر في بروكسل، مقر السوق الاوروبية المشتركة ، (١٩/٩/١٩٧٨) ان وزراء خارجية دول السوق التسعة اتفقوا على اصدار بيان يؤيد الاتفاق الذي انتهى اليه مؤتمر « كامب ديفيد » ، وقالت في الوقت نفسه ان دول السوق تشعر بأن كارتر يستحق تأييدها الكامل للدور الذي لعبه في « كامب ديفيد » ٠ وقالت هذه المصادر ـ وهنا بيت القصيد ـ انه « لا تزال هناك شكوك جدية حول موقف فرنسا التي ترغبفي تسوية شاملة بمختلفة » ٠

ولكن وزير الخارجية الفرنسي لوي دو غيرنغو لم يلبث أن افصح عن موقف فرنسا ـ في اليوم ذاته ـ في تصريح قال فيه : ان الاتفاقيتين اللتين وقعتا في « كامب ديفيد » تعدان دليلا على النوايا الحسنة على طريق السلام٠ وهما تحققان تقدما على هذا الطريق ٠ وهما معقدتان الى حد ما وتتضمنان تحفظات عديدة ، واعتقد انه يمكن الحكم على نتائجهما من خلال تطبيقهما ، بيد انه منذ الان أصبح الجو مواتيا لاستمرار المفاوضات ٠

واول ما ينبغي ملاحظته في الاختلاف بين رد الفعل الفرنسي ازاء زيارة السادات للقدس المحتلة ، وازاء نهاية « كامب ديفيد » ان الحضور الاميركي الكثيف بالنسبة للقمة ودور الولايات المتحدة الاساسي فيها كان له تأثير واضح على رد الفعل الفرنسي منها ، اكثر مما كان الحال بالنسبة للزيارة٠ بل ان الموقف الفرنسي من نهاية « القمة » يكشف عن مفارقة واضحة ، هي ان فرنسا كانت اكثر ايجابية تجاه نتائج هذه القمة مما جاءه موقف المجموعة الاوروبية (السوق الاوروبية المشتركة) ٠

الموقف الاوروبي الغربي

فقد شرح موقف اوروبا الغربية ، وزير خارجية المانيا الغربية هانز ديتريش غينشر ، في خطابه أمام الدورة الجديدة للجمعية العامة للامم المتحدة

(١٩٧٨/٩/٢٧) ففاجأ المراقبين بانه كان اقرب الى الموقف السوفياتي من هذه « القمة » . بل ان وكالات الانباء الغربية قالت ان الموقف الاوروبي الغربي جاء « مطابقا تماما للموقف السوفياتي ... ومختلفا عنه في انه لم يدع الى استئناف مؤتمر جنيف بصورة علنية . وقد عبرت دول المجموعة الاوروبية عن موقف اتسم بالفتور وبعض الحذر » .

فقد شدد غينشر على « ان اي تسوية دائمة تتطلب اشتراك الاطراف المعنية كافة سواء في المفاوضات او في التنفيذ » . واعلن باسم المجموعة الاوروبية الغربية عن القلق لان اتفاقات « كامب ديفيد » استبعدت امكانية مشاركة اوسع للاطراف المعنية . واضاف انه لا يجب أن تكون هناك عقبات في وجه هذه المشاركة . وان العملية يجب ان تبقى مفتوحة امام هذه المشاركة ، ويجب ان تقود عبر تطور مقبل ومشاركة اوسع الى التسوية الشاملة .

ولاحظت وكالة الانباء الغربية ان غينشر ردد ما قاله وزير الخارجية السوفياتي في اليوم نفسه امام الجمعية العامة ، « نريد تسوية دائمة لا بد ان تأخذ في اعتبارها الحقوق المشروعة للفلسطينيين » .

وهكذا يلاحظ ان فرنسا كانت تقف في البداية الى يمين موقف المجموعة الاوروبية الغربية وأقرب منها الى تأييد الولايات المتحدة على غير ما عرف عن الموقف الفرنسي وعلى غير ما كان متوقعا منها . وربما بدا لفرنسا نفسها ـ بعد ردود الفعل العربية خاصة ـ ان رد فعلها الاولي الذي صدر بعد ثلاثة ايام فقط من نهاية « كامب ديفيد » ، كان مختل الحسابات بعض الشيء . ولهذا اعلنت الحكومة الفرنسية ما وصفته بموقفها الرسمي بشأن قرارات مؤتمر قمة « كامب ديفيد » ، وذلك في بيان رسمي صدر في اعقاب الاجتماع الاسبوعي العادي لمجلس الوزراء الفرنسي (٩/٢٧/ ١٩٧٨) ، بعد ان قدم وزير الخارجية في هذا الاجتماع « تقريرا مفصلا حول نتائج هذا المؤتمر وتفاعلاته المستقبلية مع تطورات اوضاع الشرق الاوسط » . وجاء في البيان الرسمي الذي صدر عن « قصر الاليزية » ، ان فرنسا تعتبر انه « لا يمكن تحقيق السلام العادل في منطقة الشرق الاوسط الا اذا شاركت في ذلك كافة الاطراف المعنية بصراع تلك المنطقة، بما في ذلك ممثلو الشعب الفلسطيني » . وانه « لا يمكن تحقيق السلام في الشرق الاوسط الا اذا كان مرتكزا الى قراري مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ ومستندا الى اتفاق شامل لتشارك فيه كافة الاطراف المعنية ويحظى بتأييد الدول المعنية والاسرة الدولية بأسرها » .

ويعكس هذا البيان اللاحق اقتراب الموقف الفرنسي كثيرا من الصيغة نفسها التي طرحها وزير خارجية المانيا الغربية محددا فيها موقف المجموعة الاوروبية الغربية (السوق المشتركة) من نتائج « كامب ديفيد » . ويبدو من ردود الفعل غير الرسمية في فرنسا ازاء التصريحات المتعنتة التي ادلى بها مناحيم بيغن رئيس وزراء اسرائيل ، خلال الايام التي تلت مباشرة ارفضاض قمة « كامب ديفيد » ـ من نوع ان اسرائيل لن تجمد المستوطنات في الضفة والقطاع الا لمدة ثلاثة اشهر ، وان اسرائيل لن تسمح ابدا بقيام دولة فلسطينية ، ادت هذه التصريحات الى تصليب الموقف الفرنسي، عما كان عليه في الايام الاولى ، التي سيطر عليها زهو حلفاء فرنسا الاميركيين بالنجاح الكبير الذي حققه كارتر .

واذا كان الموقف الفرنسي قد تبلور في هذا البيان الاخيرة ، على نحو كشف

ان التوقعات قد تقلصت عن صورتها الاولى من وراء نتائج « كامب ديفيد » ، فانه في اطار اوروبا الغربية بدت بريطانيا ـ كالعادة ـ شديدة الحماسة لاظهار تأييدها للخطوات الاميركية · فان رد الفعل البريطاني يكشف عن النظر الى « كامب ديفيد » باعتباره عملا يهم الولايات المتحدة ورئيسها بالدرجة الاولى، ويهم الشرق الاوسط بعد ذلك · فقد صرح ناطق بريطاني رسمي في لندن (١٩٧٨/٩/١٨) بان الحكومة البريطانية ترى « انها نتيجة بالغة الاهمية ان يكون الرئيس كارتر قد دفع الطرفين الى الاتفاق على اطار لمفاوضات جديدة للسلام تتعلق بسيناء والضفة الغربية وغزة ·

وفي اوروبا الغربية ايضا ، انما في أطار آخر غير اطار السوق الاوروبية المشتركة ـ كان موقف « الدولية الاشتراكية » (برئاسة المستشار النمساوي برونو كرايسكي) موقفا مؤيدا، ولكنه كان اكثر تحديدا في وضع يده على الجانب الذي غاب عن اتفاقيتي «كامب ديفيد » ، وهو الجانب المتعلق بفلسطين· فقد اعلن مكتب الدولية الاشتراكية في بيانٍ صدر عن اجتماعه في باريس (١٩٧٨/٩/٢٩) « انه لمن الاهمية البالغة الان القيام بخطوات جديدة على الطريق نفسه نحو تسوية تتطلب حلا عادلا للمشكلة الفلسطينية من جميع وجوهها » · واضاف ان المكتب « يحث جميع الفرقاء المعنيين على اظهار رغبتهم في السلام في المنطقة ، والعملية التي بدأت الان ينبغي ان تشمل سوريا والاردن وممثلين عن الشعب الفلسطيني طبقا لبنود ومبادىء قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ » ·

الموقف الصيني

واذا بقينا خارج اطار الدولتين العظميين يستوقفنا رد الفعل الصيني ازاء اتفاقي « كامب ديفيد » · وقد كان موقف الصين من مبادرة السادات في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ بمثابة مفاجأة صينية كاملة ـ فيما يتعلق بسياستها الشرق اوسطية · فقد ايدت الصين المبادرة ، واعلنت « حق جميع دول الشرق الاوسط في العيش في سلام داخل حدود آمنة ومضمونة » وكانت تلك صيغة تستخدم لاول مرة في الادبيات السياسية الصينية فيما يتعلق بالشرق الاوسط · وسارت الصين خطوة اوسع من هذا عندما دافعت عن الرئيس المصري ضد المواقف السوفياتية ·

وقد جاء رد الفعل الصيني ازاء قمة « كامب ديفيد » ليؤكد ان بكين قد اختطت سياسة جديدة فيما يتعلق بالشرق الاوسط، لا يمكن اعتبارها مجرد سياسة مضادة للاتحاد السوفياتي وحسب ، انما هي سياسة متكاملة ترى فيها بكين انها تتفق ومصالحها وتوجهاتها بالنسبة لهذه المنطقة ، وما يفيد ذلك من انعكاسات بالنسبة لموقف الصين من الثورة الفلسطينية ·

فقد صرح تنغ هيساو بنغ ، نائب رئيس الوزراء الصيني ، (١٩٧٨/٩/٢١) بان الصين مسرورة للتوصل الى اتفاقيات بين مصر واسرائيل في مؤتمر كامب ديفيد · ولكنه اعرب في الوقت نفسه (وقد نقل هذا التصريح عنه النائب الديغولي الفرنسي جاك شيراك ، الذي كان في زيارة للصين) عن تخوف الصين من ان يفيد التوتر الناتج عن الاتفاقات « المتطرفين في المنطقة وان يؤدي الى مبادرة سوفياتية جديدة » ·

ولعل استخدام تعبير « المتطرفين » من جانب الزعيم الصيني ، يدل بحد ذاته على طبيعة التغير الذي طرأ على المعايير التي تقيس بها القيادة الصينية الامور في

الشرق الاوسط · وليس خافيا ان التوجه في عكس اتجاه السياسة السوفياتيـــة يفرض نفســه عــلى المواقــف وسياسية للصين الى اقصى حد ·

الموقف اليوغوسلافي

ولعل رد الفعل الوحيد الذي سار فـي الاتجاه نفسه الـــذي سارت فيه ردود الفعـــل الصينية ، هو رد الفعـــل اليوغوسلافي · ولكن في حين كـــان الترحيب الصيني بنتائج « كامب ديفيد » بمثابة امتداد منطقي لموقف الصين مـن زيارة السادات لاسرائيل ، فان رد الفعل الايجـابي مـن جانـب يوغوسلافيا ازاء « كامب ديفيد » وما اسفرت عنه ، جـاء متعارضـا بصـورة واضحـة مع الموقف اليوغوسلافي من الزيارة · فقد اعلنـت صحيفة « بوربا » الناطقة باسم حـــزب رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف ، فـــي حينه ، انه « ربما كانت اهم خصائـــص المرحلة انها لم تكن تتمشى مع الحقائـق السياسية » · وكان ابرز مـــا وصلـت يوغوسلافيا على ابدائه بالنسبة للزيارة ، قلقها الواضح على مصائر الموقف العربي نتيجة لرحلة السادات ·

اما بعد نتائج « كامب ديفيد » فقد قالت وكالة « تانيوغ » اليوغوسلافية الرسمية (١٩٧٨/٩/١٨) انه « على الرغم مـــن غياب تفاصيل اوسع ، يمكن القـــول ان «كامب ديفيد» ، يمثل اجراء غير متوقع ذا اهمية رئيسية وقاعدة متينة جدا من اجل تسوية نهائية لمشكلة الشرق الاوسط » ·

واضافت « تانيوغ » : « ان اتفاق « كامب ديفيد » يهدف اساسا الى تسوية المشكلة المعقدة في الشرق الاوسط وفقا للمبادىء التي وافق عليها المشتركون في القمة ، وذلك خلال فترة خمس سنوات وعلـــى اساس القرار ٢٤٢ » ·

والواقع انه رغم التباين الواضح بين موقفي يوغوسلافيا من « الزيارة » ومـن « كامب ديفيد » ، فانه لا يوجد تفسيـــر واضح لهذا التباين ولا للاتجاه الـــذي سارت اليه سياسة يوغوسلافيا نحو تأييد الخطوة التي انتهى اليها ذلك المؤتمـر ، رغم تحفظها الشديد ازاء بداياته الاولى ، وهي الزيارة نفسها · واذن لا مجـــال لتفسير هذا التغيير الا من خلال تسجيل صعود اسهم التعاون اليوغوســلافي ـ الاميركي على صعيد السياسة الخارجية اليوغوسلافية ، وبالمقابل هبوط اسهـــم العلاقات اليوغوسلافية ـ السوفياتيـــة خلال السنة الاخيرة · ومن ثم ربمـا لا يكون وراء رد الفعل اليوغوسلافي ، ازاء « القمة » تغيير جوهري في سياسةبلغراد الشرق اوسطية ، انما مجرد « ميل » الى دعم (اعلامي) لعمل القى فيه الرئيـس الاميركي بكل ثقله السياسي ·

يبقى موقف « الدولتين الاعظم » ، ومن البديهي انهما اكثر الاطراف ثباتا عـــلى مواقفهما ابتداء من « المبادرة » الى القمة وان كانت وراء هذه الناحية الثابتـــة تنويعات تفصيلية تبدو مع تحليـل ردود فعل كل منهما ، وعلاقة التاثير والتأثـر بينهما ·

وينبغي ان نقرر من البداية ان احدى الدولتين ـ وهي الولايات المتحدة ـ هـي في موقف « الفاعل » اساسا والثانيـة ـ وهي الاتحاد السوفياتي ـ في موقـــف «المتعقل » اساسا · ولا يعني هذا بطبيعة الحال انه لا حاجة لرصد رد الفعـــل الاميركي طالما كان الطرف الاميركي هـو صاحب الفعـل نفســه ، ولان الجانـــب السوفياتي ليس لديه ما يرصد غيـر رد فعله ، او انه كان طرفا منفعلا سلبيـــا وحسب · بل الواقع ان المقارنة بين ردود الفعل الاميركيـة والسوفياتيـــة ازاء «المبادرة ـ الزيارة » من ناحية ، وازاء

نتائج قمة « كامب ديفيد » من ناحيـــة اخرى ، تبين ان الاتحاد السوفياتي ازاء « الزيارة » كان في موقف « المنفعل » اكثر ما بدا كذلك ازاء « القمة الثلاثية » وعلى الرغم من ان الحدثين معا جريا في اطار يقع الاتحاد السوفياتي خارجه تماما ، الا ان نتائج « كامب ديفيد » اظهرت الى اي مدىكانت لوجود الاتحاد السوفياتـي ، خارج هذا الاطار اثار سلبية على تلـك النتائج ٠

ومن ناحية اخرى فانه يبدو ان الولايات المتحدة امسكت ـ على المدى القصيـر ـ بخيوط ما تسميه « عملية السلام » التي بدأت بزيارة السادات لاسرائيل ، سـواء كانت هذه الزيارة تمت بعلمهـا اولا ، وانتهت باتفاقات « كامب ديفيد » ٠ ولكن ما بعد هذه النتائج يمثل حدود مقـدرة الولايات المتحدة على الامساك بخيوطهذه العملية وتوجيهها الوجهة التي تتفق مـع مصالحها واستراتيجيتها ٠ ويتضـــح بسهولة انه فيما كانت للولايات المتحـدة ردود فعل واراء محددة ازاء زيـــارة السادات لاسرائيل منذ عام ، وان ردود الفعل هذه كانت بداية الجهد الذي بذلته ادارة كارتر لاحتضـان « المبـــادرة » وتوجيهها ٠٠ فان ما اتى في اعقـــاب اتفاقات « كامب ديفيد » يشكل لحـــد الاقصى من هذا الجهد ، بمثل ما كانـت النتائج هي الحد الاقصى من النتائـــج التي يمكن التوصل اليها ٠

على ان الاختلاف الاساسي الذي تكشف عنه ردود الفعل السوفياتية وردود الفعل الاميركية هو ان الولايات المتحدة ـرسميا وشعبيا ـ تعاملت مع « القمة الثلاثية » على اساس انها مسألة اميركية اكثر من كونها مسألة شرق اوسطية ، تتعلق بواحد من اخطر صراعات العصر هو الصـراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ بمعنى انالولايات المتحدة (الادارة الاميركية والرأي العـام الاميركي ممثلا في اجهزة الاعلام) تعاملت مع « كامب ديفيد » باعتبـــاره تطـورا اميركيا داخليا اكثر منه حدثا مـــن الاحداث الخارجية ٠ في الوقت نفســه واصل الاتحاد السوفياتي التعامل مع هذا التطور الشرق اوسطي تعاملا موضوعيا، باعتباره في الاساس ، محصلة صـــراع المنطقة الرئيسي من ناحية ، وباعتباره في درجات تالية واحدا من دواقع الصـــراع بين الامبريالية والقوى التي تقف فـــي معسكرها مـن ناحيـة ، وقـوى التحـرر والقوى المؤيدة لها من ناحية اخرى ٠

الموقف الاميركي

وثمة جانب آخر جدير بالملاحظة هو ان الولايات المتحدة اهتمت بالتعامل مـــع « ردود الفعل » المختلفة ازاء نتائج «كامب ديفيد » ـ طبعا بحكم كونها طرفا فاعلا في اخراج هذه النتائج الى حيز الوجود ، في محاولة للتأثير على ردود الفعل تلك ـ وخاصة العربية منها ـ لما فيه صالح دعم تلك النتائج والخط الذي تمثله ٠ أمـــا الاتحاد السوفياتي فان تعامله بعد صدور النتائج منصب على النتائج نفسها ومـــا يمكن ان يكون لها من آثار على مجريات صراع الشرق الاوسط ، ثم على الاطراف التي تعنيه ودوره ومصالحه في المنطقة ٠

وتكشف المقارنة بين ردود الفعـــل الاميركية ازاء « الزيارة » وردود الفعـل بعد «القمة» الى اي حد تراجعت الولايات المتحدة عن تأكيدات ظلت ترددها وقـــت الزيارة ، بان هدفها من تأييد « المبادرة » هو الحل الشامل ، وانها تود « تطميـــن العرب الى ان دعمنا للزيارة لا يعنـــي بشكل من الاشكال تراجعا عن هدفنا المعلن وهو تحقيق تسوية شاملة ٠ وصحيح ان الولايات المتحدة في كل ما صدر عـــن مسؤوليها من تصريحات عقب نهاية « كامب

ديفيد » زعمت بأن النتائج التي اسفر عنها هي اطار للحل الشامل ٠٠ ولكنها مزاعم لم يأخذها احد ، حتى الاكثر ارتباطا بالسياسة الاميركية على محمل الجد ٠

والتناقض الذي شاب البيانات والتصريحات الاميركية ابان وبعد زيارة السادات للقوى الممثلة ، حول ما اذا كانت الزيارة تلغي نهائيا فكرة عقد مؤتمر جنيف او لا تتعارض معها ويمكن ان تؤدي اليها ، قد شاب ايضا التصريحات الاميركية بعد « كامب ديفيد » ولعل استمرار الولايات المتحدة في التظاهر بالتمسك بطريق جنيف ، لا يعدو ان يكون تطمينا لبعض الاطراف العربية بانه لا حل منفردا بين مصر واسرائيل ، وانها ـ اي الولايات المتحدة ـ لا تزال ترحب بمشاركة سوفياتية في « عملية السلام » ٠ وهي اقوال تختلف تماما عن الممارسة العملية للدبلوماسية الاميركية ٠

ويمكن اعتبار البيان الذي ادلى به سايروس فانس وزير خارجية الولايات المتحدة امام الجمعية العامة للامم المتحدة (١٩٧٨/٩/٢٩) والذي شرح فيه وجهة النظر الأميركية تفصيليا بعد « كامب ديفيد » اشمل ردود الفعل الاميركية ٠فقد دعا فانس الامم المتحدة ، في هذا البيان، الى دعم اتفاق « كامب ديفيد » حول الشرق الاوسط ، واكد ان واشنطن الزمت نفسها في الاتفاق باقامة الحقوق السياسية المشروعة للفلسطينيين ٠ وقال فانس «نحن نعتقد ان من الضروري ان يتأكد الشعب الفلسطيني انه واحفاده يمكن ان يعيشوا بكرامة وحرية ، وان يمتلكوا فرصة الاكتفاء الاقتصادي والتعبير السياسي ٠ واضاف ، ان هذا الامر يمكن ان يتحقق من خلال وثيقتي « كامب ديفيد » وقال انه « بعد ان تأخذ المؤسسات الفلسطينية السياسية شكلها في الاراضي التي تحتلها اسرائيل ، يصبح بالامكان درس موضوع السماح للاجئين الفلسطينيين بالدخول الى هذه الاراضي ٠ واكد فانس « ان الولايات المتحدة ملزمة بشكل قاطع بايجاد حل مرض لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين » ٠

واضاف ان الولايات المتحدة تأمل « ان توافق شعوب الشرق الاوسط على انه من الملح ان تبدأ عملية السلام الان وان لا ننتظر حتى يتم حل كل مسألة عالقة » ٠ وقال انه « في الوقت الذي تستمر فيه المفاوضات على اساس اطار عمل « كامب ديفيد » ، فان عملية ديناميكية ستبدأ من شأنها ان تغير بعمق المواقف حيال القضايا التي تبقى للحل ٠ ان هذه العملية ستدفع قدما الاهداف العربية المشروعة بينما تكون قد حمت ايضا امن اسرائيل » ٠

وقد كشف بيان فانس ان الولايات المتحدة حريصة بالدرجة الاولى ـ وقبل اي شيء آخر ـ على استمرار المفاوضات المباشرة على طريقة السادات بين العرب واسرائيل ٠ وانها تنظر الى المسألة الفلسطينية باعتبارها مشكلة لاجئين ٠كما انها لم تتطرق بأي صورة عملية الى مصير الفلسطينيين خارج الاراضي التي تحتلها اسرائيل ٠ كذلك فان الولايات المتحدة ليس لديها تصور محدد بشأن ما وصفه بانه التزامها « بايجاد حل مرض لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين » ٠ وعلى حين انها طلبت تأييد الامم المتحدة لاتفاق « كامب ديفيد » فانها لم تحدد تصورا لدور يمكن ان تقوم به المنظمة الدولية في « عملية السلام » ٠

وبطبيعة الحال فان الاهتمام الاميركي الاكبر قد انصب على اقناع « المعتدلين » العرب بالانضمام الى « عملية السلام » على اساس الاطر التي حددها « كامب ديفيد » ٠ وابدت درجة كبيرة من الثقة في

انهم سينضمون اليها فعليا · فقد قال زبغنيو برجنسكي مستشار الرئيس الاميركي لشؤون الامن القومي (٩/٢٤/ ١٩٧٨) على اثر صدور قرارات دول جبهة الصمود والتصدي في دمشق ـ ان الامر قد يستغرق بعض الوقت للبحث في القضية مع الدول « المعتدلة » لشرح الاتفاقات وجعلها ترى طبيعة العملية ، « وفي نقطة ما وأمل ان يكون ذلك قريبا سترى هذه الدول الفوائد نفسها في الدخول في مثل هذه العملية » · ولكنه فيما يتعلق بموقف سوريا قال « من الواضح ان سوريا طرف معني وعند نقطة ما سبتأتي سوريا على ما نأمل ونتفاوض ايضا على معاهدة سلام مع اسرائيل ، والى ان يتم ذلك فلن تكون هناك التسوية النهائية التي نتوق اليها »·

ويلاحظ ان الولايات المتحدة انتهجت منذ بداية محادثات « كامب ديفيد » الثلاثية تجاهلا شبه تام مواقف الدول العربية المعارضة لهذه المحادثات ، واستمر هذا التجاهل بصورة اخص بعد انتهاء تلك المحادثات وبدء المحادثات الثنائية المصرية ـ الاسرائيلية لتوقيع المعاهدة المنفردة ·

الموقف السوفياتي

اما ردود الفعل السوفياتية فكانت اشمل ايضا في بيان وزير الخارجية السوفياتي اندريه غروميكو امام الجمعية العامة للامم المتحدة (١٠/٢٥/ ١٩٧٨)· فقد وصف البيان الاتفاقات التي تم التوصل اليها في « كامب ديفيد » بانها « ليست سوى صفقة منفصلة وقعت على حساب العرب ، وتجعل من الصعب التوصل الى تسوية عادلة لمشكلة الشرق الاوسط » · واكد غروميكو ان الموقف في الشرق الاوسط ما زال يهدد بانفجار جديد · وقال « ان حل المشكلة بطريقة تكفل اعطاء جميع شعوب ودول الشرق الاوسط ومن بينهم الشعب العربي الفلسطيني ، الذي له كامل الحق في انشاء وطن قومي خاص ودولة خاصة ، حقه في الاستقلال والامن ، هو الحل الوحيد الذي يمكن ان يرسخ اسس سلام دائم » ·

واشار الوزير السوفياتي الى « وجود سياسيين في العالم العربي لا يتمسكون بالتراب العربي ، بل يميلون الى اغفال الحقوق الشرعية للعرب ، وخاصة العرب الفلسطينيين ، والانحناء والاستسلام امام مطالب المعتدي وحماته » · واشار في الوقت نفسه الى « رجال السياسة الاسرائيليين الذين يؤكدون ان اسرائيل ليست في حاجة الى ضمانات دولية لامنها مثل التي تقدم بها الاتحاد السوفياتي » ·

وكان من الواضح تركيز البيان السوفياتي على الجوانب التي اغفلتها الاتفاقات والتي اغفلها البيان الاميركي قبله ، وتبني الموقف السوفياتي بالكامل موقف الدول العربية التي اعلنت رفضها القاطع لنتائج « كامب ديفيد » ·

وقبل بيان غروميكو في الامم المتحدة فان الرئيس السوفياتي بريجنيف قد اعلن اول رد فعل سوفياتي رسمي ازاء نتائج « كامب ديفيد » حيث اعلن في خطاب القاه في « اذربيجان » (١٩٧٨/٩/٢٢) ان الاتفاقات التي اسفرت عنها هي « صفقة منفردة ومعادية للعرب» ولن تؤدي «الا الى جعل الوضع في الشرق الاوسط اكثر تهديدا بالانفجار » · واضاف « ان اي محاولات لتجاهل او ابعاد الاطراف المشروعة في التسوية والتضحية بمصالحها واملاء الشروط عليها لن تسفر عن شيء سوى وهم التوسية » ·

واعلن بريجنيف ان لا حل في الشرق الاوسط سوى بانسحاب اسرائيل الكامل

من الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وخاصة حقه في اقامة دولته المستقلة ٠

ووصف بريجنيف الموقف في الشرق الاوسط بانه « لا يزال معقدا وينطوي على الخطر بالنسبة الى بلدان هذه المنطقة نفسها وبالنسبة للوضع الدولي العام ٠ وسبب ذلك هو عناد اسرائيل والقوى التي تساندها في رفض مراعاة مصالح الشعوب سعي اسرائيل الرامي الى فرض ارادتها على العرب بقوة السلاح ، او بالطرق الدبلوماسية ولكن من موقف القوة بأي حال ٠ ولاجل تحقيق هذا الهدف يعقد الرهان في الاونة الاخيرة اساسا على طريقة الصفقات المنفردة وراء الكواليس مع من هو مستعد للمتاجرة بالمصالح العربية ٠ والمغزى واضح وهو شق صفوف العرب واحداث صدام فيما بينهم، وفرض شروط التسوية التي‌تروق للمعتدي على الاقطار العربية كل على انفراد » ٠

سمير كرم

قضايا عسكرية

النتائج العسكرية
لاتفاقيتي « كامب ديفيد »

« ان المدلول الامني الفوري لاتفاق سلام منفرد مع مصر يتمثل في التقليص الجوهري للخطر العسكري الذي يواجه اسرائيل » (١) ٠

هكذا لخص الكاتب العسكري الاسرائيلي « زئيف شيف » اولى النتائج الاستراتيجية المباشرة المترتبة على توقيع اتفاقيتي «كامب ديفيد » بين مصر واسرائيل في ٧٨/٩/١٨ ، والتي ستقود الى توقيع اتفاقية سلام منفرد بين الدولتين خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الجاري كما هو منتظر ٠

والترجمة العملية لعبارة « التقليص الجوهري للخطر العسكري الذي يواجه اسرائيل » ، المترتبة على اتفاق السلام المنفرد المشار اليه ، هي اختلال التوازن الاستراتيجي الذي كان قائما بين دول المواجهة العربية واسرائيل حتى حرب العام ١٩٧٣ ، وما بعدها ، حتى توقيع اتفاقية سيناء الثانية عام ١٩٧٥ عمليا ، وحتى عشية « كامب ديفيد » نظريا ٠ وهو التوازن الذي كانت اسرائيل ، وكذلك الولايات المتحدة الاميركية ، تحسبه على اساس ان تكون قادرة ضمنه على مواجهة كل من مصر وسوريا والاردن ، وربما العراق ايضا ، بفاعلية كبيرة ، ادعت انها تصل الى حد التغلب على الدول المذكورة مجتمعة ٠

ونحن نعتقد ان ميزان القوى المشار اليه ، كان ينصرف ، بصورة رئيسية ، الى كل من مصر وسوريا ، وبصورة ثانوية الى الاردن ، التي من غير المؤكد اشتراكها بفاعلية في اية حرب شاملة

---

(١) صحيفة **هآرتس** ، ٧٨/٩/٢٩ ، نقلا عن مجلة فلسطين المحتلة ، العدد ١٥٨ ، صفحة ٣٢ ٠

ضد اسرائيل بعد تجربتها في حـــرب ١٩٦٧ · كما انه كان يضع في اعتباره احتمال تدخل قوات عراقية بعد نشوب اية حرب شاملة ، خلال فترة تراوح بين ٣ و٤ ايام ، تقدر بفرقة مدرعة ، تليها فرقـــة اخرى مماثلة ، او فرقة مشاة ميكانيكية كل فترة مماثلة ، حتى يبلغ اجمالي عدد الفرق العراقية من مختلف الانواع نحـو ٤ فرق او ٥ فرق على افضل تقدير ، خلال فترة تراوح بين ١٥ و ٢٠ يوما من بدء اية حرب شاملة بين العرب واسرائيل ، وذلك ما لم تكن هناك اصلا قوات عراقية على اي من الجبهتين السورية والاردنية ·

اوضـاع ميـزان القـوى العـربي ـ الاسرائيلي سابقا : ومعنى هذا انه كـان على اسرائيل ان تقدر انها ستواجه فـي مجال العمليات البرية ، خلال الايـــام الثلاثة الاولى من الحرب (على افتراض عدم وجود قوات عراقية على اي مـــن جبهات دول المواجهة مسبقا) نحو ٦١١ الفا من الجنود المقاتلين (بما فيهم قـوات الدفاع الجوي الارضي في مصر وسوريا ، المقدر عددهم بنحو ٧٥ الفا في مصـــر ، و ١٥ الفا في سوريا) ، مقابل نحو ٣٧٥ الف جندي اسرائيلي ، بعد استدعـــاء احتياطي الصف الاول ، خـلال نحـو ٢٤ ساعة من اعلان التعبئة العامة ، ويرتفـع عددهم الى نحو ٥٩١ الف جندي (٢) خلال ايام قليلة (ربما ٣ـ٤ ايام) بعد استدعاء احتياطي الصف الثاني ، الاقل نوعية مـن حيث السن واللياقة البدنية والصحية · اي ان عدد القوات البرية متساو تقريبا ، بل ربما كان لصالح الجيش الاسرائيلي الـى حد ما ، اذا ما حذفنا قوات الدفـــاع الجوي الارضي المصرية والسوريـــة ، والبالغ عددها نحو ٩٠ الف جنـدي ، اذ سيبلغ اجمالي قوات دول المواجهة فـــي الحالة المذكورة نحو ٥٢١ الفا ، مقابـل ٥٩١ للجيش الاسرائيلي ، اي ان الاخيـر كان يتمتع بنسبة تفوق تبلغ ١٣٫٤٪ فـي القوى البشرية ·

هذا وتبلغ قوة المدرعات لـدى الـدول العربية الثلاث نحو ٥٢٠٠ دبابة ، ونحو ٣٠٠ قانص دبابات مدرع ، وحوالـــي ٥٠٢٠ عربة قتال او ناقلة جنود مشـــاة مدرعة ، عدا عدة مئات من مصفحـــات الاستطلاع · مقابل نحو ٣٦٠٠ دبابـــة ، وحوالى ٤٥٠٠ عربة قتال وناقلة جنـــود مدرعة لدى الجيش الاسرائيلي (٣) · وهذا معناه ، ان الدول الثلاث كانت تتمتـــع بتفوق عددي في المدرعات يبلغ نحو ٥٣٪ في الدبابات وقانصات الدبابات ، ونحـو ٥ر١١٪ في عربات قتال ونقل المشـــاة المدرعة · وقد بنيت حسابات المواجهـة الاسرائيلية في هذا المجال على اســاس التفوق الجوي الاسرائيلي من حيث قـوة النيران ، ودقة الاسلحة المضادة للـدروع التي تطلق مـن مرابـض ارضيـــة ، او آليات ، او طائرات هليكوبتر ، او طائرات هجوم ارضي ·

كما تملك الدول العربية الثلاث نحـو ٢٤٠٠ مدفع ميدان وهاوتزر ، عدا مئات من راجمات الصواريخ ومدافع الهـاون الثقيلة · مقابل نحو ١٢٠٠ مدفع مماثـل لدى الجيش الاسرائيلي (٤) ، عدا عـدة

(2) II.S.S. *The military Balance*, 1978, p. 36, 8, 42, 91.

(٣) جعفر ، قاسم · عزمي ، محمود · الاسير ، ربيع · **ميزان القوى العسكري** ٧٧ـ٧٨ ، بيروت ، المؤسسة العربيـــة للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ ، ص ١٠١ ، ١٣١ ، ١٧٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ·

(٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٠٢ ، ١٣٢ ، ١٧٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ·

مئات من الهاونات الثقيلة وراجمات الصواريخ · اي ان الجيوش العربية الثلاثة كانت تتمتع بنسبة تفوق في المدفعية تبلغ نحو ١٠٠٪ · ولا شك ان القيادة العسكرية الاسرائيلية كانت تعتبر ان تفوقها الجوي النوعي كان يشكل عاملا مخففا من تفوق المدفعية العربية ، شرط اضعاف الدفاعات الجوية الارضية العربية بشتى وسائل القصف الجوي وقصف صواريخ ارض ـ ارض ، والحرب الالكترونية الهجومية ·

اما بالنسبة للاسلحة الجوية ، فقد كان الميزان في علاقات القوى العسكرية قائما على اساس امتلاك كل من مصر وسوريا والاردن نحو ١٠١٠ طائرات قتال (عدا طائرات الهليكوبتر والنقل والتدريب) ، اجمالي قوتها النارية في القصف الارضي نحو ٢٠٨٩ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة (على اساس الحمولات العملية للطائرات) ، ونحو ٢٥٩٦ صاروخ جو ـ جو في الطلعة الواحدة ، في حالة استخدام القوة الجوية في معارك جوية بكامل طاقتها النارية · وذلك مقابل نحو ٦٨٠ طائرة لدى الطيران الاسرائيلي ، اجمالي قوة نيرانها القاصفة نحو ١٥٢٧ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة ، ونحو ١٩٦٠ صاروخ جو ـ جو في الطلعة الواحدة في حالات القتال الجوي (٥) ·

ومعنى هذا ان الاسلحة الجوية العربية الثلاثة كانت تتمتع بنسبة تفوق كمي في عدد الطائرات تبلغ نحو ٥ر٤٨٪ ، وبنسبة تفوق في قوة نيران القصف العملي تبلغ نحو ٨ر٣٦٪ ، وبنسبة ٤ر٣٢٪ تقريبا في قوة نيران الصواريخ جو ـ جو · وذلك بغض النظر ، طبعا ، عن حسابات مقارنة نوعيات الطائرات بعضها ببعض من حيث السرعة ، وقدرات المناورة ، والمدى ، والمعدات الالكترونية ، فضلا عن مقارنة مستوى الطيارين القتالي ، ومستوى خدمات الانذار المبكر ، وادارة العمليات ، والصيانة ، وسرعة تجهيز الطائرات للقتال ومعاودة الاقلاع الخ ، مما يصعب حسابه بدقة ·

اما في مجال الاسلحة البحرية الرئيسية فكانت مصر وسوريا تملكان معا ٢٨ زورقا للصواريخ ، اجمالي قوتها النارية ٨٠ صاروخا ، بالاضافة الى ١٢ غواصة، و ٩ مدمرات وفرقاطات ، و ١٥ طائرة هليكوبتر مضادة للغواصات، و ١٢ قانصة غواصات (سفن صغيرة مخصصة لهذه المهمة) · وذلك مقابل نحو ٢٠ زورق صواريخ اسرائيليا ، اجمالي قوتها النارية نحو ١١٤ صاروخا ، فضلا عن عدد غير معروف من زوارق الصواريخ الصغيرة من نوع « دفورا » المسلحة بصاروخين سطح ـ سطح ، و٤ غواصات، و ٣ طائرات مضادة للغواصات ·

ومعنى هذا ان مصر وسوريا كانتا تفوقان البحرية الاسرائيلية في عدد زوارق الصواريخ بنسبة نحو ٧٠٪ ، ولكن الاخيرة كانت تتفوق في قوة نيران هذه الزوارق بنسبة ٥ر٤٢٪ تقريبا · وبالمقابل كانت البحريتان العربيتان تتفوقان في قوة الغواصات بمعدل ٣ الى ١ ، وتملكان تفوقا مطلقا في المدمرات والفرقاطات ، والسفن المتخصصة ضد الغواصات ، وفي الطائرات المضادة للغواصات بمعدل ٥ الى ١ ·

اوضاع ميزان القوى بعد « كامب ديفيد » : ونتيجة لاتفاقيتي « كامب ديفيد »، واتفاقية السلام المنفرد بين مصر واسرائيل ، سيحدث خلل استراتيجي خطير في ميزان القوى القائم بين دول المواجهة العربية واسرائيل ، الذي عرضنا قسماته الاساسية فيما سبق · اذ ان اجمالي القوات البرية العربية (وعلى افتراض وقوف الاردن الى جانب سوريا) ..

---

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١، ١٠٣ ·

سينخفض من نحو ٦١١ الفا من الجنود الى نحو ٢٦١ الف جندي فقط · مقابل ٣٧٥ الف جندي اسرائيلي خلال الاربع والعشرين ساعة الاولى من الحرب ، ونحو ٥٩١ الفا خلال الايام الثلاثة الاولى من الحرب · اي ان الجيش الاسرائيلي اصبح متفوقا في القوى البشرية بنسبة ٦٨ر٤٣٪ في الحالة الاولى ، وبنسبة ٤٤ر١٢٦٪ في الحالة الثانية · وفي حالة ارسال العراق نحو ٨٠ الف جندي من جيشه البالغ نحو ١٨٠ الف جندي تتعدل نسبة التفوق الاسرائيلي في الحالة الثانية الى ٣ر٧٣٪ ·

اما بالنسبة للاسلحة البرية الرئيسية فان اجمالي الدبابات وقانصات الدبابات العربية سينخفض من نحو ٥٢٠٠ دبابة وقانص دبابات الى نحو ٣٠٠٠ دبابة وقانص ، او نحو ٣٢٠٠ في افضل الاحتمالات (اذا ما ادخلنا في الحساب ٢٠٠ دبابة قديمة لدى سوريا من طراز « ت ـ ٣٤ » تستخدم اساسا كمدافع ثابتة م/د) ، وذلك مقابل نحو ٣٦٠٠ دبابة اسرائيلية (من بينها ١٥٠ دبابة « سوبر شيرمان » قديمة) · وهذا معناه تحقق تفوق اسرائيلي في الدبابات بنسبة ٥ر١٢٪، على حين كانت مصر وسوريا والاردن تتمتع في السابق بنسبة تفوق ٥٣٪ في هذا المجال · ولا يمكن المحافظة على نسبة التفوق العربي السابقة الا في حالة توفير العراق نحو ١٢٠٠ دبابة عاملة على جبهات المواجهة ، تساندها نحو ١٠٠٠ احتياطية توفرها ليبيا لتعويض الخسائر ، شرط توفر طواقم احتياطية لاستخدامها لدى قوات سوريا والعراق والاردن ·

اما بالنسبة لناقلات الجنود المدرعة ، فسينخفض حجم ما لدى دول المواجهة منها الى نحو ٢٣٢٠ مركبة ، بعد ان كان لديها ٥٠٢٠ عربة ، وذلك مقابل نحو ٤٥٠٠ مركبة مماثلة لدى الجيش الاسرائيلي ، وهذا معناه تبدل نسبة التفوق العربي السابقة وقدرها ٥ر١١٪ الى تفوق اسرائيلي قدره نحو ٩٤٪ ، الامر الذي يزيد من تفوق الجيش الاسرائيلي في الحركية والمناورة · ويمكن ان تنخفض نسبة التفوق الاسرائيلي هذه الى نحو ٥ر٣٥٪ ، في حالة مشاركة العراق بنحو الف ناقلة مدرعة من جملة ١٧٠٠ ناقلة لديها تقريبا ·

وفي مجال مدافع الميدان والهاوتزر ، سيصبح ما لدى دول المواجهة نحو ١١٠٠ مدفع وهاوتزر ، بدلا من ٢٤٠٠ مدفع في السابق · وذلك مقابل نحو ١٢٠٠ مدفع لدى الجيش الاسرائيلي ، وبهذا ستتحول نسبة التفوق العربي السابقة البالغة ١٠٠٪ الى تفوق اسرائيلي محدود تبلغ نسبته نحو ١ر٩٪ ، وربما كان الموقف الحقيقي في مجال المدفعية متعادلا · ويمكن ان يتحسن وضع المدفعية العربية اذا ما ارسلت العراق نحو ٥٠٠ مدفع من جملة الـ ٨٠٠ مدفع التي تملكها ، واذا ما ارسلت الجزائر ٣٠٠ مدفع من جملة الـ ٦٠٠ مدفع التي لديها · وفي هذه الحالة تبلغ نسبة التفوق العربي في المدفعية نحو ٣ر٥٨٪ ، ولكنها لن تصل الى النسبة السابقة ، نتيجة لخروج نحو ١٣٠٠ مدفع وهاوتزر مصري من ساحة المعركة ، ما لم يبذل كل من الجيشين السوري والعراقي جهودا اضافية لزيادة قوة مدفعيتهما معا بنحو ٥٠٠ او ٦٠٠ مدفع جديد، مع ما يفرضه هذا من اضافات جديدة في القوى البشرية · ولكن ذلك يشكل ضرورة حيوية لتأمين قوة نيران برية عربية فعالة ، في وجه القوات الاسرائيلية البرية المتفوقة عدديا وفي قوة النيران الجوية ·

اما بالنسبة للطيران فسيصبح ما لدى دول المواجهة العربية نحو ٤٧٦ طائرة فقط ، مقابل ٦٨٠ طائرة لدى الطيران

الاسرائيلي · وهذا معناه تغير نسبة التفوق العربي السابقة في عدد الطائرات البالغة نحو ٥ر٤٨٪ الى تفوق اسرائيلي بنسبة ٨ر٤٢٪ ، وذلك نتيجة لخروج ٥٣٤ طائرة مصرية من ساحة المواجهة · وفي الوقت ذاته ستتبدل نسبة التفوق العربي السابقة في قوة نيران القصف الجوي العملية من ٨ر٣٦٪ الى نسبة تفوق اسرائيلي تبلغ ٤ر٥٧٪ ، وذلك نتيجة لخروج قدرة القصف الجوي المصري البالغة ١١١٩ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة · وتتبدل نسبة التفوق العربي في نيران الصواريخ جو ـ جو البالغة نحو ٤ر٣٢٪ الى نسبة تفوق اسرائيلي قدرها ٥ر٢٦٪ ، وذلك نتيجة لخروج ١٠٤٤ صاروخا مصريا من ساحة المواجهة ·

ويمكن ان تتغير النسب سالفة الذكر لصالح الجانب العربي في حالة مشاركة العراق بنحو ٢٠٠ طائرة ، اجمالي قوتها النارية العملية في القصف الارضي نحو ٣٧٢ طنا من القنابل ، واجمالي قوتها من الصواريخ جو ـ جو نحو ٣٩٦ صاروخا · ومشاركة ليبيا بنحو ٥٤ طائرة ، اجمالي قوتها النارية العملية في القصف الارضي نحو ١٠٨ صواريخ · ومشاركة الجزائر بنحو ٤٨ طائرة ، اجمالي قوتها النارية ٧٨ طنا من القنابل و ١٤٤ صاروخا جو ـ جو · اي ستصبح القوة العربية على جبهات دول المواجهة ٧٧٨ طائرة ، اجمالي قوتها النارية العملية في القصف الارضي نحو ١٥٢٨ طنا من القنابل ، واجمالي قوتها النارية القصوى في القتال الجوي نحو ٢٢٠٠ صاروخ جو ـ جو · الامر الذي ينتج عنه تعديل نسب علاقات القوى مع الطيران الاسرائيلي الى نسبة تفوق عربي في عدد الطائرات قدرها نحو ٤ر١٤٪ ، ونسبة متساوية في قوة نيران القصف الارضي (لان قوة الطيران الاسرائيلي في الحالة المماثلة هي ١٥٢٧ طنا) ، ونسبة تفوق عربي في الصواريخ جو ـ جو قدرها ٢ر١٢٪ ·

وكل ذلك التقدير مبني على اساس افتراض تساوي القدرات القيادية والقتالية وخدمات الانذار المبكر والخدمات الارضية الاخرى ، فضلا عن افتراض تواجد القوى الجوية لدول العمق العربي ، في الوقت المناسب ، فوق جبهات القتال ·

اما في مجال القوى البحرية ، فالاختلال الناجم عن خروج البحرية المصرية واضح وخطير الاثار ، من حيث الاسلحة الرئيسية ، ومن حيث مسارح العمليات البحرية ، ومدى الفاعلية التكتيكية والاستراتيجية · اذ اصبحت البحرية الاسرائيلية لا تواجه عمليا سوى البحرية السورية التي تملك ١٢ زورقا صاروخيا ، وفرقاطتين ، و ٩ طائرات هليكوبتر مضادة للغواصات ، واجمالي قوة الصواريخ السورية ٣٦ صاروخا · وذلك مقابل ٢٠ زورقا صاروخيا اسرائيليا ، قوتها النارية ١١٤ صاروخا ، و ٤ غواصات ، و ٣ طائرات مضادة للغواصات ·

ويمكن للبحرية الليبية ، التي تمتلك نحو ٨ زوارق صواريخ و ٣ غواصات وفرقاطة و ٢ كورفيت ، ان تلعب دورا في ممارسة بعض الخنق الاستراتيجي في عرض البحر الابيض المتوسط ضد الملاحة الاسرائيلية ، ولكنها لن تستطيع ، على الارجح ، دعم العمليات التكتيكية قرب السواحل السورية والاسرائيلية ، نظرا لحاجتها لقوتها المحدودة نسبيا من الزوارق الصاروخية في تأمين المرافىء والشواطىء الليبية ضد الهجمات البحرية الاسرائيلية المحتملة ·

وفي الوقت ذاته فان بحرية اليمن الجنوبي محدودة القدرات ، اذ ان قوتها الاساسية مشكلة من ٣ زوارق دورية

كبيرة ، و ٣ زوارق طوربيد ، وهي لا تستطيع فرض حصار على « باب المندب »، نظرا لوجود ٤ زوارق صواريخ «ريشيف» اسرائيلية في البحر الاحمر يمكن ان تساندها طائرات « ف ـ ١٥ » بعيدة المدى ٠

والبحرية العراقية يمكنها ان تلعب مثل هذا الدور من قاعدة « عدن » ، اذ ان لديها ١٤ زورقا للصواريخ ، اجمالي قوتها النارية ٤٤ صاروخا ، فضلا عن ٣ قاذفات غواصات (لدى اليمن واحدة) ، وفي هذه الحالة يجب ان يتمركز سرب على الاقل من المقاتلات متعددة المهام العراقية هناك ، تسانده بعض قاذفات « ت يو ـ ٢٢ » التي تقوم بمهام الدورية البحرية فوق البحر الاحمر ٠ وبذلك يمكن ان يعوض دور البحرية المصرية الذي قامت به في حرب ١٩٧٣ ٠

نتائج استراتيجية اخرى : ولا تقتصر النتائج العسكرية ، السلبية الاثر عربيا ، لخروج مصر من ساحة المواجهة لاسرائيل ، على اختلال ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي من حيث القوى البشرية والمادية فحسب ، وانما تمتد ايضا الى مختلف النواحي الاستراتيجية والعملياتية (اي ادارة العمليات) في حالة نشوب حرب شاملة جديدة على الجبهتين الشمالية والشرقية ٠ ذلك لان الطيران الاسرائيلي يستطيع ، في هذه الحالة ، ان يركز قواه بالكامل على اي من الجبهتين ، او عليهما معا ، دون ان يخشى شيئا من جهة الجنوب ٠ كما ان ذلك سيساعده على حشد قواه الرئيسية في مطارات في صحراء « النقب » بجنوب الارض المحتلة في فلسطين ، ليكون بمأمن نسبي من الهجمات الجوية العربية المنطلقة من الاراضي السورية والعراقية ، والتي ستتيح طائرات الانذار المبكر من طراز « هوك آي » الاسرائيلية ، وكذلك محطات الرادار في الجولان وشمال فلسطين ، امكانية اكتشافها في وقت مبكر نسبيا ٠ كما انها ستتعرض بصورة اكبر لاحتمالات اصابتها بنيران الدفاعات الارضية ، وخاصة صواريخ « هوك » المحسنة ، قبل الوصول الى قواعد النقب الجوية ٠

وقد اشار معلق صحيفة « يديعوت احرونوت » العسكري في تعليق له مؤخرا الى بعض هذه المزايا الاستراتيجية ، فقال انه في حالة « خروج الجبهة الشرقية الى الحرب بلا مصر ، وعندما يكون هناك امان مطلق من ان مصر لن تشترك في الحرب ، ستتوجه قوة جيش الدفاع الاسرائيلي الى جبهة الاردن وسوريا والعراق ٠ وفي الاساس تكمن الاهمية في الساعات الاولى للحرب، اذا كان بالامكان توجيه جميع السلاح الجوي الاسرائيلي لمهاجمة هذه الجبهة ، وعلى الاغلب القوات المرسلة (من العراق) ، التي تكون في طريقها الى ساحة القتال » ٠

وفضلا عن ذلك سيكون في امكان الجيش الاسرائيلي ان يراقب الجبهة المصرية ، التي ستفصلها عنه مسافة تبلغ نحو ١٠٠ كلم من الارض المنزوعة السلاح ، المراقبة بمحطات انذار مبكر وقوات الامم المتحدة ، عقب المرحلة الاولى من الانسحاب المزمع من سيناء ، خلال ٩ شهور من توقيع اتفاقية السلام المصرية ـ الاسرائيلية ، حيث ستكون القوات الاسرائيلية موجودة شرقي « العريش » ، بخط يمتد جنوبا حتى شرقي «رأس محمد»، اي عند « شرم الشيخ » ٠ وذلك بقوة محدودة لا تزيد في تقديرنا عن ٤ او ٦ ألوية ، معظمها من المشاة الميكانيكية او المحمولة وقوة محدودة من الدبابات ٠ ثم ،

من مسافة ١٥٠ كلم فيما بعد . ومن ثم سيركز قواه على الجبهتين الشمالية والشرقية اللتين تشكلان بالنسبة له محوري عمليات متقاربين للغاية، ومتبادلي التأثير المباشر على كل منهما في آن واحد . اذ ان الزاوية التي تفصل بين محوري الجبهتين لا تزيد تقريبا عن ٩٠ درجة ، على حين ان الزاوية التي تفصل بين جهود الجيش الاسرائيلي في حرب ١٩٧٣ ، بين الجبهتين الشمالية والجنوبية، كانت لا تقل عن ١٨٠ درجة في تغيير الاتجاه . ويضاف الى هذا ان محاور العمليات الحالية قريبة للغاية من مراكز الامداد والتموين والقيادة والسيطرة ، مما يسهل كثيرا من المشكلات الادارية والقيادية التي كان يواجهها الجيش الاسرائيلي من قبل ، وعلى السواء في حربي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، حين كان ينقل مركز ثقله الرئيسي من جبهة الى اخرى وفقا لترتيب اولويات استراتيجي ، وضمن مشاق ادارية وقيادية جمة .

وفضلا عن ذلك كله ، فهناك عنصر اخر سيلعب دورا هاما في زيادة القدرة والفاعلية العسكرية الاسرائيلية ، وهو عنصر المعنويات المرتفعة نتيجة لاحراز النصر الاستراتيجي السياسي ، الذي تحقق في « كامب ديفيد » ، باخراج مصر من ساحة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وما بعثه ذلك النصر السياسي من امل كبير في السهولة النسبية في فرض « السلام » الاسرائيلي على بقية دول المواجهة العربية ، مثلما حدث ، على نحو اقل اهمية وفاعلية ، عام ١٩٤٩ ، حين فرضت اتفاقيات الهدنة الدائمة على كل دول المواجهة ، عقب توقيع مصر لاتفاقية الهدنة المذكورة في « رودس » . وعلى ضوء هذه النتائج الاستراتيجية ـ العسكرية لكامب ديفيد ، نستطيع ان نتبين

مدى جدية وثقل المهام الاستراتيجية والسياسية المطلوبة من دول الصمود والتصدي ، ومن الدول العربية الاخرى ، الراغبة في دعم الصمود العربي . في مؤتمر القمة العربي المتوقع عقده في بغداد ، خلال تشرين الثاني (نوفمبر) الجاري .

ع.م

ابعاد الموقف الاردني

قبل الاعلان عن اتفاقي كامب ديفيد ، كانت ثمة تقديرات مفادها ان النظام الاردني مرشح للاشتراك مع النظام المصري في عقد صفقة شاملة مع اسرائيل ، تتناول سيناء ، كما تتناول الضفة الغربية وقطاع غزة · والذي عزز هذه التقديرات ، هو الاتصالات المصرية ـ الاردنية التي سبقت مؤتمر كامب ديفيد، والتي ادت الى تفاهم مصري ـ اردني حول الضفة الغربية وقطاع غزة ، في حال الوصول الى عقد صفقة شاملة · وبموجب هذا التفاهم ، تطالب مصر بعودة قطاع غزة الى سلطتها وعودة الضفة الغربية الى السلطة الاردنية ، اي الى الوضع الذي كان قائما قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ ·

ولا شك ان هذا التفاهم المصري ـ الاردني ، هو الذي شجع الملك حسين على دعم التحرك المصري ، قبل ، وخلال مؤتمر كامب ديفيد ، لدرجة انه مكث في لندن خلال المؤتمر منتظرا اشارة من المجتمعين في كامب ديفيد للالتحاق بهم ، والدخول معهم كطرف في التوقيع على الاتفاقات النهائية ·

لقد كان الملك الاردني حريصا على ان لا يورط نفسه في اي اتفاق قبل ان يعرف حدود الموقف الاسرائيلي ازاء الضفة الغربية وقطاع غزة · فاذا اصرت اسرائيل على مشروع الادارة الذاتية ، فان الملك حسين يجد ان لا دور له يلعبه · وكان ينتظر ان تؤدي محادثات كامب ديفيد الى تعديل الموقف الاسرائيلي بما يتيح له الاشتراك في المحادثات ، والدخول كطرف ·

لقد تلقى الملك الاردني اول اشارة سلبية عن سير المحادثات وهو في لندن ، فغادرها الى اسبانيا ، على أمل ان يلتقي السادات في الرباط بعد انتهاء المحادثات · لقد كان حسين ـ حتى هذه اللحظة ـ يأمل ان يخرج المؤتمر « بشيء ما » يتيح له الدخول في الصفقة ، ولكن مع اعلان الاتفاقين ، وبشكل خاص الاتفاق الاول الذي يحدد اطار السلام ، ومستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، ادرك ان ما كان يراهن عليه كان مجرد سراب ، وان المجتمعين في كامب ديفيد لم يتركوا له شيئا الا دور الشرطي الذي يحمي

الاحتلال الاسرائيلي ، ولعل هذا ما يفسر « الغضبة الفورية » للملك الاردني بعد اعلان الاتفاقية مباشرة · فالغى ترتيبات لقائه مع السادات في الرباط ، وطار رأسا الى عمان، وعقد اجتماعا استثنائيا لمجلس وزرائه ، لبحث الوضع ·

لقد اصدر مجلس الوزراء الاردني بيانا في ٩/١٩ ، عشية الاعلان عن اتفاقي كامب ديفيد وفي هذا البيان ـ الذي اثار ضجة غير متوقعة لدى صدوره ـ لا يبدو ان النظام الاردني ابتعد نهائيا عن اطراف كامب ديفيد ، بل كان حريصا ان يحافظ على مسافة ،تتيح له امكانية الدخول في المفاوضات المقبلة اذا توفر بعض الشروط ، فأعلن تأجيل زيارته لواشنطن دون ان يلغيها · وقدم اسئلة لفانس طالبا الاجابة عليها ، ليحدد الاردن ـ على ضوء الاجابات ـ موقفه من الاشتراك في المفاوضات ، سلبا او ايجابا · .

اثار البيان الاردني ردود فعل عربية متفاوتة ، البعض استقبله في حماسة والبعض الآخر استقبله بحذر لا يخلو من تشكيك بحقيقة الموقف الاردني · واذا كان البيان كاشفا للموقف الاردني فان القراءة المتأنية له تصبح ضرورية · ولدى القراءة الفاحصة والمتأنية نلاحظ ما يلي :

(١) اعفى الاردن نفسه من مسؤولية الالتزام ، معنويا او قانونيا بالنتائج المترتبة على قمة كامب ديفيد التي لم يشترك فيها · والنص على اعفاء الاردن نفسه من المسؤولية المعنوية ، يكشف ان النظام الاردني كان متفاهما مع النظام المصري على بعض الامور فيما يتعلق بالضفة الغربية · ويمكن ان نستنتج ـ من دون تجن ـ ان ابرز هذه الامور كان دعم الاردن للتحرك المصري في عقد صفقة شاملة مع اسرائيل · مقابل هذا الدعم يلتزم السادات باسقاط منظمة التحرير الفلسطينية من حسابه ، ويربط اي اتفاق حول سيناء باتفاق حول الضفة الغربية تسمح بعودة السلطة الاردنية اليها · ولما لم يتم ذلك ، فقد اعلن الاردن انه غير ملزم « معنويا » بما تم التوصل اليه ، لان حدود الاتفاق المعلن تخرج عن حدود التفاهم غير المعلن رسميا بين حسين والسادات ·

(٢) لم يشر البيان من قريب او بعيد الى منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، كما لم يشر أيضا الى قرارات قمتي الجزائر والرباط التي تؤكد ذلك ، كما ورد في بيانات السعودية والدول العربية الاخرى · ففي تحديد البيان « للتسوية النهائية العادلة » التي يرضى بها الاردن ، اشار البيان ، من جملة ما أشار اليه ، الى « حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بحرية تامة ، وفي التسوية السلمية الشاملة التي تحقق الامن والسلام لجميع الاطراف » · أما كيف يمارس الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره ؟ وعبر من ؟ وما دور منظمة التحرير الفلسطينية في كل ذلك ، فقد اسقطها البيان · وهو اسقاط مقصود ، ويدل على ان ادعاءات النظام الاردني بالالتزام بقرارات قمتي الجزائر والرباط ، ليست حقيقية ، وان النظام الاردني لا يزال يعتبر نفسه هو الطرف المعني والمخول بتقرير مستقبل الضفة الغربية خاصة ، والشعب الفلسطيني عامة · وهذا ما تؤكده النقطة التالية من البيان :

(٣) يقول البيان « ان المملكة الاردنية الهاشمية وهي تعتبر ان الشعب الفلسطيني هو الطرف الاول والاصيل في التسوية النهائية للقضية الفلسطينية ، لا تتوانى مطلقا عن ممارسة مسؤوليتها ودورها تجاه قضية السلام في المنطقة ، وفي صون حقوق الشعب الشعب الفلسطيني فقط ، بل وايضا دور المسؤول عنه ، وهو بهذا النص يوجه رسالة الى

اميركا واسرائيل انه لا يزال الاعتماد على الاردن ممكنا ، كبديل لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وان الاردن لم « يقطع الخيوط » نهائيا · ولذلك فقد اشار البيان الى ان الحكومة الاردنية « ستجري اتصالات واسعة وشاملة على الصعيدين العربي والخارجي لاستيضاح المواقف ، ولتقويم الوضع تمهيدا لبلورة افضل السبل والوسائل لخدمة القضية الفلسطينية والحقوق العربية » · اي ان الحكومة الاردنية تنتظر المزيد من التوضيحات حول مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة بعد الخمس سنوات · وحول المسار الذي سينتهي اليه الحكم الذاتي ·

ويتضح من خلال البيان ان الاردن لا يعارض الحكم الذاتي اذا امكن التحكم في مساره ، بشكل يسمح بعودة السلطة الاردنية الى الضفة الغربية · والاسئلة التي وجهها الملك حسين لفانس واثرتون انصبت كلها حول هذه المسألة · فالاردن يطالب بضمانات أميركية ، واسرائيلية ـ اذا امكن ـ تتحكم في المسار الذي سينتهي اليه الحكم الذاتي منذ الان ، اي ان يحدد بشكل اوضح الدور الاردني ، وان يحدد بشكل اوضح مستقبل الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة · ان الاتفاق المعلن ، اي « اطار السلام »، يترك هاتين المسألتين للمفاوضات المقبلة ، والتي ستشترك فيها مصر واسرائيل اضافة الى الاردن وادارة الحكم الذاتي · وهي مفاوضات حسمت الحكومة الاسرائيلية نتائجها سلفا، عندما اعلن بيغن ان الجيش الاسرائيلي لن ينسحب من الضفة الغربية بعد انتهاء فترة الخمس سنوات ، وعندما اعلن ان انشاء المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، لن يتوقف ، الا خلال فترة الشهور الثلاثة ، وهي الفترة المحددة لانجاز « معاهدة سلام » اسرائيلية ـ مصرية ·

ان البيان الاردني ـ والذي نفترض انه صيغ بدقة وبعبارات منتقاة ـ لا يعارض النهج الساداتي اطلاقا ، ولا يعارض الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي المنفرد الا من زاوية ان هذا الاتفاق يضعف الموقف العربي ، اضافة الى ان البيان يوضح الموقف الحقيقي للنظام الاردني من منظمة التحرير الفلسطينية · وهو موقف يسير ـ كما تشير كل الدلائل ـ باتجاه توسيع المسافة التي تفصل « النظام » عن المنظمة ، وليس باتجاه تضييقها كما استنتج البعض · ذلك ان مجال المناورة امام النظام الاردني ضيق ، وخياراته محدودة ، ولا شك ان الملك حسين استوعب رسالة فانس له « نيوزويك ، ٧٨/١٠/٢ » عندما اوضح له « ان الاردن اما ان يلتحق بقطار السلام الذي اقلع ، او يخاطر بأن يترك جانبا » · فما هي الخيارات امام النظام الاردني ؟ هل يتصادم مع السلام الاميركي ـ الاسرائيلي ـ ام ينخرط فيه ؟ وبأية شروط ؟ الى متى يحافظ النظام الاردني على موقفه الانتظاري ؟ وهل تسمح التطورات التي تعيشها المنطقة العربية بالثبات فترة طويلة على هذا الموقف ؟ اسئلة لا بد من طرحها ، ونحن نحاول استكشاف ابعاد الموقف الاردني ، واستكشاف افاق او حدود العلاقة معه ·

حتى الآن ، لا يبدو ان « النظام » حسم امره ، ولا تزال السمة الغالبة على موقفه هي الانتظار ، ولكن ليس الانتظار المجرد او السلبي ، بل الانتظار « الفاعل » الذي يحاول ان يدفع بحركة الاحداث خلال الفترة القادمة ، بما يحسن شروط التسوية المطروحة ، وبما يتيح له الاشتراك في المفاوضات المقبلة · ولهذا فان « النظام » ابقى نوافذه مفتوحة على الجميع وحافظ على الجسور مع الجميع ، مع جبهة الصمود والتصدي ، مع الاميركان ، مع دول النفط العربية ، وتحديدا السعودية ، ومع اسرائيل ايضا ، ومع اطار السلام الذي

اقر في كامب ديفيد · ان « النظام » يراهن على ان تعقد مسار التسوية بصدد الضفة الغربية وقطاع غزة ، سيجعله مطلوبا اكثر ، اميركيا واسرائيليا · فالدفع الاسرائيلي باتجاه التفاهم مع الاردن حول مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة دفع سيستمر ، مهما بدا ان اسرائيل بالاتفاق مع مصر تعتقد انهما تملكان امكانية لترتيب الوضع هناك ، ولا سيما خلال السنتين او الثلاث الاولى من الفترة الانتقالية · والاردن بالاضافة الى مراهنته على ذلك ، فانه يراهن ايضا على الثقل السعودي ، والدور السعودي ، في تحديد مسار المفاوضات المقبلة حول الارض الفلسطينية المحتلة في العام ١٩٦٧ · ومهما بدا ان هناك تفاوتا بين البيان السعودي والبيان الاردني حول منظمة التحرير الفلسطينية وقرارات الرباط ، فان هذا التفاوت شكلي ، ويسقط من الاعتبار لدى البدء بالاجراءات العملية · فالموقف السعودي المعلن ليس دائما هو الموقف المحدد للسياسات السعودية · واوضح مثال على ذلك موقف السعودية من زيارة السادات للارض المحتلة ، ففي حين ادان البيان السعودي هذه الزيارة ، كان موقف السعودية العملي ، هو دعم السادات ، ومساعدته في تطويع الموقف العربي · ويتضح من بيان السعودية حول كامب ديفيد انها لا تعارضه كصيغة او كنهج ، بل تعتبر « ان ما تم التوصل اليه في مؤتمر كامب ديفيد لا يعتبر صيغة مقبولة للسلام » كما لا تعتبر انفراد مصر لعقد معاهدة سلام مع اسرائيل ، امرا يعنيها ، فهي « لا تعطي نفسها الحق في ان تتدخل في الشؤون الخاصة لاي بلد عربي ، ولا ان تناقش حقه في استعادة اراضيه المحتلة عن طريق الكفاح المسلح او عن طريق المساعي السلمية » ، وما هو جدير بالملاحظة ان السعودية كانت تحافظ على مسافة تبعدها قليلا عن الموقف المصري او التحرك المصري ، في حين انها ، عمليا ، كانت تدعم وتبارك هذا التحرك · لقد كان الحفاظ على هذه المسافة ـ ولو شكليا ـ ضروريا للسعودية ، لانه كان يتيح لها التحرك مع الاطراف العربية الاخرى باتجاه تخفيف معارضتها للحركة المصرية ، وباتجاه العمل على استيعاب الحركة المصرية ضمن الموقف العربي العام · ولا شك ان دعوات « التضامن العربي » السعودية المتكررة عقب كل حركة مصرية واسعة باتجاه اميركا واسرائيل ، كانت دعوات لاستيعاب الحركة المصرية وتطويع الموقف العربي على ضوئها ·

لقد اتاحت هذه السياسة للسعودية ان تلعب دورا كبيرا في الحد من فعالية الاستقطاب العربي المعارض للسادات ، والحد من اندفاعه نحو خيارات الحسم الاستراتيجي لمواجهة السلام الاميركي ـ الاسرائيلي ـ المصري ·

لقد شكلت السعودية ودول النفط في الخليج ـ الكويت ، قطر ، الامارات العربية المتحدة ، البحرين ، اضافة الى المغرب وعمان ، استقطابا اخر يحاول ان يحافظ على موقع له بين دول جبهة الصمود والتصدي وبين السادات ·

والنظام الاردني ، في وسط كل حركة الاستقطاب هذه ، من هنا وهناك ، يحاول ان يحافظ على موقع متميز له ، بانتظار ما يحدث من تطورات · ولكن الى متى تسمح التطورات المقبلة ، والمحتملة ان يحافظ النظام الاردني على موقعه هذا ؟·

يبدو ان من الصعب ان يحافظ الملك الاردني على موقفه هذا في وقت تتسارع فيه الاحداث ، بشكل يفرض على الجميع ان يحددوا مواقفهم بوضوح · والمواقف الانتظارية ، او المواقف التي تحاول الحفاظ على مسافة وسط حركة الاستقطاب التي تجري في المنطقة، لن تقوى على الصمود ، والاردن في النهاية محكوم باحد خيارين ، فاما ان ينخرط في

التسوية ، وفي المفاوضات المقبلة حول المسألة الفلسطينية ، او ان يخرج من عملية التسوية وينفض يده من المسألة الفلسطينية برمتها ، اي يعود لسياسة الاردنية التي حاول التهديد باللجوء اليها بعد قمة الرباط ، عندما اقرت اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني · وفي ظل ما يجري من احداث ، يبدو لنا ان الاردن لن يلجأ الى سياسة الاردنية من جديد ، سواء كاجراء تكتيكي لتحسين موقعه التفاوضي او كتوجه استراتيجي ، لان النتائج العملية ـ الاقتصادية والاجتماعية ـ التي قد تترتب على انتهاج سياسة الاردنة ، ستكون اكبر من قدرة النظام الاردني على استيعابها ، أضافة الى ان نفض الاردن يده من المسألة الفلسطينية ، يعني عمليا ، افقاده لكل عناصر قوته في استراتيجية الامن الاميركية في المنطقة ·

والارجح ، ان الاردن سيظل يراهن على انه مطلوب من جميع الاطراف المنخرطة في « تسوية كامب ديفيد » ليكون الطرف الذي يلعب دورا اساسيا في تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة · فالدور الاردني في هذه المسألة يشكل عنصرا اساسيا من عناصر السلام الاميركي ـ الاسرائيلي ـ المصري · ولذا فان الدبلوماسية الاميركية ابدت تفهما للموقف الاردني ، وتحاول امتصاص ردود فعله الاولية ، بما يساعد على دفعه الى قافلة كامب ديفيد · لقد علق بريجنسكي على الموقف الاردني (النهار ، ١٩٧٨/١٠/٢٥) فقال « اننا نريد ان نكون مساعدين قدر استطاعتنا للملك حسين ونحن نفهم مشكلته ونفهم صعوباته ويمكننا حتى تقدير مواقفه » · اما د· هنري كيسنجر فقد تكهن (النهار ، ٧٨/١٠/٢٥) بان ينضم الملك حسين في النهاية الى المفاوضات ، وقال « ان تصريحات العاهل الاردني كانت تكتيكا ضروريا في الوضع المتوازن الدقيق » ·

من كل ذلك نستخلص ان اي توجه لوضع العراقيل امام احتمالات انخراط الاردن في المفاوضات المقبلة لن تكون مجدية ، الا اذا تمت عبر التأكيد على التزام الاردن الفعلي والعملي بقرارات الرباط ، واهمها اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، وما يستلزم ذلك من تغيير واضح في سياسات الاردن ازاء المنظمة ونشاطها التعبوي ـ السياسي والعسكري ـ في الاردن ، وازاء الشعب الفلسطيني في الضفة الشرقية ، وفي الاراضي الفلسطينية المحتلة ، ولا يتملكنا وهم ان الاردن مستعد للالتزام بسياسات كهذه ، في وقت تشير كل الدلائل الى انه ماض في تدعيم موقعه كبديل عن المنظمة ، وكمفاوض عن الشعب الفلسطيني ·

غازي الخليلي

وثائق

وثائق اتفاقيات كامب ديفيد

الوثيقة الاولى :

اطار السلام في الشرق الاوسط

« اجتمع الرئيس محمد انور السادات رئيس جمهورية مصر العربية ومناحيم بيغن رئيس وزراء اسرائيل مع جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الاميركية في كامب ديفيد من ٥ الى ١٧ ايلول ١٩٧٨ واتفقوا على الاطار التالي للسلام في الشرق الاوسط وهم يدعون اطراف النزاع العربي الاسرائيلي الى الانضمام اليه ·

المقدمة

ان البحث عن السلام في الشرق الاوسط يجب ان يسترشد بالآتي :

ان القاعدة المتفق عليها للتسوية السلمية للنزاع بين اسرائيل وجيرانها هو قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ بكل اجزائه* ·

بعد اربعة حروب خلال ثلاثين عاما وعلى رغم الجهود الانسانية المكثفة ، لم يستمتع الشرق الاوسط ، مهد الحضارة ومهبط الاديان العظيمة الثلاث ، بعد بنعم السلام · ان شعوب الشرق الاوسط تتشوق الى السلام حتى يمكن تحويل موارد المنطقة البشرية والطبيعية الشاسعة لمتابعة اهداف السلام وحتى تصبح هذه المنطقة نموذجا للتعايش والتعاون بين الامم ·

ان المبادرة التاريخية للرئيس السادات بزيارته للقدس والاستقبال الذي لقيه من برلمان اسرائيل وحكومتها وشعبها وزيارة رئيس الوزراء بيغن للاسماعيلية ردا على زيارة الرئيس السادات ومقترحات السلام التي تقدم بها الزعيمان كلاهما وما لقيته هذه المهمات من استقبال حار من شعبي البلدين ، كل ذلك خلق فرصة للسلام لم يسبق لها مثيل وهي فرصة لا يجب اضاعتها اذا كان يراد انقاذ هذا الجيل والاجيال المقبلة من مآسي الحرب ·

وان مواد ميثاق الامم المتحدة والقواعد الاخرى المقبولة للقانون الدولي والشرعية توفر الان مستويات مقبولة لسير العلاقات بين جميع الدول ·

وان تحقيق علاقة سلام وفقا لروح المادة ٢ من ميثاق الامم المتحدة واجراء مفاوضات في المستقبل بين اسرائيل وأي دولة مجاورة مستعدة للتفاوض في شأن السلام والامن معها هي امور ضرورية لتنفيذ جميع البنود والمبادىء في قراري مجلس الامن الرقم ٢٤٢ و ٣٣٨ ·

ان السلام يتطلب احترام السيادة والوحدة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة وحقها في العيش في سلام داخل حدود امنة ومعترف بها غير متعرضة لتهديدات أو اعمال عنف · وان التقدم تجاه هذا الهدف من الممكن ان يسرع بالتحرك نحو عصر جديد من التصالح في الشرق الاوسط يتسم بالتعاون على تنمية التطور الاقتصادي وفي الحفاظ على الاستقرار وتأكيد الامن ·

وان السلام يتعزز بعلاقة السلام وبالتعاون بين الدول التي تتمتع بعلاقات طبيعية · واضافة الى ذلك في ظل معاهدات السلام ، يمكن الاطراف ـ على اساس التبادل ـ الموافقة على ترتيبات امن

---

* ترفق نصوص القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ بهذه الوثيقة ·

خاصة من مناطق منزوعة السلاح ومناطق ذات تسليح محدود ومحطات انذار مبكر ووجود قوات دولية وقوات اتصال واجراءات تتفق عليها للمراقبة والترتيبات الاخرى التي تتفق على انها ذات فائدة ٠

الاطار :

ان الاطراف اذ تضع هذه العوامل في الاعتبار مصممة على التوصل الى تسوية عادلة وشاملة ومعمرة لصراع الشرق الاوسط عن طريق عقد معاهدات سلام تقوم على قراري مجلس الامن الرقم ٢٤٢ و ٣٣٨ بكل فقراتهما ، وهدفها من ذلك هو تحقيق السلام وعلاقات حسن الجوار ، وهي تدرك ان السلام لكي يصبح معمرا يجب ان يشمل جميع هؤلاء الذين تأثروا بالصراع اعمق تأثير ، لذا فانها تتفق على ان هذا الاطار مناسب في رأيها ليشكل اساسا للسلام لا بين مصر واسرائيل فحسب بل كذلك بين اسرائيل وكل من جيرانها الاخرين ممن يبدون استعدادا للتفاوض على السلام مع اسرائيل على هذا الاساس ٠

ان الاطراف اذ تضع هذا الهدف في الاعتبار قد اتفقت على المضي قدما على النحو الاتي :

أ ـ الضفة الغربية وغزة :

اولا : ينبغي أن تشترك مصر واسرائيل والاردن وممثلو الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها ٠ ولتحقيق هذا الهدف فان المفاوضات المتعلقة بالضفة الغربية وغزة ينبغي ان تتم على ثلاث مراحل :

١ ـ تتفق مصر واسرائيل على انه من اجل ضمان نقل منظم وسلمي للسلطة مع اخذ الاهتمامات بالامن من جانب كل الاطراف في الاعتبار ، يجب ان تكون هناك ترتيبات انتقالية بالنسبة الى الضفة الغربية وغزة لفترة لا تتجاوز خمس سنوات ٠ ولتوفير حكم ذاتي كامل لسكان الضفة الغربية وغزة ، فان الحكومة الاسرائيلية العسكرية وادارتها المدنية ستنسحبان منهما بمجرد ان يتم انتخاب سلطة حكم ذاتي من قبل السكان في هذه المنطقة عن طريق الانتخاب الحر لتحل محل الحكومة العسكرية الحالية ٠ ولمناقشة تفاصيل الترتيبات الانتقالية فان حكومة الاردن ستكون مدعوة الى الانضمام الى المحادثات على اساس هذا الاطار ٠ويجب ان تعطي هذه الترتيبات الجديدة الاعتبار اللازم لكل من مبدأ حكم الذات لسكان هذه الاراضي ولاهتمامات الامن الشرعية لكل من الاطراف التي يشملها النزاع ٠

ب ـ ان تتفق مصر واسرائيل والاردن على وسائل اقامة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ وقد تضم وفدا يضم مصر والاردن ووفدا من الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة او فلسطينيين اخرين وفقا لما يتفق عليه ٠

وسيتفاوض الاطراف في شأن اتفاق يحدد مسؤوليات سلطة الحكم الذاتي التي ستمارس في الضفة الغربية وغزة وسيتم انسحاب للقوات المسلحة الاسرائيلية وستكون هناك اعادة توزيع للقوات الاسرائيلية التي ستبقى في مواقع امن معينة وسيتضمن الاتفاق ايضا ترتيبات لتأكيد الامن الداخلي والخارجي والنظام العام ٠ وسيتم تشكيل قوة بوليس محلية قوية قد تضم مواطنين اردنيين ٠ اضافة الى ذلك ستشترك القوات الاسرائيلية والاردنية في دوريات مشتركة وفي تقديم الافراد لتشكيل مراكز مراقبة لضمان امن الحدود ٠

ج ـ وستبدأ الفترة الانتقالية ذات السنوات الخمس عندما تقوم سلطة حكم ذاتي (مجلس اداري) في الضفة الغربية وغزة في اسرع وقت ممكن من دون ان تتأخر عن السنة الثالثة بعد بداية الفترة الانتقالية ٠ وستجري المفاوضات لتحديد الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقاتها مع جيرانها ولابرام معاهدة سلام

بين اسرائيل والاردن بحلول نهاية الفترة الانتقالية · وستدور هذه المفاوضات بين مصر واسرائيل والاردن والممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة ·

وسيجري انعقاد لجنتين منفصلتين لكنهما مترابطتان · احدى هاتين اللجنتين تتكون من ممثلي الاطراف الاربعة التي ستتفاوض وتوافق على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقاتها مع جيرانها ، وتتكون اللجنة الثانية من ممثلي اسرائيل وممثلي الاردن التي سيشترك معها ممثلو السكان في الضفة الغربية وغزة للتفاوض في شأن معاهدة السلام بين اسرائيل والاردن واضعة في تقديرها الاتفاق الذي تم التوصل اليه في شأن الضفة الغربية وغزة وسترتكز المفاوضات على اساس جميع النصوص والمبادىء لقرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ ·

وستقرر هذه المفاوضات ضمن اشياء اخرى موضع الحدود وطبيعة ترتيبات الامن · ويجب ان يعترف الحل الناتج عن المفاوضات بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة · وبهذا الاسلوب سيشارك الفلسطينيون في تقرير مستقبلهم من خلال :

١ ـ ان يتم الاتفاق في المفاوضات بين مصر واسرائيل والاردن وممثلي السكان في الضفة الغربية وغزة على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة والمسائل البارزة الاخرى بحلول نهاية الفترة الانتقالية ·

٢ ـ ان يعرضوا اتفاقهم للتصويت من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة ·

٣ ـ اتاحة الفرصة للممثلين المنتخبين من السكان في الضفة الغربية وغزة لتحديد الكيفية التي سيحكمون بها انفسهم تمشيا مع نصوص الاتفاق ·

٤ ـ المشاركة كما ذكر اعلاه في عمل اللجنة التي تتفاوض في شأن معاهدة السلام بين اسرائيل والاردن ·

ثانيا : سيتم اتخاذ كل الاجراءات والتدابير الضرورية لضمان امن اسرائيل وجيرانها خلال الفترة الانتقالية وما بعدها · وللمساعدة على توفير مثل هذا الامن ستقوم سلطة الحكم الذاتي بتشكيل قوة قوية من الشرطة المحلية · وتتشكل هذه القوة من سكان الضفة الغربية وغزة · وستكون قوة الشرطة على اتصال مستمر بالضباط الاسرائيليين والاردنيين والمصريين المعينين للبحث في الامور المتعلقة بالامن الداخلي ·

ثالثا: خلال الفترة الانتقالية يشكل ممثلو مصر واسرائيل والاردن وسلطة الحكم الذاتي لجنة تعقد جلساتها باستمرار وتقرر باتفاق الاطراف صلاحيات السماح بعودة الافراد الذين طردوا من الضفة الغربية وغزة في ١٩٦٧ مع اتخاذ الاجراءات الضرورية لمنع الاضطراب واوجه التمزق · ويجوز ايضا لهذه اللجنة ان تعالج الامور الاخرى ذات الاهتمام المشترك ·

رابعا : ستعمل مصر واسرائيل بعضهما مع البعض ومع الاطراف الاخرى المهتمة لوضع اجراءات متفق عليها للتنفيذ العاجل والعادل والدائم لحل مشكلة اللاجئين ·

ب ـ مصر ـ اسرائيل

١ ـ تتعهد كل من مصر واسرائيل بعدم اللجوء الى التهديد بالقوة او استخدامها لتسوية النزاعات وان اية نزاعات ستتم تسويتها بالطرق السلمية وفقا لما نصت عليه المادة ٣٣ من ميثاق الامم المتحدة ·

٢ ـ توافق الاطراف من اجل تحقيق السلام فيما بينها على التفاوض باخلاص بهدف توقيع معاهدة سلام بينها خلال

ثلاثة شهور من توقيع هذا الاطار فيما تتم دعوة الاطراف الاخرى في النزاع الى التقدم في الوقت نفسه الى التفاوض وابرام معاهدات سلام · مماثلة بغرض تحقيق سلام شامل في المنطقة ·

وان اطار ابرام معاهدة السلام بين مصر واسرائيل سيحكم مفاوضات السلام بينها وستتفق الاطراف على الشكليات والجدول الزمني او تنفيذ التزاماتها في ظل المعاهدة ·

ج ـ المبادىء المرتبطة

١ ـ تعلن مصر واسرائيل ان المبادىء والنصوص المذكورة ادناه ينبغي ان تطبق على معاهدات السلام بين اسرائيل وكل من جيرانها مصر والاردن وسوريا ولبنان ·

٢ ـ على الموقعين ان يقيموا في ما بينهم علاقات طبيعية كتلك القائمة بين الدول التي هي في حال سلام كل منها مع الاخرى ·

وعند هذا الحد ينبغي ان يتعهدوا بالالتزام بنصوص ميثاق الامم المتحدة ويجب ان تشتمل الخطوات التي تتخذ في هذا الشأن على :

أ ـ اعتراف كامل ·

ب ـ الغاء المقاطعات الاقتصادية ·

ج ـ ضمان ان يتمتع المواطنون في ظل السلطة القضائية بحماية الاجراءات القانونية في اللجوء الى القضاء ·

٣ ـ يجب على الموقعين استكشاف امكانات التطور الاقتصادي في اطار اتفاقات السلام النهائية بهدف المساهمة في صنع جو السلام والتعاون والصداقة التي تعتبر هدفا مشتركا لهم ·

٤ـ يجب اقامة لجان للدعاوى القضائية في الحسم المتبادل لجميع الدعاوي القضائية المالية ·

٥ ـ يجري دعوة الولايات المتحدة الى الاشتراك في المحادثات في شأن مواضيع متعلقة بشكليات تنفيذ الاتفاقات واعداد جدول زمني لتنفيذ تعهدات الاطراف ·

٦ ـ سيطلب من مجلس الامن التابع للامم المتحدة المصادقة على معاهدات السلام وضمان عدم انتهاك نصوصها · وسيطلب من الاعضاء الدائمين في مجلس الامن توقيع معاهدات السلام وضمان احترام نصوصها كما سيطلب اليهم مطابقة سياساتهم وتصرفاتهم مع التعهدات التي يحتويها هذا الاطار ·

عن حكومة جمهورية مصر العربية

انور السادات

عن حكومة اسرائيل

مناحيم بيغن

الشاهد : **جيمي كارتر** رئيس الولايات المتحدة الاميركية

الوثيقة الثانية :

اطار عمل من اجل عقد معاهدة سلام بين مصر واسرائيل

« توافق اسرائيل ومصر من اجل تحقيق السلام بينهما على التفاوض بحسن نية بهدف توقيع معاهدة سلام بينهما في غضون ثلاثة شهور من توقيع هذا الاطار ·

وقد تم الاتفاق على ان تتم المفاوضات تحت علم الامم المتحدة في موقع او مواقع يتفق عليها الجانبان ·

تطبق كل مبادىء قرار الامم المتحدة الرقم ٢٤٢ فيهذا الحل للنزاع بين مصر واسرائيل ·

ما لم يتفق الطرفان على غير ذلك يتم تنفيذ معاهدة سلام في فترة تراوح بين

سنتين او ثلاث سنوات من توقيع معاهدة السلام ٠

وقد وافق الطرفان على المسائل الاتية :

١ ـ الممارسة التامة للسيادة المصرية حتى الحدود المعترف بها دوليا بين مصر وفلسطين تحت الانتداب ٠

ب ـ انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من سيناء ٠

ج ـ استخدام المطارات التي يتركها الاسرائيليون قرب العريش ورفح ورأس النقب وشرم الشيخ للاغراض المدنية فقط بما فيها الاستخدام التجاري من قبل كل الدول ٠

د ـ حق المرور الحر للسفن الاسرائيلية في خليج السويس وقناة السويس على اساس معاهدة القسطنطينية للعام ١٨٨٨ والتي تنطبق على جميع الدول ٠ وتعتبر مضائق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية على ان تفتح امام كل الدول للملاحة والطيران من دون اعاقة او تعطيل ٠

هـ ـ انشاء طريق بين سيناء والاردن بالقرب من ايلات مع كفالة حرية المرور وسلامته من جانب مصر والاردن ٠

و ـ تمركز القوات العسكرية كما هو وارد ادناه ٠

تمركز القوات العسكرية كما يأتي :

١ ـ الا تتمركز اكثر من فرقة واحدة (ميكانيكية او مشاة) من القوات المسلحة المصرية داخل منطقة تبعد قرابة خمسين كيلو مترا شرق خليج السويس وقناة السويس ٠

ب ـ فقط تتمركز قوات الامم المتحدة والشرطة المدنية المسلحة بالاسلحة الخفيفة لاداء المهمات العادية للشرطة داخل المنطقة التي تقع غرب الحدود الدولية وخليج العقبة في مساحة يتراوح عرضها بين ٢٠ و ٤٠ كيلو مترا ٠

ج ـ ان توجد في المنطقة في حدود ٣ كيلو مترات شرق الحدود الدولية قوات اسرائيلية عسكرية محدودة لا تتعدى اربع كتائب مشاة ومراقبون من الامم المتحدة٠

د ـ تلحق وحدات دوريات حدود لا تتعدى ثلاث كتائب بالبوليس المدني في المحافظة على النظام في المنطقة التي لم تذكر انفا ٠

يكون التخطيط الدقيق للحدود السالفة الذكر وفقا لما يتقرر خلال مفاوضات السلام ٠

يجوز ان تقام محطات الانذار المبكر لضمان الامتثال لبنود الاتفاق ٠ سيتم تمركز قوات الامم المتحدة :

١ ـ في جزء من المنطقة في سيناء الواقعة على بعد ٢٠ كلم من البحر المتوسط وعلى خط موازٍ للحدود الدولية ٠

ب ـ في منطقة شرم الشيخ لتأمين حرية المرور في مضائق تيران ٠

ولا يتم ابعاد هذه القوات ما لم يوافق مجلس الامن التابع للامم المتحدة على مثل هذا الابعاد باجماع اصوات الاعضاء الخمسة الدائمين ٠

وبعد توقيع اتفاق سلام وبعد اتمام الانسحاب الموقت تقام علاقات طبيعية بين مصر واسرائيل تتضمن : الاعتراف الكامل بما في ذلك قيام علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية وانهاء المقاطعات الاقتصادية والحواجز امام حرية حركة السلع والاشخاص والحماية المتبادلة للمواطنين وفقا للقانون » ٠

الانسحاب المؤقت :

خلال فترة ٣ ـ ٩ اشهر التي تعقب

توقيع معاهدة السلام ، تنسحب جميع القوات الاسرائيلية شرق الخط الممتد من نقطة الى الشرق من العريش وحتى رأس محمد ، وسيتم الاتفاق على تحديد هذا الخط تماما ٠

عن حكومة جمهورية مصر العربية
السادات

عن حكومة اسرائيل
م٠ بيغن

الشاهد :

جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الاميركية ٠

الرسائل المرفقة باتفاقية كامب ديفيد
الرسالة الاولى
من بيغن الى كارتر

١٧ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد الرئيس

لي الشرف ان ابلغكم انه خلال اسبوعين من عودتي الى بلادي سأقدم توصية الى البرلمان الاسرائيلي (الكنيست) من اجل تقرير الموضوع الاتي :

اذا تم الاتفاق بين مصر واسرائيل على كل القضايا العالقة في اثناء المفاوضات لعقد معاهدة سلام ، « هل توافقون على انسحاب المستوطنين الاسرائيليين من شمال سيناء وجنوبها ام انكم توافقون على ابقاء المستوطنين المذكورين في هذه المناطق ؟ »

ان التصويت ، سيدي الرئيس على هذا الموضوع سيجري في حرية تامة من الارتباطات البرلمانية الحزبية مع العلم ان الائتلاف الحالي يدعمه الان ٧٠عضوا من اصل ١٢٠ وعلى ما اعتقد ان كل عضو في الكنيست ، سواء كان في صفوف الحكومة او في مقاعد المعارضة سيصوت على اساس ما يمليه عليه ضميره ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

التوقيع : مناحيم بيغن

ـ الرئيس ٠ كمب ديفيد ، فيرمونت ، ماريلاند ٠

الرسالة الثانية
من كارتر الى السادات

٢٢ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد الرئيس

انقل اليكم نسخة عن رسالة وجهها الي رئيس الوزراء بيغن يشرح فيها كيف ينوي عرض مسألة المستوطنات في سيناء على الكنيست لاتخاذ قرار لاحق في شأنها ٠

وفي هذا المجال افهم من رسالتكم ان موافقة الكنيست على انسحاب جميع المستوطنين من سيناء على اساس جدول زمني وضمن المهلة المحددة لتطبيق معاهدة سلام ، هي شرط سابق لاية مفاوضات حول معاهدة سلام بين مصر واسرائيل ٠

باخلاص

التوقيع : جيمي كارتر

طيه رسالة رئيس الوزراء بيغن

ـ فخامة انور السادات رئيس جمهورية مصر العربية ـ القاهرة ٠

الرسالة الثالثة

من السادات الى كارتر

١٧ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد الرئيس

في صدد « اطار العمل من اجل حل في سيناء » الذي سيوقع الليلة ، اريد ان

اؤكد موقف جمهورية مصر العربية في ما يتعلق بالمستوطنات :

١ ـ جميع المستوطنين الاسرائيليين يجب ان ينسحبوا من سيناء على اساس جدول زمني وخلال الفترة المحددة لتطبيق معاهدة السلام ٠

٢ ـ ان موافقة الحكومة الاسرائيلية ومؤسساتها الدستورية على هذا المبدأ الاساسي هو بالتالي شرط سابق لبدء مفاوضات السلام لعقد معاهدة سلام ٠٠

٣ ـ اذا لم تف اسرائيل بهذا الالتزام فان « اطار العمل » سيكون لاغيا ، وكأنه لم يكن ٠

باخلاص

التوقيع : محمد انور السادات

ـ فخامة جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة ٠

الرسالة الرابعة
من كارتر الى بيغن

٢٢ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد رئيس الوزراء

لقد تلقيت رسالتكم المؤرخة ١٧ ايلول ١٩٧٨ التي تشرح كيف تبغون عرض موضوع مستقبل المستوطنات الاسرائيلية في سيناء على الكنيست لاتخاذ قرار في شأنه ٠

طيه نسخة من رسالة الرئيس السادات حول هذا الموضوع ٠

باخلاص التوقيع : جيمي كارتر

طيه رسالة من الرئيس السادات

ـ دولة مناحيم بيغن رئيس الوزراء اسرائيل ٠

الرسالة الخامسة
من السادات الى كارتر

١٧ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد الرئيس

اكتب اليكم لاعيد تأكيد موقف جمهورية مصر العربية فيما يتعلق بالقدس :

١ ـ ان القدس العربية هي جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية ويجب اعادة الحقوق العربية التاريخية والشرعية على المدينة واحترامها ٠

٢ ـ ان القدس العربية يجب ان تكون تحت السيادة العربية ٠

٣ ـ ان لسكان القدس العربية الفلسطينيين الحق في ممارسة حقوقهم الوطنية المشروعة بصفة كونهم جزءا من الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية ٠

٤ ـ يجب تطبيق قرارات مجلس الامن الوثيقة الصلة ولا سيما القرارين ٢٤٢ و ٢٦٧ في ما يتعلق بالقدس ، وان كل التدابير التي اتخذتها اسرائيل لتبديل وضع المدينة هي لاغية وكأنها لم تكن ويجب ان تزال ٠

٥ ـ يجب ان يكون لجميع الشعوب حرية الوصول الى المدينة والتمتع بحرية ممارسة شعائرهم والحق في الزيارة وفي المجيء الى الاماكن المقدسة من دون اي تفرقة او تمييز ٠٠

٦ ـ ان الاماكن المقدسة لكل ديانة يمكن ان توضع تحت ادارة ممثليها وسلطتهم ٠

٧ ـ ان الوظائف الاساسية في المدينة يجب الا تقسم ويمكن مجلسا بلديا مشتركا مؤلفا من عدد متساو من الاعضاء العرب والاسرائيليين ان يشرف على تنفيذ هذه المهمات وبهذه الطريقة فان المدينة لن تكون مقسمة ٠

باخلاص التوقيع : محمد انور السادات

ـ فخامة جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة ٠

الرسالة السادسة
من بيغن الى كارتر

١٧ ايلول ١٩٧٨

سيدي الرئيس

لي الشرف ان ابلغكم سيدي الرئيس ، انه في ٢٨ حزيران ١٩٦٧ اعلن البرلمان الاسرائيلي (الكنيست) موافقته على قانون ينص على الاتي : « ان الحكومة مخولة بمرسوم ان تطبق القانون والتشريع والترتيبات الادارية للدولة على اي جزء من اريتز ـ اسرائيل »(ارض ـ اسرائيل ـ فلسطين) كما ورد في المرسوم ·

وعلى اساس هذا القانون اصدرت الحكومة الاسرائيلية مرسوما في تموز ١٩٦٧ ينص على ان القدس هي مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم وهي عاصمة دولة اسرائيل ·

باخلاص ـ التوقيع : مناحيم بيغن

ـ الى الرئيس ، كامب ديفيد ، فيرمونت ماريلاند ·

الرسالة السابعة
من كارتر الى السادات

٢٢ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد الرئيس

لقد تلقيت رسالتكم المؤرخة في ١٧ ايلول ١٩٧٨ والتي تعرضون فيها الموقف المصري من القدس · وانا سانقل نسخةعن الرسالة الى رئيس الوزراء بيغن للاطلاع ·

ان موقف الولايات المتحدة من القدس يبقى كما اعلنه السفير غولدبيرغ امام الجمعية العمومية للامم المتحدة في ١٤ تموز ١٩٦٧ وما تبعه من تصريح للسفير يوست امام مجلس الامن الدولي في تاريخ ١ تموز ١٩٦٩ ·

باخلاص التوقيع : جيمي كارتر
ـ فخامة انور السادات ، رئيس جمهورية مصر العربية القاهرة ·

الرسالة الثامنة
من السادات الى كارتر

١٧ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد الرئيس

في صدد « اطار العمل للسلام فيالشرق الاوسط » اكتب اليكم هذه الرسالةلابلغكم موقف جمهورية مصر العربية في ما يتعلق بتطبيق الحل الشامل ·

للتاكد من تطبيق البنود المتعلقةبالضفة الغربية وغزة ومن اجل صون الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ستكونمصر على استعداد للاضطلاع العربي المنبثق من هذه البنود بعد مشاورات مع الاردن وممثلي الشعب الفلسطيني ·

باخلاص التوقيع : محمد انور السادات

ـ فخامة جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة ، البيت الابيض ، واشنطن دي سي » ·

الرسالة التاسعة
من كارتر الى بيغن

٢٢ ايلول ١٩٧٨

عزيزي السيد رئيس الوزراء

ها انذا اذكر انك ابلغتني ما يأتي :

أ ـ في كل مقطع من وثيقة اطار العمل المتفق عليها ، ان عبارات « الفلسطينيون» او « الشعب الفلسطيني » تعني ، وهي مفهومة من قبلكم على انها عبارات « الفلسطينيون العرب » ·

ب ـ في اي مقطع ترد فيه عبارة

« الضفة الغربية » تفهم وستفهم من قبل الحكومة الاسرائيلية على انها «اليهودية والسامرة » ٠

باخلاص ـ التوقيع : جيمي كارتر

ـ دولة مناحيم بيغن رئيس وزراء اسرائيل ٠

ويذكر ان ثمة رسائل اخرى لم ينشرها البيت الابيض امس بسبب استمرار الخلاف حول تفسير مواضيعها بين الجانبين الاميركي والاسرائيلي ٠ وتتناول هذه الرسائل تجميد بناء المستوطنات في الضفة الغربية كذلك استعداد الولايات المتحدة لبناء مطارين حربيين لاسرائيل في صحراء النقب ٠

بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول اتفاقية كمب ديفيد

لقد تمخض اجتماع كامب ديفيد عن اتفاق يشكل اخطر حلقات المؤامرة المعادية منذ عام ١٩٤٨ وما سعى اليه الصهاينة والامبريالية الامريكية طوال ثلاثين عاما ، قدمه لهم السدات من خلال تسليمه بكامل شروطهم لتصفية القضية الفلسطينية والعربية ٠

ان منظمة التحرير الفلسطينية وبعد اجتماع طارىء دعت اليه اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وشارك فيه ممثلون عن سائر فصائل المقاومة تؤكد على ما يلي :

اولا : ان اتفاق كامب ديفيد يمثل استسلاما كاملا من جانب السادات لمشروع مناحيم بيغن الذي طرحه في خطاب الكنيست خلال زيارة السادات الخيانية ، وفي اجتماع الاسماعيلية وهو المشروع الذي يؤكد على اصرار العدو الصهيوني في تثبيت احتلاله للاراضي الفلسطينية والجولان واجزاء من سيناء والتفريط بالقدس التي مثلت على الدوام رمزا مقدسا لامتنا العربية وسائر المسلمين والمسيحيين في العالم ٠

ثانيا : ان الاتفاق بين تواطؤ السادات التام مع الاهداف الصهيونية في انكار الحقوق الوطنية الفلسطينية بكاملها ، وفي الاستعداد المشترك لضرب القضية الفلسطينية ارضا وشعبا وثورة تحت اشراف وتخطيط الامبريالية الامريكية ٠

ثالثا : ان هذا الاتفاق يمثل الخطوة الاخيرة في مسيرة الاستسلام لنظام السادات الذي يفرط الان بكرامة مصر وجزء من ترابها الوطني ويسمح بارتفاع علم العدو الصهيوني على ارضها الغالية٠ وتنكر لارواح شهداء شعب وجيش مصر الذين سقطوا في سبيل ان يرتفع العلم العربي في القدس وسيناء والجولان ٠ واننا نهيب بشعب مصر العظيم الذي لم يفرط يوما بكرامته الوطنية واستقلال الوطن وحقوق شعب فلسطين والحقوق العربية القومية أن ينتفض لكرامته الوطنية ويتصدى للمؤامرة التي تهدد مستقبل أمته ٠

رابعا : ان السادات من خلال هذا الاتفاق يحقق اهداف الامبريالية الاميركية القديمة والتي فشلت في تنفيذها

من مشاريع حلف بغداد وايزنهـــاور وعدوان عام ١٩٥٦ وعدوان عـام ١٩٦٧ ويعلن عن استعداده للدخول في حلـف مصري اسرائيلي امريكي من اجل اخضاع المنطقة بكاملها للهيمنة الامريكية وتصفية مواقع حركة التحرر والتقدم لامتنا وسائر الشعوب المناضلة في افريقيا والشـرق الاوسط عموما ·

خامسا : ونظام السادات بتوقيعه هذا الاتفـاق يكـرس الهـدف الامبريالـي الصهيوني المعروف في عزل مصر تماما عن النضال القومـي العربـي وضـرب كل المقررات العربية الصادرة عـن مؤتمرات القمة في الجزائـر والربـاط وقرارات مؤتمرات عدم الانحياز والـدول الافريقية والاسلامية والصديقة ·

سادسا : ان مشروع السادات للحكم الذاتي يكرس هدف العدو الصهيوني في تحويل الضفة الغربية وقطاع غزة الـى مستعمرة خاضعة للاحتلال بشكل دائم ، ويحاول ادخال الاردن كطرف في هـذا المخطط وكأداة قمع امنية في خدمة ديمومة هذا الاحتلال ضد شعبنا الفلسطيني ·

ومن الواضح ان اتفـاق كامب ديفيـد اظهر استسلام السادات لموقف العـدو الصهيوني بشأن القدس ورضوخه لمشروع ضمها بشكل كامل للعدو وليس الحديث عن تجميد بناء المستوطنات الجديدة الا مناورة خداعية هدفها تثبيت المستوطنات القديمة والسماح بتنفيذ مشروع بيغن في توسيع هذه المستوطنات وزيادة عـدد سكانها خلال السنوات الخمس القادمة تمهيدا لفرض الامر الواقع واستمـرار الاحتلال ·

سابعا : ان منظمة التحرير الفلسطينية تؤكد تصميم شعبنا على مجابهة هـذه المؤامرة واحباطها وان شعبنا الذي يقف الان موحدا تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي الوحيد يؤكـد مرة اخرى انه لا يمكن ان يساوم او ان يهادن اي مشروع تصفوي على غـرار الحكم الذاتي او اي مشروع اخر يستهدف حقه الثابـت والراسـخ فـي الاسـتقلال الوطني الكامل وفي العودة الى وطنـه وبناء دولته المستقلة · ان اربعة ملايين فلسطيني ومعهم كل القوى الوطنيـة والشريفة العربية لا يمكن آن يقبلـوا ان يتقرر مصير الشعب الفلسطيني وقضيـة الامة العربية في اطار خيانة كامب ديفيد ولا يمكن للسادات وحلفائه ان يفرضـوا ارادتهم على شعبنا العظيم وامتنـا الباسلة ·

ان منظمة التحرير الفلسطينية اذ تعلن رفضهـا الكامـل لنتائـج واتفاقات كامب ديفيد تدعو جماهير شعبنا الفلسطيني الى اعلان غضبها وتصديهـا الحـازم لهـذه المؤامرة · اننا ندعو شعبنا داخل الارض المحتلة وفي سائر مناطق الشتات الـى الاضراب والتفافه حول ثورته ، والـى تنظيم المسيرات والمظاهرات الشعبية ضد المؤامرة ودعاتها والقوى المتواطئة معها·

والثورة الفلسطينية تحذر كل الاصوات المشبوهة التي تحاول ان تجد لنفسهـا مكانا ضمن مؤامرة الحكم الذاتي وتعلن عن تأييدها لمؤامرة كامب ديفيد بأنها سوف تواجه ارادة شعبنا وقصاصة العادل ·

ان القوى والانظمة الوطنية العربيـة مدعوة في هذا الظرف الخطير الى انتهاج سياسة جادة وحازمة في مواجهة المؤامرة وهو الامر الذي لا يتحقق الا من خـلال وضع الطاقات العسكرية والاقتصاديـة والسياسية وامكانات الجماهير العربيـة بشكل منسق وموحد لحماية حركة التحرر العربية من المخطط الذي يرسمه هـذا التحالف المعادي لضربها وتصفيتهـا · وتؤكد ان جبهة الصمود والتصدي فـي مؤتمرها القادم تتحمل المسؤولية الكبرى في هذا المجال وتقف امام الامتحـان

الجدي في نظر الجماهير الفلسطينيـــة والعربية ٠

ان الثورة الفلسطينية تنبه الى اخطار المخطط الصهيوني الانعزالي داخل لبـنان الذي سيحاول استغلال نتائج الاتفـــاق التصفوي في كامب ديفيد من اجل تصعيد عدوانه ضد القوى الوطنية اللبنانيـــة والثورة الفلسطينية وسوريا وهو الامـر الذي يتطلب اكثر من اي وقت مضـــى التشديد على وحدة وتكاتف كل الاطـراف المعادية لهذا المشروع وعلى وضع كـــل الطاقات بشكل منسق ومتكامل بما يمكن شعب لبنان من هزيمة المخطط الـــذي يستهدف مصيره ومصير وطنه كاملا ٠

ان المرحلة القادمة تحمل اخطارا بالغة على مستقبل كل منطقتنا وشعوبها وحركة التحرر فيها ٠٠ والثورة الفلسطينية التي تحملت مسؤوليتها بشرف وبسالة تدعو في هذه اللحظات الى ان تنهض كل القـوى الحريصة على مستقبل هذه الامة وكرامتها القومية والتصدي لمؤامرة اســـتباحة ترابها ومقدساتها والمجابهة التـــي لا تتوقف حتى دحر المخطـــط الامريكـــي الصهيوني الساداتي بكامله ٠